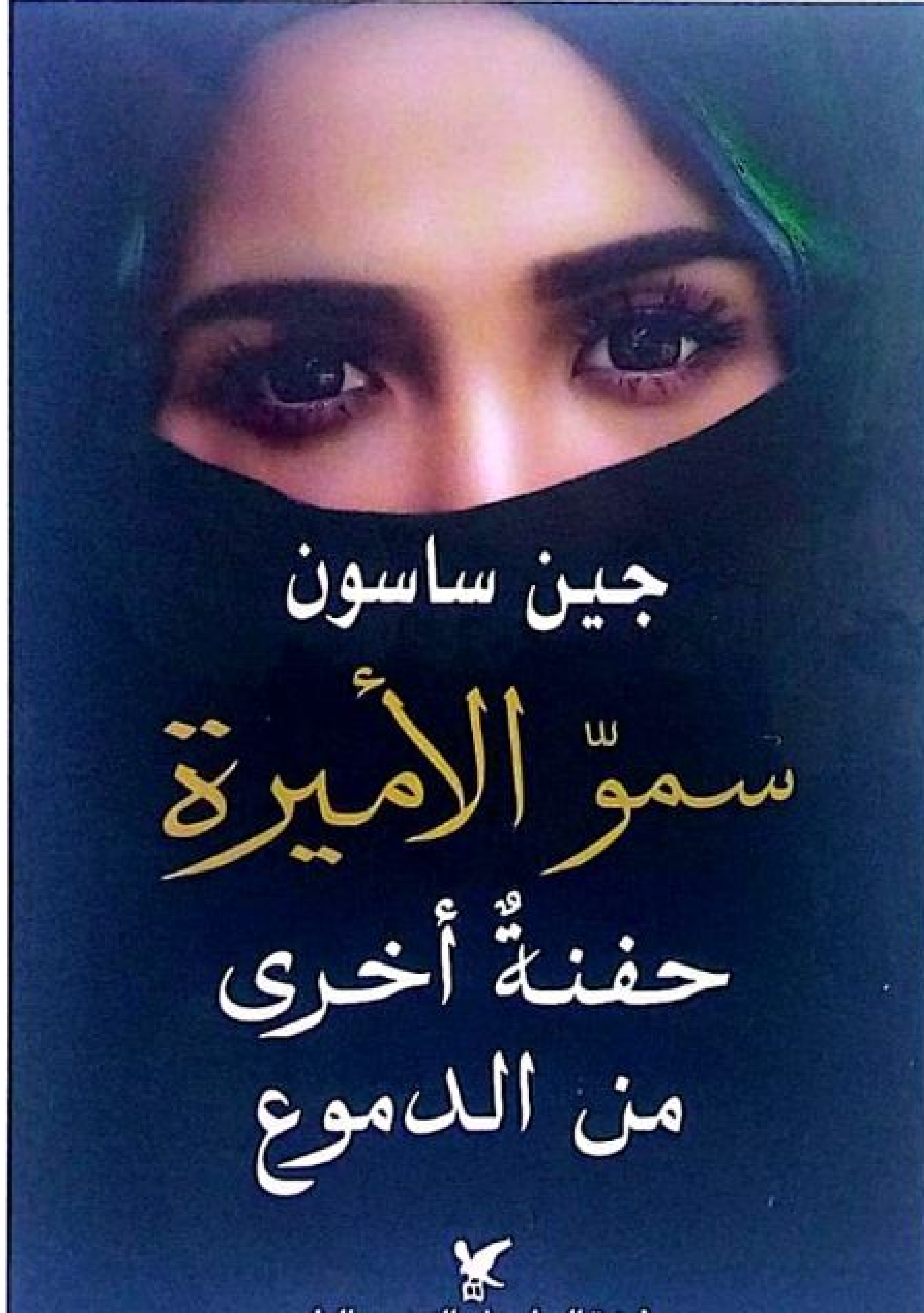

جين ساسون
سموّ الأميرة
حفنةٌ أخرى
من الدموع

جين ساسون

سموّ الأميرة

حفنةٌ أخرى من الدموع

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

هذا الكتاب مهدى إلى فتاة صغيرة اسمها أمل،

فتاة صغيرة جدًا، لم تعرف سوى الخوف والرعب

على يدي والدها السعودي المتوحش،

الذي اغتصبها، وهي في الخامسة، حتى الموت.

وكانت الصدمة الكبرى، ادّعاءه أنه رجل دين.

لا سمح الله أن تتعرّض أي فتاة صغيرة لمثل هذه الميتة الشنيعة.

تنويه

كلّ ما كُتب هنا من روايات واقعي.

كان بعضها مفرحاً وبعضها الآخر محزناً،

لكن، كلّها حقيقية.

جرى تغيير أسماء الأشخاص الذين يتحدّث عنهم هذا الكتاب

لحمايتهم

وحماية عائلاتهم من الأذى،

واحتراماً منّا لمشاعر الذين قد يشعرون بالإهانة لنشر قصصهم

الحقيقية على الملأ.

جين ساسون وسمو الأميرة سلطانة آل سعود

خريطة المملكة العربية السعودية



مقدّمة بقلم الأميرة
سلطانة آل سعود

أنا أميرة لن يسعها أن تصبح ملكة. فوحدهم الرجال في بلادي يتمتعون بالحريّة التامة، والهواء أيضاً. ولن ترقى امرأة، في ظل الظروف الراهنة، إلى المنصب الأعلى في نظامنا الملكي السعودي.

مرّ أكثر من عشرين عاماً على كشفي للمرّة الأولى عن الأسرار الغامضة لبلادي في كتاب سمق الأميرة: «الحرام: مغامرات حقيقية لأميرة سعودية خلف الحجاب». وها أنا قد عدت لأخبركم المزيد. وأقول لمن سبق لهم أن قرأوا عن حياتي، إن هذا الكتاب سينتقل بكم إلى أيامنا هذه. وأما الذين لم يقرأوا حلقاتي الثلاث الأولى، فأقول لهم: أرجوكم أن تسمحوا لي أن أعرّفكم بقصتي وأن أزوّدكم بالمعلومات عن قدَر النساء المولودات في السعودية.

سأخبركم عن طبيعة حياة الكثيرات من نساء السعودية سنة 2014 ميلادية، 1435 هجرية.

يجوز للرجال اتخاذ أربع زوجات وعددٍ لا يحصى من المحظيّات. وكانت والدتي أولى زوجات والدي، لكنها لم تلد إلا ابناً واحداً، وإنجاب الأبناء هو المقياس الأساسي لاحترام المرأة ومكانتها في بلادي. وسرعان ما تزوّج والدي نساء أخريات، ما تسبب بحزنٍ دائمٍ لوالدتي.

أنا أصغر أولاد أمي الأحد عشر المؤلفين من ابن واحد وعشر بنات. كما أنني أميرة من السلالة الملكية، وقيل لي تكراراً إنني طفلة ذات حظوة. لكنّ ذلك ليس واقعياً؛ لأنني عندما تمكّنت من الإحاطة التامة بحياتنا، أدركت أن مكانتي، في الحقيقة، وضيعة جداً. عشت في قصور فخمة محاطة بالجمال والثروة. لكن هذه البهرجات الملكية لم تعنِ الكثير، لأنني لم أنشد وأنا طفلة أكثر من محبة والديّ. وقد أحبّتني أمي من كل قلبها، في حين لم يعطِ والدي أي قيمة للإناث، وبخاصة لطفلة على قدر كبير من العناد والجرأة حين أصبحَتْ قادرة على التعبير عن أفكاري. وعرفت أن والدي يحتفظ في داخله بقدر كبير من المحبة، لأنه كان يمتلك وفرة من العاطفة لشقيقي عليّ. غير أنني، وبالرغم من رغبتي الجامحة في كسب محبة والدي، لم أتمكن قط من تحقيق هذا الهدف.

لم يقنع عليٌّ قط، بالرغم من أن قصرنا كان يعجّ بالخدم المكرّسين لتحقيق كل أمنياته. وطُلب من جميع المقيمين في القصر تلبية جميع رغباته، بمن فيهم والدته وشقيقاته. إلا أنني لم أنفّذ ما كان يأمر به. فأنا صغرى البنات وقصيرة القامة قياساً على عمري. وكطفلة، دلّلتني شقيقاتي التسع وأمي كثيراً، وعاملنني كدمية

يلبسنها الفساتين المزخرفة. وهكذا لم يكن عليٌّ طفل المنزل الوحيد المدلّل. وارتحت، وقد شعرت بنفسي مساوية لأخي، في مضايقته يوميّاً بعصياني الشديد.

لكن، جاء اليوم الذي أدركت فيه للمرة الأولى أنني لا أُعتبر، خارج محيطي العائلي، ذلك الكنز الصغير الذي ظننته. ولا تزال إحدى الذكريات تصيبني بالحزن، بالرغم من مرور أعوام كثيرة عليها. وهي اليوم الذي أدركت فيه للمرة الأولى أن والدي لم يحبني كما أحب ابنه. واتضح لي في ذلك اليوم أن شقيقي سيتحكّم بي، إلى أن أكبر بما يكفي لأفوقه دهاء.

وقعت الحادثة عندما رفضت أن أعطي عليّاً تفاحتي. وعمدت، بدلاً من النزول عند رغبته، إلى التهام التفاحة بأسرع ما يمكن، ما دفع بأخي إلى الاحتراق غيظاً. وعندما سمح الحنق لعليّ بالحديث، نادى عُمَرَ، سائقنا المصري الذي لا يتلقى الأوامر إلا من والدنا. وفجأة رفعتني يدا عمر الضخمتان في الهواء، ووضعني في مواجهة والدي العابس الذي حدّق إليّ بسخط واضح. فقد تجرّأت، أنا مجرّد الأنثى، على رفض رغبة أخي، الذكر الذي وُلد ليحكُم. واضطررت في ذلك اليوم أن أدفع ثمناً كبيراً، لا لشيء، إلا لأنني أكلت تفاحتي. صفعني والدي على وجهي ليبلّغ عُمَرَ من بعدها أن عليّاً سيدي وأن كلّ لُعبي ستعطى لعليّ الذي لديه سلطة تقرير ما أستطيع فعله وما لا أستطيع، بما في ذلك تناول وجباتي اليومية. وكم شمِت عليّ بي! وعذّبني على مدى أسابيع، إلى أن انشغل عني بأمور أخرى.

بتنا، أنا وعليّ، منذ ذلك اليوم فصاعداً عدوّين لدودين. تفوّق عليّ وأنا صغيرة جداً، إلا أنني اكتشفت، مع تقدّمي في السن، أنه ليس فطناً بقدر أخته الصغرى، ويقع في شرك أي خدعة. وسرعان ما تفوّقت عليه دهاءً، ولم يتغيّر ذلك قط. وما زلت عاجزة عن كبح الحافز على خداعه في قضايا سخيفة ومسائل تافهة تسبّب له الإحراج لافتقاره إلى روح الدعابة؛ فهو، وقد أصبح رجلاً، لا يزال على القدر نفسه من الغطرسة والتكبّر اللذين كان عليهما في صغره.

كانت أكثر اللحظات حزناً، عندما فارقت والدتي الحياة. وقد توفيت مبكراً، تاركة ابنتها الصغرى المحطّمة بلا أم. تولّت شقيقاتي الكبريات رعايتي، وقد قطعن الوعد لأمي، وهي على فراش الموت، بأنهن سيسهرن على سلطانتها الصغيرة. قالت أمي إنها تخشى عليّ من المستقبل، لأن السعودية بلدٌ لا يتقبّل الإناث الجريئات.

وكانت محقة في قلقها. فكل شيء تلك الأيام كان بالغ الصعوبة على النساء. وبالرغم من أن فورة الثروة النفطية قد حملت الحداثة إلى مملكتنا الصحراوية، فإن نمط حياتنا ظلّ كما كان في القرن التاسع عشر، عندما تعلّق الأمر بحرية النساء. وازدادت القيود

الاجتماعية والقانونية على النساء. بقيت كثيرات منهن خلف الستارة معزولات في بيوتهن، يعشن في كنف الوصيّ، وهو رجل من أفراد العائلة مهمته تنظيم السلوك في كل مناسبة من حياة المرأة. قلّة من البنات التحقن بالمدارس، وهنّ ممن تحدّرن فقط من عائلات ثرية. واقتصرت دراستهن على حقول محدودة من التعليم. وكانت كل البنات يتحجّبن عند سن البلوغ، بل إن الكثيرات تزوجن في سن البلوغ أو بُعَيد ذلك ممن أملت عليهن عائلاتهن الزواج منهم. واقترن معظمهن بابن العم من الدرجة الأولى أو من الدرجة الثانية، وهو تقليد ثقافي أدى إلى تعرّض مواليد هذه الزيجات لكثير من المشكلات الصحية الوراثية. والنسوة كنّ ممنوعات من قيادة السيارات. ولا يسمح الأهل للبنات، لدى تخرجهن في المدرسة، بالعمل حتى عندما تتوافر الوظائف المناسبة. والحقيقة هي أن كل ما يمتّ إلى الحياة الطبيعية بقي بمنأى عن النساء. وحَكَم الرجال بالخوف، لكنهم خافوا هم أيضاً مما قد يحدث إذا ألمحت النساء إلى أي قدر من الاستقلالية الشخصية. فأي سلوك بريء يصدر عن فتاة تعاقَب عليه بقسوة. وقد تجد حياتها مهدَّدة إذا تحدثت إلى شاب من خارج عائلتها. وقد اختبرتُ ذلك شخصيّاً، بعد أن قُتلت صديقة عزيزة على قلبي بأمر من والدها، لأنها تجرّأت على لقاء رجال أجانب. فقد أُغرقت في حوض سباحة منزلها، وهي الطريقة المفضّلة في تلك الأيام التي كان الآباء يقتلون فيها بناتهم العاصيات. وتلقّى الأب التهنئة من الجميع على فعلته الشنيعة. وزُوّجت صديقة أخرى لي برجل عجوز عقاباً لها على التمرّد الشبابي نفسه.

وظهرت أولى علامات التغيير المقبل في السعودية، حين كنت أنتقل من الطفولة إلى سنوات المراهقة. فأنا أول فتاة في العائلة سُمِح لها بمقابلة زوجها قبل الزفاف. وشكّلت مناسبة لقائنا انتصاراً مذهلاً، بالرغم من أنها قد حدثت بإشراف مباشر من عائلتينا. وربّما شكّل ذلك مؤشراً على تغييرات إيجابية، حيث التحق في تلك الفترة نفسها المزيد من الفتيات بالمدارس، وهو قرار ذكي اتخذه رجال عائلتي الملكية. ولم يكن مفاجئاً أن يشنّ الكثير من رجال المملكة حملة شرسة ضد تعزيز تعليم النساء. وهذه الحملة قادها رجال الدين والمتدينون المتشددون. وقد طالب هؤلاء الرجال بالإبقاء على الفتيات في عصور الظلام. وفجأة لم تعد الشمس المصدر الوحيد لحَرّ الصحراء السعودية، بل واكبها في ذلك صراع الأفكار الحامي المنبثق من وجهات النظر المتعارضة حول حياة النساء.

وأنا مسرورة لأنني كنت إحدى الشرارات التي أشعلت تلك النار.

بات التعليم هو الحافز لطموحات النساء. ومع التربية، أخذت الأفكار الجديدة تحفّز عقلية النساء. ولاحظتُ أنه كلما أصبحت النساء السعوديات أكثر علماً، أصبح الرجال السعوديون أكثر تنوّراً حيال مساهمة النساء المتعلّمات في الحياة السعودية، الخاصة منها

والعامة. فالتربية تفيدنا جميعاً. وعندما تمتلك النساء صوتاً يستطيع رجالهن سماعه، يحاربن بجسارة في سبيل بناتهن. وجرى التغيير بالتدريج المؤلم. لكنه حين بدأ، أخذ يتحرّك بثبات في الاتجاه الصحيح.

أصبحتُ، في سنوات الكفاح هذه، أمّاً لثلاثة أولاد هم صبي وبنتان. وحين صرت أماً لبنتين جاهدت أكثر في سبيل القضايا الإنسانية التي أثّرت في أولاد جميع المواطنين السعوديين. وأعتقد بأنه إذا كانت بناتنا بائسات، فسيشعر أبناؤنا أيضاً بالبؤس في حياتهم. فالمكاسب الاجتماعية والثقافية الجديدة للنساء تعود بالفائدة على رجال السعودية ونسائها على حدّ سواء.

أقدمتُ منذ اثنين وعشرين عاماً على خطوة خطيرة، وتعاونت مع صديقتي الكاتبة الأميركية جين ساسون على كشف قصتي، وقصص نساء أخريات في بلادي، للعالم. وأعقب ذلك نشر كتابين آخرين. وهي المرّة الأولى التي تجرؤ فيها أنثى من العائلة المالكة على التعبير عن رأيها الحر، لتنبيه العالم إلى واقع أن أميرة قد حُرمت من حريتها الشخصية. وقمتُ، من خلال نشري هذه الكتب، بخطوة جريئة بدّلت حياتي وحياة الكثيرات من النساء. واحتلت قصتي قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في دول كثيرة. وعلمت أن كفاحي المتوقّد ضد التمييز، عنى الكثير لنساء من كل القوميات والديانات تقريباً. وعلمتُ أن آلاف الشابات قد انخرطن في المعركة، مستوحيات من قصة حياتي. أسعدني ذلك بالرغم من أن جُرأتي تسبّبت لي بالكثير من المعاناة، وأربكت شقيقاتي، واستفزّت زوجي، وأثارت سخط والدي وشقيقي. ولا أندم على شيء، لأنني امرأة يستحيل إسكاتها بالاستئساد عليها. وأقف فخورة بأن الكتب الثلاثة التي وُضعت عن حياتي كشفت إيجابيات وسلبيات شعبي ووطني اللذين أكن لهما كل المحبة.

أؤمن بالحوار المفتوح، وأعرف أننا لا نستطيع أن نتقدم من دون الوعي، ومن دون حق كل واحد منّا في العيش الكريم. لكن عليّ، وأنا أنطق هذه الكلمات، أن أعترف بحقيقة مؤلمة: لا يزال يتوجب علينا مواجهة الكثير من التحديات، بالرغم من بعض التغيير الطارئ على شعبنا وبلدنا.

فماذا تحقّق من إصلاحات في مجالات «الجندر» (مكانة الرجل والمرأة في المجتمع) في السعودية، منذ الفترة التي كنت فيها شابة قوية الإرادة، حاربتُ بجُرأة المحاباة العمياء للذكور والإجحاف بحق الإناث؟ الجواب معقّد.

حققت النساء السعوديات تقدُّماً معلياً، وبخاصة في مجال التعليم. وتقرّ سفارة بلادي في واشنطن بأن نظام التعليم في السعودية خضع لتحوّل مدهش، موفّراً التعليم لجميع السعوديين الذين يختارون

الذهاب إلى المدرسة.

يشير هذا الأمر إلى أن الرجال في عائلتي وضعوا نصب أعينهم هدفاً أساسياً يتمثل في توفير التعليم لكل مواطن سعودي. ولن يغيّر أي شيء وجه بلادي، وكذلك الرجال والنساء المقيمين فيها اليوم، أكثر من تحصيل العلم. وأنا، على غرار الأفراد الآخرين في العائلة المالكة، خصصتُ مؤسستي الخيرية المفضلة للتربية، وأنفقت مبالغ كبيرة من المال للمساهمة في تعليم فتياتنا، إضافة إلى الفتيات المسلمات في البلدان الإسلامية الأخرى. والمواطنات الوحيدات اللواتي لا يتلقّين التعليم في السعودية هن بنات أهلهن أمّيون. ولا تتدخل الحكومة عندما يقرّر والد ما عدم تعليم بناته. وآمل في أن يتغيّر هذا الأمر في السنوات المقبلة.

وهناك عوامل أخرى، مثل السفر والإنترنت (المرتبطين بالتربية)، تجعل من السعودية مكاناً يختلف كثيراً عن المملكة الصحراوية التي عرفتها في صغري. يتمتع كثير من المواطنين السعوديين بالاستقلال المالي. ومع توفّر المال، تجوب أعداد كبرى من السعوديين العالم. فقد فتح السفر أذهانهم على عوالم أخرى تتمتع فيها النساء بحق العيش بحرّية.

ورفع الاتصال بالإنترنت من وتيرة التغيير. فمعظم الشبان السعوديين يمتلكون «الكومبيوتر» و«الآيباد» وسواهما من الأجهزة الإلكترونية التي تعزّز الوعي، من خلال تلقي أخبار الكثير من البلدان الأخرى. ويدرك الشبان في السعودية، من خلال التربية والسفر واستخدام الإنترنت، أن بلادهم وحرياتهم الشخصية عرضة للخطر الذي يمثّله الرجال الراغبون في الإبقاء على عبودية النساء.

ولا بدّ لي من أن أعترف، بالرغم من هذه النقاط الإيجابية، أن النتائج جاءت متفاوتة ومتقلّبة بعد مرور أعوام من الجهد لإحداث التغيير في حياة النساء في السعودية. ولم توضع أي قواعد واضحة في الأمور التي تتعلق بالنساء. ولا تزال القرارات المتعلقة بسلوكهن في أيدي الرجال المتحكمين بالعائلة. وإذا تمتع الرجال في عائلة المرأة بالثقافة والإنصاف، امتلكت النساء فرصةً للسعادة. لكن إذا كانوا غير متعلمين وقساة، فستعاني النساء جرّاء الجهالة الذكورية.

تميّزت الحياة، عندما كنت صغيرة، بالقسوة الروتينية على معظم نساء السعودية. أما الآن، وقد غدوت راشدة، فقد أصبحت بعض النسوة ينعمن بالفائدة من التغيير. بيد أن نوعية حياة المرأة في السعودية لا تزال تعتمد على الذكور الذين يملكون سلطة رفض الحرية.

إليكم، يا أصدقائي، ماهية حياة النساء السعوديات في القرن الحادي والعشرين:

- أعيش في بلاد أعرف فيها امرأة تخرّجت الأولى في صفها وباتت طبيبة محترمة.

- أعيش في بلاد سمعت فيها عن طفلة صغيرة حُرمت والدتها من حضانتها بعد الطلاق، بالرغم من أنها كانت لا تزال رضيعة. وقد عمد والدها، رجل الدين المسلم، إلى اغتصابها حتى الموت.

- أعيش في بلاد أعرف فيها امرأة تدير بنجاح أعمالها الخاصة وتثير حسد منافسيها الذكور في مجال الأعمال نفسها.

- أعيش في بلاد حكم فيها رجل دين باستمرار زواج فتاة في العاشرة من العمر من رجل في الخامسة والثلاثين، بالرغم من تعرّضها للعنف الجنسي اليومي. وقضى رجل الدين بأن من غير الجائز حرمان أي شابة من فرصة الزواج.

- أعيش في بلاد تحصّل فيها معظم الفتيات العلم، ويأخذن تعليمهن على محمل الجد.

- أعيش في بلاد تشكّل فيها الإناث 15% من القوة العاملة، لأن معظم الآباء أو الأزواج يصرّون على أن مكان المرأة الوحيد هو المنزل، حتى ولو حصّلت التعليم العالي، ورغبت في العمل.

- أعيش في بلاد لم يكن يُسمح فيها للنساء بقيادة السيارة.

- أعيش في بلاد قضى فيها رجال الدين بجَلْد امرأة لتجرّؤها على إيصال ابنها الصغير بالسيارة إلى المدرسة.

- أعيش في بلاد لا يزال يتوجّب على المرأة فيها الحصول على إذن ولي أمرها الذكر للعمل أو للسفر، وحيث لا يزال تمرّد الأنثى يكلّفها حياتها.

- أعيش في بلاد يتحدى فيها عدد من النساء الرجال الذين يتحكّمون بهنّ، ومع ذلك لم يطالب الرجال في عائلاتهن بموتهن.

- أعيش في بلاد تطيع فيها معظم الإناث أمهاتهن أو آباءهن في ما يتعلّق باختيار الزوج. وبالرغم من القول إن للمرأة الحق في الرفض، فإن قلّة منهن يفعلن ذلك، لأنهن يعتبرن أن مثل هذا العصيان يجلب العار على أهاليهن.

- أعيش في بلاد تستطيع النساء فيها بلوغ مراتب عالية في

حياتهن المهنية، وتعيش فيها نساء كثيرات حياة زوجية سعيدة.

- أعيش في بلاد حياة نساء كثيرات فيها بائسة، وهن محتجزات في منازلهن، عاجزات عن اتخاذ القرارات الشخصية البسيطة، مثل الحق في حضانة أولادهن الصغار، أو ترك أزواجهن بسبب المعاناة الشخصية، أو المعاملة الوحشية.

- أعيش في بلاد يمتلك فيها الرجل حرّية إساءة المعاملة العاطفية لنساء عائلته، أو ضربهن، أو قتلهن، من دون أن يواجه الإدانة العامة أو العقوبة القانونية.

- أعيش في بلاد يغضب فيها معظم الرجال والنساء من مثل هذا التصرّف.

- أعيش في بلاد يحكمها ملك دخل سن البلوغ في زمن لم يكن فيه لمشاعر النساء وحقوقهن أي اعتبار. لكن هذا العاهل، الملك عبدالله، أعطى الأولوية لقضية النساء.

نحن بحاجة ملحة إلى إصلاحات لاستحالة توقّع أي شيء عندما يتعلّق الأمر بحياة النساء في السعودية. ولهذا فإننا ندفع الآن في اتجاه ذلك النوع من التغيير الذي يحتاج إلى ضمانات. نحتاج إلى جعل سوء معاملة الرجل لأي امرأة أمراً غير قانوني. كما يجب أن ندفع في اتجاه التغيير الذي يمنح الأنثى البالغة الحق في اتخاذ قراراتها الشخصية.

من حسن الحظ أنني لم أعد وحدي في سعيي إلى إحداث التغيير في بلادي. فهناك نساء سعوديات كثيرات يدفعن في اتجاه التغيير الإيجابي. ويعرف أفراد عائلتي بعضاً من هؤلاء النساء. وأعتقد أن العالم يريد الاستماع إلى رواياتهن الاستثنائية. ولهذا السبب، سأعمد إلى المغامرة مرّة أخرى بالخروج من منطقة أماني لأخبر العالم بالحقيقة عن السعودية. أودّ أن أطلعكم على كل ما يجري في بلادي.

سأكشف في هذا الكتاب عن التغييرات الطارئة على حياتي الشخصية. وثمة الكثير مما يروى عن أفراد عائلتي، وحياة أولادي وأحفادي، وشقيقاتي وبناتهن وأبنائهن. وهناك أيضاً روايات مدهشة جديدة عن شقيقي عليّ صاحب الشخصية المزعجة. والدي لا يزال على قيد الحياة، لكنه بات كهلاً عاجزاً. ومن سوء الحظ أنه لا يزال يعتقد أن على الذكور السيطرة، وعلى النساء الرضوخ والطاعة.

ليس هناك ما هو أهم من الاطلاع على حياة النساء الشجاعات. وأعتقد أن القراء يريدون معرفة ما يحدث للنساء السعوديات العاديات اللواتي لا يمتلكن الفرص التي توفّرها الثروة. وتواجه هؤلاء النساء

تحديات عدة غريبة عن نساء العائلة المالكة، وهو ما يدفعني إلى أن أكنّ لهنّ أقصى درجات الاحترام.

اخترت عشر نساء من كثيرات لديهن قصة يجب أن تُروى. والنساء السعوديات اللواتي ستتعرفون إليهن في الصفحات التالية حقيقيات، نسوة شجاعات يقمن بشق طريق ستفتح عالماً جديداً لجميع من هم في السعودية.

مرّت سنوات حياتي سريعاً، إلا أن التغيير الإيجابي في حياة نساء بلادي يتقدم ببطء شديد جداً. لكنني أشكر الله على أنني عشت لأرى اليوم الذي أصبحت فيه نساءٌ سعوديات كثيرات يمتلكن فرصة تحقيق أحلامهن. كما أنني أشكر الله على أنني في الموقف الفريد الذي يسمح لي بإخباركم عن أولئك النساء الاستثنائيات.

وفي غضون ذلك، تكافح نساء السعودية، سواء من العائلة المالكة أو من سواها، في مواجهة ألفي عام من التاريخ. يتمثّل أملنا الوحيد في الكفاح معاً. ونحن نسعى إلى الحصول على مساعدتكم. ليأخذ الله بأيديكم وبأيدينا. وإذا اجتمعت النساء ببركة من الله فقد يأتي يوم تصبح فيه للسعودية ملكة.

مع أمنياتي القلبية لجميع من يهتمون بأمري،

وبأمر النساء الأخريات في السعودية،

الأميرة سلطانة آل سعود

الفصل الأول
حبّاً بالابنتين

«لا بد أن الموت قد حلّ!». صاحت إحدى الخادمات الإندونيسيات من مطبخ الخدم، وهي منقطعة النفس..

تجمّدت في مكاني وأنا أستمع إلى أصوات نسائية تتردد من غرفة الجلوس الرئيسية. وارتعدت عندما أدركتُ أن هذه الأصوات العالية هي أصوات ابنتيّ، مها وأماني. وأسرعت للعثور عليهما.

ما الأمر الذي تتقاتل من أجله ابنتاي الآن؟

ابنتي الكبرى مها، لا تعود إلى السعودية إلا في زيارات سنوية. وبالرغم من أنني أنا وكريم نزورها تكراراً، فإن أماني لم ترَ شقيقتها منذ أكثر من سنة. ولكن، حتى بعد طول غياب واحدتهما عن الأخرى، تأخذهما الحماسة على الفور، فيستعرّ السجال بينهما منذ لحظة عودة مها، وتختلفان على كل مظهر تقريباً من مظاهر حياة النساء في السعودية، وهو أمر دأبتا عليه منذ سنوات المراهقة.

لم يتطلب مني الأمر سوى لحظة لأدرك أن نزاعهما الراهن يدور حول افتقار النساء السعوديات إلى الحق في قيادة السيارة، وهو موضوع يثير الكثير من النقاشات الساخنة في بلادي وفي الخارج.

وقالت مها لشقيقتها بصوت ملؤه الازدراء: «عليك يا أماني أن تنضمي إلى الاحتجاجات وتقودي! وإلا لن تستطيعي، يا شقيقتي الصغيرة، الوصول إلّا إلى حيث يمكن أن توصلك قدماك، ولا خطوة أكثر!».

بادلت أماني شقيقتها النظرة الحانقة نفسها، لكنها لم تقل شيئاً.

ردت مها مذكّرة أماني بأن النساء السعوديات لسن جميعهن ثريات. «أنتِ أنانية يا شقيقتي. تعرفين أن لدى قلّة قليلة جدّاً من النساء السعوديات سائقين. فما الذي تفعله تلك النساء عندما يحتجن إلى الانتقال إلى الجامعة أو التسوّق؟ كيف يبلغن وجهتهن؟ وإذا لم يتوفّر السائق، أو لم يمتلكن ما يكفي من الشجاعة لاستخدام الباص أو التاكسي، فسيضطررن إلى المشي للوصول إلى حيث يردن!».

أدركتُ، لمعرفتي ابنتيّ، أن الاتهامات الغاضبة ستتصاعد، وأصبتُ في ذلك.

لم يكن لديّ الكثير من الوقت للتفكير، قبل أن تندفع أماني، صغرى أولادي وثانية ابنتيّ، غاضبة، كغزالة الصحراء، في اتجاه شقيقتها الكبرى. ولولا وجودي في المكان لتبادلت ابنتاي الراشدتان اللكمات، وربما تصارعتا على الأرض، كما سبق أن فعلتا وهما صغيرتان.

أمسكت بمها من عضدها، وسحبتها بكلّ ما أوتيت من قوة. ارتمت عليّ فيما تعثّرت أماني واصطدمت بزوجي، الذي دخل إلى غرفة الجلوس لمعرفة سبب انفجار الصراخ النسائي هذا.

وزوجي الحبيب واحد من أكثر الآباء العرب معاناة. فقد أعلن قبل زيارة مها أنه لن يتسامح بعد الآن إزاء تصرّف مها وأماني كالأولاد. فكل منهما في النهاية امرأة ناضجة. وأماني متزوجة وأمّ، فيما تعيش مها كراشدة عزباء في إحدى كبريات مدن أوروبا، وتعمل مديرة في واحدة من شركات والدها، وتتمتع بحياة اجتماعية طبيعية مع أصدقائها. وأثبتت مها، مراراً وتكراراً، قدرتها على معالجة أكثر الأوضاع التي تواجه البالغين تعقيداً، بسهولة.

نظر إليّ كريم خلسة، وهو غير مصدّق، قبل أن يرفع صوته أعلى من الاحتجاج المتفجّر لأماني وزعيق مها. وقال بصوت آمر «عليكما التوقّف عن ذلك! الآن!».

تتجاهل ابنتاي في الغالب طلباتي، لكنهما نادراً ما تمتنعان عن تلبية أوامر والدهما. ووجدت نفسي أمام معجزة، إذ توقفتا على الفور عن صراخهما وإهاناتهما.

دخلت في تلك اللحظة شقيقتي سارة إلى الغرفة بهدوء، وقد وصلت مبكرة إلى الحفلة التي تعدّها العائلة ترحيباً بزيارة مها. وكانت تعابير سارة كالعادة جاذبة في هدوئها، إلا أن عينيها السوداوين الكبيرتين اتسعتا عندما لاحظت مشهدنا الغريب.

افترّ ثغرُ سارة عن ابتسامة. «يا ابنتَيْ شقيقتي العزيزتين، ألايزال القتال يستهويكما حتى بعد الكسور في العظمين والسن؟».

استذكرت سارة أكثر معارك ابنتينا عنفاً، التي اندلعت بعد أن تحامقت أماني، وهي في التاسعة من عمرها، بوضع سلك عبر الرواق المؤدي إلى غرفة خاصة، تضع فيها قططاً حديثة الولادة، تعتقد أنها كنوز، واستحوذت عليها فكرة أن أحدهم قد يحاول سرقتها لبيعها في السوق.

وشاء القدر أن تكون مها الضحية غير المقصودة، بعد أن تعثرت بالسلك في الرواق من دون انتباه. وأدى سقوطها العنيف إلى إصابتها بكسر في المعصمين. وعندما سمعت أماني الصوت، انطلقت

مسرعة لاكتشاف هوية السارق المفترض؛ فوجدت شقيقتها تتلوى ألماً، واتّهمتها بالتخطيط لسرقة القطط لتخليص المنزل منها.

كانت أماني في سن المراهقة، عندما سافرت عائلتنا إلى مكة للحج. وقد أحدثت هذه المناسبة الدينية تحوّلاً في إيمانها؛ فانتقلت من طفلة تحلّت بالإيمان العادي لتصبح شابة مصمّمة وراغبة في اعتناق كل أوجه الإيمان الإسلامي بحماسة مثيرة للأعصاب. واكتسبت منذ ذلك الوقت، العادة المؤسفة المتمثلة بالشك في سلوك الجميع، وراحت تتّهم المحيطين بها بأفعال لاأخلاقية أو آثمة.

وعندما حاولت أماني النظر تحت جسم مها للتأكد من عدم وجود قطط مخبّأة، ضربت مها الغاضبة شقيقتها بمرفقها على وجهها وكسرت لها إحدى أسنانها.

ولم تكن الحادثة مسلّية في وقتها، حيث اضطررت أنا وكريم أن نشرح للطبيب حقيقة إصابة ابنتينا، إلا أن تعليق سارة وطبيعتها الهادئة شكّلا الترياق المثالي للغضب. تبادلتُ مع كريم النظر وضحكنا عالياً على ما حدث في ذلك الوقت، حين كان سلوك ابنتينا أشبه في الغالب بمطاردة الوحوش البريّة وقتالها في منزلنا.

لم تستحسن أماني، التي تفتقر إلى روح الدعابة، ضحكنا. تحرّرت بلطف من والدها، نافضة بيدها الجزء الأعلى من ثوبها، كما لو أنها أراقت شيئاً عليه، وتصرّفت كما لو أن ليس هناك ما يثير القلق. ثم رحّبت بخالتها سارة من خلال تبادل القبل الروتيني، وغيّرت الموضوع بالسؤال عن حفيد سارة المريض الذي تعرّضت حياته للخطر أخيراً، بعد نوبة خطيرة من السعال الديكي. أما مها، المبتهجة بالنصر كمحارب فاتح، فلمست كتف خالتها المفضّلة في لفتة مودّة قبل أن تنسحب لتصب لنفسها كوباً بارداً من عصير الليمون الطازج. وبعدها اختارت هي وأماني الجلوس في الجانبين المتقابلين من الغرفة وكأنهما غريبتان.

أحبّ ابنتيّ بالقدر الذي تحب فيه أي أم أولادها، إلا أنهما تستمرّان، حتى وهما راشدتان، في امتحان صبري. تمسّكتُ منذ أعوام مضت بأمل أن تنضجا، لكنني كنت وللأسف مخطئة. رأيت، وأنا أحدّق إلى ابنتيّ، أن وجهَي كلتيهما يفيضان بتعابير من الرضا المتغطرس. وقاومت رغبتي الجامحة بصفع هذين الوجهين.

شرعتُ، حتى وأنا أدردش مع سارة وكريم، أفكّر في حياتنا، متسائلة عن سبب عجز ابنتين من الوالدين أنفسهما عن إيجاد أمر واحد تتفقان عليه. فقد تصادمتا منذ سنوات المراهقة حول كل شيء.

وُلدت مها فتاة قوية، مستقلّة، وتنبّهت منذ نعومة أظفارها للقيود الثقافية والاجتماعية الموضوعة على المرأة السعودية. وتفاقم غضبها مع الوقت، من جرّاء ظلم عادات بلادنا الاجتماعية في موضوع «الجندر»؛ وترعرعت على كره كل قيد. وأعربت تكراراً عن تصميمها على تحدي كل واحد منها. أما أماني فاعتنقت من معتقدات بلادنا الموجَّهة ضد النساء، أكثرها محافظة وتقليدية. وجاء وقت بدا لي فيه أن أماني تعتقد أن القيود التي تُفرض على النساء ليست على درجة كافية من القسوة.

لم يحلّ السلام على منزلنا، بعد سنوات من مسلسل الحوادث المؤلمة، إلا بعد أن أقنعتنا مها، نحن أهلها، بأنها لن تعرف السعادة الحقيقية مادامت مجبرة على العيش في السعودية. وشعرتُ أنا وكريم بقلق حقيقي من أنها ستتقصّد بالفعل تحدّي كل قانون اجتماعي وقَبَلي صارم، يخص النساء إذا أُجبرت على الإقامة في المملكة. فمها جريئة ورابطة الجأش حيال السلطة، وقد ترتكب فعلاً يُعدّ خطيراً على ثقافتنا، فترتفع أصوات جوقة الرفض المجتمعي التي ستعقبها مطالبة صاخبة لعمّنا الملك بجعل ابنتنا عبرة لمن يعتبر.

تحدثت مع كريم مطوّلاً لتدبير التحاق مها بإحدى جامعات أوروبا. ومن حسن الحظ أن شخصية ابنتنا العدوانية تلطّفت إلى حد بعيد بعد سفرها. وارتاحت كثيراً في أوروبا إلى حد أننا وافقنا لاحقاً على أن تقيم فيها بشكل دائم، بعيداً من مملكتنا الصحراوية. ومنذ ذلك اليوم لم تزر مها السعودية إلا نادراً، إذ غالباً ما نقوم نحن بزيارتها.

وتثمّن أماني، على عكس أختها، حياة المرأة في السعودية، وقد أعلنت تكراراً أن ما من بلد أصلح للنساء من بلادنا. وهي تعتقد أنها محمية بمحبّة من رذائل العالم، بدلاً من الشعور بأنها ممنوعة من اتخاذ الخيارات الشخصية، بمعزل عن تدخّل والدها الذي كان، ولا يزال، الوصيّ الذكر عليها. وأصرّ كريم، قبل تدبير زواج أماني، على الشرط القانوني بأن يبقى هو الوصي عليها. لم يتمكّن زوجي من تقبّل فكرة أن يمتلك أي رجل مثل هذه السلطة على طفلته. وتنص هذه الوثائق القانونية، في حال وفاة كريم، على أن يصبح ابن أماني البكر الوصي عليها، بغض النظر عن عمره لدى مفارقة جدّه الحياة. وهذا برأيي مفهوم سخيف، على النساء محاربته بكل ما أوتين من قوة. لكن ابنتي تزعم أنها لن تحمل أي ضغينة إذا جاء يوم تصبح فيه كامرأة راشدة محكومة من وصي هو ولدها الذكر!

لا تدرك سوى قلّة من الناس خارج المملكة، أن كل امرأة سعودية تولد في منظومة صارمة يسيطر عليها الرجال، ويتوجب عليها فيها الخضوع لوصاية ذكر. وهكذا كانت الحال سنة 2014 ميلادية (1435 هجرية). يمتلك ذلك الوصي المعيّن السيطرة التامة على المرأة

منذ اللحظة الأولى لولادتها وحتى الثانية الأخيرة في حياتها. وما من قوانين سعودية تنص على صلاحيات الوصي. ومع ذلك فإن حق الوصي في الحكم يكاد يكون محفوراً في الصخر. وتعتبر المحاكم السعودية أن الانصياع للوصي بمنزلة القانون، حتى ولو أصبحت المرأة راشدة تماماً. وتحتاج المرأة إلى موافقة الوصي قبل التحاقها بالمدرسة، أو زواجها، أو طلاقها، أو فتح حساب مصرفي باسمها، أو البحث عن وظيفة، أو حتى الخضوع للعلاج الطبي بما في ذلك العملية الجراحية. وعرفت شخصياً أربع حالات تعرّضت في كل منها امرأة سعودية للموت بسبب سفر الوصيّ، وعدم توفّر موافقته على إجراء عملية جراحية طارئة.

ليس بإمكان أي امرأة سعودية الخروج من تحت العباءة التي يلفّها الوصي بإحكام حول جسدها، فيبقيها أسيرةَ جميع رغباته. فالوصي الذكر هو المَلِك الخاص عليها، وُجد ليقرّر كل وجه من أوجه حياتها. ويستطيع هذا الوصي أن يقضي بأن المرأة لطّخت شرف العائلة، ويأمر بقتلها. ولا يستطيع أحد في البلاد التدخّل، حتى الشرطة أو عناصر الأمن الحكومي. هذه حقيقة. علماً أنني أُقِرّ بأن من غير المعهود في أيامنا هذه أن يقضي الوصي بقتل زوجته أو ابنته. لكن إذا قرّر ذلك فسينزل الموت بالمرأة. تلك هي حياة المرأة السعودية في ظل حكم الوصي. وقد احتلّت أخيراً حالات عدّة حيّزاً في الأخبار العالمية، في حين لم يجرِ الحديث عن حالات أخرى. وسنكشف في فصل لاحق جرائم قتل مروّعة.

حتى أنا، المرأة القادرة على الاهتمام بنفسي، لم أعش يوماً من دون وصي. فقد بقي والدي وصيّاً عليّ إلى أن تزوجت كريماً. وكان والدي وصيّاً قاسياً جدّاً عليّ، لكنني لم أزل على قيد الحياة، لأنه لم يفكّر في قتلي بعد أن جلبت عليه العار وخيبة الأمل. ووافق كريم عند زواجنا على تولّي عباءة الوصاية عليّ. وفي حالِ مغادرة زوجي هذا العالم قبلي فستنتقل الوصاية إلى ابني عبد اللّه.

لا شك في أن وضعي أسلم من وضع معظم النساء السعوديات، لأنني أنا وزوجي متحابّان بصدق. وقد أعلن كريم مرات كثيرة أنه لن يرغب في الحياة بعد موتي، ولذا فكّرت دوماً بأنه لن يعمد أبداً إلى قتلي. تمدّني مشاعر الحبّ التي يكنّها لي كريم بقوة هائلة وبإحساس بالأمان. لذا لم تشكّل لي الوصاية، منذ أن غادرت منزل أهلي، إلا معضلة شخصيّة لا تُذكر.

في الواقع، تحدّث زوجي عن الوصاية بمحبة في وقت مبكر من زواجنا. وأذكر ذلك اليوم كما لو أن وقائعه حدثت منذ أسابيع قليلة فحسب. أقسمَ زوجي الوسيم على القرآن، كتابنا الأقدس، قائلاً «نحن يا سلطانة أوصياء بالثقة. أنا وصيّ عليك. وأنت وصيّة عليّ. سنتعاون واحدنا مع الآخر عند كل مشكلة تواجهنا».

لم ينكث كريم بعهده إلا مرّة واحدة، عندما حاول بحماقة أن يُكرهني على قبول زوجة ثانية. ولم تسر خطة زوجي على ما يرام. ويدرك جميع الذين يعرفونني شخصياً، أو الذين قرأوا قصتي، أنني خرجت منتصرة من هذا الصراع الزوجي. وما هذا إلا لأنني على استعداد للموت إذا اتخذت قراراً في شأن وضع ما، في حين يحرص زوجي على حماية حياته وحياتي أيضاً.

لكنني بتّ الآن أواجه مشكلات أكبر من الوصاية، إذ سمعتُ مها وهي تواصل الحديث من خلال أنفاسها المتقطعة، لاعنة تربية أماني السعودية.

سعدتُ لأن أماني تخرّجت في المعهد. والواقع هو أنها لم تعرب، في خلال دراستها الثانوية، عن الرغبة في الالتحاق بالجامعة، مشدّدة على أن المرأة المسلمة الصالحة لا تحتاج إلى ما هو أكثر من زوج وأولاد. حطّمني تصميم طفلتي على العزوف عن تلقّي التعليم العالي. لكنّ كريماً عالج المسألة معالجة حكيمة بإشارته إلى وجود مراحل مهمة عليها أن تسلكها قبل الزواج، وقال إن من غير الممكن إثارة موضوع الزواج إلا بعد حصولها على الشهادة الجامعية.

اقتنعت أماني، بعد مراجعة السلطات الدينية، بأن التعليم لا يتناقض مع العقيدة الإسلامية. وحين اقتنعت بذلك التحقت بمعهد الفنون والعلوم الإنسانية في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الرياض للبنات، التي أصبح اسمها جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن، تيمناً بالشقيقة المحبوبة لجدنا الملك الأول عبد العزيز آل سعود. وفوجئنا كأهل وسررنا، لأن أماني انخرطت بسهولة في متابعة تعليمها. واعترفت بأنها تستمتع بدراسة اللغة العربية وآدابها. وحازت علامات عالية في كل مقرّراتها، وتخرجت بعد أربع سنوات.

حلمتُ بأن تصبح أماني، لشدة شغفها بالعلم، أستاذة تدرّس مادة الأدب لفتيات أخريات، لكنني سرعان ما حزنت بعد أن أعلنت أنها لن تعمل أبداً. وقالت إنها لن تجازف بدخول عالم المرأة العاملة، حيث تكثر احتمالات لقائها رجالاً من غير عائلتها. وهي لن تعمل أبداً، أو تتحدث مع أي رجل غير زوجها وأبيها وشقيقها وابنها أو غيرهم من الذكور ذوي القربى الوثيقة. وادّعت أماني أنها حصّلت العلم لتمثّل دينها وعقيدتها والقيم الإسلامية أهم تمثيل، والأهم من ذلك كله، لتصبح أمّاً أفضل لأولادها.

طالبني كريم بعدم الاعتراض: «لا تنسي يا سلطانة أن 58% من طلاب المعاهد في السعودية هم من الإناث. ومع ذلك لا تستطيع سوى 14% من أولئك الفتيات العثور على وظائف. ومن الأفضل ألا تحتلّ أماني منصباً تكون فتاة سعودية أخرى في أمس الحاجة إليه».

قطبتُ جبيني عند سماع كلماته، لكنني لم أستطع إنكار أن كريماً نطق بالحقيقة البائسة. ولن تحتاج أماني أبداً إلى مُرتَّب من أي وظيفة، إلا أن بلادنا ممتلئة بالفتيات المتعلّمات المتلهفّات للحصول على وظيفة. وأنا بالتأكيد مسرورة جدّاً بالسماح لهذا العدد الكبير من الفتيات السعوديات بالالتحاق بالمدرسة، وهو ما لم يكن عليه الوضع دائماً في بلادي.

لكنَّ واقع حال الأنثى في السعودية، يتمثَّل في الآتي: كلما تمكنت النساء من اجتياز عائق يواجههن عائقٌ آخر. وفي حين أخذ معظم الرجال يتقبّلون فكرة تعليم الإناث، يعارض معظم الآباء فكرة عمل بناتهم؛ ويريدون التأكد من عدم الاحتكاك المادي برجال من غير أفراد العائلة. وبالإضافة إلى ذلك، يرفض معظم الأزواج السماح لزوجاتهم بالعمل، مع أن معظمهم يطلق وعوداً مناقضة في خلال فترة الخطوبة. فضلاً عن أن الكثير من رجال الأعمال لا يحبّذون توظيف النساء في مؤسساتهم، خوفاً من أن يثير اختلاط الرجال والنساء المشكلات مع المؤسسة الدينية. ويجزم مثل هؤلاء الرجال الذين يملأ الغضب قلوبهم أن اختلاط النساء برجال غرباء أشبه بالسير جنباً إلى جنب مع الشيطان. واحسرتاه على النساء السعوديات المسكينات اللواتي يرغبن في استخدام ذكائهن وتعليمهن للعمل في مهنة يخترنها، فالموانع الموضوعة في طريقهن كثيرةٌ جداً.

ألحّت علينا أماني، بعد أشهر من تخرجها في المعهد، لنتدبّر أمر تزويجها من نسيب ملكي ملائم. لم تسمّ شخصاً بعينه، بل طلبت أن يكون من عائلة ملكية كريمة معروفة وحسنَ الخلق ومؤمناً. ورفضت بعناد رؤية صورة عريسها العتيد التي تلطّفت شقيقتها ووفرتها لها. وثارت ثائرتها عندما مازحها شقيقها عبد الله ملمّحاً أن نسيبها يتلهّف إلى رؤية وجه عروس المستقبل؛ وأنه، أي عبد الله، قد يعرض على الشاب صورة لها للتخفيف من لهفته. واضطربت بشدة وتوسّلت إلى والدها باكية لكي يتدخّل؛ ففعل ونهى ابننا عن المضي في مناكدة شقيقته في هذه المسألة.

يملك عبد الله روحاً مرحة، وهو لا يكفّ عن ممازحة شقيقتيه، غير أن مها وحدها تُظهر أحياناً حس النكتة على طرائفه. ولو كانت ابنتاي تمتلكان أيضاً شخصية ابننا الظريفة والودية، لصرتُ أماً زاخرة بالفرح. يؤكد كريم هو الآخر أن ابننا لا يتسبّب في المتاعب، ويقول لي تكراراً: «اختار الله، يا سلطانة، أن يكافئنا بابن سهل الانقياد، وأن يمتحن صبرنا مع أماني ومها».

ويستمتع زوجي يوم يغضب مني شخصياً في تقذيعي وإلقاء اللوم عليّ بالقول: «ورثتْ ابنتاي نزعة والدتهما إلى إثارة الجِراب».

من المؤكّد أنّهما قد بلغتا هذه الأرض، وهما مبرمجتان مسبقاً بأكثر الطباع صعوبة.

تتمسّك أماني بقوة، على النقيض من أمها وشقيقتها، بكل ما له علاقة بكونها امرأة يحكمها الرجال. كما أنها أيضاً مثال الرضوخ الصارم لكل ما هو ديني. وقد ارتدت منذ سنوات مراهقتها الحجاب الكامل بقدر عظيم من الرضا، اعتقاداً منها أن سفور أي امرأة أمام الناس أمر غير أخلاقي. وهي لا تزال تغطّي يديها الناعمتين بالقفازين، وقدميها وساقيها بالجوارب السميكة السوداء بصرف النظر عن الحرّ الخانق في المملكة، حتى عند زيارتنا جدة، المدينة المرفأ المشهورة برطوبتها المشبعة.

أبلغتها مراراً أن مثل هذا الزي خطر للغاية في حرّ السعودية. وتأكدت مخاوفي عندما زارتنا أماني، وهي في عز حملها، في منزلنا بجدّة. وعمدت، كونها غير متآلفة مع بعض الموظفين الذكور الجدد لدينا، إلى ارتداء حجابها السميك منذ لحظة استيقاظها وحتى ساعة نومها. خشيت ابنتي المسكينة من أن يلمح أحدهم ولو لبرهة، وجهها السافر، بالرغم من أن هؤلاء الرجال أهل للثقة، ألفوا وجودهم على مقربة من النساء في بيوتنا.

نزلتْ صباح أحد الأيام الدرج محجّبة بالكامل، الأمر الذي أزعجني، بل أدهش خالتها سارة التي تتقبّل سلوك ابنتيّ المتناقض في العادة بابتسامة. وشرعتُ في التعبير عما يجول في خاطري، قائلة إنني أجد من السخف أن تتحجب أماني بالكامل وهي في المنزل. ثم إنني أستمتع بالحديث مع شخص أستطيع رؤيته. فضلاً عن أنني أستمتع تحديداً في النظر إلى وجوه أولادي. ورمقتني سارة في تلك اللحظة بنظرة محذّرة، فعضضتُ شفتي وسألت أماني بدلاً من ذلك: «أتريدين بعضاً من العصير غاليتي؟».

تجاوزتني أماني بخفّة قائلة، «لا يا أمّي، أشعر بالحاجة إلى نزهة في الحديقة». وفتحتْ إحدى خادماتنا الإندونيسيات الباب الخشبي والزجاجي لتتمكن أماني من الخروج إلى الحديقة التي اعتنى كريم في تصميمها لنساء عائلتنا. والحديقة كبيرة على غير العادة ومطعّمة بنباتات عملاقة وبالكثير من السراخس؛ وأرادها أن تشبه الغابة المطيرة. ناديتها، أنا المفرطة في حماية ابنتي الحامل، «أماني، لا تضيعي وسط كل ذلك الخضار، يا حلوتي». فلم تجبني.

سرعان ما انصرفنا أنا وسارة إلى لعبة القمقم؛ وهي لعبة مسلية غالباً ما نلعبها في جدّة، لأنها تتطلّب أصدافاً بحرية يستطيع الأولاد أن يعثروا عليها أحياناً على شاطئ البحر الأحمر. وشاركنا اللعب اثنان من أحفاد سارة الثمانية. وكانت مراقبة الولدين وهما يرميان بالصدف على الأرض ممتعة، حيث غاب الوقت عن بالي لفترة. ولما جاء عبد

الله إلى غرفة الجلوس يسأل عن أماني، أدركتُ فجأة أنه مضى عليها ما يقارب الساعة، وهي في الحديقة.

قفزت واقفة واندفعت خارجة من الباب إلى الحديقة منادية طفلتي. وأطلقتُ صرخة رعب عندما وجدتها ممدّدة على الأرض ونسيج العباءة الأسود معلّق على شجرة سرخس صغيرة، وهو يتطاير في الهواء.

صحتُ، «أماني!».

تبعني عبد الله سريعاً، وعدد من سائقينا الذين سمعوا صراخي، وهرعوا إلى الحديقة المحظورة عليهم في العادة.

اعتقدت لوهلة أن طفلتي الغالية قد ماتت مختنقة، وهي ملتحفة بذلك النسيج الأسود الثقيل والجوربين الأسودين والقفّازين. وكان زيّ أماني يفوقها وزناً، لأنها ضعيفة القوام. وهي، بالرغم من كونها حاملاً، لم تزن إلا 40 كيلوغراماً.

انتشل عبد الله وأحد السائقين أماني، وحملاها إلى منزلنا المكيّف. وفيما هما يكافحان لحملها بحذر، لأنها حامل، انزلق خمارها عن وجهها، وارتفعت تنورتها الطويلة السوداء إلى ما فوق خصرها.

لم أبالِ في تلك اللحظة، مع أن جوربي أماني السوداوين لا يصلان إلّا إلى الركبتين، ما جعل فخذيها البيضاوين ظاهرين للجميع.

وُضعت ابنتي على أكبر الأرائك الخمس في باحة غرفة الجلوس. وشرعتُ في نزع ثيابها السوداء السميكة. حين رفعتُ حجابها، حبست أنفاسي ورأيت وجهها الأحمر الداكن كما لو أصيب برضّة، وقد انقلبت عيناها وظهر بياضهما، وهو المشهد الأكثر إنذاراً بالخطر.

عند ذاك الحد، نادى أحد خدمنا كريماً من مكتبه. فتوجّه إلى جانبي طالباً وضع الأقمشة الباردة الرطبة على وجهها. وبتوجيه من كريم، انطلق عبد الله بالسيارة مسرعاً إلى منزل طبيب العائلة، لإحضاره بغية الكشف على أماني، وهو طبيب فلسطيني يتمتع بالكثير من الخبرة، ويقيم على مسافة قصيرة من بيتنا.

شعرت عندها بأنني سأصاب بالجنون. فأماني ممدّدة كالجثة. أشار كريم إلى أن ابنتنا تتنفّس بانتظام، ولا حاجة إلى نتف شعري، وهو أمر لم أدرِ حتى أنني أقوم به. (إلا أنني عندما سحبت يديّ عن رأسي رأيت حفنة من الشعر الأسود بين أصابعي المشدودة).

نظرت من حولي لأرى جميع الخدم والسائقين والبساتنة متجمّعين في باحة الجلوس الكبيرة، لكن الطبيب وصل قبل أن يتسع لي

الوقت لصرفهم.

لم يسبق لي أن شعرت بهذا القدر من السعادة لرؤية وجه الطبيب المتورّد الكبير وجسمه القصير البدين، بالرغم من أنه كان أحياناً يثير سخطي بعادته المتمثلة بوضع ذراعيه خلف ظهره والسير بشكل دائري متمتماً كلاماً غير مفهوم، وهو غارق في التفكير.

أردت دوماً أن أعرف من فوري كل وجه من أوجه المشكلة الطبية المتعلّقة بأولادي. بدا الطبيب قلقاً جداً، وهو يسرع ليتفحص وجه ابنتنا، طالباً من الجميع التراجع، وفسح مجال التنفُّس لها. تشبّثتُ بذراع كريم، وأنا أحدق إلى طفلتي في الوقت الذي فتحت فيه عينيها. لم تتوقع أماني أن ترى الوجه الكبير للطبيب الفلسطيني الذي يتفحص وجهها، فشهقت بصوت مرتفع، وأغمي عليها.

استعادت أماني وعيها في النهاية. وأعلن الطبيب أن الحرّ هو الذي تسبَّب في الأمر. وتحدّث بصوت خفيض، ولكن حازم، مع أماني ليحذّرها من ارتداء مثل هذه الثياب السميكة السوداء في حرّ جدة ورطوبتها. وعرفتُ من تعبير وجهها أنها لن تتبع أبداً تعليمات الطبيب، وأن عليّ أن أتوقف عن السفر إلى جدة خلال أكثر أشهر الصيف حرّاً. وعلى عائلتنا أن تبقى في الرياض حيث الهواء جاف، ما يجعل الحياة أكثر احتمالاً للنساء المحجبات، أو ربما الإقامة في الطائف، منتجعنا الجبلي الذي يشتهر بنسائمه الرطبة.

إلا أن محنة أماني النفسية لم تنتهِ عند ذلك الحد. فقد ارتعبت عندما اكتشفت لاحقاً أن الكثيرين من العاملين في منزلنا في جدة قد شاهدوا وجهها، بل إن ثلاثة من سائقينا لمحوا بشَرة ساقيها. وبلغ بها الاضطراب الشديد حدّاً دفع بنا إلى وعدها بنقل جميع الموظفين من جدة إلى الرياض لدى زيارتنا القصر في جدة، على أن نعيدهم إلى جدة، عند رجوعنا إلى الرياض. فأماني تُصاب بالحرج الشديد في صحبة من رأوا وجهها وساقيها.

بدا كل ما تتطلبه راحة بال أماني سخيفاً في نظري. غير أنني سأفعل أي شيء لتخفيف الضغط عن أي من أولادي، وخصوصاً عن ابنتي الحامل. وها قد مرّ الوقت الآن وأصبحت أماني أماً لصبي.

لم تلتقِ ابنتاي منذ أكثر من سنة، ومع ذلك نشبت الخلافات الحادة سريعاً بينهما. والحقيقة أن ثلاثة أيام فقط مضت على عودة مها إلى المملكة، إلّا أنّ ابنتيّ كانتا تتقاتلان باستمرار.

غادر كريم ليرتاح استعداداً لجلسة الليل ناصحاً مها بالقول: «أرجوك يا ابنتي، انسحبي إلى غرفتك وحضّري نفسك لهذه الأمسية. فقد حان موعد وصول ضيوفنا».

ابتسمتُ وقد سعدت لقيام كريم بتذكير مها بالأمسية المسلّية المقبلة. إذ إن من المتوقع أن يأتي عدد كبير من الضيوف لرؤية مها. وقد جرى التخطيط لحفلة الاستقبال منذ اليوم الذي علمنا فيه بزيارتها النادرة. وأعادت العائلة كلها تقريباً تنظيم جداول أعمالها المزدحمة، للتمكن من المشاركة في الاحتفال.

قضيتُ أنا وسارة ساعات كثيرة في التخطيط للأمسية. وقررنا تقديم أطباق مها العربية المفضلة، بما فيها الكبسة والدجاج بالطحينة والطماطم. واتخذ كريم الترتيبات اللازمة لتقديم الطعام بشكل منفصل في حديقة الرجال، حتى لا تقع عينا ابنتنا أماني النباتية على الجمل الكامل المحشو بالضأن والدجاج والبيض والأرز لأنها قد تدمّره. وقد اكتشفت أماني في الماضي جملاً صغيراً مطبوخاً، فأقامت له جنازة وعملت على دفنه في حديقتنا قبل وصول الضيوف. ولهذا أحيط طبق الجمل بالكثير من السرّية، وهو طبق خاص يستطيع ضيوفنا تذوُّقه والاستمتاع به.

تضمنت الأطباق أيضاً الكثير من الأطايب الفرنسية. وقد انشغل طبّاخ سارة الفرنسي على مدى أيام في تحضير حسائه الدسِم اللذيذ وسمك السلمون مع الخُضَر وحساء الخُضَر مع اللحم. وكانت طائرة، أُرسلت خصيصاً إلى فرنسا، قد عادت بكلّ أنواع الجبن الفرنسي المميز وخبز «الباغيت».

تطلّعتُ لأرى إن كانت مها ستطيع والدها. هزّت برأسها، لكنّها لم تتحرك قيد أنملة عن المكان التي تجلس فيه على الأريكة.

واستأنفت أماني، في اللحظة التي خرج فيها كريم من الغرفة، خلافها مع شقيقتها. وسألت، في محاولة لجرّ سارة إلى النقاش: «خالتي سارة، ما رأيك في قيادة النساء السيارة؟». وقبل أن تتمكن سارة من التفكير في جواب، استمرت الكلمات تتدفّق من بين شفتي أماني. «ألا توافقين على أن قيادة النساء السعوديات السيارة ستفضي إلى الحوادث، جرّاء ما يسبّبه الحجاب من مشكلات في الرؤية؟ وسوف تضطر، حين يقع الحادث، إلى إجراء حديث محظور مع السائق الآخر. وماذا لو كان سائقاً ذكراً، غريباً عنها؟».

وجدت سارة نفسها في موقف صعب؛ فتدخلتُ في الحديث قائلة: «يا فتاتي اللطيفة، اصنعي معروفاً لأمك، واتركي مثل هذه الموضوعات الخلافية إلى وقت أكثر ملاءمة».

وقبل أن تتمكّن أماني من الرد، غمغمت مها بغضب، لكنها غادرت الغرفة على عجل. وأملتُ في أنها عملت بنصيحة والدها باستغلال الوقت لإصلاح شعرها وتبرّجها.

لكن، وقبل أن يتبخّر التوتر من الغرفة، عادت مها. أحضرت رخصة القيادة الدولية العائدة إليها، وأخذت تلوّح بها لأماني بطريقة استفزازية قائلة: «شقيقتي الصغيرة واحدة من أولئك المغفلين الذين يمتلكون شهادة جامعية، ولكنهم غير مثقفين!».

ردّت أماني، التي لا يوقفها شيءٌ أبداً: «إن قيادة المرأة للسيارات تؤدي إلى مفاسد لا تخفى على الداعين إليها... وقيادة المرأة من الأسباب المؤدية إلى ذلك. وهذا لا يخفى».

تستشهد أماني في الغالب بفتاوى يصدرها مختلف رجال الدين السعوديين. ولاحظتُ أن كلماتها مستلّة من الشيخ عبد العزيز بن باز، رجل الدين السعودي الذي أصبح المفتي الكبير للديار من العام 1993 وحتى وفاته في العام 1999 عن 88 عاماً. ولم يكن باز، في رأيي، ذكيًا جدًا. وقد أثبت قصوره الذهني بإصداره فتاوى كثيرة مثيرة للجدل، منها أن الأرض مسطّحة. وقد قال: «إن الأرض ثابتة... وقد ثبتها اللّه بالجبال أوتاداً أرسى بها الأرض وقرّرها وثقّلها لئلا تميد بالناس، أي تضطرب وتتحرك فلا يحصل لهم قرار». وسخر منه الكثيرون من الصحافيين على إعلانه هذا. ثم أعلن باز بعد ذلك أن الشمس تدور حول الأرض، إلا أنه سحب ذلك البيان بعد أن قضى نسيب الأمير سلطان بن سلمان وقتاً على متن مكوك الفضاء ديسكوفري. وقيل إنه، بعد عودته إلى السعودية، أقسم لرجل الدين أنه شاهد الأرض من الفضاء وأنها تدور وليست ثابتة.

وتعلّقت الأحكام الأخرى التي أفتى بها الباز بوضع جميع النساء وراء المعزل (البردة)، وهو ما أدى إلى نفوري الدائم من الرجل. ولم يوافقني آخرون الرأي لأنه حاز الكثير من المحبين. وهو واحد من رجال الدين المفضلين لدى أماني، بالرغم من أنه توفي حين كانت هي طفلة.

حفظت أماني عن ظهر قلب فتوى الباز المتعلقة بقيادة النساء السيارات، واستشهدت به باعتزاز: «فالشرع المطهر منع جميع الأسباب المؤدية إلى الرذيلة، بما في ذلك رمي المحصنات الغافلات بالفاحشة، وجعل عقوبته من أشد العقوبات صيانة للمجتمع من نشر أسباب الرذيلة... وقيادة المرأة من الأسباب المؤدية إلى ذلك».

وها هي مها ترقص حول الغرفة، وهي تغنّي بصوت مرتفع: «أنا حرّة، يا أماني، وأنت اخترت طوعاً ارتداء القيود!». وقفزت في الهواء كراقصة الباليه حاملة رخصة قيادتها وكأنها نالت جائزة.

ابنتي، حقاً، درامية للغاية.

وتابعت مها لغوها، «أنا حرّة! شقيقتي ترتدي القيود!».

فأعلنت أماني، مضفيةً على نفسها الأهمية، وبيقين كبير: «كلّ ما تفعلينه حرام يا مها».

«اسمعي يا أماني. أنت تعيشين في عصور الظلام. تستطيعين أن تكوني ذكيّة، لكنك تسعين وراء الجهل، وتبدين كما لو أنك ترمزين إلى الضعف والجهل، وتتركين للرجال اتخاذ كل القرارات عنك، في حين أنك قادرة كل القدرة على ذلك».

كانت مها تختنق: «أنا حرّة في أن أحيا، يا أماني. حرّة في التفكير نيابة عن نفسي. حرّة في قيادة السيارة. حرّة في التفكير في كل ما يروقني. أنا امرأة متحررة من كل هذا الجنون الذي تعتنقينه بهذا القدر من الشغف!».

أحسست برأسي يدور كالأرض، حتى إن سارة شهقت، لما أعلنته مها للتوّ: «خدعتُ اليوم جميع أولئك الرجال التافهين الكبار في السن. تنكّرت بلباس رجل وأخذت سيارة عبد الله المرسيدس الجديدة في جولة حول المدينة».

وصحتُ، «مها! مها، أرجوك قولي إنك لم تفعلي! قد تصيبين أهلك بالذل لو أمسكوا بك ترتدين زي الرجال وتقودين سيارة».

«آه، أمي»، قهقهت مها، «لم أكن قط في خطر. لم أتبرّج البتة. ورسم عبد الله على وجهي بالقلم الشاربين المناسبين. وتولّى عبد الله الحديث كله في المتاجر، ولم يسمع أحد بالتالي أي صوت أنثوي».

ارتفعت حدّة صوتي «أكان ابني على علم بهذا؟».

تدلّت شفة مها اضطراباً: «ابنك يتفق معي، يا أمي. وهو من الرأي القائل بأن كل هذه القواعد البالية يجب أن تختفي». وفرقعت بإصبعيها، «هكذا تماماً. آمل بغد مشرق على الأبواب عندما يجري اختيار واحد من الأمراء الشبان، مثل عبد الله، ليصبح ملكاً. وإذا وقع الاختيار على أخي فسيضع حدّاً لكل هذا الهراء. عندها، وعندها فقط، سأعود إلى العيش في بلادي».

أردت أن أتابع الحديث، وأخبر مها أن عبد الله ليست لديه الرغبة في أن يصبح ملكاً على السعودية، لأن ابني رجلٌ لا يمتلك أي رغبة في حكم الآخرين؛ إلا أنني سمعت عندها أصوات مختلف أفراد العائلة، وهم يشقّون طريقهم عبر الرواق الطويل المؤدي إلى باحة الجلوس. أخذ ضيوفنا يتوافدون. وحلّت ساعة حفلة العائلة التي انتظرناها طويلاً.

«سنكمل الحديث لاحقاً، يا مها»، هكذا وعدتها بصوت صارم وأنا

أهرع من الغرفة لأستقبل ضيوفنا. واستدرت، وأنا في طريقي، نحو سارة: «أرجوك يا أختي العزيزة، جهّزي ابنتيّ وجيئي بهما إلى الحفلة».

هزّت سارة برأسها موافقة. وقالت: «لا تقلقي يا سلطانة سننضم إليك قريباً».

حافظت على مظهري الواثق، إلى أن خرجت من الغرفة نحو الرواق الطويل. وعندها تهاوى كتفاي يأساً وإعياء؛ لقد شهدت للتو على واقعة بغيضة بين ابنتي الجميلتين.

غالباً ما وجدت نفسي في السنوات الأخيرة مستغرقة في أحلام يقظة تخص عائلتي، وقد التم شملها أخيراً في وئام. وأملت في تلك الليلة أن تتحقق أحلامي.

أردت في الأساس إثارة إعجاب أبي في منزلي المصون جيّدًا وأولادي الطيّعين. وكنت قد سعيت على مرّ السنين إلى علاقة جميلة مع الرجل الذي منحني الحياة، بالرغم من السنوات التي قضاها وهو يُلحق بي الأذى، أنا ابنته الصغرى. وقد سُررت، قبل المشهد الرهيب بين أماني ومها، لأن والدي لبّى أخيراً دعوتي وحضر إلى منزلي. لكنني أدركت، أنا وأماني ومها في مثل هذا الوضع المتوتر، أن أي نزاع ينشب في حضوره سوف يعني أنني لن أراه من جديد أبداً. وهو، في سنّه المتقدمة هذه، يتفادى بإصرار أي نزاع، كما أنني كنت متأكدة أنه لن يحتمل أي حفلة صراخ مقيتة بين هاتين الشابتين. بل إن الأمر سينعكس بشكل سيئ عليّ وعلى زوجي معاً في حال حدوث مثل هذا الأمر.

خطرت في ذهني فكرة نسيان أمر الحفلة، والاختباء وراء الباب الحديد الذي وضعه كريم حديثاً.

لقد اتّخذ هذا الإجراء الوقائي بعد أن التقى كريم أحد أنسبائه، وهو مسؤول كبير في الاستخبارات السعودية في وزارة الداخلية، وكشف له عن معلومات مقلقة تتعلّق باستجواب شاب سعودي كان مواطناً يحترم القانون، وأصيب بحمّى الراديكالية الخطرة. وقد أمضى الشاب أخيراً فترة قتال في سورية. وكشف خلال التحقيق معه عن معلومات استخبارية مقلقة، تفيد أن عملاء القاعدة يتسللون عبر الحدود مع اليمن إلى قرى صغيرة في مملكتنا، ويخططون للانطلاق من هذه القرى لاغتيال أعضاء الحكومة السعودية. ويقضي مخططهم بقتل أفراد العائلة المالكة السعودية، ومنهم أنا وكريم وأولادنا.

واصلت السير في الرواق إلى قدري، مهما يكن. وحاولت إعادة

تركيز ذهني على الساعات المقبلة، سائلة اللّٰه أن تجلب لي هذه الأمسية الفرح والمسرّة.

الفصل الثاني

الحفلة

يجتذب الماس معظم النساء، مثلما يفعل غناء حورية البحر. إلا أنني صممت أذنيّ عن هذا النداء، وفقدت رغبتي في الجواهر الثمينة حين اكتشفت ما تمنحه مساعدة الآخرين من سعادة كبرى. ولم أعد أتخيّل، عندما تُعرض عليّ الجواهر الرائعة، الأحجار البرّاقة تغطي عنقي، أو تتدلّى من أذنيّ، أو تلتفّ حول معصمي؛ بل أُفكّر ملياً في ما يمكن لقيمة هذه الحجارة أن تشتريه. فقد تسمح لطفل يحلم بمتابعة الدراسة في مدرسة جيّدة أن يحقّق حلمه، أو لامرأة عليلة أن تستمتع برونق الصحة، وهي تدرك أنها ستعيش لتعود إلى أولادها، بعد تلقّي العناية الطبيّة اللازمة والمكلفة.

قادتني خطواتي نحو الأصوات المرحة التي تبث الحياة في الرواق، متخيّلة أن أفراد عائلتي قد بدأوا يستمتعون فعلاً ببهجة اللقاء. إلا أنني أخطأت الظن، لأن الجواهر الغالية الثمن هي التي تسببت بهذا القدر من الهرج والمرج.

سمعت، لدى دخولي كبرى غرف الجلوس، الأصوات المميزة لثلاث من كبريات شقيقاتي. واعتراني الذهول، عندما رأيت تهاني ودنيا وهيفا متجمّعات على شكل دائرة يصرخن مندهشات لعقد دنيا اللولبي الماسي الذي تدلّى من عنقها، وكاد يبلغ خصرها.

سبق لسارة أن وصفت لي، منذ أيام، قطعة الجواهر هذه، لكنني ذُهلت عندما وجدت أن العقد ذا السلسلة الطويلة يمكن لفّه ثلاث مرات حول عنق دنيا. وقد استُعملت مئات الماسات لصنع مثل هذه القطعة الكبيرة. وقفت أحدّق إلى العقد وأقيّمه. فكل ماسة من ماساته تساوي ثروة تسهم في تعليم ولد صغير وإعالة أسرة فقيرة على مدى سنة. ولم يجذبني البتة بريق ماسات دنيا المبهر.

أشارت سارة إلى أن شقيقتنا دفعت عدة ملايين ثمناً للعقد. ودنيا امرأة لا تهتم إلا بتوافه الحياة، وقد صرفت ساعات كثيرة تبحث فيها عن أروع الجواهر، وتسعى إلى الحصول عليها.

لم ندرك مدى خطورة هوس دنيا بالجواهر، إلا بعد أن أهدتها سارة كتاباً خاصّاً من أحد المعارض بعنوان «قصة حبي مع المجوهرات». وهو يحتوي على صور مجموعة جواهر الممثّلة الأسطورية الأميركية إليزابيث تايلور. وقد دأبت سارة، منذ صغرها، على تشجيع عائلتنا على مطالعة الكتب، وخصوصاً المصوّرة منها التي لا تحتوي إلا على القليل من الكلمات. اعتقدتْ أن «المرشد السياحي» إليزابيث تايلور ستؤمّن لدنيا ساعات كثيرة من المتعة. غير أن الكتاب لم يتسبّب لها

في الواقع إلا بالهوس المرضي الذي أدّى إلى أزمة.

تحوّلت دنيا إلى امرأة هستيرية، وفقدت صفاء ذهنها. فراحت تصرخ بوجوب حصولها على ماسة «كراب»، وهي حجر يزن 33,19 قيراطاً كان هدية لتايلور من زوجها الممثل ريتشارد بورتون. وانتحبت لساعات على ماسة ثانية، وهي حجر يزن 69,42 قيراطاً اشتراه بورتون أيضاً لزوجته.

وصف طبيب دنيا لها المهدئات، وأمرها بشهر من الراحة التامة في السرير خلف ستائر مقفلة، حتى لا تفكّر بالعالم خارج قصرها، وبكل ما يمكن أن تحصل عليه من جواهر. وطلب من بنات دنيا الامتناع كلّياً عن التطرّق إلى مسائل الجواهر.

وما أثار فينا الذهول الدائم أن الطبيب شخّص مرض دنيا على أنه أول حالة معروفة بـ «فيروس جواهر إليزابيث تايلور!». وفي حين كانت دنيا تتعافى، أخفت إحدى بناتها كتاب الجواهر عنها، بل عمدت في الواقع إلى حرقه حتى لا تنجرّ مرّة أخرى إلى معاناة الغيرة إلى حد المرض.

وأملنا أن تكون دنيا قد تعافت الآن من حالة اكتئاب إليزابيث تايلور، وهي تبدو راضية جدّاً بعقدها الماسي الشبيه بالحبل. وسمعتها عَرَضاً تقول بصوت واضح تقصّدت أن يُسمع «لا تخبرنّ أحداً، لكن هذا العقد أغلى من معظم الحلى الأسطورية التي ابتاعها عمّنا فهد لجوهرة».

قصدت دنيا بالعم فهد، الملك فهد الأخ غير الشقيق لوالدنا، والعم المفضّل الذي أحببناه كثيراً. وجاءت وفاته في اليوم الأول من آب/أغسطس 2005 بمثابة ضربة هائلة لعائلتي المباشرة، لأنه اليوم الذي انتقل فيه الحكم في السعودية إلى فرع آخر من فروع عائلتنا الكبرى.

اتخذ جدنا الملك عبد العزيز زوجات كثيرات من مختلف القبائل السعودية، أنجبن له عدداً كبيراً من الأبناء، بل وعدداً أكبر من البنات. ويمكن اعتبار أن لكل الأبناء موقعاً في ترتيب الوصول إلى العرش، إلا أن 12 فقط من أولاد جدّي هم من المتسابقين الجديين على التاج.

كانت جوهرة زوجةً عمّنا فهد المفضّلة، وهي والدة عبد العزيز ابن فهد أحبّ أبنائه إليه وأصغرهم. ويحتل الولد البكر في عالمنا المكانة الأهم في أعين الوالد والمجتمع؛ إلا أن الولد الأصغر هو في الغالب الأحب إلى القلب. ويؤسس كلا المركزين، الأول والأخير، لنوع من المحاباة.

والأميرة جوهرة امرأة فريدة من نوعها. وقد احتفظت، حتى بعد أن توفّي عمّنا، بالاحترام الذي تكنّه لها عائلتنا. وبقيت ضمن الحاشية التي رافقت أخا زوجها غير الشقيق ووريثه الملك عبدالله في رحلاته إلى خارج البلاد. وهذا أمر يندر حدوثه في السعودية. وعندما يفارق الزوج هذه الحياة تنسحب النساء عموماً إلى الظل، ولا يُشاهدن أو يُسمع صوتهن بعد ذلك قطّ إلا ضمن التخوم الضيقة لعائلتهن المباشرة.

راودني الشك دوماً بأن عدداً من شقيقاتي يغرن من جمال جوهرة، ومن وضعها المميّز. أما أنا فلطالما أحببتها لعدد من الأسباب، أهمّها أنها تحدثت علناً عن تعليم الفتيات، في وقت سبق كثيراً امتلاك أي نساء أخريات ما يكفي من الشجاعة للمجاهرة برأيهن. ففي تلك الأيام، بقيت حتى زوجة الملك بعيدة عموماً عن أنظار العامة. إلا أن جوهرة استخدمت ذكاءها لتحسين وضع بلادنا، واكتسبت سمعة طيبة لنفسها انسحبت على البلد ككلّ. ووجدتُ دائما أنها، وبالرغم من موقعها القوي، إنسانة لطيفة لم تتعالَ على المحيطين بها. وتحتاج المملكة العربية السعودية إلى نساءٍ مشابهات للارتقاء في المستقبل.

ومن المرجّح أن دنيا واحدة من الشقيقات الأكثر غيرة لأن جوهرة تمكّنت، بوصفها الزوجة المفضلة للملك فهد، من جمع ثروة طائلة. وقد تكون امتلكت من الجواهر أكثر مما امتلكته معظم نساء العائلة المالكة مجتمعات.

حدّقتُ إلى شقيقتي، وهي المرأة الجميلة التي تمتلك الثروة والصحة ومحبة عائلتها لها، ومع ذلك لم يروِ أي من هذه الميزات عطشها إلى المزيد من كل شيء، وإلى الجواهر بنوع خاص. تكبرني دنيا بعشرة أعوام، ومع ذلك لم تتعلّم طوال كل هذه السنين أن الحلى الباهظة الثمن لا تجلب السعادة. وهي لا تعي على الإطلاق هذه الحقيقة المهمة. وأشعر بالحزن على شقيقتي، لأنني أخشى من أنها لن تعرف أبداً السعادة الحقيقية.

قالت دنيا بفخر: «شاركتُ أيضاً، يا شقيقاتي، في تصميم العقد. وأعلن المصمّم أن مساهمتي هي التي جعلته فريداً من نوعه».

عندها تماماً تحوّل انتباهي عن دنيا، إلى شقيقي عليّ يظهر عند المدخل. ألقى، وهو يسير بهدوء، نظرة ماكرة على واحدة من خادماتنا، وهي فتاة إندونيسية على قدر كبير من الجمال، اسمها سابين، ومعناه التابعة. وسابين، الجديدة في منزلنا، فتاة بريئة تسعد في تحصيل مرتّب جيّد ترسله إلى أهلها في وطنها لدفع أقساط مدرسة شقيقيها الأصغر منها. وذكّرتُ نفسي بأن أنبّه سابين كي تبقى بعيدة عن مرأى علي. فالفتاة العزيزة شكّلت

إضافة محبّبة إلى فريق خدمنا، وقد صمّمت على حمايتها من جميع الرجال الداعرين. يشمل هذا التعهّد رجالاً في عائلتي، أمثال شقيقي واثنين من أبنائه، عرفوا برغبتهم في مضاجعة كل امرأة جذّابة تدور في فلكهم. ألقيت نظرة سريعة على سابين، وابتسمت تشجيعاً لها وهي توازن بانتباه صينية ممتلئة بأكواب عصير الأناناس والتفاح والتوت.

تنهّدتُ بعمق، وعبست في وجه أخي الذي انشغل في مراقبة سابين الجميلة، فلم يتمكن من ملاحظة استيائي. وواصلت التحديق ولكن لأسباب أخرى. مرّت سنة لم ألتق عليّاً فيها، وفوجئت لرؤية كيسين دهنيين كبيرين تحت عينيه، وخدين مترهلين يترجّحان مع مشيته. بل إن بطنه المتكرّش أخذ يهتز مع كل خطوة يخطوها. يا لمنظره المهتزّ!

شقيقي رجل منغمس في الملذات. لذا بدا بشعاً في كبره. ولم يبذل أي جهد، منذ مراهقته، لكبح شهوته لكثير من الرذائل، بما في ذلك الإفراط في الأكل وفي التدخين. وذكرتْ أماني، القريبة من واحدة من بناته، أن عليّاً أخذ يفرط أيضاً في معاقرة الكحول.

سبق لي أن كذبت، وتسلّلت من دون أن يلاحظني أحد لاحتساء الكحول المحظور، لذلك بتّ أعرف حق المعرفة أن مثل هذه المشروبات البغيضة مضرّة بجسم الإنسان، وبنفسيته. ويسرّني القول إنني لم أرتشف نقطة واحدة من الكحول منذ سبعة أعوام، بل أكثر، مع أنني أعترف أن التوقف عن الشرب أمر صعب، لاسيما عندما تصيبني تصرّفات أولادي الشاذة، أو غضبي من زوجي، بالإجهاد والإحباط.

فجأة سمعتُ اسمي، وإذ بـ «سلطانة الصغيرة» تركض في اتجاهي. آه، يا للفرحة! تتفرّد حفيدتي الأولى، حفيدتي الأنثى الوحيدة وسميتي، بجمالها. شعرها الأسود الفاحم يصل إلى خصرها، وبشرتها الزيتونية تخلو من أي عيب. ويتميّز مظهرها بفرادة عينيها السوداوين كالليل. أنعم الله عليها بمظهر جميل نادر.

الجمال المادي عطيّة عظيمة تُمنح للمرء من دون أي جهد منه، إلا أنه لا يعني الكثير بالمقارنة مع صفات الشخص. ويرضيني للغاية أن سلطانتنا الصغيرة جاءت إلى هذا العالم، وقد خصّها الله عزّ وجلّ بذكاء رفيع وطبع مرح ونفسية طيبة وروح معطاء، تسمح لها بأن تتميّز سريعاً ممن هم أقلّ حظاً منها. وحرصَت، مذ كانت في السابعة، على الجود بلطفها وسخائها على الآخرين. وقد عمدت سلطانة، منذ سنواتها الصغيرة الست، إلى إفراغ غرفتها تكراراً من دماها المفضّلة ولُعبها وثيابها وكتبها ليتمكّن والدها من توزيعها على أجنحة الأطفال في المستشفيات المحلية أو على الفقراء في

القرى الصغيرة.

لم أنس قط اليوم الذي اكتشفتُ فيه سمة الخير تلك. كنت في زيارة لمنزل ابني عبد الله، عندما شهدت على السخاء الاستثنائي لسلطانة الصغيرة. أذكر أنني كنت في أوروبا أزور مها. مررت، في طريق عودتي إلى السعودية عبر لندن، للتسوّق من متجر هارودز وهو واحد من أماكني المفضلة. اخترت بعض الملابس ذات الماركات الفاخرة لمختلف أفراد عائلتي، ولأحفادي بصفة خاصة. واشتريت في الوقت نفسه بعض أنواع الزينة الرائعة لشعر سلطانة الصغيرة الطويل. يحتوي هارودز على عدد من الموديلات المشهورة للعقد الفريدة والأشرطة والمشابك المعدنية البراقة التي تضفي على ضفائر الأنثى بهاء. واخترت بالطبع بعض اللعب الخاصة والدمى.

تحمّست لتسليم الأشياء الجميلة إلى ولدَي ابني، سلطانة الصغيرة وشقيقها الأصغر فيصل، وهو مجرّد طفل رضيع لم يزل يحبو. كان فيصل نائماً لدى وصولي، فجلست لأستريح وأستمتع بمنظر سلطانة الصغيرة، وهي تفتح هداياها.

ابتهجت حفيدتي في البداية، وهي تتفحّص بعناية فساتينها وحقائب اليد المصغّرة وإكسسوارات الشعر والأحذية واللعب والدمى. ثم سكتت بشكل مريب. عقدت حاجبيها الصغيرين، وزمّت شفتيها الممتلئتين كما لو أنها تفكّر في أمر بالغ الجدّية هي الطفلة الصغيرة. انفطر قلبي عندما جلست عند قدمي وطوّقت ركبتيّ وقالت بصوتها الطفولي: «جدتي، لدي من الأشياء الجميلة أكثر مما تحتاج إليه طفلة».

«ماذا؟» صحت مندهشة وألقيت نظرة متسائلة على كنّتي زين، والدة سلطانة الصغيرة.

«جدتي، أخبرتنا المعلمة في الصف عن الفقراء. وعلمت بوجود أشخاص يعيشون في بلادنا لا يمتلكون ثياباً جميلة أو كتباً أو لعَباً. أريد أن أتقاسم هداياك مع فتاة صغيرة لا تمتلك شيئاً».

أعياني الكلام لمرة من المرات القليلة في حياتي. كنت أرى أن سلطانتي الصغيرة، أصغر من أن تمتلك مثل هذه الأفكار والآراء. فالجميع يعرف أن الأولاد أنانيون. وأردت لأحفادي الثلاثة أن يستمتعوا في كونهم أولاداً من دون اهتمام أو قلق. لم أدرِ ماذا أقول. لوّحت بذراعيّ في الهواء، ووجهت نظرة متسائلة إلى زوجة عبد الله: «زين؟ ما هذا؟».

وزين، المولعة دوماً بالحديث، أعياها الكلام هي الأخرى. «هذا جديد، بالتأكيد، أمر غريب جدّاً عليّ».

عاودت التركيز في حفيدتي قائلة: «يا عزيزتي، أنت لطيفة جدّاً لرغبتك في المشاركة. ومن الجيد القيام بذلك، لأن عمل الخير واحد من أكثر الأمور أهمية التي نتوقّعها من المسلمين. وأتفق معك بوجوب التقاسم. لكن ما رأيك في أن نذهب إلى غرفتك ونختار بعضاً من ثيابك ولُعَبك القديمة». وصمتّ لبرهة طويلة. «ويمكنك بعد ذلك أن تتمتّعي بالأشياء الجميلة التي أحضرتها جدتك من لندن».

حدّقت سلطانة الصغيرة إليّ بإمعان وبنظرة تحمل خيبة أمل. «أتعنين يا جدتي أن عليّ الاحتفاظ بأجمل الأشياء لنفسي، ووهب الأشياء القديمة للآخرين؟».

«نعم. هذا ما عنيته، يا دميتي الصغيرة». قلتُ ذلك، وأنا أبالغ بعض الشيء بحماستي، لأنني تقت إلى رؤية سلطانة الصغيرة وهي ترتدي الثياب التي اشتريتها.

نظرتْ حفيدتي الغالية إليّ مليّاً، ثم أجابت بحكمة وهي تلفظ كلماتها ببطء شديد: «جدتي، أليس تقديمي شيئاً لا أريده أشبه بعدم العطاء أبداً؟».

ذُهلت، وقد أعياني الكلام خجلاً، وهززت برأسي موافقة. ونهضتُ للشروع في جمع كل الكنوز التي اشتريتها لسلطانة الصغيرة وتوضيبها في أكبر أكياس الهدايا ووضعها في زاوية الغرفة وقلت لها: «نعم يا عزيزتي. أنت محقة. سوف نتحدث مع والدك للتأكد من العثور على فتيات صغيرات لا يمتلكن شيئاً. وسيصبح لديهن قريباً الكثير من الأشياء الجميلة».

غادرتُ، وقد أدركت أن عليّ، من الآن فصاعداً، أن أشتري قطعتين من كل شيء، أملاً في أن تسعد سلطانة الصغيرة في وهب مجموعة، وفي الاحتفاظ بمجموعة أخرى لنفسها.

وعندما ناقشت لاحقاً ردّ فعل سلطانة الصغيرة مع ابني عبد اللّه، لم يفاجأ كثيراً، قائلاً لي: «هذه الفتاة، يا أمي، تعلّمنا جميعاً». وابتسم بفخر.

ابني يحب ابنته حتى الجنون، خلافاً للكثيرين من السعوديين الذين لا يزالون متمسكين بقوّة برؤية الابن بدلاً من الابنة. ولقد أحب ابنته محبّة خالصة منذ اللحظة التي ولدت فيها.

يمثّل ابني الراشد كل ما حلمتُ بأن يصبح عليه. فهو ذكي، لطيف وسخي. والأهم من ذلك أنه على يقين من أن الإناث مستحقات كالذكور. وهذا أمر نادر في ثقافتنا.

لا يفكر الآخرون، لسوء الحظ، كما يفكر عبد اللّه، أقصد على سبيل

المثال، أقارب سلطانة الصغيرة لجهة والدتها، أهل زين وجدودها وأشقاؤها وشقيقاتها وأنسباؤها. ولا يستطيع حتى ابني، وهو أمير مؤثر، أن يفعل شيئاً حيال أولئك الذين يشيدون بولادة ابنه فيصل وبوجوده، فيما يتجاهلون ابنته الصغيرة. ومن حسن الحظ أن زين تواكب زوجها، وقد أصيبت هي الأخرى بخيبة أمل من تصرّف عائلتها. لكن على المرء في السعودية أن يتصرّف بحذر؛ ثم إن زين صاحبة شخصية لطيفة ومُحبة تتحاشى المواجهة.

وهكذا قُدّر ألّا تكون حياة حفيدتي مثالية، بالرغم من أنها وُلدت أميرة ثرية. وعليها أن تتعامل مع مشكلة ولادتها أنثى على هذه الأرض، طفلة من دون قيمة حقيقية، بالرغم من أنها تعني القمر والنجوم لوالدها ووالدتها وجدّيها لأبيها.

لكن سلطانة الصغيرة تواجه هذه الأحكام المسبقة بحكمةِ من هو أكبر منها كثيراً. وهي، بالرغم من أنها قوية كجدتها سلطانة، فإنها تواجه خصومها بحكمة وهدوء، على عكس أسلوبي العدائي في مواجهة التمييز على أساس الجنس.

وبوصفي امرأة حاربت طوال حياتها لتوعية أولئك الذين يحتقرون النساء، وينتقصون من قدرهنّ، لم تؤدّ ردود فعل كهذه حيال حفيدتي الغالية إلى التسبُّب في حزني فحسب، بل أثارت في داخلي أيضاً الكثير من خيبة الأمل والغضب. إلا أنني تعلّمت على مرّ السنين أن المرء لا يستطيع أن يجبر أحداً على تبنّي معتقداته وقيمه. وقد تنجح حفيدتي حيث أخفقت، لأنها تمتلك شخصية أكثر مرونة من شخصية جدتها. وأخشى أنني كنت في الماضي على قدر كبير من العدائية، ما أبعد الناس عني.

تعيش سلطانة الآن وقتاً طيباً، وهي تشارك في حفلة العائلة، وتصيح فرحاً كما لو أننا لم يرَ أحدنا الآخر منذ أشهر، في حين أنني قضيت معها ساعات في اليوم السابق.

«جدتي! جدتي!»، صاحت سلطانة الصغيرة وهي تقترب ملوّحة لي بيدها لأنحني، فتتمكن من تقبيل وجهي، وتقدّم إليّ خديها الفاتنين لأقبلهما.

اقترب عليّ مني وأنا أمرّغ أنفي في ضفائرها المعطّرة، وقال وهو يلكزني: «سبحان الله، تلك الجميلة الصغيرة ستصبح زوجة من الدرجة الأولى لرجل ما».

استدرتُ كالنمر الغاضب نحو شقيقي البذيء الذي يظن بالفعل أن حفيدتي ستصبح أَمَةً لرجل ما، وربما لحفيد منفلت من أحفاده على شاكلته. وفححت في أذنه، من دون أن تتمكن سلطانة الصغيرة من

سماعي: «لسانك يدور بالبشاعة، يا شقيقي، ويتفوّه بالكلام المقزّز. هذه الفتاة لن تكون خادمة لأي رجل».

كشّر عليّ كالعادة مندهشاً من جوابي اللاذع، لأنه عاش حياته كلّها من دون أن يكيّف فلسفاته مع الأفكار التقدمية. وهو لا يمتلك أي فكرة عن جهله معنى الإنسانية. وأخشى من أنه سيبقى، عندما يأخذه اللّه من هذا العالم، مقتنعاً بأن النساء جميعهن لم يولدن إلا لخدمة الرجال في غرفة النوم وفي المطبخ.

أسرعت سلطانة الصغيرة في ذلك الوقت للترحيب بمها التي سارت إلى الغرفة بثقة، وبتلك القوة المدهشة التي تمتلكها امرأة تدرك أنها تسيطر على وضعها. استدار الجميع للنظر إلى ابنتي المفعمة بالحيوية التي تكبر مع كل سنة ليصبح جسمها أكثر روعة.

سألت اللّه أن يتيح لمها نبذ عداوتها لبلادنا وتقاليدها إلى أن تنتهي الأمسية.

لاحظ شقيقي هو الآخر دخول مها. ولم يكن يتمتع بعلاقة طيبة مع أي من ابنتيّ، ربما عُزي ذلك إلى أن مها وأماني قد حظيتا بتربية أكثر دفئاً وتساهلاً من بناته. تعرف ابنتاي أنهما محبوبتان، وأن والديهما يقدّران مشاعرهما وآراءهما؛ فيما تعيش بنات عليّ في خوف منه.

استمتع عليّ بما عانيته من مشكلات مع ابنتيّ. «آه، يا سلطانة»، ردّ بابتسامة الراضي عن نفسه، وهو يحملق بمها: «خانتني ذاكرتي حتى الآن. أفترض، وقد عادت مها، أن المصيبة تزورك. أسامحك على انفعالك، يا شقيقتي الصغيرة».

أخذ انفعالي يتزايد بالتأكيد، إذ شعرت بالحرارة تفور من جسمي كله. وكاد لساني يطلق توبيخاً لاذعاً عندما سارت شقيقتنا سارة إلى جانبنا نازعةً فتيل الموقف. «عليّ، يا شقيقي، حضّرنا لك أطباقك العربية المفضلة خصيصاً على ذوقك». وبعد أن جالت سارة بنظرها في أنحاء الغرفة، تابعت قائلة: «أخبرنا، أين سيتا؟».

سيتا هي آخر زوجات شقيقي، المرأة الثامنة التي يتخذها منذ زواجه الأول وهو لا يزال شاباً. ولا يجيز الإسلام لعلي، أو لوالدي، إلا الزواج بأربع في وقت واحد. إلا أن الرجلين تعوّدا تطليق الزوجات اللواتي يغضبنهما، ليتمكّنا من الزواج بنسوة أصغر سنّاً.

سيتا امرأة ذات جمال أخاذ، وهي من عائلة سنّية سورية فقيرة. وسبق لسلمان، وهو أحد أصغر أبناء عليّ، أن التقى شقيق سيتا في مقهى بدمشق خلال إجازة له في تلك المنطقة. وأشار شقيق سيتا إلى أن أخته الكبرى على قدر كبير من الجمال، وأن

أهله يحتفظون بها لمن يحمل وزنها ذهباً. وما إن يتقدّم مثل هذا الشخص حتى يجري الاتفاق على المهر الذهبي. واهتم سلمان، وقد بلغ السن التي يتوق فيها كل شاب إلى الزواج، بالمرأة التي وُصفت له بأنها أكثر جمالاً من نجمة سينمائية. وطلب رؤية صورة لها. وجيء في النهاية بالصورة؛ فأغرم سلمان بها على الفور. إذ بلغت المرأة الشابة حدّاً من الجمال أثارت معه أحلام الشاب الذي غادر سورية والصورة في جيبه عائداً إلى السعودية ليخبر والده بالقصة.

اهتم عليّ، ولكن لسبب آخر. وحين شاهد شقيقي المتآمر سحر الفتاة العتيدة وجمالها، سأل عن عمرها مباشرةً. ووجد عذره لدى معرفته أنها تكبر ابنه سلمان بثلاثة أعوام. وأصرّ على أن الفتاة كبيرة جدّاً قياساً على فتى في الحادية والعشرين من عمره. ورفض عليّ بتصلّب طلب سلمان الذهب لدفع المهر، بالرغم من أن المبلغ لا يتجاوز ما ينفقه شقيقي شهرياً على توافه الأمور.

تجاهل عليّ الخالي من الشعور توسّلات ابنه، ليبعث بعد أسبوع بممثل عنه يلتقي العائلة لتدبير زواجه هو بسيتا. ولم يساوم، بل دفع المهر المطلوب وهو وزن سيتا ذهباً. وجاء الثمن باهظاً، لأن سيتا فتاة طويلة القامة، وبالرغم من أنها ليست بدينة لكنها غير نحيلة أيضاً.

وقالت لي سارة: «آه، يا سلطانة، غادر ابن عليّ قصر والده في ثورة غضب نادرة، وهو يرفض العودة إلى المملكة. قد لا يعاود التكلم مع والده قط، ومن يستطيع أن يلومه؟».

وليس مفاجئاً، بحسب سارة، أن المسألة أضحكت عليّاً. أجبتها بغضب: «شقيقي عديم الروح». فمن المؤكد أن معظم الرجال يريدون إرضاء أبنائهم وإسعادهم، لكن عليّاً يضع نفسه دوماً قبل الآخرين، ولو كان ابنه.

تولّد لدي بداية شعور بالأسى على سيتا، لأن قلبي ينفطر على كل امرأة متزوجة من أخي. لكنني لاحظت أنها سعيدة بالزواج من الثروة، حيث إنها لم تلاحظ أن زوجها بدين ويكبرها بأكثر من ثلاثين سنة؛ بل إنه يبدو أكبر من عمره. وفي الواقع، قالت سيتا لنا صراحة في حفل أقيم لإحدى بنات أخي: «لا يزال أهلي مغتبطين، لأنهم حققوا الثروة. وقد أصرّ عليّ أن يحتفظوا بذهب المهر. وها هم قد شيّدوا منزلاً جميلاً، وعمدوا إلى إرسال إخوتي الأصغر مني إلى واحدة من أفضل المدارس. وقد وظّف زوجي الطيّب ثلاثة من أشقائي الذين باتوا يستطيعون الآن أيضاً دفع مهر الزواج. وجميعهم يخططون للزواج هذه السنة».

لم أستطع تخيّل عليّ يظهر أي مشاعر رقيقة لسيتا، بالرغم من

قول سارة إنها لاحظت اهتمامه الشديد بأحدث زوجاته. وافترضتُ أن علياً قد عبّر عن مشاعره لسيتا بسبب النشاط الجاري في غرفة نومهما، إلا أن سيتا نفسها لم تبدُ مستاءة، فوفّرتُ تعاطفي للأخريات، لأولئك اللواتي يعانين فعلاً.

تناهت إلى سمعي عند هذا الحد جلبة، ونظرتُ نحو المدخل، حيث أخذ والدي المُسِن يشق طريقه إلى الغرفة. وقف منتصباً ولكن بشق النفس. أمسكه اثنان من خدمه بذراعيه، فيما وقف ثالث وراءه تحسّباً من زلّة قدم إلى الوراء. فقد أخذ والدي يقترب من نهاية حياته، ولانت مشاعري تجاهه عبر السنين، بالرغم من تاريخ علاقتنا المتفجّر، لأن كل ابنة تتوق إلى عاطفة أبيها.

سار متثاقلاً إلى الغرفة، ليحيط به جميع مَن في الحفلة تقريباً. واغرورقت عيناي بالدموع على منظره الهزيل، وأنا أتذكّر ما كان عليه هذا الذَكَر من قوة وجبروت. جهدتُ في الآونة الأخيرة أن يقتصر تفكيري على إيجابياته. حاولت أن أتلطّف معه، وأعتقد الآن بوجود الكثير من الأمور التي يُشكر عليها. فوالدي كان سبباً في أن الكثيرين من الأناس الطيبين يعيشون على وجه هذه الأرض.

ووالدي، كعليّ، خبير في طلاق زوجته الأقل حظوة لديه فاسحاً المجال لزوجة جديدة. وبذلك يكون قد تزوّج من 12 امرأة خلال حياته الطويلة. رزقته تسع منهن أولاداً بلغوا 27 ابنة و20 ابناً، لا يزال 45 منهم أحياء يُرزقون. ووهبت بناته وأبناؤه الحياة لكثير من الأحفاد الذين شرعوا في إيلاد أولاد الأحفاد. والأمر الجيّد أن عائلتنا جمعت ثروة كبيرة في ظل وجود كثير من الأفواه التي يجب إطعامها، وكثير من العقول التي يجب تثقيفها، وكثير من الأجسام التي تتطلّب الملبس والمأوى.

لم يكن والداً محبّاً لبناته، لكنه تحمّل جيّداً أعباء عائلته، وهو أمر يُحتسب له، على ما أفترض. وبالمقابل، أحبّه أبناؤه وأحفاده حبّاً جمّاً، لأنه لم يظهر إلا العاطفة لكلّ من وُلد ذكراً.

قبل أعوام عدة، مازح أولادي والدهم فأهدوه كرسيّ عرش رائعاً مطعّماً بالجواهر المزيّفة. وقالوا، بشكل مؤثّر جدّاً، إنهم يعرفون أنه لن يصبح أبداً ملكاً على السعودية، لكنه في أعينهم ملك. وزوّدوا العرش بمقعد مذهّب وحجارة مرصّعة تتراصف على خلفية أرجل الكرسي. وهو عرش على درجة كبيرة من الروعة، أثار الكثير من الحديث المبهج مع ضيوفنا الذين اعتقد الكثير منهم أن الجواهر والذهب أصليان.

لم يسبق لوالدي أن رأى العرش، وها هما عيناه تشعّان فرحاً عندما وقعتا على الكرسيّ الفاتن. وأشار إلى عبد الله بأنه يرغب في

الجلوس عليه.

ابتسم الأولاد كلّهم، وصفّقوا، فيما احتلّ والدي مقعد الشرف. وها هو أشبه بالحاكم الصالح. فقد جلس وراح ينظر إلى بحر من الوجوه التي يوزع عليها ابتساماته. بل إنه ابتسم ابتسامة عريضة لبناته وحفيداته وبنات حفيداته.

شعرتُ بالسعادة، وفرحتُ بأن والدي يحظى بلحظة نادرة من فرح الشيخوخة. سبق لسارة ان أخبرتني أنه يشعر بالمرارة الشديدة في قلبه على تقدمه في السن وعجزه، وبات ذات مزاج شرس.

ثم لاحظتُ عبد اللّه وأماني وهما يغادران الغرفة ليعودا سريعاً مع ابنيهما لتقديمهما إلى جدّهما الذي لم يسبق له أن رأى أياً منهما. احتضن عبد اللّه ابنه فيصل، فيما توسّد خالد بسعادة ذراعي أماني. وقفتُ أراقب بصمت والدي وهو يبتسم بسعادة ويعبّر بهزّة رأسه عن رضاه على حفيديّ. وجرى كل شيء على ما يرام إلى أن هرعت سلطانة الصغيرة المتحمّسة لتقف إلى جانب والدها. هبط قلبي خوفاً من أن يعمد والدي إلى إهانة حفيدتي تماماً كما ازدراني وأنا طفلة.

لكن سلطانة الصغيرة لم تعرف الحذر من والدي. ونظرت بإمعان إليه وإلى العرش الجالس عليه. وفي خطوة أدخلت السرور إلى قلب الجميع، انحنت أمامه انحناءة عميقة وتامة.

استمتع والدي باللحظة، وهو يبتسم بسعادة لابنة عبد اللّه. أعتقدُ أنه شعر في هذه اللحظة بأنه ملك حقيقي. داعب بيده رأس سلطانة ووجهها، وجاملها بقول ما. وظهر تعبير من السعادة المحض على وجه سلطانة. فانعكست هذه السعادة على وجه عبد اللّه. وشرع أقاربي في التصفيق والهتاف، لأنهم شهدوا على أمر لم يحلم أي منّا قطّ بأنه سيحدث. كان والدي قد أولى اهتمامه التام وأبدى إعجابه الصريح بطفلة أنثى.

عندها خطا كريم إلى جانبي واحتضن بذراعه خصري وقرصني قرصة لطيفة بيده. تبادلت أنا وزوجي نظرات عميقة، ونحن ندرك أن كلاً منا سعيد بالقدر الذي يمكنه فيه أن يكون سعيداً. فهناك لحظات في العمر يبدو كل شيء فيها مثالياً، وهذه واحدة من تلك اللحظات.

الفصل الثالث

والدي

خبرتُ في أوقات كثيرة من سنوات العمر، شعورين متناقضين متزامنين: الفرح والحزن. ففي تلك الأمسية الرائعة، أخذت العلاقات العائلية تتوطّد بشكل جميل، وأدخلت إلى قلبي فرحاً نادراً بصلة القربى. وخشيت، لما أعرفه عن ابنتيّ، أن ينشب بينهما خلاف يخرّب الحفلة قبل انتهائها. أملت بألا يحدث ذلك، لأنه سيجعل الحزن يطغى على المتعة.

لكنْ تلت ذلك فورات من الفرح مع وصول المتأخرين إلى الحفلة. دخل أسد، زوج سارة المخلص والمحب أبداً، بابتسامة عريضة ويده ممسكة بيد ابنتهما الجميلة نشوة.

ونشوة هي المولود الثاني لشقيقتي، وُلدت في اليوم نفسه الذي أنجبتُ فيه أماني، ثالثة ذريّتي وآخر العنقود. وقد كانت كل من ابنتينا تتمتّع منذ ولادتها بشخصية معقدة وإشكالية. والحقيقة أنني، برغم ما سببته أماني لي من متاعب، أفضّل متاعبي معها على التحديات التي واجهتها سارة مع نشوة. فقد امتحنت نشوة، في مناسبات كثيرة لا يسعني إحصاؤها، ما تكتنزه سارة من صبر.

وصْفُ نشوة في صباها أمر شائك. وكيف يستطيع المرء أن يصف قوة التسونامي وبأسه؟ وبصريح العبارة، فإن أفضل توصيف لنشوة هو أنها كانت ابنة صاخبة في سنوات طفولتها، وجامحة في سنوات مراهقتها؛ لتصبح، في ما يشبه الأعجوبة الإلهية المفاجئة، ابنة مثالية يوم عيد ميلادها التاسع عشر بالذات. الفتاة التي اتصفت في الماضي بالصخب والإزعاج، أصبحت شابة هادئة قانعة، متألقة الذكاء. ووجّهت الطاقة، التي صرمتها من قبل على أمور محظورة في حياة المرأة السعودية، إلى دراساتها. وعلى غرار الانفجار الشمسي غير المتوقع والمبهر على الأرض، تبدّلت نشوة فجأة من فتاة شقّية إلى فتاة عاقلة.

كانت علامات نشوة المدرسية سيئة من قبل، إلى درجة لم تكن تستطيع أي مدرسة في المملكة العربية السعودية قبولها لو لم تكن أميرة. غير أنها شرعت، بعد ذلك اليوم المحيّر، في الارتقاء إلى قمة صفّها في سنتها الأولى في المعهد. وسرعان ما تخطّت جميع زميلاتها في الدراسة. وأعربت من ثَمّ عن اهتمامها بالهندسة، وانتقلت إلى إحدى الجامعات المرموقة في الولايات المتحدة لعدم وجود جامعة في السعودية تستوعب طموحاتها. وتخرّجت بإجازة في المجال الذي اختارته. وحصلت على أعلى العلامات والتكريم. ولم تسعَ، لدى تخرّجها، إلى البقاء في الخارج على غرار ما فعلت ابنتي

مها؛ بل تلهّفت للعودة إلى السعودية، واستخدام علمها وموهبتها في تصميم عدّة مبانٍ في جدة لاقت الثناء على فرادة تصاميمها. وذكرت سارة بتعجُّب، أن ابنتها التي تميّزت في السابق بالمكر والخداع، باتت جدّية ومتفرغة لعملها، فلا تتحدّث إلا عنه ولا تهتم إلا به.

وبقي مع ذلك همّ واحد يجثم على قلب سارة. أخذت شقيقتي تزداد انزعاجاً لأن نشوة لم تبدِ أي اهتمام بالزواج وإنجاب الأولاد، حتى بعد أن أكّد لها والدها أن في وسعها أن تبني حياتها المهنية وحياتها كزوجة وأم معاً. ونشوة، مثل مها، محظوظة للغاية، لأنها من أفراد العائلة المالكة وابنة رجل يريد لبناته التفوّق.

أنعم اللّه علينا، أنا وسارة، بلقاء الرجلين اللذين تزوجناهما، وهما شقيقان لهما مواقف متشابهة حيال الحب والزواج والأولاد. ولم يُظهر أي من كريم أو أسد أي تمييز على أساس الجنس في ما يتعلّق ببناتهما.

شعرت سارة دوماً، أن ابنتينا تتشاطران حتماً تفاهماً نادراً وألفة طبيعية لأنهما تحتفلان بيوم الميلاد نفسه. وشهدت سارة كيف تبنّت أماني بشكل رائع فكرة الزواج والأمومة، وشرعت تحلم بأن تؤثر تلك السعادة والرضى في نشوة. واقترحتْ عليّ تكراراً: «سلطانة، أرجوك أن تقومي بدعوة نشوة لزيارة عائلتك في الأيام التي تأتي فيها أماني مع صغيرها خالد».

لم أستطع كبح ضحكتي على اقتراح شقيقتي العزيزة التي نسيت حقيقة تاريخ أماني مع نشوة. فابنتانا في الحقيقة لم تحب واحدتهما الأخرى قط. كانتا وهما صغيرتان رفيقتي لعب ليس إلا، بسبب وجودهما الدائم معاً. وحين توجّت أماني في مكة لقاءها الديني مع اللّه الذي بدّل حياتها، أسقط كلّ ادعاء بالصداقة. وهذا خطأ أماني. شرعت ابنتي في ملاحقة ابنة عمها الرعناء الطائشة، باذلة أقصى جهدها لهداية نشوة إلى طريقتها الأصولية في التفكير والحياة. وقاومت نشوة كل محاولاتها؛ بل بدا في الحقيقة أنها تنفر منها. وبالفعل شعر كثير من أفراد العائلة أيضاً، أن طريقة حديث أماني وتصرّفها لا يطاقان. كما لم يتمكن شقيقها وشقيقتها من تحمّل انتقاداتها الحادة والعدائية.

ولا أستطيع قط أن أنسى ذلك اليوم المهول الذي كادت فيه رنا، ابنة شقيقتي الكبرى نورا، تُقتل وهي تحاول الهروب من أماني.

كنت يومها في زيارة لنورا وبصحبتي مها وأماني. ففي حين ترفّه بناتنا عن أنفسهن معاً، نستمتع أنا ونورا بجلسة مسلّية ونحن نثرثر حول ما يحدث في عائلتنا، آل سعود، الكبيرة. فبوجود الآلاف

من العمّات والخالات والعموم والأخوال والأنسباء، هناك دوماً قُصص فاتنة تُكشف وتُشرّح. ونكون أحياناً في مزاج جيد لاستعادة الذكريات. وقد نصرف ساعات نستذكر فيها تلك الأزمنة البريئة مع والدتنا المحبّة، مستعيدتين قصصاً صغيرة عن المرأة الاستثنائية التي وهبتنا الحياة، وأحبتنا، وسعت إلى تعليمنا الصواب من الخطأ؛ والأهم من ذلك أنها كافحت لحماية بناتها العشر من والدهن الصارم.

جرت تلك الزيارة بعد يوم واحد على اعتماد أماني التطرُّف في تديّنها. استقبلتنا نورا بودّ، وهي من أهدأ سيدات العالم وأكثرهن لطفاً، ونادت ابنتيها الصغريين لتناول الشاي معنا. وعند إحضار الشاي، دهشنا جميعاً من السندويشات الصغيرة كالإصبع التي صُنعت تماماً كتلك التي تُقدّمها أفخم فنادق لندن مع شاي بعد الظهر.

علّمت نورا أولادها آداب السلوك، الأمر الذي يُجبر ابنتيّ الصعبتي المراس في العادة على التصرّف بالمثل والجلوس بهدوء وهما تتناولان الطعام الشهي، خصوصاً وأنهما استغرقتا في النوم حتى ما بعد موعد الغداء. وهكذا بدأت الزيارة الاجتماعية ناجحة بما فيه الكفاية.

ومع انتهائنا من تلك الوليمة الصغيرة، نطقنا جميعاً بعبارة «الحمد للّه» التقليدية. وواصلت العزيزة أماني القول لمضيفتنا السخية، «أنعم اللّه عليكِ، كثّر اللّه خيرك». سُرّت نورا بهذه التمنيات الطيبة من أماني، وأشرقت الابتسامة على وجهها.

ربّتُّ على ركبة طفلتي لأعلمها بأنني مسرورة من تصرّفها.

في هذا الوقت، دخلت إحدى خادمات نورا، وهي سريلانكية خجولة، الغرفة لإخراج الأطباق والفوط. وظهرت خادمة أخرى تحمل الماء الفاتر لغسل أيدينا. وانسابت المياه من بين أصابعنا إلى طاسة صغيرة من الخزف مخصصة لهذا الغرض. واستخدمنا ذلك الماء لمسح شفاهنا وأفواهنا. وتناولنا مناديل صغيرة لنجفف أفواهنا وأيدينا.

وكالعادة، دخلت خادمة ثالثة المكان وهي تلوّح بمبخرة صغيرة يتصاعد منها دخان البخور الذي دفعته كل منّا نحوها بيدها اليمنى. وأخيراً سكبت خادمة رابعة عطراً لطيف الرائحة على أيدينا.

انتعشنا جميعاً وسار كل شيء على ما يرام، وها نحن نتشوق إلى ساعات عدة من الزيارة وتبادل الأخبار.

اعتذرت رنا، صغرى بنات نورا، بتهذيب وغادرت الغرفة لإصلاح حمرة شفتيها. وعادت وهي تحمل بيدها علبة صغيرة مطعّمة بالحجارة قائلة لمها: «انظري إلى هذه العلبة. حجارتها تبدو مثل الماس

لكنها ليست ماساً». وضحكت ضحكة مكتومة وقالت: «لم أعد أشتري جواهر حقيقية، لأن أمي تقول لا يجوز أن نهدر المال، وإن النفط المستخرج من الأرض سيختفي يوماً ما».

«هذا صحيح جدّاً يا رنا»، قالت مها موافقة بإيماءة. وقد أدركت مها، وهي في عمر صغير، شؤون كوكبنا الأرضي وما يُهدر فيه من الموارد الطبيعية الكثيرة. ولم تكن مها الفتاة التي تطلب أكثر مما تحتاج إليه، وها هي تنظر الآن إلى رنا بتقدير كبير، فجميعنا نحب من يشاركنا في أفكارنا.

ابتسمت رنا بإشراق، وهي تشعر بأنها جزء مهم من أجزاء فترة بعد الظهيرة تلك. ولفتت ابتسامتها العريضة الانتباه إلى طلاء شفتيها، الجريء جدّاً، ذي اللون الليلكي المتوهّج كضوء النيون، وهو في تلك الأيام أمر لا يشاهده المرء عادة في السعودية المحافظة.

فجأة تحوّلت الزيارة الممتعة إلى كابوس فظيع. فقد عمدت أماني، من دون أن أتمكن من تخيّل السبب، إلى انتقاد ابنة خالتها بشكلٍ جارح. على الرغم من أنها تحدّثت بصوت خفيض، لكن كلماتها تميّزت بالقسوة: «أنت، يا رنا، مغطاة بالإثم مع ذلك الكحل الأزرق البشع على رموش عينيك والصبغة الرهيبة تلك على شفتيك الكبيرتين. أرجوك يا ابنة خالتي العزيزة أن تتذكري أنك مسلمة، وأن ما تفعلينه قد حرّمه الله بنفسه».

«أماني!». شهقتُ خجلاً. «اعتذري من ابنة خالتك». والتفتُّ إلى نورا فوجدتها في حال من الذهول. «نورا، يا شقيقتي العزيزة، أنا أعتذر عما صدر عن ابنتي من كلام وقح».

«لا تعتذري عنّي، يا أمي»، همهمت أماني بغيظ، «فأنا أحاول فحسب أن أساعد ابنة خالتي على العيش بحسب الوصايا. وعليكِ أن تنضمي إليّ في مساعدة رنا على عيش حياة المؤمن». نهضت أماني، وشرعت في السير نحو رنا لكيل المزيد من الإدانات. عندها هربت رنا المسكينة من الغرفة، وهي تجهش بالبكاء وقد أحزنها، بشكل يثير الشفقة، ما صدر عن ابنتي من كلام قاس.

تطلّعت نورا إلى أماني وهي غير مصدّقة، لأن نورا تمتلك القلب الطيّب لامرأة لا تجرح أبداً مشاعر امرأة أخرى. وقد ربّت أولادها على القدر نفسه من مراعاة الغير. واستخدمت نورا الجالسة يديها لتدفع بنفسها إلى الوقوف، ثم تحرّكت بأسرع ما يسمح لها به جسمها الثقيل وهي تنادي رنا: «لا تهربي، يا ابنتي العزيزة».

نهضت مها ودفعت شقيقتها بيديها. ومها فتاة طويلة القامة وجسيمة، قوية وعاتية، في حين أن أماني نحيلة.

«أماني!»، صاحت مها، «أمجنونة أنت أم مجرّد لئيمة؟». ونظرت مها إليّ وقالت: «إنها لئيمة، يا أمي!».

أومأتُ بحزن موافقة. لم أستطع إنكار أن كلام أماني هو في الغالب قاس. لكن ليس هناك عذر لمثل هذه العدائية مهما بلغت قوة تمسكها بآرائها.

وقفتُ عاجزة وأنا لا أزال غير متأكدة مما أستطيع فعله لإعادة السرور والفرح إلى لقائنا ذاك. وعندما سمعت رنا تصرخ بقوة، هبط قلبي يأساً. تذكّرت فجأة ما أخبرتني به نورا عن كثير من لحظات التعاسة التي قاستها رنا خلال العام الماضي. فقد طفحت بشرة وجهها في البداية ببثور كبيرة حمراء لسبب لم تستطع طبيبة الجلد تشخيصه. وشرعت رنا في ارتداء حجابها ليل نهار. وأخبرتني أمها أنها تنام مرتدية الخمار كي لا ترى الخادمات، اللواتي يدخلن الغرف الخاصة أحياناً، تلك البثور الحمراء. وقبل أن تُشفى من تلك البثور الدميمة، وقعت على الدرج الرخامي في منزل عليّ، لأنها لم تتمكن من الرؤية بوضوح بسبب الحجاب الذي ارتدته لإخفاء البثور في وجهها. وكسرت أنفها بسبب شدة انحدار الدرج. ومنذ تلك الحادثة، ظهرت كدمة بشعة على أنف رنا؛ وكرهت الفتاة المسكينة بشدّة هذه العلامة الجديدة في وجهها، إلى حدّ أنها قضت الكثير من الساعات البائسة تنتحب وتبكي لاعتقادها أنها فتاة بشعة؛ واعتقدتْ أن ما من رجل سيتزوجها، بالرغم من أنها أميرة واسعة الثراء.

حطّمني أن تفرض أماني آراءها الشخصية حول ما يجب أن تفعله الأنثى وما يجب ألّا تفعله بشأن مظهرها الشخصي، وخصوصاً عندما يتعلّق الأمر بواحدة من العائلة تتملكها بالفعل مخاوف جدّية من مظهرها.

سارعتُ إلى إرسال أماني المتجهمة مع سائقنا إلى المنزل. ولم أُتعب نفسي حتى بتحذير ابنتي من العواقب المترتبة على مثل هذا اللؤم. فكريم لا يستطيع تحمّل الخشونة تجاه الآخرين، وهو الذي سيتولى التعامل مع ابنتنا.

وقررنا، أنا ومها، أن نستعين بأحد سائقي نورا بعد أن نكون قد اعتذرنا كما يجب، ونعيد التأكيد لرنا أنها فتاة جذابة جداً، وبأنني أنا شخصياً قد أضع لون أحمر الشفاه الذي وضعته. وقررت في الواقع، وفي تلك اللحظة، أن أشتري بعضاً من ذلك اللون، وأضعه في المرة المقبلة التي ألتقي رنا فيها.

غير أنني كنت في تلك اللحظة وسط أزمة بالغة. لم نستطع العثور على رنا. وقاربنا، أنا ونورا، الحالة الهستيرية ونحن نواصل البحث في المنزل. وساعدنا الخدم في البحث تحت كل سرير وكل خزانة وصوان

ومغطس ومرذاذ، بل وراء كل أجمة في حديقة النساء، ولكن من دون جدوى. ذعرت من فكرة أن تكون ابنة شقيقتي قد تأذّت بفعل ما تلفظت به ابنتي من كلمات قاسية. وأنا شخصياً لم أكن لأتعافى من مثل هذا الأمر.

وسمعنا بعد ثلاث ساعات من البحث المحموم صوت مها يدوّي في جميع زوايا قصر نورا. «رنا هنا! رنا هنا!».

تطلعت إلى نورا وهكذا فعلت؛ ثم صاحت: «الحمد لله! عثرنا على رنا!».

لكن كان علينا أن نتلقّى المزيد من الأخبار السيئة. توقّف قلبي فعلاً، لثوانٍ على الأقل، عندما تبعتُ أنا ونورا صوت مها في غرفة واسعة تعود إلى جزء من القصر لم يسبق لي أن رأيته. وهي مخزن للطعام فيه سبعة برادات وعشر ثلاجات كبيرة مركونة على الجدار.

لفّت الفتاة المسكينة جسمها بشرشف وحشرت نفسها في ثلاجة كبيرة جديدة فارغة. لم تصل درجة البرودة فيها إلى الحد الذي يسمح باستعمالها. ومن حسن الحظ أن الشرشف كان كبيراً جداً لأن زوج نورا صنعه خصيصاً لسريره الكبير الحجم. وكان زوج أختي من أكثر رجال آل سعود طولاً وبدانة، ويحتاج بالتالي إلى ما يلبّي ضخامة جسمه. لذلك علِق قسم كبير من ذلك الشرشف في باب الثلاجة سامحاً بدخول ما يكفي من الهواء لإنقاذ رنا من الاختناق!

أطلقتُ شهقة طويلة عندما نزعت نورا الشرشف عن جسم طفلتها. فقد تحوّل وجه رنا، بفعل البرد، إلى طيف غريب من اللون الأزرق. وكانت دموعها قد تحوّلت إلى متدلّيات متجمّدة تشبه بعض المتدليات التي شاهدتها قبل سنوات في كهوف زرتها أنا وكريم في أوروبا.

لم يسبق أن شعرت بهذا القدر من القنوط، وأنا أنظر إلى وجه تلك الفتاة شبه المتجمّد، وأرى تعبير الذعر على وجه نورا. وكان أفضل ما فعلته أنني أرسلت أماني إلى المنزل، لأنني كنت قد ضربتها لو أنها بقيت معنا.

نقلت مها واثنتان من الخدم رنا إلى سرير والدتها، وغطّينها بخمس بطانيات، وأعطينها حساء وشاياً ساخنين. وعندما استلقت نورا على السرير قرب ابنتها، وراحت تحتضنها وتغطّي وجهها بالقُبَل، استأذنتُ أنا ومها بالمغادرة، ونحن نستند واحدتنا إلى الأخرى في حالة من البؤس والحزن.

لفّني ضباب من اليأس، إلى حد أنني لا أتذكّر إلى اليوم العقاب الذي أنزله كريم بأماني. لكنني أعرف أنها باتت منذ تلك الحادثة أكثر

تحفّظاً في هجماتها الكلامية.

تحاشت رنا، منذ ذلك اليوم بالطبع، مقابلة أماني. ومن يستطيع لوم الفتاة المسكينة؟ لم تحضر أي من بنات نورا عرس أماني، وعذرتهن.

لم أستيقظ قط من صدمة ذلك اليوم. ولفّني العار بالرغم من أن شقيقتي بقيت محبّة ولطيفة حتى الثانية التي لفظت فيها أنفاسها. وبقيتُ، ونورا على فراش الموت، أنتحب وأعتذر عن تلك الواقعة البغيضة التي تسبّبت بها ابنتي. ولن أنسى أبداً كيف أن شقيقتي اللطيفة رفعت إصبعها ووضعتها على فمي، وهي تطلب مني بطريقتها الخاصة أن أنسى ذلك اليوم الذي مرّ عليه زمن طويل.

انقضت سنوات كثيرة على وفاة نورا، وأنا أفتقدها بشدّة، وهي التي أصبحت، بعد وفاة والدتي المحبوبة، بمنزلة أمي.

أطلقتُ تنهيدة عميقة وحزينة، وأنا أفكّر بشقيقتي المتوفاة، وعدتُ بانتباهي إلى الحفلة والأمسية اللتين تنتظراننا. جلت بنظري في أنحاء الغرفة، وأنا أبحث عن شقيقتي سارة. خمّنت أنها قد تستخدم الأمسية لتشجّع التقارب بين أماني ونشوة. وعارضت مثل هذه الخطة لأنني أعرف أماني تماماً. وهذا الأمر لن يحقّق أمنيات سارة، لأن نشوة وأماني لن تغيّرا المسار الذي اختارته كلّ منهما لنفسها. وإحداهما امرأة مستقلّة تجيد عملها؛ بينما لم تبغِ الأخرى ما هو أكثر من خدمة زوجها وحمل أولاده. وابنتانا سعيدتان في خيارهما. وقد علّمتني السنون أمراً زعم كريم دوماً أنه مستحيل، وهو أن أصمت ولا أحاول تغيير ما لا يمكن تغييره.

هززت رأسي غير مصدّقة، وأنا أرى سارة تهرع عبر الحشد العائلي الصاخب لبلوغ ابنتها في محاولة لاستمالتها وجرّها إلى حلقة أماني. حملت شقيقتي المبتسمة الصغير خالد، ورفعته قريباً من وجه نشوة في محاولة لجذبها بجمال ذلك الصبي الصغير. وأطلقتُ تنهيدة من الحب الخالص لشقيقتي. فمن المؤكد أنها لن تكفّ عن محاولة تأمين ما تعتقد أنه منتهى السعادة لجميع الذين تحبّهم.

أشكر الله في كلّ يوم، لأنه اختار أن ينعم عليّ بشقيقة محبّة مثل سارة.

لفتت عدة أصوات نسائية انتباهي بعيداً من سارة. آه! هناك زائرة مفاجئة. إنها منيرة، ابنة شقيقي التي عانت طويلاً، تظهر بشكل غير متوقع في الحفلة. «منيرة»، قلتها وأنا أتوجّه سريعاً إلى جانبها، «أنت ضيفة هذا المساء المفضّلة».

وأومأتْ برأسي إلى ابنها البكر، الصبي العزيز الذي بات الآن

الوصي على ابنة شقيقي.

ابتسمت منيرة بسعادة للمرة الأولى منذ أعوام كثيرة، وهي تسترسل في معانقتي وتقبيلي. «آه، يا عمّتي، شكراً لأنك دعوتني. هذه أول مرة أخرج فيها منذ... أنت تعرفين...».

التقت عيناي بعينيها وغمزتُها موافقة، ومومئة أنني فهمتُ. لم أخبر منيرة بأنني وشقيقاتي احتفلنا في الواقع بعد أن تعرّض زوجها هادي لذبحة قلبية قوية، أدت إلى موته. وقد فرحنا لأن ضحاياه من النساء سيستعدن أخيراً حريتهن قريباً. رأى الله، قبل أربعة أشهر، أن الوقت قد حان لإنهاء حياة هادي المكروه على الأرض، وهو الصديق الأكثر خساسة لشقيقي عليّ. بعد موت هادي، تحرّرت ابنته من طغيانه.

لفت هادي انتباهي للمرة الأولى قبل سنوات كثيرة، عندما كانت عائلتي تقضي عطلتها في القاهرة بمصر. فقد اشترى هو وعليّ فتاة صغيرة عذراء من والدتها من أجل ممارسة الجنس معها. ولم يغيّر هادي قط في أساليبه غير الإنسانية؛ لكنه بات أكثر مكراً مع مرور السنين. واستمر ذلك الرجل الحقير يعيش حياته ويركض وراء رغباته المنحرفة، ويتحوّل بشكل مدمّر إلى السيطرة العنيفة على جميع النساء اللواتي يقعن في مجال نفوذه.

وأعتقدُ أن هذا هو سبب افتتانه الكبير بمنيرة كبرى بنات عليّ. فهي كمغناطيس لا يمكن تفاديه. وكانت منيرة فتاة خجولة جعلتها أفعال والدها في حالة خوف حقيقي من جميع الرجال. وأعربت منذ السنوات الأولى لمراهقتها عن خوفها من الزواج. وتوسّلت لإعفائها من الأمر الوحيد الذي يعتقد معظم السعوديين أنه المسار الصحيح لكل امرأة، وهو أن تصبح زوجة وأمّاً.

وحدث أن عليّاً وعد بتزويجها من أكثر معارفه افتراساً وهو هادي. وتوسلتُ أنا وسارة إلى شقيقنا أن يقدّر طبع ابنته الفريد. فهي أكثر الفتيات اللواتي عرفناهن خجلاً على الإطلاق. لكن عليّاً ضحك من مخاوف منيرة قائلاً إن هادي سيشفيها من أي خوف من غرفة النوم. فهادي رجل يطالب بكل الحقوق الجنسية على مدى ساعات النهار والليل. واعتقدَ أن مثل هذه الاعتداءات الجنسية ستفضي بابنته مع الوقت، بالتأكيد، إلى طريقة التفكير الصحيحة. وساد رأي عليّ. وبات جسد منيرة مستباحاً لزوجها.

وخُتم مصير منيرة.

عاشت لسنوات في بؤس ورعب من زوجها. وكان هذا الخوف والرعب من العمل الجنسي يثيران هادي. وبالرغم من أنه قد تزوج من

عشتُ لأدفَن وأنا لا أزال حيّة

عشتُ وأنا أتساءل لماذا ساهم مَن يدّعون محبتي في دفني

عشتُ كل تلك الأمور، ولمّا أبلغ الخامسة والعشرين بعد.

لم تعد هذه الكلمات تعبّر الآن عن واقع كابوس منيرة. فمنيرة تحرّرت في النهاية. مات هادي ولم يعد وهو في قبره حرّاً في اغتصاب الفتيات والنساء. وانتشرت قصيدة منيرة حول العالم على صفحات الكتاب الذي يتحدّث عن حياتي. وتذكّرني القصيدة دوماً بأن هدفي في الحياة يتمثل في مساعدة نساء لا ملجأ لهن. وآمل في أن تدفع كلماتها نساء قويات أخريات إلى عدم إدارة ظهورهن قط إلى امرأة محتاجة.

راقبت شقيقاتي وأولادهن وهم يهرعون إلى منيرة للترحيب بعودتها إلى عالم الأحياء والسعداء. وضحكنا جميعاً بمنتهى السعادة عندما أسرّت إلينا قائلة: «إن أولادي سيأخذونني في عطلة! إلى أوروبا! سأذهب إلى لندن وباريس!».

وكانت هذه أخبار مثيرة لنا جميعاً. فهادي لم يسمح قط لمنيرة بالسفر معه ومع العائلة لقضاء العطلة خارج المملكة. أعتقد أن هادي خشي من أن تهرب زوجته وتطلب المساعدة من إحدى المنظمات النسائية في الغرب إذا أتيحت لها الفرصة. إلا أنها ستسافر الآن إلى أماكن رائعة شاهدتها في الصور التي دسّها لها أولادها المحبّون. لم تتكلّم منيرة على مدى سنوات كثيرة إلا في ما ندر، وها هي الآن تسيطر على الحديث، وتتشارك في الأفكار مع من حولها. «سأزور كل معرض في باريس وأذهب بعد ذلك إلى لندن لأشق طريقي إلى المزيد من المتاحف!».

تمتمتُ تحت أنفاسي «يا لها من خسارة لامرأة رائعة!». إلا أن قيود منيرة قد تحطّمت الآن، وهي حرّة في الاستمتاع بجمال الحياة. وصعُب عليّ إبعاد نظري عن وجه منيرة المتوقّد وابتسامتها السعيدة، لكنني فعلتُ عندما اتجه صوبي محمد ابن الثلاثين عاماً، المرح ابن ريما وهي شقيقتي الثانية التي غادرت هذه الفانية. وكاد يُغمى عليّ عندما رأيت محمّداً يحمل فوق رأسه صورة مكبّرة ضخمة لوالدتي المتوفاة منذ زمن بعيد.

استطعت التعرّف إليها فوراً، بالرغم من أن الصورة تظهرها وهي شابة، في أول أيام زواجها بالتأكيد

وصحتُ بصوت حاد جدّاً أسكتَ أصوات الآخرين. «أمي!» وشهقتُ بصوت عالٍ. «أمي!» وارتفعت أصوات الإثارة، إذ لم تعرف إلا القلّة

سبب صراخي. لكنه كان وجيهاً. فوالدتي الحبيبة توفيت مذ كنت فتاة صغيرة. ولم يسبق لي أن رأيت صورة لها. ولم أكن أعتقد بوجود مثل هذه الصورة. فقد اعتُبرتْ صور الناس، زمن والدتي، أمراً محرّماً. ومن المؤكد أن قلّة من الناس التقطت صوراً لنساء مسلمات في السعودية. وأشك في أن والدتي فكّرت في أن تلتقط لها صورة. إذ يرجّح أنها كانت ستختبئ ممن يحمل كاميرا لتصويرها.

ركض كريم إلى جانبي وقال: «سلطانة، ما الذي يحدث؟». ثم رأى ما رأيت. واستدار نحو ابن ريما سائلاً، «محمد؟ ماذا؟ ما هذا؟».

شعر محمد بالرضى التام عن نفسه. سُرّ بالصورة الكبيرة التي يحملها بين ذراعيه، وابتهج بما أحدثه من جلبة. وشرع في الضحك، وهو يشير إلى والدي الذي لا يزال يتربع سعيداً على عرش كريم المزيّف. «عليك بسؤال جدّي، فهو وراء هذه المفاجأة».

والدي؟ حدّقت صامتة إلى والدي الطاعن في السن، الذي بدا وكأنه غير مدرك أن بناته يُحطن بصورة والدتهن. شعرت بالفضول لأعرف أين عثر على الصورة. ثم اعترتني مسحة من الغضب، لأنه لم يسبق له أن أراني الصورة.

واختفى استيائي فجأة، وشعرت بدلاً من ذلك باندفاعة من الشكر، لأنه كشف أخيراً عن مثل هذه الصورة. انتابتني موجة من المشاعر القوية.

عند هذا الحدّ هرعت سارة وشقيقاتي الأخريات للوقوف إلى جانبي. ومسحتْ يد سارة بخفّة وجه أمي في الصورة.

«أمي»، همستْ وارتجفتْ شفتاها انفعالاً.

وبالرغم من صغر سن والدتي في الصورة، تعرّفت إليها جميع بناتها على الفور.

«إنها أمّنا بالفعل»، قالت دنيا بكثير من اليقين. بدا أنها نسيت، للمرة الأولى منذ بدء الحفلة، أمر عقدها النفيس.

انهارت هيفا باكية بين ذراعي ابنها الأصغر المراهق، وقد أعياها الكلام.

ووقفت تهاني صامتة، وهي تهزّ برأسها قبل أن تومئ إلى كبرى بناتها بالمجيء. «يجب أن تشاهدي جدتك!».

تحلّقت مها وأماني وعبد اللّه من حولنا، بأقرب ما أمكنهم منّي ومن صورة أمي. «أهذه فعلاً جدتي؟». سأل ابني بصوت ملؤه

الرهبة.

واستطعت في النهاية الكلام. «نعم، يا بني، تلك جدّتك، ألطف وأفضل أم وُجدت على الإطلاق».

أخذت مها وأماني تمسحان الدموع عن وجهيهما.

«جدتي كانت رائعة»، همست أماني في تعجّب خافت.

«نعم، جميلة كنجمة سينمائية»، تمتمت مها.

حدّقتُ صامتة، وأنا أتفحّص الصورة المثيرة لوالدتي العزيزة. لم أفكّر بوالدتي قط، وأنا طفلة بوصفها جميلة. كانت أمي، فحسب. لكن، وبالتفكير في الجمال الاستثنائي لبناتها العشر، أدهشتني فكرة أن أخواتي قد ورثن عنها جمالها الرائع. وتفحّصتُ الصورة بإمعان أكبر. فقد أثّرت السنوات في ذاكرتي. نسيتُ شامتها الصغيرة على الجانب الأيمن من وجهها على ارتفاع نحو إنش واحد من الطرف الأقصى لشفتيها. لم أعد أذكر مدى امتلاء شفتيها، ذلك النوع من الشفاه الذي ترغب فيه شابات هذا اليوم إلى أبعد الحدود، فيخضعن لعمليات مؤلمة ويغرزن الحقن في بشراتهن. ثم أدهشني أن سلطانة الصغيرة قد ورثت شفتيْ والدتي الممتلئتين. افترّت شفتاي عن ابتسامة عريضة لمعرفتي أن سلطانة الصغيرة، منذ هذه اللحظة فصاعداً، ستعيد الحياة إلى ذكرى أمي في ذهني.

فقدتُ كذلك منظر عينيها الواسعتين والمعبّرتين، تينك العينين اللتين أراهما في كل يوم تقريباً، عندما أنظر في عيني شقيقتي سارة. لم تكن أمي تغطّي شعرها في الصورة، فأدركتُ أنني ورثت شعرها الكثيف الأسود المتدلّي كالأمواج على كتفيها.

أمي حيّة فينا جميعاً!

حدّقت وحدّقت، مدركة أن الشيء الوحيد الذي لم أنسه هو عذوبة ابتسامة أمي.

واجتاحني الانفعال فجأة. وكدت أسقط على ركبتيّ لو لم يمسك بي كريم وعبد الله ويجلساني على أحد الكراسي. وصحت، «أمي، أمي، أمي». لم يسبق أن رغبتُ في الشعور بلمسة أمي بمثل هذا الإلحاح الذي شعرت به تلك اللحظة.

شرع محمد في السير بصورة أمي نحو أبي. اندفعتُ منتصبة وأنا مصمّمة على عدم إبعاد الصورة عن ناظري. قاد كريم وعبد الله خطواتي. وتبعتُ وشقيقاتي محمداً وهو يتجه إلى أبي.

وسمعته يقول: «جدّي، جئت بالصورة كما طلبتَ. قلتُ إنه سيقام احتفال، لكنني أخشى من أنني قد تسبّبت بسيل من الدموع النسائية».

اهتزّ رأس والدي منتصباً، ونظر إلى بناته، وجميعهن يذرفن دموع الفرح الممزوج بالأسى، لأن والدتهن قد توفيت منذ زمن بعيد، وباتت في منأى عن لمسات أيديهن.

جال والدي بنظره عبر الحشد النسائي، إلى أن توقّفت عيناه على وجهي، وقال: «سلطانة، تعالي يا ابنتي».

إنها المرة الأولى التي يناديني فيها والدي بنبرة لطيفة.

ضايقني أن يخصّني دون الجميع؛ فسرتُ بتردّد نحوه، وأنا أرتجف بعض الشيء. «نعم، يا والدي، أنا هنا»، قلتها، وركعت عند قدميه وهناً أكثر مما هو خضوعاً.

«سلطانة»، قالها بصوت هادئ، «ها قد بلغتُ نهاية حياتي. وأنا، يا ابنتي، أخذت في الأعوام القليلة الماضية أفكّر في كل ما فعلته، أو لم أفعله، في حياتي».

أومأت برأسي، ولم أعرف ما الذي أفعله غير ذلك.

ألقى والدي لهنيهات نظرة سريعة على صورة أمي التي لا يزال محمد، ابن شقيقتي، يمسكها بإحكام.

«عندما علمتُ والدتك، يا سلطانة، أنها تنازع، استدعتني إلى فراشها. ولبّيت نداءها بالطبع. وشعرتُ، عندما وجدت أنها تنازع بالفعل، بالحزن العميق؛ كانت في كل تلك السنوات امرأة صالحة وأفضل زوجة وأم. ولم تطلب مني الكثير طوال سنوات زواجنا». وتوقّف لبرهة، «لكنها تقدّمت بطلبين وهي على فراش الموت».

توقّف والدي لبرهة أخرى. «أحبّت والدتك أولادها الأحد عشر جميعهم، يا سلطانة. ولا أعتقد أنها أحبّتكِ أكثر مما أحبت أياً من بناتها أو ابنها». عند ذاك رفع والدي رأسه وابتسم لشقيقاتي. «لكنني أعتقد، يا سلطانة، أن شقيقاتك، وجميعهن أمهات، سيتفهّمن أن القلق ساورها أكثر ما يكون على ابنتها الطفلة. وهذه الطفلة هي أنت.

«طالبتني والدتك بأن أوليك اهتماماً خاصاً. فقد حَلِمتْ بأنك، يا سلطانة، ستحزنين كثيراً طوال حياتك، لأنك صغيرة جدّاً على فقدان والدتك. وأعرف أن والدتك شعرت بأنك طفلة انفعالية تحتاج إلى حضور الأم المحبّ».

«وتمثّل طلبها الثاني في أن أهديك الصورة الوحيدة التي التُقطت لها، وقد سمحتُ لمصوّر أجنبي، وهو رجل من إنكلترا، بالتقاطها بعد شهر من زواجنا. وأخفيت الصورة بعيداً من كل الأعين إلا عيني». أغمض والدي عينيه، وانتابني شعور بأنه يعود بالذاكرة إلى الزمن، مستعيداً السنوات الأولى التي كانت فيها أمي عروسه الشابة، وبدا أن كل شيء ممكن. وقطعت نوبة من السعال ذكرياته القديمة، واستغرقه الأمر بعض اللحظات للتخلص منها. انحنى عدة خدم وبأيديهم المناديل، فيما ربّت آخر برفق على ظهره.

وختم، في النهاية، روايته قائلاً: «وافقتُ على طلبَي أمك، يا سلطانة. قطعت لوالدتك وعداً بأنني لن أكون قاسياً جدّاً عليك. وقلت لها أيضاً إنني سأقدم إليك صورتها في يوم زفافك. أرادتْ منك أن تحتفظي بصورتها في مكان خاص ليتمكّن جميع أولادها من الشعور بفرح رؤية والدتهم وهي امرأة شابة.

«وأعتقدُ، بالرغم من شعوري ببعض الاستياء الصادر عنك، ولا أفهم السبب، أنني وفيت بوعدي الأول، فتساهلت دوماً معك رغم تصرّفاتك الرعناء التي تستأهل التوبيخ. بل إنني سمحت لك بمقابلة عريسك قبل أن تتزوجي. لم أعاقبك بقسوة على بعض سلوكك، ليس إلا بسبب الوعد الذي قطعته لوالدتك.

«لكنني تقاعست، يا سلطانة، عن إعطائك صورة أمك. ولم أتقصّد ذلك، بل نسيته. نُقلت الصورة، بعد وفاتها، من مكانها السرّي ووُضبت وخُزنت في مكان آمن. والآن، وجد أحد الخدم الصندوق فحزمه بعناية وأحضره إليّ يسألني إن كان يجب فتحه. وأعترفُ أنني لم أكن أعلم ماذا يوجد في ذلك الصندوق، ولما فُتح لأنظر في محتواه، عاودني سيل من الذكريات.

«أدركتُ أنني نسيت وعداً قطعته لأمك منذ كل تلك السنين».

«وهكذا طلبتُ وضع إطار جديد للصورة، وهي لكِ الآن، يا ابنتي، لتعرضيها في بيتك، حيث يمكنك إلقاء التحية عليها في كل يوم».

عمّ السكون الغرفة، لأن جميع مَن في عائلتي يعرفون أنني لم أكن أنا ووالدي على علاقة وثيقة. وانتظروا جميعهم ليروا رد فعلي.

لكنني لم أقم بأي ردّ فعل. شعرت بسكون كبير، وقد تبخّر من قلبي كالمعجزة، كل الغضب والعداء اللذين أضمرتهما له على مدى سنوات كثيرة جداً. لم أعد أكره والدي. بل شعرت في الواقع بأسى كبير لأنه يقارب الموت، ولم يختبر قط الرابط الوثيق بين الأب وبناته، من النوع الذي يتمتع به كريم وابنتانا.

وقلت في النهاية: «آسفة يا أبي، لأنني لم أكن ابنة أفضل».

وبات والدي عند هذا الحد على درجة عالية من الإفراط العاطفي. لمس كتفي وقال: «لا تقلقي يا ابنتي، بل تذكّري والدك كرجل طيّب لم يحبسك في غرفتك أو يضربك بالعصا».

طرفتُ بعينيّ، وأنا أدرك أن أبي يعتقد أن عدم الإيذاء الجسدي يجعل منه والداً صالحاً.

وابتسمتُ لسبب من الأسباب، وشعرت للمرة الأولى في حياتي بفرح عظيم، وبالمحبة للرجل الذي هو والدي. نهضت واقفة، وعانقته بضمة من القلب، وقلت له: «أحبك يا أبي».

سمعتُ تصفيق أقاربي، واستدرت باسمة متوقعة رؤية الاستحسان في كل عين. لكن نفسي انقبضت عندما رأيت شقيقي عليّاً يحدّق إليّ بحقد شديد.

كنت قد بلغتُ مكانة واعدة عند والدي، لكنني أدركت أن المعركة مع شقيقي الأوحد ستستمر.

تجاهلت شقيقي، طالبة من عبد الله أن يتسلّم الصورة من محمد. وقلت عندها لشقيقاتي: «إن صورة أمي هذه تخصنا جميعاً. وسنقرر معاً المكان الأفضل لتعليقها، لتتمكنّ من رؤيتها فور دخولكنّ إلى منزلي».

فرحت شقيقاتي، ولم تبدُ على أي منهن الغيرة.

وسرعان ما غادر ضيوفنا. وكان عليّ وحده هو الذي أهمل توديعي أو شكري على الأمسية. وبالرغم من شعوري بأن الأمسية ستؤدّي إلى معركة غير منتهية معه، فإنني طردت تلك الفكرة. لم أشأ أن أفسد ذكرياتي الحلوة بالقلق من أمر يحتمل ألّا يحدث.

كانت الأمسية من أروع الأمسيات التي عشتها. واستمتعت أنا وكريم، قبل أن نأوي إلى النوم، بجولة في حديقتنا تحدّثنا فيها عن عائلتنا والأوقات السعيدة التي قضيناها برفقتها.

ولمرّة نادرة في حياتي، لم أجد ما أشتكي منه. حلّ عليّ سلام هادئ، وأحببت كل لحظة من لحظات اللطف المحيطة بي. وصلّيت هامسة: «الحمد لك يا الله». وتلحّفت بجمال الليل وروحي المضطربة تعيش سلاماً مؤقتاً.

الفصل الرابع
نعم النساء قادرات على الحكم

مررت، مذ كنت فتاة يانعة، بكثير من اللحظات الاستثنائية التي تعاقب فيها الخير والشر بطرفة عين. ونتج الكثير من مشكلات طفولتي عن واقع أنني أنثى، وأنني كافحت من أجل التحكم بحياتي الخاصة. وهذا ليس بالضرورة أمراً حسناً في مجتمع ذي سيطرة ذكوريّة. فقد شعرَ كلّ ذكر في حياتي، وخصوصاً والدي وشقيقي، بأن من حقّه التحكّم بي، وباستخدام العنف إذا لزم. ولم أتوقف مع ذلك عن القتال، بغض النظر عن العقوبات التي أنزلوها بي. لماذا؟ لسبب بسيط هو أنني أردت تولّي مسؤولية نفسي واتخاذ قراراتي بنفسي.

استمرّت مشكلاتي بعد أن تزوّجت، وصرت أمّاً لصبي وابنتين. والحقيقة أن الإيقاع المثير لحالات الصعود والهبوط هذه قد تصاعد. فأنا لست الزوجة التي تنصاع بسهولة لأحكام زوجها. بل أطالب بأن تكون لي كلمتي في كل ما يؤثّر في حياتي وحياة أولادي. ومن حسن الحظ أن كريماً رجل ذكي، ويعرف أن السعادة ستبقى بعيدة المنال إذا امتلك شخص واحد فقط السلطة في الزواج. وهكذا ربّيتُ ابنتيّ على الشعور بقوة الخيار الشخصي، وأيضاً على معرفة أن عليهما التحكم بحياتهما الشخصية.

لم تقصّر كل من ابنتي في طرح وجهة نظرها. وغالباً ما امتلأت حياتنا بالهرج والمرج بالنظر إلى طبيعتهما الصريحة، وإلى واقع أن أيّاً منهما لا تستسلم بسهولة. واستمرّت الفوضى الشديدة والبلبلة العاطفية العامة في حياتنا العائلية، حتى بعد أن غادر كل من عبد الله وأماني إلى منزل الزوجية، وسافرت مها بعيداً من السعودية.

لكن هذه الانتفاضات استحقّت العناء، لأن كل فرد من أفراد عائلتنا يعترف بأن لمشاعر النساء قيمتها. والحرّية الشخصية تسبّب الاضطراب. وعندما يتصرّف الذكور كالطغاة تسكت النساء ويستسلمن ويصبحن تعيسات. وأنا وكريم نحب عبد الله، لكن عاطفتنا تجاه ابنتينا تضاهي محبتنا لابننا. والنساء في عائلتنا حادّات الطبع، أما الرجلان فهادئان. ويبذل كريم وعبد الله جهوداً فائقة لتفادي المواجهة، فيما تقفز ابنتانا سعيدتين إلى المعارضة. وكثيرة هي الأوقات التي تغلّبت فيها رغبات ابنتينا على رغبات ابننا بفعل هذه الاختلافات في الشخصية. وهذا ليس أمراً عاديّاً في الأسرة السعودية التي يحظى فيها الرجال بمنزلة رفيعة تدفع حتى بأكثر الأميرات دلالاً إلى تطويع رغبتها تلبية لمطالب الأمير.

وغالباً ما يتّهمنا عزيزنا عبد الله بالسماح للإناث بالتحكّم التام

بمنزلنا. وفي كل مرّة يشعر ابننا أن شقيقتيه فاقتاه براعة، أو تفوّقتا عليه عدداً، يتنهّد ويتمتم: «هذا قصر تحكمه النساء!».

أشعرُ بألمه في قلبي، إلا أنني سعيدة، لأنني بنيت مع كريم منزلاً ديمقراطياً تتاح فيه للإناث الفرصة نفسها التي تتاح للرجال بالفوز في أي نزاع عائلي.

إلا أن الاضطرابات العائلية، وبغض النظر عن خصائص واقعنا، تسبّب ضيقاً لا يُنكر لزوجي الذي يصبح، مع مرور كل سنة، أكثر يقيناً أنه لا يستطيع احتمال الجلبة الدائمة التي تحدثها ابنتانا المتصلّبتان. وجاءت أوقات فظيعة فكّر فيها كريم بالهروب من أولاده.

طرأت هذه الفكرة المفاجئة لكريم أول مرة على إثر واقعة من بطولة أماني، حدثت عندما زارتنا هي وزوجها، وعبد الله وزوجته وأولادهم، في منزلنا في الطائف؛ حيث تحتمي العائلة المالكة ومعظم أنسبائنا من آل سعود من صيف الرياض الحار، ويلجؤون إلى برودة الطائف. فالمدينة تعلو عن سطح البحر أكثر من 1800 متر، وتتمتّع بمناخ معتدل في المنطقة التي تشتهر بعسلها وتينها وعنبها وسواها من الفواكه اللذيذة. ومنذ طفولتي، كنت أقضي أكثر أشهر السعودية حرّاً في الطائف، هرباً من سخونة الصحراء في الرياض ورطوبة البحر في جدّة. والعطلة ممتعة دائماً لنا ومريحة، لأن الطائف مدينة صغيرة بالمقارنة مع عاصمتنا الرياض، التي يسكنها اليوم أكثر من خمسة ملايين نسمة، بينما لا تضم الطائف سوى نصف مليون مواطن تقريباً.

وعندما تحضر أماني، يعرف جميع مَن في عائلتي أن ابنتي المفرطة في تديّنها ستراقبهم بعينٍ يقظة. ولا تفوّت أماني أياً من الدعوات اليومية الخمس إلى الصلاة؛ بل تضيف إليها في الواقع ثلاثاً أخرى إرضاء للّه. وكعادتها، لاحظت ذات مرة في الطائف، يجمعها سقف واحد مع عائلتها، أن شقيقها الذي يجد صعوبة دائمة في الاستيقاظ مبكراً، قد فوّت على مدى صباحين صلاة الفجر.

لم تتمكن أماني، بحلول اليوم الثاني، من كبح امتعاضها الذي ازداد استفحالاً على مدى أكثر من 24 ساعة؛ إلى أن انفجرت في النهاية؛ نهضت بسخط عن سجادتها وهي في منتصف الصلاة، وهرعت إلى جناح عبد اللّه الخاص. وأصابت ابنتي جميع المصلّين بالذهول عندما شرعت في الطرق على الباب بقبضتيها، وهي تصيح بصخب: «عبد اللّه! أخي! عيب عليك! ألا تعرف أن الصلاة خير من النوم؟».

وأعقب ذلك هرج ومرج، بعد أن اندفعت زوجة عبد اللّه، زين، من غرفة النوم وقد أربكها الصخب، واعتقدت أن أزمة ما نشأت. وأفاقت

حفيدتي، سلطانة الصغيرة، من نومها، وشرعت في البكاء، خوفاً من حدوث مكروه لوالدتها. ثم خرج عبد الله المذهول من جناحه، وهو شبه عار وينظر، وقد طار صوابه، في كل الاتجاهات. وأوضح، عندما شاهد تعابير أماني الغاضبة وأدرك سبب محنة عائلته، أن الكيل قد طفح من شقيقته المتطفّلة. تخلّى عن لينه المعتاد في لحظة، وحدّق للمرّة الأولى في حياته إلى شقيقته الصغيرة بغضب، وقد علت وجهه تكشيرة بشعة وصاح: «شلّ الله لسانك، يا أماني!». واستدار مبتعداً وهو في ثورة تامة، لكن ليس قبل أن يرميها بإهانة ثانية: «اهتمي بصلواتك، يا أماني»، قالها مزمجراً، وأضاف: «آمل في أن تسقط ذبابة كبيرة في فمك الثرثار!».

هذه إهانة كبيرة، حيث يعرف جميع المسلمين أهمية الحفاظ على نظافة أفواهنا وأيدينا وأرجلنا، وبخاصة في وقت الصلاة. وهذه إهانة لها شأنها تصدر عن ابني الذي عانى طويلاً!

ولمّا جمع عبد الله زوجته وابنته وصفق الباب في وجه أماني، سمعتُه يصرخ: «لا، يا أماني! لا يمكنك التحكّم دوماً بالأمور!».

ارتحتُ، لدى سماعي هذه المواجهة الغاضبة، لأن ابني اللطيف لن يقبل دائماً أن تسيّره شقيقته المتسلّطة.

بات من الواضح أن ابنتي الصغرى بليدة الإحساس حيال الغير، إلا أنها حساسة تماماً حيال نفسها. وانفجر مشهد إضافي صاخب عندما هرعت أماني باكية إلى والدها، مدّعية أن عبد الله قلل من احترامها بلا سبب. وزعمت أنها حاولت فقط إبقاء شقيقها الحبيب على المسار السويّ المؤدّي إلى الجنّة.

أصغيتُ بانتباه، وقد أحزنني أن تحاول أماني التلاعب بوالدها على هذا النحو. والتلاعب أمر صمّمتُ على عدم ممارسته إيماناً مني بأن المواجهة بسلاسة وإقناع لهي على الدوام أفضل ما يفعله المرء ليحقّق مبتغاه ويكسب الاحترام. وأنا لا أستخدم أنوثتي أو أعتمد عليها إلا في الحالات القصوى التي لا خطر فيها على الحياة الإنسانية. ولا أبكي ولا أشكو. وأعرف أيضاً أن المرأة تكون أحياناً مخطئة؛ وبرهنتْ أماني على ذلك بالتأكيد في أكثر من مناسبة.

استمع كريم بانتباه، إلا أن ابنته الصغرى لم تتمكّن من خداعه، على غرار ما فعلت في أوقات كثيرة سابقاً. فقال: «أرجوكِ أن تخبريني بما فعلتِه، يا أماني، أو بما تفوهتِ به من كلام لاستدراج مثل هذه الفورة من شقيقك؟».

أصبحت دموع أماني حقيقية، عندما أدركت أن والدها لن يقف إلى جانبها ويوبّخ شقيقها من دون سؤال. واستغرق الأمر دقائق كثيرة

ليتمكّن كريم من تهدئة الموقف، ولم يسأل عبد الله قط عن تهم أماني الكاذبة. فزوجي يعرف أولادنا تمام المعرفة.

عادت أماني إلى صلواتها، ووعد عبد الله بالانضمام إلينا على الإفطار. وطلب مني زوجي المتعب موافاته إلى غرفتنا. وهناك أوصد الباب وهمس قائلاً: «سأخطط لهربنا يا سلطانة». وقال لي بوقار: «إنني أبحث عن ملاذ خفي في أرض بعيدة ننسحب إليه بعيداً من أولادنا المزعجين».

سألته محتارة: «ما الذي تقوله يا زوجي؟».

طمأنني قائلاً: «لا تقلقي. سنرى أولادنا في المناسبات. وقد نخطط لزيارة سنوية على الشاطئ الفرنسي لقضاء عطلة مع العائلة. وسنستمتع، باقي أيام السنة، بحياتنا من دون أولادنا وشجارهم المستمر». بدا قلقاً وجاداً في خطته، وقال: «ضعي لائحة بالأمكنة التي تحبين السكن فيها، يا عزيزتي، وسنشتري هناك منزلاً جميلاً. لكن لا تخبري الأولاد بذلك».

أنا لا أقلّل من احترام زوجي الحبيب، لكنني أعترف بأنني ضحكت على مخططه المنافي للعقل. كما أنني، بغض النظر عن سلوك أولادنا السيئ، لا أتحمّل أن أنفصل عنهم لأكثر من أسابيع قليلة. فأنا أحب أولادي وأحفادي من كل قلبي. وقررت، في تلك اللحظة، أن أتحكّم بكريم.

عانقت زوجي المذهول المسكين قاضية على وهمه بالسكينة. قلتُ: «أنت تحلم يا زوجي، سوف نبقى، أنا وأنت، وحتى اليوم الذي يُلف فيه جثماني بالكفن الأبيض وأُدفن في رمال بلادنا، أسيرَي دراما حياة أولادنا».

حرد كريم لعدّة أيام، وقمتُ بتحذير الأولاد في شأن تصرفاتهم. أبلغتهم أن والدهم منزعج للغاية من نزاعاتهم الدائمة، وتراوده الأفكار المخالفة للمعقول بالتخلّي عنهم جميعاً. استرعى هذا البوح انتباههم، وتحسّن سلوك أماني على مدى أشهر عدة.

لكن استؤنفت خلال السنة النزاعات بين الإخوة، وخصوصاً بين ابنتينا. ولا تزال النزاعات التي يثيرها أولادنا تحزّ في أنفسنا كأهل، فتتعاقب الاضطرابات كتسونامي عملاق يطلق موجة تلو الموجة لتتكسّر على الشاطئ.

لكن أولادنا ليسوا وحدهم المسؤولين عن المشكلات الناشبة في أسرتنا. إذ يؤدي أحياناً أفراد عائلتنا الكبرى دورهم في النزاع والاضطراب. وليس مفاجئاً، بالتالي، أن تنتهي إحدى الأمسيات بالدموع، بعد أن كان يفترض بها أن تكون الأكثر سروراً ومتعة.

تورّطتْ ابنتي مها وابنة شقيقي مدينة في هذه الحادثة بالذات؛ فقد افتعلتا واحدة من أكثر المشكلات التي واجهتها فظاعة، وجلبت على رؤوسنا جميعاً غضب شقيقي عليّ.

حدث هذا الموقف المزعج بعد ثلاثة أيام من الاحتفالات التي أقيمت في منزلي، وقبل أسابيع من عودة مها المقرّرة إلى أوروبا. وافقت مها وأماني على المجيء معاً بطريقة سلمية تستمر ما يكفي من الوقت، لنتشاور نحن الثلاث مع شقيقاتي حول المكان المثالي والذي يصلح موقعاً لتعليق صورة والدتنا، تلك الصورة الغالية التي أعيد اكتشافها بعد كل تلك السنوات.

اتفقنا، أنا وشقيقاتي إلى جانب بناتنا التسع، على الوقت الأفضل للقاء. وخططنا للاستمتاع بحفل شاي بعد الظهر في اجتماع تذكاري تكريماً لوالدتنا. ومن المؤسف أن أيّاً من حفيدات والدتي لم تولد مبكراً كفاية لتتذكّر جدتها الرائعة.

وأخيراً حان بعد ذلك الظهر الذي انتظرناه على أحر من الجمر. جلستُ وسارة وحيدتين في انتظار شقيقاتنا وبناتهن، وقد طلبنا منهن الوصول في وقت مبكر. ألقيتُ نظرة على الساعة الذهبية الأنيقة الموضوعة على الطاولة الجانبية قبل أن أعرب عن مخاوفي: «آمل أن يصل الجميع في الوقت المحدّد». (يشتهر السعوديون بالوصول متأخرين إلى كل اجتماع تقريباً، سواء كان مخصّصاً للعمل أو للمتعة. وسمعتُ أن رجال الأعمال الأجانب يشتكون بمرارة من هذه العادة).

التقطتْ سارة هاتفها الجوّال، وقالت: «سأتصل ببناتي».

ثم أخبرتني أن بناتها سيصلن معاً، إذ سيقلّهن سائق العائلة الإندونيسي الموثوق. وحين جرى الاتصال استطعت، على الرغم من أن الهاتف ليس على أذني، أن أسمع ضحك الفتيات الصاخب وحديثهن الحماسي. فبنات سارة، على عكس بناتي، تعشق واحدتهن الأخرى، وغالباً ما يفيض الوقت الذي يقضينه معاً بالمرح.

راقبتُ وجه شقيقتي، وأخذ القلق ينتابني عندما رأيتها تقطّب جبينها. تنهّدتْ بصوت مرتفع، ثم أقفلت الخط قائلة: «إنهن عالقات في زحمة السير».

تكتكتُ بلساني انزعاجاً. فطوال حياتي ومدينة الرياض مبتلية بالأشغال العامة الدائمة على الطرق وبزحمة السير. ولستُ أعرف لذلك سبباً، بالرغم من تشكيل لجان مدنية خاصة عدة لدرس أنجع وسائل التحكم بالمرور. وما من شيء خفّف، مع ذلك، من الاختناقات المرورية الرهيبة في بلادي. فحتّى أفراد عائلة آل سعود المالكة

يضطرون إلى تحمّل استفحال زحمة المرور البغيضة. وما لم يكن المرء ملك السعودية أو ولي العهد أو واحداً من الأمراء الأرفع مستوى، فلا تُتخذ تدابير استثنائية لفتح ثغرة في ازدحام السير الخانق للسماح له بالعبور سريعاً.

«أبلغني أسد أن الشبان هم الذين يتسببون في كل المشكلات»، قالتها سارة بقدر كبير من اليقين وأضافت: «قال إنه التقى أخيراً نسيبنا تركي ابن عبد اللّه، الذي أطلع أسداً على خبر مخيف مفاده أن معدّل حوادث السير في بلادنا هو الأعلى في المنطقة كلها».

وذكّرتها بأن «مدينتنا نمت في الحقيقة على مدى أجيال قليلة فقط، لتتحوّل من قرية صغيرة إلى مدينة يسكنها ما يزيد على خمسة ملايين نسمة. وقد تكون الإحصائيات طبيعيّة، لأن عدد السكان تزايد بشكل كبير».

وركّزت سارة فجأة على إحصائيات المرور التي أشار إليها زوجها، فلم تلقِ بالاً عليّ، وقالت: «إن المخيف أكثر يا سلطانة، هو أنه لدينا معدّل الوفيات الأعلى تقريباً من أي بلد آخر من بلدان العالم بسبب حوادث السير؛ أمر لا يصدّق! فالشبّان الذين يقودون من أجل المتعة، ويقومون بتلك الحركات البهلوانية في قيادة السيارة وهي تسير على إطارين، هم الذين يتسبّبون بهذا القدر الكبير من مشكلات السير».

أجبتُ: «حسناً، لا بدّ وأن تركيّاً يعرف عمّا يتحدّث».

ونسيبنا تركي واحد من أبناء الملك عبد اللّه، ويحتلّ موقعاً مرموقاً يمكّنه من معرفة مثل تلك الأمور، كونه نائب أمير منطقة الرياض برتبة وزير. وقد سمعتُ، على غرار سارة، بالذين يقودون من أجل المتعة، ويقومون بالحركات البهلوانية، وهي أنشطة تشكّل كلّها خطراً كبيراً على حياة الشبان السعوديين.

قلت بثقة: «إن الضجر يقتل شباننا السعوديين». وهززت كتفيّ استهجاناً، ورفعت يديّ، وتابعت: «وما الذي يوجد ليفعلوه؟».

«نعم، تناهت إليّ روايات محزنة كثيرة»، أجابت شقيقتي.

«آه، دعينا يا سارة نتحدّث عن أمر مثير للبهجة»، قلتها وأنا لا أريد أن أفكّر بكل تلك الأمهات السعوديات اللواتي سيتفجّعن في يوم من الأيام على أبنائهن. إنهم فتية صالحون ولا شك، لكن يتآكلهم الضجر، فيتسابقون بسياراتهم وهي تسير على إطارين، بما يكاد يضمن طريقهم القصيرة إلى القبر.

طلبت إلى إحدى الخادمات أن تجدد صبّه الشاي قبل أن أعاود

حديثي مع سارة.

وحمّستها بالقول: «دعينا نتحدّث عن الوالدة». وعاد تعبير السعادة إلى وجه سارة قائلة: «يا لنا من محظوظات بأن يعثر خادم والدنا على صورة أمنا».

«نعم، نعم»، أجبت موافقة.

عرفنا جميعاً من مظهر والدنا الخارجي وسلوكه أن زمنه على هذه الأرض قد بات محدوداً. ولو فارق الحياة قبل أن يكتشف الخادم الصندوق الخشبي اللغز، لفقدنا على الأرجح صورة والدتنا إلى الأبد.

«لم أدرك من قبل مدى جمال أمي»، قلتها وأنا أفكّر أن سارة هي الوحيدة، بين البنات العشر التي ولدتهن أمي، التي تضاهيها جمالاً. لكن جمال أمي توزّع بطريقة من الطرق على جميع بناتها؛ بالرغم من أن شقيقتيّ المتوفاتين، نورا وريما، أكثر شبهاً بوالدي.

ابتسمتْ سارة. «آه؟ الحقيقة، يا سلطانة، أنك كنت صغيرة لدى وفاتها. وبالنسبة إليك كان الجميع كباراً في السن. فأنا عرفت دوماً أن الوالدة واحدة من أجمل نساء عائلة آل سعود الواسعة. وسمعت عدداً من الأنسباء يتحدثون عن معرفة واسعة لجمالها».

فكّرتُ، وأنا أرتشف الشاي، بجمال أمي، متسائلة كيف أنني فوّتُّ مثل هذه الروعة. وحين هممت بفتح فمي لأطرح على سارة السؤال الآتي: كيف يمكن لأي امرأة أن تلد أحد عشر ولداً وتحتفظ بجمالها؟ سمعتُ أصوات شقيقاتي في الرواق. مشيت أنا وسارة وقد شبكنا أيدينا للتأهيل بهن. كان يفترض بهذا اليوم أن يكون واحداً من أهم أيام حياتنا.

طلبت إلى خادمتنا عائشة أن تستدعي مها وأماني من غرفتيهما. فبالرغم من زواج أماني وانتقال مها إلى أوروبا، احتفظنا لكل منهما بجناحها الفسيح في منزلنا، تستخدمه كلما رغبت في ذلك. وحده عبد الله تخلّى عن جناحه في منزلنا، مع أن بيته الجديد قريب منّا ويزورنا يومياً عندما يكون في المملكة.

وقفتُ أنا وسارة كشخص واحد نستقبل ونتأهّل فرحتَيْن بشقيقاتنا وبناتهن وبشقيقي. واندفعت بنات سارة المتحمّسات عبر الباب مبتهجات بأنهن تخلّصن أخيراً من زحمة السير في الرياض. وشكّلت التحيات الصاخبة مصدر سرور للجميع.

وسُررت عندما شاهدت أماني ومها تسيران عبر الرواق الفسيح، إذ لم يبدُ على أي منهما مزاج عكر. وبلغت قمة السعادة لمرأى وجهيهما الأنيسين.

وأعلنتُ لابنتيّ وشقيقاتي وبنات شقيقاتي وشقيقي أن «اليوم سيكون يوماً رائعاً».

تناولنا المرطّبات، وجلسنا في انتظار قدوم ابن ريما، محمد، وابني، عبد الله. وكان يُفترض بالاثنين الوصول قريباً جدّاً، لأنني طلبت إليهما المجيء بعد ثلاثين دقيقة من وصول الفتيات؛ لم أرد استعجال الأمور، فخصّصت لإناث عائلتي ما يكفي من الوقت لتبادل الترحيب والأخبار، وللتعويض، عموماً، عمّا فاتهن. وسيشرف ابني وابن خالته على تعيين المكان الملائم لصورة أمي الموضوعة الآن في إحدى زوايا الغرفة، مغطاة بستارة من الحرير الأخضر. وقد غطّيناها لكي يرتدي احتفال الكشف عنها مغزىً أكبر.

أعلنت شقيقتي دنيا بصوت مرتفع، ليسمعها الجميع: «الحمد لله! لم يعد عليّ أن أستخدم مخيلتي لاستحضار صورة الوالدة».

قلت موافقة: «نعم، أريد أن أقضي ساعات كثيرة وأنا أتملّى جمالها الرائع، أتذكّر كلّ ما كانت عليه، ولا تزال، في نظر بناتها».

فجأة، أصدرت مدينة، ابنة عليّ من زوجته الثالثة، جلبة غريبة، واستدرتُ لأمعن النظر فيها، ظنّاً مني بأنها تختنق. كان من النادر لقائي مدينة؛ لأنها جعلتنا نشعر منذ بداية مراهقتها أنها لا تهتم بي أو بابنتيّ. ولطالما اعتقدتُ أنها صدّقت ما يروّجه والدها ضدّي. ولمَ لا؟ فمعظم الناس يدافعون عمّا تعلّموه في صغرهم. وذلك هو السبب الأوحد في أنني نادراً ما أشعر بالغضب منها؛ بل ألقي، بدلاً من ذلك، باللوم على الشخص المذنب، شقيقي عليّ.

فوجئتُ فعلاً برؤية مدينة تنضم إلى الاجتماع في منزلي، لكنني سُررت آملةً في أنها نضجت، وستمدّ يدها إلينا، وتنعمُ بالعلاقات الوديّة معي ومع عائلتها الواسعة.

فجأة، قفزت مدينة عن كرسيها، وأذهلتنا جميعاً عندما سارت في اتجاه صورة أمي التي لا تزال مغطاة بالحرير. أمسكتْ بالغطاء الحريري وسحبته عن الصورة؛ وحين نظرنا إليها جميعاً بدهشة تامة، حملقتْ بي، وعيناها تمتلئان ضراوة؛ ثم صاحت قائلة: «هذه الصورة ستصبح عمّا قريب في قصرنا. يقول والدي إنها له. فمكان هذه الصورة في منزل ابن جدتنا الوحيد».

ارتعدتْ كل فرائصي، وقد صُعقتُ فعلاً. لم أنتبه، قبل هذه الحادثة، كم أن مدينة تشبه والدها جسديّاً؛ لكنها عندما زمجرت بي، وعيناها تحدّقان، ويعلو وجهها التوعّد، بدت مثله تماماً عندما يغضب.

نهضت سارة، وصرخت بصوت مرتفع وشديد أذهل الجميع، لأن

شقيقتي نادراً ما تتحدث بغير النبرة الهادئة والخفيضة: «مدينة، اخرسي وأقفلي فمك!».

عندها لاحظتُ أسنان مدينة الكبيرة، وقد بدت في تلك اللحظة قاطعة. وشهقتُ بصوت مرتفع.

«لا يا عمّتي»، قالتها مدينة بنبرة أكثر رقّة، لأن قلّة من الأشخاص في عائلتنا يخاصمون سارة: «جئتُ اليوم أمثّل والدي. هذه الصورة تخصّه. فهو الحاكم بأمر شقيقاته، ورجل العائلة الوحيد. وسيحتفظ بهذه الصورة ويدعو شقيقاته إلى لقاء سنوي يتمكّنَّ فيه من رؤيتها».

ذُهلنا تماماً، وارتعدت فرائصنا عندما عمدت مدينة، الضخمة الجثة والأشد قوّة من معظمنا، الفتاة التي عُرف عنها في الواقع أنها تضرب أشقاءها، إلى حمل صورة الوالدة، واندفعت نحو الباب وقد رفعتها بإطارها الكبير فوق رأسها.

وصاحت واحدة من بنات شقيقاتي: «افعلن شيئاً، بسرعة، فهي تهرب بها!».

صرخنا كلّنا، ثم شغّلتُ جهاز الإنذار الصاخب والذي يسمع من بعيد جداً. أخذتنا مدينة على حين غرّة، ونجحت في الهرب، وخرجت أسرع من البرق من المدخل إلى خارج باب القصر الأمامي.

طاردتُها، لكن مها، العدّاءة السريعة، تجاوزتني بلمحة. شكّلنا طابوراً من النساء المنفعلات: لحقتُ مها، وتبعتني شقيقاتي وبنات شقيقاتي. وتطوّرت الأمور بسرعة كبيرة، حيث وجدتُ نفسي أشهد على منظر مروّع: ابنتي في عراك جسدي مع ابنة عمها.

وصحتُ: «انتبهي يا مها إلى صورة الوالدة»، وقد خشيتُ من تعرضها للتلف خلال شجارهما.

أصغت مها إلى تحذيري، وأرخت يدها عن عنق مدينة بعد أن أوشكت الصورة على السقوط فوق الصخور الصلبة المتراكمة عند المدخل. واستغلّت مدينة هذه الفرصة لوضع صورة الوالدة على المقعد الخلفي لسيارة والدها الرولز رويس الجديدة.

اتضح أنها أعطت التعليمات لسائق عليّ بالاستعداد للهرب، لأنه لم يركن السيارة في المكان المعهود، مع باقي السيارات. وسمعتُ صوت المحرّك يعمل. فالسائق على أهبة الجهوزية للفرار من ساحتنا. قفزت مدينة بخطوة واحدة إلى المقعد الخلفي للسيارة التي كانت تتحرك ببطء ثم أسرعت. وقفز قلبي من مكانه وأنا أشاهد مها تحاول الإمساك بمقبض باب السيارة. وسرّتني رؤية أنها أخفقت. ولم يكن

ممتعاً منظر ابنتي وهي تفقد توازنها وتسقط وتتدحرج من حول الأكمة المعشوشبة، غير أنني ارتحت، والحمد لله، لأنها لم تصب بأذى.

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان. رحلت السيارة التي تحمل صورة أمي الغالية.

وكما لو أن هذه الحادثة الرهيبة لا تكفي. فقد شاهدنا، ونحن نتجمّع على الطريق، مها وهي تهرع فجأة إلى سيارة مرسيدس تخص إحدى شقيقاتي أو بنات شقيقاتي، وتقفز إلى مقعد السائق. لم يتوفّر أي سائق لوقف ابنتي، لأن معظمهم كانوا يستريحون ويشربون الشاي في أحد الأصونة الساحرة في فنائنا. وبالنظر إلى ما يتمتع به منزلنا من أمان لوقوعه وراء سياج مرتفع وبوابات كبيرة، فقد ترك السائقون مفاتيح السيارات فيها.

وصاحت واحدة من بنات سارة قائلة: «إن مها تبتعد بالسيارة!».

لم أتمكّن، وأنا مصدومة، من التفوّه بكلمة واحدة.

لمستْ أماني ذراعي قائلة: «سأتصل بوالدي». ثم هرعتْ إلى الداخل.

وآخر ما رأته عيناي، قبل أن أغمضهما مرعوبة تماماً، ابنتي وهي تقوم بما هو محظور في السعودية: قيادة سيارة، وهي تسير بها بسرعة فائقة.

وصرخت دنيا مذعورة: «إنها تقود بسرعة كبيرة جدّاً! ستُقتل في حادث اصطدام».

«كلاّ، فمها سائقة ماهرة جدّاً»، تمتمت سارة، «وهي لا تخشى شيئاً. ستلحق بمدينة وتعود ومعها صورة أمنا».

وسرعان ما هرعت أماني إلى جانبي تطمئنني بأن والدها غادر مكتبه وهو في طريقه إلى قصر عليّ الذي لا يبعد كثيراً عن قصرنا. تنهّدتُ وأنا أصلّي لأن يتمكن كريم من معالجة هذه الأزمة العائلية الكبيرة.

شجّعتْ سارة شقيقاتنا المضطربات وبناتهن المرهقات على المغادرة، بعد أن وعدتهن بتلاقينا مرة أخرى لإقامة حفل إزاحة الستارة عن الصورة، حين تسترجع إلى مكانها الشرعي.

منعت نفسي عن الإعلان بأنني سأتأكّد من وجود بعض الحرّاس لتوفير الحماية ومنع شقيقي، أو أي من أولاده، من دخول حرم

قصرنا.

عند هذا الحدّ، أطلّ علينا عبد اللّه ومحمد. اعتقدا أننا متشوقات جدًا لرؤيتهما، فتجمعنا عند المدخل لاستقبالهما، لكنّهما ذُهلا لرؤية دموعنا وسماع صراخنا، وخصوصاً عندما أخبرناهما بالكارثة، لكنهما صمّما فوراً على تصحيح الخطأ الرهيب. وهرعا إلى سيارتيهما وظهر رأس عبد اللّه من نافذة السيارة وهو يمرّ بنا وصاح: «لا تقلقن! سنلتقي الوالد في قصر عليّ. وسنعيد جدتنا إلى المنزل!».

اعتقدتُ أن تعريض عبد اللّه للخطر ربّما ليس فكرة صائبة، لكنه اختفى قبل أن أتمكن من إيقافه.

حاولتُ أنا وسارة وأماني طمأنة خدمنا وسائقينا، الذين تجمّعوا من حولنا. فقد سمعوا صرخاتنا، وأصابهم الهلع بالطبع. وعمّت الفوضى! وأخذ الخدم الذكور والسائقون في الصراخ، فيما شرعت الخادمات في البكاء؛ اعتقد بعضهم أن ملكنا قد مات، في حين اعتقد آخرون أن البلاد تتعرّض لهجوم.

وفهم الجميع أخيراً أن لا كارثة وطنية وقعت، بل مجرّد أزمة عائلية يتوجب التعامل معها سريعاً.

عدنا إلى داخل قصرنا في انتظار الأنباء، لكن مرّ وقت طويل قبل أن نسمع أي خبر.

عاد أحباؤنا أخيراً، لكننا عرفنا من نظرة واحدة أن الأمور ليست كلّها بخير. صرخت أماني بخوف كبير عندما ظهر كريم وعبد اللّه ومها للعيان. غطّى الدم الثلاثة، أو على الأقلّ هذا ما اعتقدناه بالاستناد إلى ما رأيناه أمام أعيننا. أخذ ما بدا أنه دمٌ ينضح من وجوههم وأيديهم. اعتقدتُ أنهم تعرّضوا لحادث مريع، فجاهدت للتحرّك، لأكتشف سريعاً أن رجليّ عاجزتان عن تحمّل جسمي. وها أنا مرّة أخرى في حالة من الصدمة.

ولمّا تمكنّت من الوقوف، وأنا لا أعرف تماماً من الذي يحتاج إلى العناية السريعة أوّلاً، نظرتُ إلى كريم الذي بدا وكأنه يتهاوى، وتوسّلت إليه، «ماذا؟ ماذا؟».

حاول كريم التقاط أنفاسه ورفع يديه، ورأيت راحتيه المغطاتين باللون الزهري.

قلقت سارة أيضاً، وطالبت هي الأخرى بتفسير: «ماذا حدث؟».

ثم جاء دور أماني لتسأل بصوت مرتجف: «هل جُرحتَ يا أبي؟».

وفي النهاية، قال كريم: «لا، لسنا مجروحين».

وعند هذا الحدّ اختلطت عليّ الأمور كثيراً، وأشرت إلى جسم ابني: «وما هذا الدم إذاً؟».

خشيت لوهلة، كاد يتوقّف فيها قلبي عن الخفقان، من أن يكونوا قد جرحوا مدينة، أو أن شقيقي عليّاً قد أصيب بأذى. وأنا لا أحب العنف، بالرغم من أنني شخص يحارب الظلم، ويُعرف عنّي أنني أقرص أولادي أو أشد أذنهم عندما يسيئون التصرّف.

وأخيراً قالت مها التي غطّى السائل الأحمر جسمها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها: «هذا ليس دماً يا أمّي، بل طلاء أحمر. فقد غمرنا شقيقك وابنته الشريرة وعدد من أبنائه كلّنا بالطلاء الأحمر».

لم أستوعب ما أسمعه: «طلاء؟».

عندها شرح عبد الله كل شيء، قائلاً: «نعم يا أمي. حين وصلنا كانت مها قد انتزعت الصورة من مدينة. فسارعنا إلى وضعها في الصندوق العريض لسيارة الوالد. وغادر محمد اعتقاداً منه أن الأزمة قد انتهت. ووقفنا نحن الثلاثة معاً بغباء في الرواق نناقش كيفية إعادة سيارة الخالة دنيا من دون أن تقودها مها، وفي حين كنا نحن نتحدث، تسللت عصابة اللصوص تلك من وراء الأكمات الكبيرة الموجودة بالقرب من الرواق ورشقتنا بمحتويات أوعية من الطلاء الأحمر».

لم أستطع تخيّل مثل ذلك المشهد. وأعياني الكلام في واحدة من المرات القليلة في حياتي.

أما سارة، التي تعرف كل أنواع الطلاء، بما فيها طلاء المنازل بالنظر إلى خبرتها كفنانة، فقد زمّت شفتيها واستفهمت بلطف: «أهو طلاء مائي؟».

ترك استفسار سارة غير المتوقّع بعضاً من الارتياح، وشرعنا جميعاً في ضحك هستيري.

«طلاء مائي؟»، تساءل عبد الله.

كافح كريم لاستعادة السيطرة على أحاسيسه. ضحك كثيراً حيث استغرقه الأمر بعض الوقت قبل أن يتمكن من أن يطرح على ابنه سؤالاً واحداً أخيراً: «كيف فاتك، يا عبد الله، أن تسأل عليّاً ما إذا كان الطلاء مائياً؟».

أطلق عبد الله أصواتاً كالشخير، وهو لا يزال يضحك بطريقة يتعذّر ضبطها، لينهار في النهاية على الأرض ويفسد سجادتي البيضاء الرائعة، فيما تمسكت مها بيديها المشبعتين بالطلاء بظهر أريكتي المفضّلة، مفسدة قماشها الاستثنائي المذهّب الذي فتّشت عنه في جميع أنحاء آسيا.

لكنني لم أحبط ولو لثانية واحدة: لأنني لم أحرص إلا على سلامة أحبائي.

أحمد الله أنه لم يُجرح إلا كبرياؤهم، إذ تبيّن أن الطلاء مائي، وسرعان ما استطاع أحبائي الثلاثة، بعد أيام من الاستحمامات المتعددة والكثير من الفرك، إزالة الطلاء الأحمر عن رؤوسهم وأجسامهم. ولم نستطع إلا التساؤل عن مكان عثور عليّ وأبنائه على صفائح الطلاء الأحمر لشن هجومهم.

بعد أشهر، اتصلت مدينة هاتفياً بأماني متباهية بدورها في مسرحية ذلك اليوم، كاشفة أن علياً كان في صدد بناء صالة رقص لزوجته السورية الجديدة، سيتا، التي استخدمت راقصاً من الأرجنتين ليعلّمها التانغو. وأصرّت سيتا، التي تهوى الديكورات الصارخة، على طلاء القاعة الفسيحة بطيف فاتح من الأحمر، وهو الطلاء الذي كان في متناول أيدي عليّ وأولاده لدى بحثهم عمّا يستخدمونه في الهجوم على عائلتي.

ومن دواعي سرورنا الدائم أن صورة أمي لم تتضرّر. ولو لم تُوضع في صندوق كريم، لغطى تهوّر عليّ وعائلته رسم أمي بالطلاء الأحمر، وأفسدوا كلّياً الصورة التي لا تُعوَّض. ولضاعت إلى الأبد صورة أمي التي تعتبرها بناتها بمنزلة كنز عظيم.

دفع واقع أن صورة أمي كادت أن تتلف، شقيقاتي إلى الوقوف بحزم إلى جانبي، وخاب أملهن جميعاً، لمرّة، من شقيقهن الذي اتضح أنه فضّل تدمير صورة والدته على عرضها في منزلي. ولا تزال شقيقاتي وبناتهن يشعرن إلى اليوم بغضب عارم من عليّ. وأبلغنه أن غضبهن بلغ مستوىً لم يعد مرحباً به أو بعائلته في بيوتهن. وقلن إن الوقت قد حان لتلقين عليّ درساً: فبالرغم من أن شقيقاته لسن رجالاً، فإنهن لسن بلا حقوق. وهكذا، وللمرة الأولى في عائلتنا، حكمت النساء.

وبلغت خيبة سارة من شقيقها الصغير درجة أنها التقت والدنا لتخبره عن التصرّف المتهوّر لعليّ ومدينة. وأخبرتنا سارة أن والدنا عبّر أيضاً عن غضبه الكبير على فعلة علي ومدينة. وقال إنهما عملا بخلاف وصيّة والدتنا، وما قطعه لها الوالد من وعد وهي على فراش الموت. ورأى أن علياً وأولاده جلبوا العارّ على العائلة.

ورسم عبد الله ابتسامة على وجهي، عندما تحدّث عن الوضع قائلاً: «يعتقد معظم الناس، يا أمي، أن النساء السعوديات يحتجن إلى حماية الرجل. لكنْ في هذه الحال ثمة رجل سعودي في حاجة إلى الحماية، وهو الخال عليّ».

وأجبته: «ليت الأمر يبقى على هذا الشكل، يا بني».

بات الجميع يعرفون الآن، على الأقل، أن عليّاً هو صاحب الروح الشريرة وليس أخته الصغرى التي كان يلومها دائماً على كلّ شيء. وهو ما حمل إليّ بعض الراحة.

وفي آخر ما تناهى إليّ، أن والدي كان متضايقاً جدًا إلى حد أنه رفض، عندما سنحت له فرصة رؤية عليّ، جهود ابنه لتقبيل يده أو مشاركته في الطعام داخل منزله. وقد صُعق عليّ، الذي تعوّد منذ نعومة أظفاره معاملة والدنا له بوصفه الطفل الذهبي، لتحوّله إلى مصدر خيبة أمل واستهجان من والده. فتوجّه إلى خارج البلاد، وقد خطط للتواري عن الأنظار، والبقاء إلى أجل غير مسمى في قصوره بين فرنسا وإسبانيا.

بيد أن عليّاً لم يتب، وصُدمتُ جدّاً عندما علمت أنه طلب إلى عائلته كلّها التضرّع إلى الله ليحرمني نعمة البصر. فشقيقي يكرهني كثيراً إلى حد أنه لا يريدني أن أتمتع بصورة أمي الرائعة.

لطالما شكّلت عداوته القصوى، مصدر اضطراب كبير لكريم ولأولادي، فمن يعلم كيف سيُظهر سخطه في المستقبل. أثار علمي بدعواته عَليّ في صلواته بعض القلق، وراجعت مختصين لمراقبة أي مشكلات محتملة في نظري. وارتحت للغاية عندما أخبرني الأطباء إنني أمتلك عيني امرأة شابة خاليتين من أي أمراض خطيرة. لم يشأ الله تلبية دعوات عليّ في صلاته بأن أصاب بالعمى. لم يترك تصرّف شقيقي منذ نعومة أظفاره أي مجال في ذهني للشك بأنه رجل شرير للغاية.

أعتقد، بعد سنوات من الخلافات مع شقيقي، بل وحتى القتال، أن عليّاً سيقوم يوماً ما بخطوة ضدي وضد عائلتي. وربّما أرجأ دسائسه إلى ما بعد مفارقة والدي الحياة. ولا حيلة لي إلا انتظار قدري.

صمّم كريم بقوّة أن يحافظ على سلامة الصورة في منزلنا، فاستقدم خبراء محترفين، يعملون في مجال حماية أغلى اللوحات في المتاحف الأوروبية، ليصمموا نظام إنذار ينطلق إذا حاول أحد إزالة صورة الوالدة عن الجدار.

ولا أزال أنعم بالفرح العظيم، بالرغم من قلقي ومخاوفي من عليّ.

وأستمتع بتحيّة صورة أمي كلّ صباح في منزلي بالرياض. وأشعر بما شعرتُ به دوماً من الحبّ القوي لها، وبحبّها لي. أشعر، وأنا أنظر في عينيها الجميلتين، بأنها تعانقني تماماً كما لفّتني ذراعاها المحبّتان وأنا طفلة. وبالرغم من انقضاء سنوات طويلة على موتها، فإن صورتها لا تزال تشعرني بأن والدتي تقف مرّة أخرى إلى جانبي. أعادت روحها الطيبة إحياء قوتي للاستمرار في المعركة الشاقة التي لا أزال أخوضها مذ كنت فتاة صغيرة، وهي مساعدة أي امرأة أصادفها تحتاج إلى المساعدة.

حدّقتُ في صباح يوم جميل إلى أمي، وابتسمتُ وأنا أقول لها: «أمي، لقد شرعت النساء في السعودية، خلال زمن قصير، في سلوك الطريق نحو الحرّية. وأخذت الكثيرات منهن في التحكّم بحياتهن».

دخل ابني عبد الله الغرفة على غير علم منّي، وأنا أتفوّه بهذه الكلمات، ووقف ورائي على بعد بضع خطوات. ابتسم ونظر إلى صورة جدّته، ثم طوّقني باحتضان من القلب.

«نعم يا جدتي»، صاح، «صدّقي ابنتك سلطانة. الحكم للنساء!».

وها أنا أواصل رحلتي بقلب ممتلئ بالسعادة، متوقّعةً حياة أفضل لجميع النساء.

الفصل الخامس

الدكتورة مينا: ثروة العلم

العلم هو الثروة الأعظم. يمكن أن تضيع الثروات الكبرى، لكن لا يمكن خسارة العلم أو محوه أو استعادته. ويتضاعف العلم بشكل لا مثيل له في أي استثمار، لأنه يشجّع على جوع لا ينتهي قط. وقد دفعني هذا الأمر إلى صرف معظم حياتي في نشر فكرة أن العلم ثروة.

وتكمن الحقيقة الرائعة في أن تحسينات كثيرة قد طرأت على الحياة اليومية للمرأة، بالرغم من التحديات الجسيمة التي لا تزال تواجه نساء بلادي.

تحقق واحد من أهم الانتصارات في مجال التعليم. فقد أنشئت أول مدرسة للإناث في السعودية سنة 1956، ولم يستغرق الأمر سوى جيلين ليتوفّر التعليم لجميع النساء السعوديات تقريباً.

في طفولتي، كان التعليم حكراً على النخبة. وتعلّمتُ أنا وشقيقاتي على يد معلّمة أجنبية وُظفت خصيصاً لتعليم بنات العائلة المالكة. لكن الحقيقة هي أن الأثرياء فقط استفادوا بالفعل من مثل هذه المعلّمة.

قلّة قليلة من عامة السعوديين اعتبرت التعليم ضرورياً لبناتهم؛ فقد تركّز الطموح الجوهري لمعظم العائلات على تعليم الذكور. تمتّع عمّي الملك فيصل وزوجته عفّت بزواج عصري استثنائي شاركت فيه الزوجة في صنع القرار، وأطلقا نوعاً من الثورة لدى عملهما معاً على إعطاء أولوية كبرى لتعليم البنات.

لكن، وبالرغم من أفضل الجهود التي بذلها عمي، لم تحظَ إلا قلة من البنات السعوديات بتعليمٍ يتجاوز المبادىء الأولية للقراءة والكتابة. لكن، وعلى أثر اغتيال الملك فيصل في العام 1975 على يد ابن شقيقه، احتلت مسائل الدولة الأخرى الأولوية، وتوقّف أي تقدّم في اتجاه توفير التعليم للإناث. وتميّزت أهداف تعليم النساء في طفولتي بحيّز كبير من الكآبة، لم تتوفر معه للفتيات سوى فرص ضئيلة لاكتساب مستوى عالٍ من التعليم يؤدّي إلى تحصيلهن شهادات الدكتوراه أو الطب.

أذكر بوضوح اللحظة التي أدركت فيها أن المرأة تستطيع أن تعمل في حقل الطب. وهو اليوم الذي رافقنا فيه سائق العائلة، أنا ووالدتي وسارة، إلى عيادة طبيبة الأسنان، بعد أن عانينا نحن الثلاث لبعض الوقت من أوجاع لا تُطاق. فضرس والدتي تسوّس، ولثّة

سارة تورّمت واحمرّت لأسباب نجهلها. أما أنا فقد عضضت بقوة على قطعة قاسية من الحلوى، فانكسرت إحدى أسناني.

تأخرنا في الحصول على العلاج، بالنظر إلى نقص في عدد طبيبات الأسنان في الرياض. وما كان والدي ليسمح لأي طبيب برؤية وجه والدتي والنظر في فمها، بالرغم من أنه، ويا للغرابة، سمح لأحد الأطباء بفحص جسمها العاري عندما مرضت في مرحلة متأخرة من حياتها.

وأسرّت والدتي لاحقاً لابنتها الكبرى، نورا، بأنها سمعت عرَضاً التعليمات التي أعطاها والدي لمساعده الذي يتولّى مهمة الإشراف على كل جوانب العناية الطبية بإناث العائلة، وهي تعليمات دقيقة للغاية ومباشرة، تحظّر على زوجته خلع حجابها، لكن تتيح لها خلع ثيابها. فليس معيباً أن يرى الطبيب جسمها مادام لم يرَ وجهها. وهذا أمر لا أجد له تفسيراً في ثقافتي.

والأمر المدهش أن هناك قيوداً أكثر تزمّتاً لا تزال مفروضة على بعض النساء السعوديات؛ فلا يكاد يمرّ شهر من دون خبر عن امرأة مسكينة قضت نحبها، لأن زوجها لم يسمح لطبيب ذَكَر بفحصها.

وحين افتتحت طبيبةُ أسنانٍ عيادةً لها في الرياض، حدّد لنا مساعد والدي موعداً من دون أي تأخير. والطبيبة، إذا لم تخنّي الذاكرة، من لبنان، البلد الذي لا يشكّل فيه التعليم أمراً نادراً للنساء. أذكر كيف اهتمت الطبيبة بوالدتي وابنتيها. وأدرك اليوم، وقد نضجتُ، أنها قد تكون شعرت بالأسف لحالنا آنذاك. يبدو دائماً أن نسوة البلدان العربية الأخرى يُدركن أن نساء السعودية، بالرغم من ثروتنا النفطية، فقيرات إلى حدود المأساة من حيث الحرية الشخصية. قد تحسدنا النساء في البلدان الأقل ثروة على ثرائنا، لكنهن لا يحسدننا أبداً على القيود الكثيرة والصعبة المفروضة على حياتنا.

أذهلنا شباب طبيبة الأسنان اللطيفة هذه ودرايتها، بغض النظر عن شعورها المفترض حيالنا. فكلّ امرأة التقيناها قبل ذلك اليوم كانت من دون مهنة أو وظيفة خارج المنزل.

كنت ذلك الوقت صغيرة جدّاً، وكانت سارة أكبر منّي وأكثر جُرأة. وطرحتْ على طبيبة الأسنان الكثير من الأسئلة: عن هذه الأداة وتلك الآلة، أو من أين حصلت على شهادتها. وأذكر كيف تورّد وجه أمي، وقد أربكتها طريقة شقيقتي الجريئة. ففي عالم أمي كان يُتوقّع من النساء السعوديات الاكتفاء بدور الزوجة والأم، وكانت تقابل أي رغبة أو طموح بالعمل خارج المنزل بالهلع، بل بعدم التصديق.

صحيحٌ أن النساء خطون في ستينات القرن العشرين وسبعيناته،

خطوات صغيرة نحو الحرّية، لكن كل شيء تغيّر إلى الأسوأ في العام 1979، وهي السنة المثيرة للقلق التي شهدت على الثورة الإسلامية في إيران التي أطاحت حاكم البلاد المعروف بشاه سلالة بهلوي، وأحلّت محلّه آية الله العظمى الخميني قائد الثورة الإسلامية. وأعلن الخميني، منذ البداية، أنه يجد النساء كريهات؛ وهذا شعور شائع على نحو مروّع بين رجال الدين.

خاف الرجال في عائلتي من إمكان حصول أمر مماثل في السعودية، لأن بلادي تعجّ بالرجال الذين يعتقدون أن الله لا يتحدّث إلا إليهم. وتترتّب خلافاتٌ لا تنتهي على اعتقاد كل رجل تقريباً، أنه الإنسان الوحيد الذي يمتاز بمعرفة حقيقة الله.

اعتقد عمّي الملك خالد وأشقاؤه أن السعودية ستسير على خطى إيران. ونتج هذا الاعتقاد في النصف الثاني من العام 1979 عن اقتحام متمردين، يحتجون على حكم عائلتي، الجامع الكبير في مكة، وأخذوا الحجاج المتعبدين فيه رهائن. وأعقبت ذلك معركة استمرّت أسبوعين قضى فيها الكثير من المهاجمين والرهائن والجنود السعوديين المدافعين عن حكم آل سعود.

أصغيتُ بشغف إلى والدي، وهو يكرّر الكلمات التي تفوّه بها ملكنا خالد، والتي عبّر فيها عن مخاوفه وقلقه على بلادنا، وعلى حكم عائلته.

مسكين الملك خالد. كان رجلاً مخلصاً أخذ واجباته الملكية بجدّية أكثر من معظم الآخرين، وأفهم أن يؤلمه المسار الذي يتّبعه العدد الكبير جداً من المسلمين.

ولما وضعت أزمة الجامع الكبير أوزارها، وقُطعت رؤوس من تبقى حيّاً من المتمردين، تلاقى رجال عائلتي الواسعة، آل سعود، لإيجاد طريقة يسترضون فيها الراديكاليين. وتخلّى عندها الرجال الذين أعرفهم كأقرباء لي عن جميع حقوق النساء السعوديات، مبررين أن حرّية النساء ستضاعف من غضب الرجال الأكثر تديّناً، وتشكّل تهديداً للتاج.

عندها بلغت خطواتنا الصغيرة كنساء نحو الحرّية طريقاً مسدوداً. وأسفرت سنوات «القحط» الطويلة لحريتنا الشخصية عن حالة من الركود؛ ولم يعد يُنظر في مسألة تحسين وضع النساء.

تناهى إلي، مع مرور السنين، حديث عن طبيبات يمارسن عملهن في بلادي، لكنهن نساء جئن من بلدان أخرى، وبخاصة من إنكلترا وأميركا وآسيا. وأنا لا أحتسب هؤلاء النساء، لأنهن لم يؤدين إلى تحسين فرص النساء السعوديات. كما توافد عدد قليل من الطبيبات

من البلدان المجاورة.

غير أن النساء السعوديات عاودن في العام 2014 إحراز التقدم. فجميع السعوديات تقريباً تلقين التعليم في هذه الأيام، حتى عمر السادسة عشرة أو السابعة عشرة. وحصلت الفتيات الأكبر سنّاً، إذا وافق الأهل، على الإذن بمواصلة تعليمهن والحصول على عمل في مهن مرموقة كالطب. والمزيد المزيد من النساء السعوديات اخترن التخصص في مجال طب الأسنان، أو طب الأطفال، أو الطب النسائي.

لا يسعني، حيال ما بلغه الكفاح المرير، إلا أن أشتعل حماسة كلما علمت بامرأة سعودية شقّت طريقها عبر سنوات كثيرة من التعليم للحصول على إجازة في الطب. وما من شيء يصيبني بالسرور أكثر من طلب موعد مع طبيبة سعودية؛ وقد بذلت في الواقع ما هو أكثر من ضروري للعثور على آخر الطبيبات في الرياض وجدّة والطائف، وهي المدن التي أقضي فيها معظم وقتي. أعشق لقاء نساء حققن هدفهن، وأحب مراقبة طريقة عملهن، وتحليل طريقة تعاملهن مع الحياة المهنية في المملكة. أعرف أن الصعوبات هنا لا تزال كثيرة؛ وأنني أحتاج إلى فهم طريقة تكيّف هؤلاء النساء على المستوى الشخصي، وإلى إجراء تقويم دقيق لما تطلّبه منهن تحقيق مثل هذه الأهداف المهنية السامية.

يساعدني مثل هذا البحث الشخصي على اتخاذ خيارات أفضل، لدى تحديد أنجع الطرق لمساعدة النساء في تحقيق طموحاتهن، أو لدى اختيار المنظمة التي أساندها في جهودي لتحسين توفّر الفرص للنساء عموماً.

لم أكشف إلا لطبيبتين حماستي المتمثّلة في استخدام معظم وقتي ومواردي الضخمة لضمان حصول جميع الفتيات على أفضل تعليم. والحقيقة أن من الصعب عليّ كثيراً الاحتفاظ بالأسرار وأنا في حضرة امرأة أُعجب بها جداً، امرأة نجحت في شق طريقها عبر واحد من أكثر العوائق مشقة في العالم، لتحصيل التعليم الجيّد، ولتصبح طبيبة في المملكة العربية السعودية.

هناك ثلاثة مجالات عموماً أستطيع فيها مساعدة نساء سعوديات في حقل الطب. فقد ساعدت فتيات يحتجن إلى التعليم، فتابعن تحصيلهن في هذا المجال المهني. أما الأخريات فنساء احتجن إلى مساعدة عملية أكثر، وهنّ فئتان: الفئة الأولى نسوة طلبن المساعدة الطبية من مجالس إدارة مختلف المستشفيات الملكية التي اتصلت بدورها بأفراد من العائلة المالكة. وقد روجعتُ مرات كثيرة في هذا الشأن، لأنني أميرة رفيعة المستوى عُرفت بسخائها عندما يتعلّق الأمر بمسائل تؤثّر في النساء. والفئة الثانية أمهات شابات يخشين على حياة بناتهن اللواتي يتعرّضن للتهديد من آبائهن

وأشقائهن أو أعمامهن.

لا يستطيع أحد من هؤلاء الناس، بالطبع، أن يتخيّل أنني الأميرة سلطانة التي اشتُهرت بفضل الكتب التي روت قصة حياتي. عرفوا فقط أنني واحدة من عدّة أميرات ملكيات يكرّسن الكثير من الوقت والمال لتعليم الفتيات، وللعثور على الموارد الحكومية لتمويل العلاج الطبي الضروري لمن لا يستطعن تحمّل نفقاته.

لكن التغيير أبعد من أن يكتمل في المملكة. وبالرغم من أن بعض النساء السعوديات يجدن الحياة أقل تعقيداً وخطورة مما كانت عليه في جيلي، فإن هناك الكثيرات من اللواتي لا يزال يتعيّن عليهن خوض المعركة وحيدات للتغلّب على منظومة أقامها الرجال للاحتفاظ بالسيطرة التامة على النساء. وغالباً ما تبرهن الصعوبات التي تعانيها تلك النساء، على أن المشكلات التي واجهتُها شخصياً إنما هي بالمقارنة مشكلات هزيلة وسخيفة.

وأودّ، بعد أن أوجزت مدى صعوبة حصول النساء السعوديات على إجازة في الطب، أن أشارككم قصّةً محدّدة عن امرأة استثنائية. وغالباً ما تتجه أفكاري إلى هذه المرأة التي لا تُقهر، والتي وُلدت في أحد أكثر الظروف مأسوية، ومع ذلك أخرجت نفسها، بقوة الإرادة والعلم، من ظلام العبودية إلى النور. وسأشير إليها بوصفها الدكتورة مينا، المرأة السعودية التي تمتلك الرغبة والمقدرة على الخدمة، والتي أعتقد أنها تسهم في بعض التغييرات المرتجاة والكبرى لكل نساء السعودية.

***

التقيت الدكتورة مينا سنة 2012 عندما دعيتُ مع قرابة 15 من نسيباتي إلى اجتماع لمناقشة موضوع تعليم البنات السعوديات في واحد من المستشفيات الملكية في الرياض. وبوصولي، طلبت إلى سائقي، وهو رجل مسلم لطيف متوسّط العمر من إندونيسيا يُدعى باتارا، التوجُّه بالسيارة إلى مدخل المستشفى لأتمكّن من شق طريقي مباشرة إلى غرفة الاجتماع. وقد عمل باتارا لزوجي على مدى سنين كثيرة، وهو يحظى بثقته التامة. وقد عُيّن على هذا الأساس سائقاً شخصياً لي عندما نكون في السعودية. تراه يأخذ عمله على محمل الجد، ويبدو سعيداً جداً، لأنه موضع ثقة كبيرة، إلى حد أنه يسافر معنا من مدينة إلى أخرى.

عندما أدرك باتارا، في هذا اليوم بالذات، أنني سأدخل إلى المستشفى من دون أن يكون إلى جانبي، اعترض باحترام، لأنه يعتبر أن مهمته الحيوية تقضي بوصولي إلى وجهتي سالمة. بل إنه يذهب إلى حدّ تفتيش الغرفة التي أهم بالدخول إليها، مع أنه لا

يستطيع دوماً ممارسة هذا الإجراء الأمني بوجود نساء أخريات غير محجبات. وكان باتارا، في مناسبات عدّة أطيل فيها الزيارة أكثر من المتوقع، يطلّ برأسه من إحدى النوافذ المفتوحة لمراقبة المشهد والتأكد من أنني لا أزال بين الأحياء. وأثار باتارا في حادثة ظريفة جلبة، عندما أطلّ بفضول من إحدى النوافذ. وعندما لم يتمكن من العثور عليّ في التجمع الكبير، أطلق صيحةَ قلقٍ تسببت بإغماء ست أو سبع من النساء الأكثر محافظة، ودفع بأخريات إلى الهرب والاختباء. صحيح أن خدمنا تعوّدوا رؤية وجهي السافر ووجوه شقيقاتي وابنتي مها، إلا أن النساء الأخريات لا يعشن هذا القدر من الحرّية في السعودية، وتجبرهن عائلاتهن على ارتداء الحجاب بوجود الخدم في المنزل. وأمرت باتارا بعدم التسبب بمثل هذه الجلبة بعد ذلك اليوم. وحظّرت عليه الظهور أمام نساء من غير عائلتنا!

عرفتُ وجهتي بالتحديد، كوني زرت المستشفى غير مرّة، وحضرت فيه اجتماعات من قبل.

«كلاّ،» أجبت بحزم، «أرجوك، يا باتارا، أن تركن السيارة في تلك الفسحة». وأشرتُ إلى المنطقة التي يُسمح فيها لأفراد العائلة المالكة بركن سياراتهم في أي وقت من أوقات النهار والليل. أوقفَ المحرّك واستدار كي يفتح لي باب السيارة لأستطيع الخروج بسهولة. وغالباً ما يعلق نسيج عباءتي المتموّج بشيء حاد، وأفرح عندما يدفع باتارا النسيج العالق جانباً، ويمسك بالباب مفتوحاً من أجلي.

استرقتُ النظر إلى تعابير القلق على وجهه، وضحكت في قرارة نفسي حتى لا أجرح شعوره. وقد أسفتُ لإحباطه وقلقه، لكن هناك أوقاتاً يتوجبُ فيها أن أكون وحدي وأعيش حياتي من دون حماية رجل.

لم يلاحظني أحد لدى عبوري أبواب المستشفى العريضة، كوني محجّبة بالكامل. مشيت بعد ذلك وحدي مشية واثقة عبر الرواق الطويل المؤدي إلى الغرفة المنشودة . شعرت بتحرّري، بالقدر الذي يمكن فيه لامرأة سعودية أن تشعر به؛ كاد الأمر يبدو كما لو أنني في عطلة صغيرة، متحررة من الفوضى المألوفة للحياة التي تحيط بمنزل كبير يعجّ بالخدم وبأفراد العائلة.

أخذتُ بعض الوقت لأجول بنظري في أنحاء الغرفة، ولم تقع عيناي على أي من نسيباتي. رجّحت أن يكنّ قد تأخرن لأن كثراً من أفراد عائلتي الكبرى يعتبرون وصولهم متأخرين وانتظار أشخاص من غير أفراد العائلة المالكة لهم، أمراً مهماً. أنا شخصيّاً أمقت هذا السلوك، لكنني لاحظت منذ بلوغي سن الرشد أن الغطرسة هي مرض أفراد الأسر المالكة. ويلفتني في الواقع أن هذا الأمر مزمن ولم يتغيّر عبر

العصور، إذ يعتقد أفراد العائلة المالكة في كل أنحاء الأرض، بما في ذلك الأوروبيون منهم، أنهم أرفع شأناً من الآخرين.

فجأة، حدث نوع من الحركة، وبدا أن شابة سعودية مكلفة استقبال المدعوّات قد تركت موقعها. تفحّصت وجهها وهي تتجه نحوي، وتخيّلت أنها مرتبكة، اعتقاداً منها أن سوء حظّها شاء أن تتسكّع في الوقت الذي وصلت فيه واحدة من أفراد العائلة المالكة. استطعت أن أرى بسهولة القلق الذي أصاب الفتاة الجميلة، بل الرعب، من أنني قد أنزعج من إغفالها لي. لكنني لم أشعر بأي انزعاج، ثم إنها ابتسمت ابتسامة عريضة جعلتني أحبها من فوري.

بادلتها الابتسامة، لكنها لم تر بالتأكيد وجهي البشوش، لأنني كنت لا أزال مغطاة بالحجاب الكامل، اللباس المكروه الذي لا أزال أرتديه عندما أغامر بالظهور العلني في الرياض. وآمل أن يحلّ قريباً اليوم الذي تتوقف فيه نظرة الاستنكار إلى السيدات غير المحجبات في مجتمع الرياض. ولا يزال هناك إلى اليوم شبان سعوديون مراهقون علّمهم آباؤهم ورجال الدين أن يعتبروا النساء مواطنات من الدرجة الثانية، وأن يرشقوهنّ بالحجارة، لأنهم يعتبرون وجه المرأة السافر منظراً فاحشاً. وتحدوني رغبة صادقة في أن تتقدم أفكار مواطني الرياض المبالغين في محافظتهم، لتلاقي أفكار مواطني جدّة الأكثر تحرّراً، على الأقل، حتى لا يسبّب الوجه السافر عنفاً في الشارع.

بدا أن الشابة متحمّسة للترحيب بواحدة من أفراد العائلة المالكة، لكن الخجل الشديد منعها من الشروع في الحديث معي، وهي تتقدّم لمساعدتي في نزع عباءتي. تخلّصتُ من العباءة بحركة سريعة واحدة، ثم استفسرت منها قائلة: «هل تتحجّبين في الخارج؟». قصدت سؤالها إن كانت تمتلك ما يكفي من الجُرأة للتمرّد كما فعلتُ وأنا شابة؟

ابتسمت الفتاة بخجل. لكنها بادرت إلى الاعتذار قبل أن تجيب عن سؤالي: «آسفة، أيتها الأميرة. فقد جرى استدعائي لبرهة وتوجب عليّ المغادرة فقط».

«نعم، لا تقلقي. فأنا لست عاجزة». وعاودتُ النظر إليها. «أخبريني، ما رأيك بالحجاب، حجاب الوجه؟».

أذهلتها صراحتي، إلا أنني لا أخفق أبداً في مناقشة الحجاب عندما ألتقي نساء شابات؛ لأنني لا أجد أمراً يكشف لي عن شخصيتهن أكثر من إرادتهن محاربة أي ظلم على النساء، وبخاصة في أمر شخصي مثل حجاب الوجه الذي لا يفرضه الدين الإسلامي كما يدرك جميع العالمين فعلاً بكتابنا المُنَزّل.

«أتحجّب عندما أكون في العلن»، قالت. ثم استرقت النظر من حولها للتأكد من أننا وحدنا قبل أن تعترف، «لكنني لا أحبه». وافترّ ثغرها عن ابتسامة عريضة بعد أن لاحظت ابتسامتي.

«لا يمانع والدي إذا لم أغطّ وجهي، لكن والدتي وأشقائي يقولون إن الحجاب له غرض مزدوج: إبعاد الحشرات عن عيني وفمي، ومنع الأفكار المحرّمة من دخول رأسي».

وضاحكتها، وأنا أستدير للانضمام إلى السيدات الأخريات في الاجتماع، وقلت: «آمل أن أرى ذلك اليوم الذي يرتدي فيه الرجال الحجاب الذي يحبونه إلى هذا الحد!».

شهقتْ، وقد أذهلتها هذه الملاحظة. لكن أستطيع القول إنها سُرّت للقاء أميرة سعودية على استعداد للتعبير عن نفسها بهذا القدر من الصراحة.

سرتُ نحو النساء الأخريات بترقّب شديد، لمعرفتي أن هذه اللجنة الخاصة قد شُكّلت للتركيز فقط في الاتصال بالمراهقات، وتشجيعهن على بذل ما في وسعهن لتحصيل إجازة في الطب. ما من شيء يمدّني بسرور أكبر من خبر مساعدة الطالبات على تحقيق أهدافهن العلمية. وبالرغم من أن حكومتنا قد أعطت أولوية قصوى للتعليم، فإن عائلات كثيرة لا تزال تعتقد، لافتقارها إلى المعرفة، أن تعليم البنات خطأ. وهؤلاء هن الفتيات اللواتي علينا مساعدتهن بأي طريقة ممكنة.

في هذه الأثناء، شاهدتُ المرأة التي ستصبح في يوم من الأيام صديقتي. راقبتُ قامةً نحيفة بمعطفها الطبي الأبيض تسير في اتجاهي. وقد فقتها طولاً، مع أنني امرأة قصيرة القامة. خلا وجهها من أي مساحيق تجميل تستخدمها الكثيرات من النساء لتحسين ملامحهن، إلا أنها احتفظت مع ذلك بجاذبيتها. وتفضّل النساء السعوديات عموماً الشعر الطويل، لكن تسريحتها ذكّرتني بأفلام هوليوود القديمة، التي أعلن ابني عبد الله أنه يحبها، والتي تعتمد فيها النجمة قصة الشعر القصيرة المهذّبة. ولم ترتدِ، على عكس معظم الحاضرات في التجمع، أي جواهر باستثناء ساعة يد بسيطة.

تعارفنا وتبادلنا التحيات اللطيفة. حاولت أن أحاورها؛ لكنها لم تكن من صنف النساء اللواتي يهوين الثرثرة. لم يستغرق الأمر إلا بضع لحظات لأدرك أن هذه الطبيبة السعودية ليست صاحبة الوجه والذهن الجذّابين فحسب، بل إنها أيضاً امرأة لا تتأثر بالانتماء الملكي. وأحبّ مثل هذه العقلية، لأنني أعرف أن أي مخلوق على هذه البسيطة ليس له رأي في وضعه. فالله هو الذي يقرّر كل

شيء؛ ولو شاء لولدتُ في الفقر المدقع في أرض بعيدة من السعودية. جميعنا نكون كما أراد لنا الله.

سرعان ما وصلت الضيفات المتوقّعات جميعهن، فتبادلنا التحيات وتناولنا المرطّبات، بما في ذلك خليط لذيذ من عصير الأناناس وغيره من الفواكه الرائعة. ثم طُلب إلينا التوجّه إلى قاعة المحاضرات التي تقع في المنطقة المجاورة، حيث سنستمع إلى الروايات الشخصية لنساء وُلدن في بلادنا من دون امتيازات، نساء بلغن مكانة سامية في الحياة، وحققن الكثير بالرغم من كل الصعاب. وستلقي المتحدّثات الضوء على الصعوبات التي واجهنها على مسمع نساء بلادنا الثريات. وقد أملْن في الخروج بأفكار خلّاقة لمساعدة فتيات سعوديات أخريات غارقات في وحل صعوبات مماثلة.

علمت أن الدكتورة مينا ستكون المتحدّثة الأولى. وتشوّقت إلى سماع قصتها. راقبت عن كثب قامتها الصغيرة، وهي تسير بثقة إلى المنصة المرتفعة. أحسست بأنني سأتعلّم أمراً مهمّاً جدّاً من هذه المرأة.

بعد التعريف والتصفيق المهذّب، روت لنا الدكتورة مينا قصة حياتها. ولاحظتُ سريعاً أنها المتحدثة الوحيدة بين جميع اللواتي سبق أن استمعت إليهن، التي لم تبذل أي جهد لسَحر الحضور بابتسامة. إلا أن قصتها الشخصية مثيرة جدّاً، تكشف عما كانت عليه الحياة، ولا تزال، بالنسبة إلى الكثيرات جداً من الفتيات والنساء السيئات الحظ في السعودية، إلى حد أنني جلست على حافة كرسيّ وقد أسرني عرضها البسيط، ولكن القوي، للرواية التي أخبرتها.

«لم تُنبئ بداية حياتي بأي شيء حسن. فقد وُلدت ضمن عائلة فقيرة في قرية فقيرة بمنطقة تُعرف اليوم باسم الخرج».

أعرفُ الكثير عن مسقط رأس الدكتورة مينا، وهو منطقة تميّزت في الجزء الأكبر من تاريخها بالفقر، على غرار معظم مناطق السعودية. لكن سكان الخرج أوفر حظّاً من معظم أهل أرضنا، لأن منطقتهم تحتوي على ينابيع وجداول كثيرة. وتُعرف المنطقة في الواقع بواديها الواسع الذي يُسمّى وادي الخرج. ويستطيع القرويون، بوجود الماء، أن يزرعوا الحبوب على الأقل وسوى ذلك من النباتات. وأذكر أن والدي كان يخبر علناً قصصاً عن سكان الخرج؛ فهم آخر الذين خضعوا في نجد لحكم والده. لكن شعب المنطقة أصبح لاحقاً الأكثر ولاء لعائلتنا، وانضم إلى جدنا الملك عبد العزيز في حروبه لإخضاع البلاد كلّها وتوحيدها. ومنذ ذلك الوقت وعائلتنا تنظر بعين العطف إلى شعب تلك المنطقة، وغالباً ما تكافئهم بتحسين طرقاتهم وبناء المؤسسات التجارية، وسوى ذلك من الأولويات التي تُعطى لهم على حساب مناطق أخرى من البلاد.

تابعت الدكتورة مينا روايتها: «ولو أن أحداً في قريتي الصغيرة توقّع أن تذهب الابنة الرابعة والأخيرة لوالدتي إلى المدرسة وتحب العلم إلى درجة أنها اشتاقت أن تبقى طالبة إلى الأبد، لتعرّض للسخرية وربّما للرشق بالحجارة».

كانت الصورة التي قدّمتها إلينا عن القرويين غير المصدقين وقاذفي الحجارة فكاهية بعض الشيء، لكن لم تمتلك أي منا، نحن الجالسات قبالة الدكتورة مينا الشديدة التجهّم، الجرأة على إطلاق ضحكة مكتومة، بمن فيهن أكثر نسيباتي الأميرات تهوّراً.

«كنت الأخيرة بين أربع بنات ولدتهن أمي». وسَرَتْ بين الإناث الحاضرات همهمة شفقة على امرأة تلد أربع بنات. تشنّجتُ وأنا أنظر من حولي إلى النساء في الغرفة، اللواتي أعربن عن الشفقة على ولادة أنثى. وكم بلغ مقدار غضبي لشعوري بأن النساء يتمسّكن حتى اليوم بضرورة الإشفاق على أم البنات. فأمي ولدت عشر بنات، وأعتبر بالتالي ردّ فعل كهذا بمثابة إهانة شخصية. لكنني أمسكت لساني، لأن هذا ليس بالمكان المناسب للاختلاف الذي قد يتحوّل إلى مواجهة.

«كلّف مولدي أمي في الواقع طلاقاً متسرّعاً من والدي المسعور الذي صاح بكلمات مريعة: «أنت طالق، طالق، طالق». فلأمي ثلاث بنات صغيرات، وقد أصبحت للتو الرابعة، وها هي تجد نفسها امرأة طالقاً. وقيل لي إن والدي لم يتوقف حتى لالتقاط أنفاسه؛ بل جاء إلى جانب أمي وعنّفها بقسوة، واتهمها بتخريب حياته بولادة الابنة تلو الأخرى. تفاقمت خيبة أمله في هذه الأثناء، وتحوّلت إلى ثورة مفزعة. وقد أرعب المسكينة أمي عندما أمسكني بشراسة وهرع إلى باب كوخنا الطيني، وهو يحملني من ذراعيّ الدقيقتين صائحاً بأنه سيدفنني حيّة في الصحراء. ثم صاح بشقيقاتي الثلاث الأكبر منّي سنّاً طالباً منهن الاصطفاف بانتظار عودته. قائلاً إنه سيرميهنّ في بئر القرية. سوف تواجه بناته جميعهن الموت!

«هدّد رجل، هو والدي، بقتلي أنا وشقيقاتي بأقسى طريقة. والأمر المؤكّد أنني رحت أصرخ من الألم بسبب جذبه لي بالقوة. ثم حدثت معجزة مباشرة من الله، هي الأولى من معجزات كثيرة في حياتي. لقد هدّدنا رجل واحد، أنا وشقيقاتي، لكنّ رجلين حميا حياتنا الصغيرة، قبل أن يرتكب جريمته. فقد أنقذنا حديث للنبيّ محمد ﷺ الذي هبطت كلماته الحكيمة عبر العصور، وأحد أعمامي، وهو أكثر ذكاء بكثير من شقيقه، إذ وجد بعض القيمة في ابنتيه، اللتين يُظن أنه أكثر لطفاً معهما، لأن زوجته وهبته قبلهما خمسة أبناء. لكنّه، وبغض النظر عن السبب، أنقذ حياة أربع إناث صغيرات بتكراره حديث النبي محمد ﷺ، الذي وعد فيه بمكافأة كبيرة من الله لمن يربّي أولاده الإناث برفق وبعناية. «من كانت له أنثى فلم يئدها ولم

يهنها، ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنّة.

«واصل عمّي تكرار حديث النبي، ولم يظهر أي عدائية، بل اقترب ببطء للإمساك بي، أنا الطفلة بين يدي والدي.

«لم يرغب أبي أن يُعرف عنه أنه خالف كلام النبي محمد ﷺ. لكنه بدلاً من أن يسلّمني إلى عمّي، رماني، أنا الطفلة العاجزة، على الأرضية الترابية، وغادر منزلنا مقطّب الوجه، مهدّداً بأنه ذاهب لتدبير مغادرتنا، قائلاً إن على رجل آخر أن يطعم خمسة أفواه عديمة الفائدة؛ وإنه لا يريد بعد الآن أن يرى زوجته الطالق أو البنات الأربع اللواتي أنجبتهن.

«بعد ساعات، حضرت امرأتان لجمع الأمتعة البالية لوالدتي المسكينة وبناتها الأربع. وأجبرتا والدتي، التي عانت من مخاض عسير من دون أي عناية طبية، على الخروج قسراً من سريرها. جهّزتنا هاتان المرأتان لمغادرة المنزل الوحيد الذي عرفته أمي منذ زواجها.

«سرعان ما عاد والدي مصرّاً على مغادرتنا الكوخ ووضعنا في المقعد الخلفي لسيارته المتهالكة. وقال إنه سيعيد والدتي إلى أهلها. بل أصرّ بوقاحة أنه سيجبر أهلها الفقراء على إعادة مهر زواجها المؤلّف من عقد رخيص وطقم أساور وبضعة خراف وعشر دجاجات. لم يكن جدّاي حينها يمتلكان أي شيء يعيدانه، لأنهما لم يستردّا ما دفعاه من مهر لثلاث من بناتهن. ولم يكونا يملكان سوى أربع دجاجات هزيلة تعطيهما البيض أحياناً بما يدعم وجبتهما الغذائية الهزيلة.

«علمت لاحقاً أن أثراً من الدم تبع خطوات أمي وهي تمشي متعثّرة إلى الباب تنتحب وتتوسل زوجها أن يمنحها فرصة إضافية واحدة، وهي تعده بأن الطفل الخامس سيكون صبياً معافى. لكنها تلقّت صفعة على وجهها مقابل مناشداتها النابعة من القلب.

«وحدثت معجزة ثانية في غضون ساعات قليلة على ولادتي، معجزة صانت حياتي. تعرفن جميعكن، وبغض النظر عمّا جاء في القرآن الكريم عن حضانة الأولاد، أنه إذا طالب رجل في بلادنا بالحضانة منذ اليوم الأول على ولادة الطفل، لا يجرؤ أحد على الوقوف في وجهه.

«أحمد الله على أن والدي لم يصرّ على حضانة بناته. ولو أنه طلب الوصاية، لما وقف أحد في وجهه. وأنا متأكدة من أنه لو حدث ذلك لقتلنا جميعاً في أقرب وقت، إذ كيف بإمكان عمّنا اللطيف الوقوف حارساً علينا كل ساعة من اليوم؟ الحمد لله أنه سمح لشقيقاتي المرتعبات وللطفلة الحديثة الباكية، أي أنا، بالعيش مع والدتنا.

«قالت أمي إن والدنا كان يشتمها طوال الطريق، وهو ينقلنا بفظاظة إلى منزل والديها العجوزين. وهكذا وجدتْ أمي المسكينة نفسها مطلّقة مع أربع بنات، إناث لا يريدهن أحد.

«وبدلاً من أن يرحّب أهل أمّي بابنتهما وحفيداتهما الأربع، تشاجرا مع صهرهما السابق، وأبلغاه بضرورة أن يعيد عائلته معه إلى المنزل. زعْما أنهما لا يملكان لقمة خبز يتقاسمانها مع ابنتهما وبناتها. لكن والدي شتمهما أيضاً، لأن ابنتهما لا تلد إلا البنات.

«كان والدي، على غرار الكثيرين في تلك الأيام، رجلاً جاهلاً لا يعرف أن مَني الرجل هو الذي يحدّد جنس الولد. وفي ذهنه الأمّي أن الأطفال يأتون من جسم المرأة، وبالتالي فإن المرأة هي الطرف المسؤول عن كل ما يتعلّق بالطفل.

«راقب أهل أمي بذعر صهرهما السابق يصعد إلى سيارته البالية ويغادر قريتهما. عندها حوّلا عداءهما إلى أمي. وقفا جبهة واحدة عند باب منزلهما البسيط، وطلبا إلى والدتي المغادرة، والذهاب إلى الرياض للعثور على أحد في الحكومة يستقبلها هي وبناتها. بل إن جديّ الخاليين من الإحساس دفعاها جانباً، محاولين بشكل معيب العودة إلى منزلهما وإقفال الباب بإحكام، حيث لا يتمكن أي منا من الدخول.

«إلا أن شقيقتي الكبرى تمتّعت بالكثير من الحنكة. كانت في السادسة من العمر، وتميّزت دوماً بالفطنة. ولطالما أحبّت القصص التي يرويها البدو في أثناء زياراتهم قريتنا الصغيرة، وخصوصاً الرواية التي تقول إنه حين يصبح أنف الجمل في داخل الخيمة يتبعه جسمه سريعاً. صمّمت على دخول 'الخيمة' أو، في هذه الحال، الكوخ. وأدركت أن الوضع ملحّ، فاندفعت متجاوزة الزوجين العجوزين وألهت جدتنا بالتعلّق بإحدى ساقيها. حاولت جدتي ضربها لتجبرها على إفلاتها، لكن شقيقتي أعلنت لاحقاً أن ضربات جدتي الضعيفة لا توازي لكمات والدنا الوحشية، مستذكرة المرات الكثيرة التي ضرب فيها زوجته وبناته الصغيرات. لذلك تحمّلت الضربات، ولم تجد صعوبة في الثبات في موضعها. واستغلت والدتي الفرصة السانحة لاستجماع آخر قواها كي تحشر نفسها وتجاوز والدها. وأنا كنت مربوطة في قماشة لفّتها حول عنقها فيما تمسّكت شقيقتاي الأخريان بردائها الطويل».

ظهر، وللمرة الأولى، ما يشبه الابتسامة على شفتي الدكتورة مينا. وقالت: «ذلك القول البدوي المأثور حكيم جداً، وتأكدت أنه صحيح في ما يتعلّق بأنف الجمل. لعبت شقيقتي دور أنف الجمل ونحن جسمه، وهكذا أصبحنا في الداخل».

عمّ الصمت المطبق الغرفة، فيما تابعت الدكتورة مينا قصتها:

«تحلّت أمي بما يكفي من الفطنة لعدم إزعاج نفسها في مناقشة الوضع مع أهلها. عرفتْ فقط أن لديها أربع بنات تحبهن أكثر من حياتها، وأن لا مأوى لها غير بيت طفولتها. لم تجادل، بل ادّعت الانهيار في إحدى الزوايا وتظاهرت بالنوم. وحذت شقيقاتي حذوها، مع أنهن اعتنين في لف سيقانهن الصغيرة وأذرعهن حول أمي. ومن حسن الحظ أن جدّينا كانا عجوزين ويفتقران إلى القوة لرفعنا نحن الخمس كلّنا، وبالتالي بقينا حيث نحن.

«قالت أمنا إن عينها لم تغمض لثانية واحدة في تلك الليلة، لأن والديها جلسا طوال الليل يخططان لإجبارنا على الرحيل من منزلهما.

«وهكذا أنقذت معجزة ثالثة حياتي. حدثت الأولى عندما نطق عمّي بحديث النبي محمّد ﷺ الذي يحظّر على الرجال وأد بناتهن؛ والثانية عندما لم يطالب والدي بالوصاية على بناته؛ وحدثت الثالثة عندما سمحت سرعة خاطر شقيقتي بحصولنا على منزل؛ مع أننا لم نكن مرغوبات فيه.

«لم تكن تلك آخر المعجزات التي أوصلتني إلى هذه الغرفة للتحدث معكن كامرأة حصّلت شهادة في الطب في بلاد لا تُتاح فيها الفرصة إلا لقلّة من النساء لتحقيق مثل هذا الإنجاز.

«أعتقد أيضاً بحصول معجزة رابعة تتمثّل في عدم وضع جدّي خططاً لقتلنا. كانت أمي ضعيفة جدّاً، وفتياتها صغيرات جداً. كان بإمكانهما، لو زادت قسوتهما بعض الشيء على حدّها، إضرام النيران فينا جميعاً. وما من سلطة كانت لتعاقبهما في تلك الأيام على قتل خمس إناث.

«من حسن الحظ أن الشرّ لم يبلغ بجدّيّ حد وضع الخطط لقتلنا. أرادا أن نرحل، إلا أنهما عجزا عن ارتكاب فعل القتل».

صمتت الدكتورة مينا لبرهة وجيزة. ونظرت في أرجاء الغرفة كما لو أنها تتوقع حضور أحد. ثم توقّفت عيناها على وجهي، وشعرْتُ بقوة هائلة من الطاقة تتدفّق نحوي. حدث أمر لافت لست متأكّدة من ماهيته، لكن الطاقة الاستثنائية لم تُشعرني بأي خطر.

استأنفت الدكتورة حديثها من دون أن تفارق عيناها وجهي: «أؤمن بالمعجزات. وأنا أقف هنا كمعجزة لكنّ جميعاً. وأنا متيقنة من أن كثيرات من بينكن سمعن رجالهن يتحدّثون عن رغبات الله، كما لو أنه موجود في رؤوسهم. فأنا أيضاً سمعت مثل هذه التلميحات من رجال يجزمون بأن الله يفضّل الرجال على النساء. لكن مثل هذا الأمر غير ممكن.

«حَضَرَ اللّٰه في ليلة ولادتي ليصنع أربع معجزات أنقذت حياة خمس إناث هن والدتي وبناتها الأربع.

«قالت أمّي إن والدها غادر المنزل في الصباح التالي في زيارة لعدة قرى مجاورة، سعياً وراء رجل، أي رجل، يتطلّع إلى الزواج. لكنه لم يلق ردّاً إيجابياً من أي رجل. واشتكى بمرارة من أنه لم يُوفّق في العثور على أي رجل، حتى على عجوز أصلع أسنانه فاسدة، يريد امرأة مع أربع بنات ترعى احتياجاته.

«وهكذا تحسّنت حياتنا بطريقة ما، وأضحت أكثر صعوبة من ناحية أخرى. لم نواجه خطر التعرّض للقتل، إلا أن جدّينا كانا يضرباننا كلما أحبطهما وجودنا. تعرّضت أمي لجرح عميق في عنفوانها عندما أصبحت إضافةً إنسانية غير مرحّب بها، تعيش في منزل والديها العجوزين، وهو كناية عن مسكن صغير من الآجرّ الطيني المجفف، ولا يحتوي إلا على غرف ثلاث. وها هي الدار الخالية من الأثاث التي لا تكاد توفّر مساحة كافية لشخصين، تطفح بثلاثة بالغين وأربع فتيات صغيرات.

«شعرنا مع ذلك بالامتنان لامتلاكنا ملجأً يقينا من العوامل الطبيعية، ولتوفّر بعض الطعام، مع أنه لا يكفي لأربعة أولاد في طور النمو».

توقّفت الدكتورة مينا لبرهة وقامت بحركة لوّحت فيها بيدها من فوق رأسها.

«أنا، كما ترى أعينكن، توقّفت عن النمو. وشقيقاتي يمتلكن أيضاً القامة القصيرة نفسها. ويفسّر سوء تغذيتي وأنا طفلة السبب الذي يدفعني إلى رفع رأسي للنظر إليكن. لم تنمُ أي منّا بشكل طبيعي، لأننا عانينا الجوع في كل لحظة من لحظات حياتنا الصغيرة.

«أعرف أن والدتي أحبت بناتها من كلّ قلبها. شعرتُ بها مراراً كثيرة وهي تراقبني في الغرفة، حزينة ومُنهَكة حتى العظم، ومع ذلك أحبّت طفلتها بيأس. أصيبت والدتي المسكينة بالإرهاق الشديد جراء استعباد أهلها لها، حيث لم يتبقّ لها أي حيلة للاهتمام ببناتها. فأنيطت بشقيقتي ابنة الست سنوات المسؤولية الكاملة عن شقيقاتها الأصغر منها. صحيح أنني شعرت بالمحبة، إلا أن الحياة بلغت من التعاسة حدّاً غاب معه الفرح أو الضحك الذي يجده المرء عادة في منزل يضم أربعة أولاد. لا يمكنني أن أذكر أنني لعبت أي لعبة مع شقيقاتي. ولا أستطيع أن أتذكّر أمي تغني لي أغنية أثناء النوم، أو تروي لي قصة صغيرة.

«أما جدّاي، فقد أصابهما وجودنا بالمرارة، وراقبا بحقد كل لقمة

طعام وهي تنتقل من أيدينا إلى أفواهنا. وضنّا على طفلات في طور النمو بكل قضمة من الغذاء. بدا مظهر هذين العجوزين، بشعرهما الأبيض تماماً ووجهيهما المقطّبين، وكأنهما وُلدا طاعنين في السن. وقيل لي، وكنت قد أصبحت في الثانية من العمر، إنني كنت طفلة ترتعب من كل شيء، وبالأخص من هذين العجوزين اللذين يحملقان بي بسخط طوال الوقت. وقالت أمي إن ما حطّم قلبها شعورها بيدي الصغيرتين تشدان حواشي ثوبها خلال أوقات الطعام. كنت أحتجب في ثنايا ثوبها وأنا استهلك سريعاً حصصي غير الكافية من الخبز الحاف والبيض المسلوق ولحم الجمل المليّف. وأولى ذكرياتي كانت شعوري الدائم بالجوع.

«عانت أمي العزيزة في السنوات الأولى معاناة رهيبة، وهي تغذّي بناتها الجائعات بأبسط الطعام. وشهدنا أوقاتاً جيّدة قليلة تُوَفَّر فيها الطعام في خلال الأعياد الدينية، عندما يتذكّر مختلف أقاربنا أفقر أنسبائهم، فيجمعون بقايا فتاتهم في أوعية بلاستيكية، ويتركونها عند الباب الخشبي المخلّع الذي تحرسه شقيقاتي أملاً في أن تحنّ علينا نفس متعاطفة فتجلب بعضاً من طعام. وقيل لي إننا كنا نتعارك على بقايا اللحم كما تتعارك الكلاب الجائعة على العظام.

«تحسّنت حياتنا اليومية بعض الشيء مع وفاة جدّتي بسبب التهاب قوي أصابها، بعد أن انغرز في قدمها مسمار صدئ في لوح خشبي. ونظر جدّي للمرة الأولى بعد وفاة زوجته إلى والدتي بوصفها كنزاً، شخصاً يأخذ مكان عبدته السابقة، المرأة التي خدمته طوال حياتها.

«لكن الحياة استمرّت كفاحاً يومياً. وماذا عن العِلْم؟ لا، ليس قبل وقت طويل. لم يؤخذ العلم قط في الاعتبار زمن طفولة أمي، وخصوصاً في منطقتنا الريفية، مع أنني عرفت أن فتيات المدينة المتحدّرات من عائلات ثريّة التحقن في الغالب بالمدرسة الابتدائية في تلك الأيام السود. لم يكن بإمكان والدتي الأمّية كتابة اسمها، أو استخدام الهاتف للاتصال بأحد. لم تستطع حتى أن تقرأ في القرآن، كتابنا المُنزَل، الأمر الذي يتوق كل مسلم مؤمن إلى القيام به».

واصلت الدكتورة مينا النظر إليّ من طرف خفيّ، وشعرتُ بوضوح أنها تقصدني أنا بكلامها.

«عزيزاتي الأميرات، تعرفن أن ديننا لا يدعو إلى هذه الظلمة الذهنية للبنات. بل إنه أمرٌ اعتنقه رجال خالون من الشعور اعتقدوا أنهم إذا أبقوا الإناث على جهلهن فلن يتبقى أمام نسائهن من خيار سوى أن يعشن مستعبدات للرجل. لم تعرف أمي القراءة ولا

الكتابة، لكنها لم تكن غبية. وأخذت تجمع المعلومات وهي تستمع إلى أحاديث الرجال الذين يزورون والدها. لم تر بالطبع وجوه أولئك الرجال، لأنه كان عليها أن تتوارى حفاظاً على شرفها. أخذت، قبل دخول الرجال إلى الكوخ، تطبخ وتمدّ الطعام على السجادة الملطّخة التي يأمرها جدّي ببسطها على الأرضية الترابية. وتهرع، بعد وضع الطعام على السجادة، إلى غرفة أخرى وتجلس وتستمع إلى كلام الرجال. وهناك تناهى إليها حديث مثير للاهتمام. شرع أحد رجال القرية يخبر عن التحاق حفيداته بمدرسة مخصصة للبنات تقع في الرياض، على مسافة ثلاث ساعات سفر من قريتنا الصغيرة. كما وُجدت في القرية مدرسة خاصة يتعلّم فيها الصبية تلاوة القرآن وحفظه، لكنها لا تستقبل البنات. وعلمت أمي، في سياق حديث آخر، بقيام العائلة المالكة بتشييد مشروع إسكاني خاص في المدينة. وتمتعت بما يكفي من الفطنة لتعرف أن ما من شيء سيتغيّر بالنسبة إلى بناتها من دون العلم. وأدركت أن عليها، لتحقيق ذلك، نقل بناتها إلى المدينة.

«سبق بالفعل أن جاء عدة رجال كبار في السن من أبناء القرية للمساومة على كبرى شقيقاتي. وتألّمت أمي لفكرة أن تصبح أيٌّ من بناتها عبدة لرجل، فاستجمعت شجاعتها للطلب من أحد أشقائها الذهاب إلى مدينة الرياض وتقديم طلب للحصول على شقة لجدّي.

«رفض جدي في البداية رفضاً قاطعاً. لكن والدتي واصلت طرح الموضوع بإلحاح، إلى أن عانى بعد نحو شهر من آلام حادة في الصدر، وأخذ يشعر بأنه على غير ما يرام. وقرّر انتقالنا إلى مدينة كبيرة ليتمكن من الحصول على عناية طبية أفضل؛ إذ لم تمتلك القرى الصغيرة في تلك الأيام إمكانات تقديم العناية الصحية لمن يحتاجها. وتحوّلت لاؤه إلى نعم؛ ورأى أن فكرة أمي وجيهة.

«وهكذا عُثر على مسكن لجدّي ولنا، نحن عائلته. وانتقلنا فجأة من قرية صغيرة إلى مدينة مزدهرة تتوفّر فيها الفرص.

«أرادت والدتي، بالرغم من أنها غير متعلّمة، الأفضل لبناتها. لم تتوقف قط عن التفكير في كيفية مساعدتهن والتخطيط لذلك. وألحّت على والدها، بعد وصولنا إلى المدينة، أن يسأل الجيران، ومن قد يلتقيهم، عما يتوفّر من تعليم لحفيداته. ولدهشتنا الكبرى وافق على مضض، لكن بعد أن وعدته أمي بأنه إذا حصّلت حفيداته العلم، فسنجد العمل المناسب للفتيات المسلمات التقليديات. وألمحت إلى أن العمل سيأتي بمرتّبات سوف تعود إليه. واتصف جدي بالجشع فاستغلّ الوضع.

«وهكذا توصّلت أمي إلى إدخال بناتها الثلاث الأصغر سنّاً إلى المدرسة. وادّعت شقيقتي الكبرى أنها غير مهتمة، لكنني أعتقد

أنها شعرت بالخجل؛ لأنها تفتقر، وهي في الثانية عشرة، إلى القدرة على القراءة أو الكتابة. أدركت أنها ستلتحق بالصفوف الأولى إلى جانب شقيقاتها الثلاث وغيرهن من الفتيات الصغيرات، ولم تفكّر في الأمر قط، لشعورها بالإذلال الشديد. وكنتُ الطفلة الأكثر استحواذاً على العلم. شُغفت به. أحببته. داومت على المطالعة باحثة عن أجوبة عن أسئلتي التي لا تنتهي. واتضح للمدرسة كلّها أنني الطفلة الأكثر فقراً في الصفوف كلّها، حيث ارتديت ثياباً قديمة جداً ظهرت البقع، بل الثقوب في أقمشتها، لكن معلماتي تغاضين عن وضعي السيئ، واهتممن بشغفي بالتعلّم.

«يمكنني مشاطرتكن الكثير من الروايات، ذلك أنني قضيتُ سنوات كثيرة أعمل لأصبح طبيبة مؤهلة. وسأخبركنّ، لو التقينا مرّة أخرى، بالمزيد من قصتي. لكنّني أصبحت اليوم، طبيبة كما ترون.

«وأنا على يقين الآن، أنكنّ تدركن، من خلال قصتي، لماذا كان القرويون يسخرون من كل مَن كان يقول إن مثل هذه الفتاة الفقيرة ستنجح في أن تصبح طبيبة!

«وأنا متزوجة الآن من رجل طيّب يحب ابنتنا الوحيدة بمقدار محبته لابنَيْه. وأنا أعيش من أجل أولادي، لكنني أعيش أيضاً لمساعدة الآخرين، لشفاء أولادنا السعوديين، كي يتمكنوا من متابعة التعلم، للإسهام في إيصال بلادنا إلى عصر لا تعاني فيه الفتيات كما عانت أمي، أو كما لا تزال تعاني فتيات سعوديات كثيرات، شابات ألتقيهنّ يومياً.

«أنا سعيدة لأنني أخبرتكن قصتي، ورويتها لسيدات صالحات مهتمات بمساعدة بناتنا السعوديات وشقيقاتنا. وقد سُررت لمشاركتكنّ قصة والدتي المثابرة، المرأة التي لم تفكّر قط بنفسها، بل نظرت إلى ما هو الأفضل لبناتها.

«كانت أمي امرأة عظيمة. اتّحدنا معاً ذهناً واحداً وروحاً واحدة للتأكد من أن هذه المرأة السعودية الآتية من عصر الظلمة تقاتل لشق طريقها إلى عصر النور، على مدى اثنتي عشرة سنة.

«احملن هذه الفكرة معكنّ اليوم لدى مغادرتكنّ. أنا ابنة امرأة لم تتمكن من كتابة اسمها. وأنا الآن طبيبة تمتلك التدريب والمهارات اللازمة لإنقاذ الحياة. وهذه، على ما أعتقد، المعجزة الكبرى من الله».

صمتت الحاضرات لبرهة، وقد أذهلتهن القصة التي سمعنها للتو. ثم انتصبتُ واقفة وشرعت في التصفيق؛ وسرعان ما انضمت إليّ النساء جميعهن. عرفنا أننا شاهدات على أروع قصة نسمعها على

الإطلاق: معجزة حققتها محبّة أم، والتعليم الذي توفّر لشابة كادت تُدفن حيّة في الصحراء.

تمنيّتُ فقط لو أن والد الدكتورة مينا استطاع أن يبتهج بنجاح ابنته. فقد أراد أن يأخذ طفلة رضيعة إلى الصحراء، كي يحفر في الرمل بيديه حفرة تتسع لطفلة بالغة الصغر ثم يهيل عليها الرمل الذي تمتصّه رئتيها بدلاً من الهواء ويجعلها تموت أشنع ميتة. ماذا يستطيع أن يقول اليوم عندما يرى ابنته التي تلقّت أعلى التعليم، وتحظى باحترام الكثير من الناس؟

نزلت الدكتورة مينا عن المنبر لتختلط فترة قصيرة بالضيفات. وأحاطت بها على الفور النساء المعجبات. جالت عليهن من دون أن تبتسم، مع أنني شعرت بدفئها الشخصي تجاه العالم. فهي امرأة تمتلك أهدافاً كبيرة تعمل على تحقيقها، وليس لديها وقت تضيعه بإطلاق الابتسامات!

أمكنني التحدث إليها على انفراد قبل أن أغادر.

رأت عيناي في هذه المرأة الصغيرة مارداً. لمستْ ذراعي لمسة خفيفة وقالتْ، «آه أيتها الأميرة، شعرتُ بشغفك بالخير يلمس قلبي حتى وأنا أقف على المنبر على بعد خطوات كثيرة منك. ولهذا لم تفارق عيناي وجهك. ينبئني اللّه بأننا، أنا وأنت، سننقل الكثيرات من الفتيات السعوديات الفقيرات إلى مكان أفضل في الحياة، من شأنه أن يغيّر عالمنا السعودي». وفتّشت عيناها في وجهي سائلة: «أتوافقين؟».

شعرتُ بشحنة من الإحساس الداخلي: بلغتُ، بمجيئي إلى هذا الاجتماع وتعرّفي إلى هذه المرأة، نقطة تحوّل في سعيي إلى تغيير حياة النساء السعوديات. أجبت: «نعم، دكتورة مينا، نعم».

علمت علم اليقين أن الدكتورة مينا طاقة عظيمة، قوة كبرى، وأننا سنحدث انقلاباً في البلاد التي نحبّها، ونحوّل في الوقت ذاته الكثير من الحيوات إلى ما يحقق أحلام أعداد لا تُحصى من الفتيات. ولا يتطلّب هدفنا إحداث التغيير بالقوة؛ بل إنه نوع من التغيير الذي يأتي من خلال التغيّر في الذهنية. والتعليم هو الدرب التي توصل إلى مستقبل حرّ للجميع. وتستطيع امرأة واحدة أن توصل الحلم إلى الأخريات، إلى أن نصبح جميعنا أحراراً. من الأم إلى الابنة... ومن الأخت إلى الأخت... ومن الصديقة إلى الصديقة.

الفصل السادس

ناديا: أي ثمن للحرّية؟

عرفتُ، منذ البداية، أن الدكتورة مينا امرأة سعودية استثنائية ستوسّع معرفتي للبلاد التي يحكمها رجال من عائلتي. كما أنها ستزيد في فهمي للنساء السعوديات العاديات اللواتي يجهدن لتخطّي الحواجز الضخمة الموضوعة أمامهن في المملكة التي أحب، تلك البقعة الشاسعة من الرمال التي وحّدها جدّي المولع بالحرب، وهو الرجل الشهير صاحب الكاريزما، الملك عبد العزيز آل سعود.

بلغ رابطي الأول بالدكتورة مينا من القوة مكاناً، حيث تبادلنا أرقام الهواتف الشخصية، وهو أمر لا تفعله أي منّا إلا في ما ندر. فعليّ كأميرة أن أنتبه لمسألة إقامة روابط وثيقة مع من لا ينتمين إلى عائلتي؛ أما الدكتورة مينا، فقد تطوّر لديها في طفولتها ارتياب طبيعي من الغرباء بفعل ما عانته من مشقات شخصية. إلا أننا كلتينا شعرتا برابط استثنائي مَهَر صداقتنا، مذ التقت أعيننا وهي تلقي محاضرتها، التي شكّلت مناجاة مؤثرة جداً، كشفت عن قوة شخصيتها وتصميمها.

لم أشعر بوجود روابط شخصية مع غرباء إلا في أربع مناسبات. وكلّها عمليات تعارف مشهودة مع نساء منقطعات النظير غيّرن مجرى حياتي، لكن لم تترك لديّ أيٌ منهن مثل هذا الانطباع العميق الذي خلّفته الدكتورة مينا.

اتفقنا على التحادث في الأسبوع التالي، لتحديد لقاء ثان في قصري في الرياض. انحنيت، لدى افتراقنا، تلقائياً للإمساك بكتفها في عناق نابع من القلب. تراجعت الدكتورة مينا بصورة غريزية. لم يجرحني ردّ الفعل هذا؛ اكتفيت بالابتسام لأنني شعرت بحدسي أن عليّ أن أغذّي هذه الصداقة بلطف وأناة شديدين. عرفت أنها ستصبح صداقة مهمّة، وأنها قد تحتاج إلى الوقت لتنضج. وأنا في العادة عرضة للتملّق ممن يبغين مصادقة أميرة، لكن الحال تختلف مع الدكتورة مينا. وهذا، لسبب من الأسباب، ما يضفي على صداقتها قيمة أكبر. عرفت أنها لا تبحث عن أي خدمات من أحد أفراد العائلة المالكة، بل تتقرّب منّي على أمل أننا معاً قد نساعد النساء على تعزيز إمكاناتهن.

افترقنا عندما هرعت عدة نساء أخريات، وجميعهن معجبات بها، إلى جانبها. فالدكتورة مينا أشبه بالمغناطيس الذي يجذب الآخرين، بالرغم من طبعها الساكن وشبه المتحفّظ.

ودّعت نسيباتي العائلة المالكة والنساء الأخريات في الاجتماع

قبل أن أتوجه إلى المدخل الرئيس. لاقتني الشابة التي قابلتها سابقاً عند الباب، وهي تحمل بتأنٍّ وشاحي الأسود وحجابي عالياً في يدها. ابتسمت لها وقطّبت جبيني لفكرة ارتداء البرقع. ليس ما يزعجني حقيقة العباءة التي تلتف حول جسمي أو الوشاح الذي يغطي رأسي، لأن ديننا يدعو المرأة إلى الاحتشام في مظهرها، بل برقع الوجه الذي ليس له أي علاقة بتعاليم الإسلام. أودّ أن أعرف هوية الرجل الذي تبنّى الممارسة العثمانية التركية القاضية بوضع المرأة في عزلة وتحجيب جسمها بالكامل وهي بين الناس. وبغض النظر عن هوية ذلك الرجل المسيطر، فقد أثّر في رجال بلادي وحوّل الأمر إلى سيطرة تقليدية على النساء السعوديات، مضيّقاً عليهن الحركة، وحاجباً الإطار الخارجي لأجسامهن ومقنّعاً وجوههن. واليوم يستخدم رجال الدين والرجال الضيّقو الأفق في السعودية وفي عدد من البلدان الإسلامية الأخرى، البرقع المكروه، سلاحاً لإخضاع النساء ومنعهن من عيش حياة حرّة. ونصبح مع الحجاب خرقى أشبه بمن يتعاطون المخدرات أو يعاقرون الخمرة. فغالباً ما نقع أثناء سيرنا، لأننا لا نستطيع أن نرى بوضوح الحفر والشقوق في شوارع مدينتنا. والأهم من ذلك كلّه، أننا نقع ضحية حوادث السير، لأننا نعجز عند الغسق عن رؤية السيارات المسرعة المتجهة نحونا. ولا أمل، طبعاً، في أن تقود أي امرأة السيارة بأمان إذا ما أجبرت على وضع البرقع الأسود!

همست لي الفتاة الشابة عند الباب، قبل أن تشرع في توديعي: «أيتها الأميرة، فكّرت في ما قلتِه اليوم، وفي القصص التي روتها الدكتورة مينا والنساء الأخريات. فتّحتما، أنت والدكتورة، ذهني. وأدرك الآن أن عليّ استجماع شجاعتي والصمود في وجه أشقائي وأمي؛ يجب أن أضع حدّاً لارتداء البرقع، وسأفعل. سأطلب إلى والدي أن يُقنع أمي وأشقائي بالموافقة، للمرة الأولى والأخيرة، على أن البرقع الأسود ليس له مكان على وجهي!».

ابتسمتُ باستحسان؛ فهذه امرأة شابة على وشك اكتشاف فرح وقوة القيام بالخيارات الذاتية. طلبتُ إليها أن تبقى على اتصال بي، وللمرة الثانية في يوم واحد، أعطيت رقم هاتفي لإنسانة غريبة.

شجّعني تصميم هذه الشابة، وسرتُ مبتعدة كما لو أن ساقيَّ نبتت فيهما أجنحة، بالرغم من إدراكي أن المرء بإيقاظه روحاً قويّة يوقظ أيضاً حالة من التنافر. فلن يستقر السلام في العائلة إلى أن يجري التخلص من البرقع المريع، وإلى أن تُعامل الفتاة بالقدر نفسه من الاحترام المُعطى لأشقائها.

عدت أدراجي إلى سائقي المخلص دوماً، باتارا. ولاحظتُ، من وراء حجابي، مشهداً لم أعرف الكثير عنه، لكنه مألوف جدّاً: راقبتُ رجالاً سعوديين تتبعهم واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع نساء محجّبات. هل هؤلاء

النساء جميعهن زوجات، أم أنهن شقيقات أم بنات؟ لا يمكن التأكّد من ذلك؛ لكن هناك يقيناً واحداً، هو أن: الرجل مسؤول عن كل قرار يؤثر في حياة النساء اللواتي يحكمهن. هل ستبقى زوجته زوجة له إذا ولدت الكثير من البنات؟ وهل سيسمح لزوجته المطلّقة برؤية أولادها من جديد؟ هل سيُتاح لزوجته أن تتناول وجبات الطعام معه، أو تُعطى الفضلات بعد أن ينهي وجبته؟ هل يجوز لزوجته أن ترى طبيباً إذا مرضت؟ هل يسمح لبناته بالالتحاق بالمدرسة؟ وإذا حدث، فهل يأذن لهنّ باستخدام علمهن للعمل وكسب المال؟ وهل إذا حصلت واحدة من بناته على مرتَّب يأخذه منها، أم أنه سيمنعها من شراء بعض الأغراض الخاصة لنفسها؟ هل للزوجة رأي في اختيار زوج لبناتها؟ وهل تُعفى الفتاة من الزواج من رجل متقدّم في السن تخشاه وترتاب منه؟

تمتّع الملك عبد الله في الواقع بسلطة أقلّ على هؤلاء النسوة وعلى الإناث السعوديات من سلطة الأزواج والآباء عليهن.

تحكم مثل هذه الديكتاتوريات الشخصية كل بيت في السعودية تقريباً. فلكل رجل سلطة أن يكون ملكاً تحت سقف بيته: أكان قصراً على البحر الأحمر، أم فيلّا متواضعة في قرية ما، أم خيمة منصوبة في الصحراء، من دون منازع أو معارض.

وراقبت في المقابل المواطنين الأجانب يسيرون بثقة عبر رواق المستشفى. كان بعض الموظفين يرتدون اللباس الموحد الأبيض أو الأزرق الذي يميّز بين الطبيب والممرض، في حين ارتدى آخرون اللباس المدني، وهم على الأرجح من العاملين في المكاتب الإدارية. لم يرمقني أي من الموظفين الذكور الأجانب بنظرة، لكن الكثيرات من الموظفات الأجانب نظرن إلي ببعض من التعاطف.

أخفتُ امرأة، بدا أنها حدّقت إلي بإشفاق لفترة أطول من اللازم، عندما توقّفتُ ولمستُ ذراعها برفق؛ وقلت لها بالإنكليزية: «أتعتقدين أنني أحب هذا الخمار؟ إنني أكرهه. سأقيم في أحد الأيام احتفالاً ضخماً لحرق الحجاب في الصحراء السعودية، وأريدك أن تكوني ضيفتي».

شهقتْ مذهولة، فيما أسرعتْ مبتعدة عبر الرواق، وأنا أشعر بالرضى على تعهدي بإحراق الحُجُب. وابتسمتُ لفترة طويلة وأنا مدركة أن ما من أحد سيصدّق الفتاة المسكينة عندما تخبرهم عن امرأة سعودية مغطاة بالأسود اقتربت منها، وهي تعلن الحرب على ارتداء الحجاب.

شاهدتُ، بوصولي إلى الباب المؤدي إلى المرأب، باتارا وهو يذرع الأرض جيئة وذهاباً. هزّ برأسه عندما رآني وواكبني في العودة إلى

السيارة. أستطيع القول إنه ارتاح كثيراً لأنني عدت الآن إلى عهدته بسلام. فباتارا رجل مخلص ووفيّ، وأسفت لأنني تسبّبت له بالقلق.

راجعت، في طريق العودة إلى البيت، لقائي مع الدكتورة مينا وما قد يخبئه المستقبل. كما أنني تشوّقت إلى لقاء زوجي، لعلمي أنه حضر اجتماعاً عائلياً مهماً في وقت سابق من النهار، إلا أنني لم أمتلك أدنى فكرة عما نوقش فيه. وأنا بطبيعتي كثيرة الفضول، وتلهّفت بالتالي إلى سماع كل ما يتعلّق به.

نتمتع، أنا وكريم، بعلاقة شراكة وثيقة، بالرغم من مضي أعوام كثيرة على زواجنا؛ فكلانا منفتح ولا يوجد بيننا الكثير من الأسرار. ولا أزال أجده رجلاً جذّاباً جداً، أكان في التصرّف أم في المظهر. وبخلاف الشيب الذي أخذ يغزو شعره، لم يظهر عليه منذ سنوات زواجنا الأولى الكثير من علامات التقدم في السن. لم يكتسب قط وزناً زائداً على غرار الكثير من أنسبائه المنغمسين في الملذات، كما أنه احتفظ بشعر رأسه، وهو ما أحبه. لم يكن قط من النوع المتكاسل، كما أنه ليس مضجراً بالتأكيد. ويبقي كريم نفسه، طوال أيام الأسبوع، منغمساً في العمل، وهو بالتالي سريع البديهة يضاهي رجالاً أصغر منه سناً بكثير. نعم، أشعر بأنني محظوظة بمثل هذا الزوج، وهو أيضاً والد جيّد.

تدّعي الكثيرات من نسيباتي، في المقابل، أنهن سئمن من الرجال الذين تزوجنَهم في زيجات مدبّرة وهن في سن المراهقة. وأنا لا أشعر بمثل هذا الندم، فقد بقينا على كثير من التواؤم، بالرغم من أنني كنت، أنا أيضاً، صغيرة جداً عند زواجي من كريم.

يشكّل كريم وأنسباؤه الجيل الثالث من آل سعود الذين عاشوا وحكموا مملكة سُمّيت على اسم عائلتنا. بدأ الجيل الأول من الحكام مع جدّنا الملك عبد العزيز آل سعود، الذي وحّد المملكة بأسرها، ثم حكمها حتى مماته، وقد تميّز حكمه بالفطنة. وانتقلت سلطاته إلى أبنائه. وهكذا أمسك الجيل الثاني بمقاليد السلطة بعد وفاته. وستنتقل سلطة الجيل الثاني من شقيق إلى آخر حتى لا يتبقّى أي شقيق، وعندها تنتقل السلطة إلى أحد الأبناء. ويتألف الجيل الحاكم راهناً من والدي ووالد كريم وآباء أولاد عمومنا الذين يشغلون جميعهم مكاناً في تراتبية الحكم. اختلف أبناء عمي الستّة الذين تولّوا العرش كلّاً عن الآخر، إلى حد يصعب معه أحياناً التصديق أنهم يتحدّرون جميعهم من والد واحد. وضمّ جيلنا الثاني من الملوك كلاً من الملك سعود، والملك فيصل، والملك خالد، والملك فهد، والملك عبد الله. وسيليه العم سلمان، وهو الآن ولي للعهد(1) . ويُعجب كلّ من أعرفهم بوليّ العهد الأمير سلمان ويعرفون أنه عندما يشاء الله سيصبح ملكاً حكيماً على غرار عمّنا عبد الله.

لكن، مع تقدّم الجيل الثاني من الأمراء في السن، لم يتبق إلا قلّة منهم بوصفهم خياراً مناسباً لتولّي الملك. وسيحتل قريباً الجيل الثالث من أفراد العائلة المالكة مواقعهم. وأتوقّع تماماً، لدى حصول ذلك، أن تتحسّن حقوق النساء إلى حد بعيد، لأن أفراد العائلة المالكة الأصغر سنّاً يتمتعون بموقف متنوّر من حرية النساء.

انتزعني بلوغنا بوابة قصري من أفكاري. كان يوماً حاراً ومتعِباً واحتجت إلى مشروب بارد ومهدّئ.

استطعت، حين دخلت إلى المنزل، رؤية كريم وهو ينتظرني بفارغ الصبر. لم يسألني حتى عن اجتماعي، بل فاجأني بالأخبار عن اجتماعه الذي التقى فيه أنسباءه من العائلة المالكة.

طرحتُ حجابي وثوبي، ووجدت لنفسي كرسيّاً مريحاً، وتناولت كوباً من عصير الفاكهة المنعشة. واستطعتُ من موقعي هذا النظر باستحسان إلى زوجي؛ وفي النهاية الاسترخاء.

عندها شرع كريم، الذي بدت عليه علامات السرور والإثارة، في الحديث: «لديّ أخبار جيّدة جداً لك، يا سلطانة!». وحدّقت إليه ترقّباً: ما هي يا ترى هذه الأخبار الجيّدة؟

«أشعر بيقين كبير أن كل المشكلات المرتبطة بالنساء ستختفي قريباً، أو قد نحقّق قريباً تقدّماً أفضل». ابتسم لي بعذوبة حرّكت حبّي له؛ فتابع قائلاً: «قريباً، لن يتبقى لابنتنا مها ما تشتكي منه، يا سلطانة».

وها قد أثار الآن اهتمامي فعلاً، فقلت: «وما ذلك، يا زوجي؟».

أجاب: «اليوم، رأيتُ المستقبل يا سلطانة. نعم رأيتُ مستقبل السعودية وسُررت. لم يبرز صوت واحد مخالفاً، يا زوجتي العزيزة، عندما تناول النقاش الحاجة إلى إدخال بناتنا وحفيداتنا الحياة العامة. شعر جميع من في دائرتنا المؤلفة من 22 من أبناء العم بأن رجال الدين والراديكاليين يعرقلون تقدّم البلاد. ويسخر منّا العالم، بل ويزدرينا ويضحك علينا، عندما تتسرّب الروايات عن حق الرجل السعودي، وبما لا يقبل الجدل، في سجن أو قتل زوجاته أو بناته، أو عن جنون المحاكم الشرعية، عندما تقضي بجلد المرأة على قيادتها السيارة.

لا يعقل أن تبقى نشوة ابنة أسد، المرأة اللامعة جداً والقادرة، وراء ستار حاجب كلما شاركت في اجتماع يحضره الرجال حتى لا يشعر الذكور الذين لا تعرفهم بالمهانة لجلوسهم على مقربة من مجرّد امرأة. ونشوة خبيرة في حقلها، ويُعرف عنها أنها واحدة من الأكثر موهبة في المؤسسة، لكن أسداً يقول إن هناك رجلين أو ثلاثة

في الشركة من الأغبياء الذين يصرّون على احتجاب ابنته البارعة. ويُسمح لها بالحديث إذا تمكنت من التقاط ما يُقال من كلام. إلا أن هؤلاء الرجال أنفسهم يطالبونها بأن تحافظ على مستوى صوتها ولا تضحك أو تُحدث ضجّة غير ضرورية. يقولون إن صوت المرأة التي تتحدث بفرح أو تضحك يثيرهم، ما يُظهر الرجال على أنهم ليسوا سوى مجرّد حيوانات! وهذا سخيف ويحُط من قدر المرأة الشابة.

«عندما عرف أسد بالأمر من أحد مديريه، أمر منذ ذلك الوقت فصاعداً بأن تجلس نشوة في الموقع الأهم، إلى رأس الطاولة. وطلب من ابنته أن تجهر بالكلام وتعبّر عما يجول في خاطرها. وسيطرد أسد أي رجل يعترض على قراره».

ولمرّة، أعياني الكلام. لم أصدّق ما أسمع. فقد توسّلت، على مرّ السنين، إلى زوجي وصهري أسد أن يجاهرا بالكلام ضد الطرق القديمة، وأن يستخدما صوتيهما القويين للمساعدة على تقدّم النساء في مجتمعنا. تحاشى كريم وأسد في الماضي الدفاع عن النساء، زاعمَين أنهما لا يستمرئان التعامل مع المشكلات التي ستثيرها بالتأكيد نزاعات كهذه.

استعدت في النهاية صوتي، لكنني لم أشِدْ بزوجي كما توقّع مني ذلك؛ بل ذكّرته، قائلة: «أين كنت، يا زوجي؟ أجالساً تحت صخرة في الرمال؟ كم من السنين توسّلت من أجل هذا؟ لو أنك وأسد استخدمتما ما تتمتعان به من سلطة كأميرين لتبدّلت الأمور بالفعل».

غالباً ما كان كريم يجادلني، إلا أنه اكتفى اليوم بالابتسام، وأدهشني باعتذار نابع من القلب، قال فيه: «أنت محقّة، يا سلطانة. ونحن، أنا وشقيقي وأنسبائي، أخطأنا. كان علينا رفع الصوت منذ أعوام. لكننا سمحنا بدلاً من ذلك لرجال دين أغبياء بقيادة هذه البلاد. تركنا لملكنا التعامل مع رجال الدين والراديكاليين من دون مساندة من العائلة الكبرى. لكن ملكنا لن يقف وحيداً أبداً بعد الآن. اجتمعنا اليوم وتعهّدنا بإعلام ملكنا بدعمنا له. وإذا لم تحدث تعديلات اجتماعية في المستقبل القريب، فسوف تتحقق في اللحظة التي ينتقل فيها التاج من الجيل القديم إلى الجيل الجديد. سنحقق تغييرات كبرى في المملكة».

«حسناً»، ذلك كلّ ما استطعت قوله. «حسناً!».

اقترب كريم للجلوس بقربي، ونظر إليّ بعطف كبير. ولاقى ما تفوّه به من كلام ترحيباً كبيراً، مع أنها كلمات نادراً ما تُقال، «أنا سعيد يا سلطانة لأننا تزوجنا». وقبّل إحدى يديّ هامساً بضحكة هادئة: «أعرف أن طريقنا شهدت بعض الاضطرابات أحياناً، لكن يا لها من حياة رائعة». نهض وشدّني برفق من يدي وقال: «هيا نذهب

ونجلس مع صورة والدتك. أعرف أنك تحبّين زيارتها».

لاحقاً استمع كريم بانتباه، وأنا أخبره عن لقائي الدكتورة مينا. وبدا مأخوذاً بقصة كفاحها وانتصارها. ولا أحسب أن كريماً سبق له أن استوعب بالفعل حجم المشكلات التي تواجه العدد الكبير من النساء السعوديات. ووجدت في زوجي، للمرة الأولى منذ زواجنا، شريكاً متفانياً ملتزماً القضية الأحبّ إلى قلبي. ولم أكتشف قط السبب في ذلك، إلا أن حقيقة استفاقة كريم المفاجئة على أهمية قضية النساء، شكّلت لي مكافأة قيّمة.

***

أرسلتُ بعد أيام سيّارة لتقلّ الدكتورة مينا إلى منزلي. ودعوت شقيقتي سارة للحضور في موعد الزيارة. كما تدبّرت مسألة انضمام أماني ومها إلينا أيضاً. أردتُ لابنتيّ أن تتفهما بشكل أفضل الحياة التي تعيشها نسوة من غير العائلة المالكة، مواطنات لا يتمتعن بالامتيازات والثروة. فأن تسمعا منّي عن محنة الإناث السعوديات شيء، وأن تقابلا بأنفسهما مثل تلك النساء، فشيء آخر تماماً.

ومن المؤسف أن تقتصر معارف أماني من الإناث بصورة رئيسية على نسيباتها من العائلة المالكة؛ أما مهى ففقدت أي اتصال بنبض النساء السعوديات منذ انتقالها إلى الخارج.

سرعان ما حان وقت لقائنا. وذُهشت بعض الشيء عندما وصلت الدكتورة مينا وبرفقتها امرأة شابة. إلا أنني أفقت من دهشتي من دون أن أبدِ أي احتجاج، لأنني أثق بالدكتورة مينا، وعرفت أن لديها سبباً وجيهاً لإحضار هذه الضيفة غير المتوقّعة إلى منزلي.

وصلت المرأتان من دون أن ترتديا البرقع، وهو ما أخذني على حين غرّة، لكنه أسعدني. أحبّ النساء اللواتي ينتهكن القواعد الفارغة المفروضة عليهن في بلادي. ومن الواضح أن الدكتورة مينا استطاعت قراءة أفكاري، لأنها سارعت إلى شرح الجواب عن سؤالي.

«اعذري وجهينا السافرين، أيتها الأميرة، لأننا سرنا من منزلنا إلى سيارتك التي قادنا بها سائقك. ولم نتسبّب لأحد بالإهانة. وأعرف أنك لا تتحجّبين أمام خدمك وسائقيك، وها نحن إذاً على مرأى منك»، قالتها، وهي تومئ بذراعيها المبسوطتين.

قلت: «لا حاجة بك إلى الشرح. أنت تسعدينني جدّاً يا دكتورة مينا».

كان اسم الشابة التي رافقت الدكتورة مينا، ناديا. وهي جذّابة جدّاً، ذات شعر أسود لامع، وعينين بنيتين داكنتين، وبشرة فاتحة ذكّرتني بالقشدة. وهي، على عكس الدكتورة مينا، مرحة، ووجدتُها

على الفور جذّابة.

«آمل في أنك لا تمانعين بوجود ضيفة أخرى، أيتها الأميرة»، قالت ناديا بابتسامة عريضة.

أجبتها: «بالتأكيد لا. وستنضم إلينا في الحقيقة شقيقتي سارة وكذلك ابنتاي». تابعت وأنا ألتفت إلى الساعة: «سيصلن في وقت قريب، لكن أرجوكما أن تأتيا الآن وتجلسا معي. فأنا متشوقة إلى التعرّف إليكما أكثر».

أخبرتني الدكتورة مينا عن ناديا ونحن ننتظر الشاي. «ستتمكن ناديا، أيتها الأميرة، من إرشادنا أكثر بخصوص الفتيات والشابات الأشدّ حاجة إلى المساعدة. «وكما ترين» قالتها، وهي تتوقف لبرهة وتنظر إلى ناديا، «فإن لها وصولاً إلى الكثير من الناس الذين لم نلتقِ بهم لا أنا ولا أنت. فناديا مساعدة اجتماعية ملتحقة بالمستشفى الذي أعمل فيه. ويقضي عملها باكتشاف حالات سوء معاملة الطفلات والشابات، ومساعدتهن. ومن سوء الحظ أنها تفتقر في مرات كثيرة إلى سلطة إبعاد الفتيات الممتهَنات عن منازلهن أو في حمل السلطة على التحقيق مع الأب العنيف أو الأخ. لكنها تستطيع أن تدلّنا على أفجع الأوضاع لنتمكن، أنا وأنت، معاً من التدخّل لإغاثة الضحايا اللواتي تعرّضن لأشد الصدمات النفسية. وأستطيع، بوصفي طبيبة سعودية، الدخول في نقاش مع العائلة. وستستمع إلي. أما أنت فتملكين الأموال التي تساعد على تحمّل نفقات العائلة حتى لا تشعر بالحاجة إلى إجبار بناتها على الزواج المبكر للحصول على مال المهر. ونستطيع القيام معاً بهذه الدفعة الأخيرة لإقناع العائلات بالسماح لبناتهن بالبقاء عازبات وفي المدرسة».

«فهمتُ.» قلتُها وأنا أهزّ برأسي موافقة.

الدكتورة مينا على حق. فغالباً ما قرأتُ في الصحف الصادرة باللغة الإنكليزية عن إناث أسيئت معاملتهن بشكل خطير. وتخشى وسائل الإعلام العربية الكثيرة غضب رجال الدين الذين يساندون دوماً المسيء بدلاً من المُساء إليهن، ولا تنقل بالتالي هذا النوع من الأخبار. ولا يريد المراسلون الصحافيون أبداً لفت انتباه أولئك الرجال الحاقدين إليهم. وقد سمعت بالفعل عن مراسلين أوقفوا في مثل هذه الحالات، ولُفقت لهم التهم.

تساءلتُ، في كلّ مرّة سمعت فيها بهذه الحالات: لماذا لم تحصل الفتاة المعنية على المساعدة قبل أن تتعرض للإصابة، أو حتى قبل أن تُقتل في بعض الحالات.

أحنيت ظهري وقلت: «لدي اهتمام شديد بالفتيات اللواتي يحرمهن أهاليهن ذوو التفكير الرجعي من العلم. لكننا نستطيع معاً، أنا وأنتما، تغيير حياتهن».

لاحظت أن الدكتورة مينا ونادیا تبادلتا نظرة ذات مغزى. وعاودت نادیا بعد ذلك النظر إليّ وضحكتْ. وقالت لي: «أنتِ تنظرين إلى واحدة من هؤلاء الفتيات، أيتها الأميرة».

دخلتْ مها تلك اللحظة إلى الغرفة. وأستطيع القول إنها استغرقت في النوم لأنها بدت نزقة بعض الشيء. لكنها، ما إن وجدت أن ضيفتينا قد وصلتا، حتى تغلّبت على نزعتها المشاكسة وتصرّفت بدلاً من ذلك بطريقة رائعة بترحيبها الحار بالدكتورة مينا وبناديا.

أذهلني، لما اقتربت مها مني، أنها اختارت أن ترتدي بنطلوناً قصيراً يصل إلى الركبتين، وقميصاً فضفاضاً، وهو لباس غير مناسب لاجتماع تحضره نساء سعوديات أخريات. وتدرك مها، بالرغم من أنها تعتبر نفسها أوروبية، أن من المتوقّع منها، وهي في السعودية، أن تحترم ثقافتنا. وقد زيّنت وجهها زينة كاملة؛ وهذا أمر غير مألوف لمها إلا في أثناء الوظيفة الرسمية. وهناك أوقات تهوى فيها أن تُحدث صدمة، وأعتقد أن هذا اللقاء كان واحداً من تلك الأوقات.

وبالرغم من أن زيّ مها الأوروبي، قد أذهل الدكتورة مينا وناديا، فإنهما لم تشيرا إلى الأمر، وسرّني ذلك.

بعيد دخول مها، وصلت أماني وسارة معاً، وكلتاهما محجبة تماماً. بيد أن حجاب أماني الكامل أثار دهشة ضيفتيّ. وفيما انتزعت سارة بلحظة حجابها الرقيق ووشاحها وعباءتها، استغرقت عملية خلع حجاب أماني وقتاً طويلاً جدّاً واستهلكت الكثير من الجهد.

جلسنا جميعاً، وحدّقنا بشكل علني، إذ بدت العملية كلّها أشبه بالاستعراض. انتزعت أماني في البداية حجابَي وجهها الاثنين. وهي تضع حجابين، تحسُّباً لأن يطيّر نسيم الصحراء حجابها العلوي ويكشف جزءاً من وجهها. ومن الجدير بالذكر أنّ وشاح رأسها من القماش السميك، إلى درجة أن شعر رأسها الكثيف الأسود الجميل قد انسحق بشكل غير جذّاب، عندما أزالته.

أما عباءة أماني فمن القماش الأبسط والأكثر كآبة، لأنها قرأت أخيراً أن رجال الدين متفقون على ضرورة خلو أي عباءة نسائية من أي زينة. وقد شبكت العباءة بالدبابيس في ثلاثة أماكن مختلفة لتفادي أي انفتاح عارض قد يكشف عن ثوبها الطويل تحت عباءتها. واستغرقت إزالة تلك الدبابيس وقتاً طويلاً، لأن أحدها تداخل مع أحد

الخيوط.

علمت أن معظم رجال الدين الراديكاليين في الإسلام لا يحملون نساءهم وبناتهم على ارتداء حجابين للوجه، أو على شبك عباءاتهن بالدبابيس، لكنني لا أعلم ذلك علم اليقين، إذ لا تربطني صداقة بأي من رجال الدين أو بزوجاتهم.

وجّهت إليّ أماني ابتسامة المنتصر، وهي تنزع ببطء وبتروّ قفازيها السميكين السوداوين اللذين يبلغان مرفقيها. أخذتُ أتلوّى في مكاني، لأنني أكره هذين القفازين؛ أردت يائسة أن أقفز وأمسك بهما وأمزّقهما إرباً. لكن ابنتيّ راشدتان الآن، وقد تعلّمت أن أكبح نفسي عن القيام بمثل هذه الأفعال؛ أحاول أن أسمح لهما باتخاذ قراراتهما وارتكاب أخطائهما.

لكن أماني تعرف المدى الذي أكره فيه تمسّكها بأقصى درجات التحجّب تطرّفاً، وأعتقدُ أنها تسعد في إغاظتي.

وأخيراً، سارت أماني عائدة إلى المدخل، وخلعت حذاءها الثقيل، الأسود، ذا النعل السميك، وهو أقبح حذاء رأيته طوال حياتي. وتعمّدتْ وضعه في مكان بارز حتى لا يفوّت أحدٌ طرازَه غير الجذّاب. ولم تخلع جوربيها السوداوين السميكين اللذين أعرف أنهما يبلغان ركبتيها.

شعرتُ بالإرهاق لمجرّد مراقبتها، إلا أنني احتضنت ابنتي عندما انتهت وعانقتها من القلب. فأنا أحبها بكل ما أمتلك من حب، بالرغم من طرقها الغريبة الأطوار.

قدّمتْ سارة نفسها إلى ضيفتينا. لكن الدكتورة مينا وناديا اللتين أدهشتهما للغاية عملية خلع أماني لحجابها، انشغلا كثيراً بالتحديق إلى ابنتي وإليّ، وهما غير مصدّقتين أن لدي ابنتين على هذا القدر الكبير من التناقض.

شعرتْ ناديا، باركها اللّه، بضيقي، وعادت إلى نقاشنا الأساسي. توجّهتْ بنظرها إلى سارة وأماني ومها، وقالت لهنّ: «شرعت الدكتورة أماني ووالدتكن يناقشن كيف يمكنني مساعدتهما في العثور على فتيات بأمس الحاجة إلى المساعدة». ووجّهت إليّ ناديا ابتسامة ذات مغزى. «تعرف والدتكما أن من الأسهل مراراً الإشارة إلى فتيات أسيئت معاملتهن جسدياً من الإشارة إلى أولئك اللواتي تعرّضن للإساءة النفسية، ويحتجن إلى المساعدة. وسألتني للتو عن الفتيات اللواتي حرمهن أهلهن ذوو التفكير الرجعي من العلم». وابتسمتْ، «وعرفت الأميرة عندها أنها تتحدث إلى واحدة من هذه الفتيات».

«أنتِ؟» سألت مها بدهشة. فقد أعطت ناديا الانطباع أنها فتاة من خلفية مميّزة، ربما ابنة أحد الباحثين، أو رجل أعمال ثري؛ بدت كما لو أنها شخص سهُل عليه تلقّي العلم.

«نعم، أنا. أنا تلك الفتاة. لكن بدايتي السيئة في الحياة ساعدتني في عملي. لا يتطلّب الأمر مني جهداً، لأعاين الفتيات المحتاجات، لأنني عشت تلك الحياة على مدى سنوات كثيرة. كُدتُ أُحرم من العلم، وقد تقرّر تزويجي في سن مبكرة جدّاً».

وأضفتُ بشعور من الرضى قائلة: «ناديا مساعدة اجتماعية في واحد من أكبر مستشفياتنا».

أرادت مها أن تعرف المزيد، وهي التي طالما عبّرت عن رأيها المطالب بحقوق النساء. ورمقتني بنظرة تقدير على وجود مثل هاتين الضيفتين القيّمتين في منزلنا، قبل أن تسأل ناديا: «أيمكنك أن تخبرينا قصتك؟».

انحنت سارة إلى الأمام. «كلّنا آذان صاغية، يا ناديا، لسماع روايتك».

حافظت ناديا على لهجة التخاطب المريحة، بالرغم من أنها على وشك الحديث عن أصعب أوقات حياتها.

«عائلتي ليست ثريّة، لكننا نعيش، بفضل الحكومة، في ما يكفي من البحبوحة. يمتلك والدي عدة مزارع ضخمة للخُضَر والأزهار مجهّزة بدفيئات عملاقة مكلفة للغاية. وتقع المزارع على بعد نحو ساعة بالسيارة من الرياض. وتساعد الحكومة السعوديين الذين يمتلكون مهارة زراعة الخُضَر والأزهار. وقد وافقت على تمويل والدي الذي يشحن الآن الأزهار إلى هولندا». تطلّعتْ من حولنا وابتسمت. «هل في إمكانكنّ تخيّل الأمر؟ يصاب الناس بالذهول عندما أخبرهم أن والدي يزوّد أوروبا بالأزهار».

أومأتُ برأسي موافقة، وبادلتها الابتسامة. عرفتُ في شأن تلك المزارع. أخبرني كريم أن واحداً أو اثنين من الأمراء الكبار شعرا بأن على السعودية البحث عن مصادر أخرى للدخل إلى جانب النفط. علماً أن النفط هو أفضل مصدر تستطيع هذه البلاد الحصول عليه، وعلينا أن نركّز في تطوير هذا القطاع. إلا أن هذين الأميرين الرفيعي المستوى أنفقا الملايين فوق الملايين من الدولارات، وهما يستثمران أرباح النفط في مزارع الصحراء. وتوجّب، في غياب الماء والتربة المناسبة، نقل كلّ شيء إلى تلك المناطق الصحراوية. وتُكلّف كل زهرة أو كل ثمرة من الخُضَر المزروعة نحو خمسة أضعاف الثمن الذي يتقاضاه المزارع من بيعها. وأخذت الحكومة في دعم الفواكه والخُضَر إلى حدّ بات معه الأمر صعباً. لكن كبرياء الأميرين

منعهما من الاعتراف بالإخفاق. وهكذا استُخدم التمويل الحكومي لدعم مشروع تجاري متهوّر، ولا معنى له. وقال كريم إن من الأفضل للحكومة أن توزّع المال على المزارعين وتطلب منهم الكف عن زراعة الأزهار والخُضَر في الصحراء. لكنني عرفت، من نظرتي إلى وجه ناديا الأبيّ، أن بعض العائلات السعودية كانت ستبقى من دونه في حالة من الفقر المدقع، وقد تحسّنت حالتها المادية؛ وتملّكها السرور، لأنها تنتج شيئاً.

واصلت ناديا قصتها: «أنا الابنة الوحيدة والمولود الأخير. رُزقت أمي، قبل ولادتي، بأربعة أبناء. واستقت كلّ لذة حياتها من خلال حياة أشقائي الأربعة. أحبتني، لكن ليس كما أحبت أشقائي. وكنتُ محظوظة، لأن محبة والدي لي كادت تعادل محبته لأبنائه. ولم يعتبر قط ولادة ابنة أمراً سيئاً، أو أن هذه الابنة ليس من حقّها تلقّي التعليم المناسب.

«ومن سوء حظي أن والدتي وأشقائي عارضوا كل أمر إيجابي أراده والدي لي. خافت والدتي من فكرة إصراره على التحاقي بالمدرسة تماماً كما فعل أشقائي، الذين كانوا يثورون في كلّ مرة يثار فيها موضوع تعليمي. زعموا أنني سألوّث سمعة العائلة كلّها بالأفكار الجديدة. هالهم أنني قد أظهر في العلن، بل، ولسبب مجهول ما، خافوا أن أظهر على شاشة التلفزة من دون حجاب. وطالبت أمي وأشقائي بزواجي المبكر وإنجاب الأولاد، وهو الأمر الوحيد الذي قالوا إن كلّ امرأة تريده فعلاً. صمّموا أن أنصاع لمطالبهم من دون سؤال. وأخبروني بأنهم سوف يسجنونني في غرفة نومي إذا رفضت التزام تعليماتهم!».

غمر تعبير حزين وجه ناديا وتابعت قائلة: «لا أفهم منطق أمي المتحدّرة من عائلة فقيرة ولم تتلقَّ التعليم إلا في سن العاشرة. وتمكنت من القراءة قليلاً. إنها زوجة تقليدية، اقترنت بوالدي وهي في الرابعة عشرة، وناسبها وجود وصيّ عليها مدى الحياة. تعتقد أمي أن من الأفضل لأي فتاة أن تتزوج مُبكراً وتسلّم مسؤوليتها للرجل.

«لقد اعتمدتْ على والدي في اتخاذ كل القرارات، ولم تقف ضدّه إلا في موضوع واحد، وهو أنا. صمّمتْ أن تزوّجني مبكراً. وسمعتْ من أحد أشقائها أن التعليم يحوّل الفتيات إلى زوجات وأمهات غير مرغوبات، واعتقدتْ أن التعليم سيحوّل انتباهي بعيداً من الحياة العائلية. وهي مولعة بالقول إن من المستحيل أن تنسى كونها زوجة صالحة وأمّاً، لأنها لا تعرف أمراً غير ذلك. وهكذا ألحّت إلى أن سمح لها والدي بتدبير زواجي. واختير لي شاب وأنا في الرابعة عشرة وهو في التاسعة عشرة، ابن إحدى صديقات عمّتي؛ شخص لم يسبق لي أن قابلته».

تنهّدت ناديا وتابعت قائلة:

«اختبأت لأيام في غرفتي، وأنا أبكي الحياة التي سأجبر على عيشها. فما من شيء سيغيّر رأي أمي، وقد ضجر والدي من العراك معها ومع أشقائي».

أدركتُ أن مها متأثرة؛ وتتملّكها رغبة كبيرة في التعبير عن رأيها، لكنها، بدلاً من ذلك، سألت: «أأنت مطلّقة الآن؟».

«لا. لست مطلّقة. فقد أنقذتني مأساة حلّت قبل شهر من الزواج. كان عريسي العتيد يسابق في سيارته على الطريق السريع المؤدّي إلى قريته، وقفزت سيارته من خط إلى آخر واصطدمت بشاحنة كبيرة، وقُتل على الفور. لم أفرح، بالطبع، بوفاته، لكنني غفوت قريرة العين، رقاد مَن جرى إنقاذها. فلن أجبر على الزواج من غريب وأصبح أماً صغيرة لا أمل لها في حياة حرّة ومستقلّة. وعاودت أمي وأشقائي، في غضون شهر، البحث عن زوج مناسب لي. لكن والدي أمرهم بالكف عن البحث، اعتقاداً منه أن في الأمر إشارة من الله لئلّا يكون زواجي مبكراً، أو مخالفاً لإرادتي. ودبّر والدي أمر استمراري في التعليم. وقال إن وفاة زوجي ذكّرته بضرورة امتلاك الإناث القدرة على إعالة أنفسهن في حال إخفاق الزواج. فماذا لو كنتُ قد تزوّجتُ، وصرتُ أمّاً لدى مقتل زوجي؟

«سُمح لي بالانتقال إلى صفوف أعلى في المدرسة، بالرغم من أن هذا القرار أغضب أمي. وتدبّر لي والدي، بفضل علاماتي الممتازة، دخول المعهد. تخرّجتُ بإجازة في علم الاجتماع، وعُرض عليّ العمل سريعاً كمساعدة اجتماعية؛ وها أنا أقضي وقتي في مساعدة الفتيات اللواتي ليس لديهن مساعد. أشكر الله الذي رزقني بوالد حكيم».

وباستثناء أماني، قدّمت كل من استمعت منّا إلى قصة ناديا التعزية بوفاة الشاب، والتهنئة على نجاحها في المدرسة. بل إن أماني، وبالرغم من اعتراضها، نظرت إلى ناديا بعين العطف قائلة: «نُقل عن النبي محمد ﷺ حديث يقول فيه: 'طلب العلم فريضة على كلّ مسلم، ذكراً كان أم أنثى؟». ثم نظرت أماني إليّ قائلة: «أجاز الله نفسه إذاً تعليم ناديا».

وقالت الدكتورة مينا، وهي تنظر للمرة الأولى بعين الرضى إلى أماني: «الحمد لله على كلمات النبي محمّد ﷺ الحكيمة هذه».

يعلم الله وحده ما كان يدور من أفكار في ذهن ابنتي، لكنني أملت في أنها أخذت تُدرك أمراً واحداً، وهو أهمية ألّا يتزوّج أحد خلافاً لإرادته.

توقّفت ناديا لأخذ رشفة منعشة من الشاي قبل أن تواصل قصتها. فقد بقيت تقيم في المنزل، بالرغم مما تلقته من علم، لأن الفتاة السعودية لا يُسمح لها بالعيش مستقلة.

وسرعان ما شرحت ناديا المنحى الذي اتخذته حياتها: «لم تُبْدِ أمي أو أشقائي أي احترام لي، بالرغم مما تلقيته من علم. سخروا من عملي، وقالوا إنني أنشر الأفكار السيئة في أنحاء المملكة. ومن حسن الحظ أن أشقائي الثلاثة الكبار متزوجون ولديهم أعمالهم، ولا يتسع وقتهم كثيراً للانشغال بحياتي اليومية. لكن أصغر إخوتي لا يزال يقيم في المنزل، وها إنه يضمّ جهوده إلى جهود أمي لإقناعي بترك العمل. يريدانني بلا حول ولا قوة، كي أوافق على عرض آخر بالزواج. وبما أنني لا أستطيع أن أقود سيارة، يرفض شقيقي في الغالب نقلي إلى مقر عملي، ما يجعلني أصل متأخرة. وقد حدّثتني المسؤولة عني بالفعل عن تأخّري في الوصول.

«تتجاهل والدتي توسّلاتي، لأنها تفرح لتعاستي. وأظهر إحباطها جانباً عنيفاً لم أشهده من قبل. تصرخ بي، في اللحظة التي أعود فيها من يوم طويل في العمل، لتحضير العشاء وتنظيف المنزل الذي تتعمّد تركه من غير ترتيب حتى مجيئي. وإذا لم يرقها عملي، وهو لا يروقها أبداً، تصفعني على وجهي. تريد أن تحوّل حياتي إلى بؤس شديد، حيث يصبح الزواج أمراً جذّاباً. إلا أنني مصممة على عدم الاستسلام».

وتحدّثت الدكتورة مينا: «أرجوك يا ناديا أن تسمحي لي بالتحدّث إلى المشرفة عليك».

هزّت ناديا برأسها: «سألجأ إليك إذا أوشكوا على طردي».

بدا القلق على وجه الدكتورة مينا: «علينا أن نساعد بعضنا بعضاً».

ووجدتُ حلاً للمشكلة: «ناديا، سأرسل بدءاً من اليوم سائقاً وسيارة لإيصالك إلى العمل وإعادتك منه إلى المنزل. ليس عليك بعد الآن الاعتماد على شقيقك».

احتجّت ناديا: «أيتها الأميرة، هذا كثير».

«لا، ليس كافياً. تملك عائلتنا الكثير من السيارات والسائقين الذين يمضون الكثير من الوقت وهم ينتظرون في الجوار. سيكون لك سائقك الخاص».

فسألت ناديا: «وكيف أشرح لأهلي مثل هذا الأمر؟».

فهمتُ ما تعنيه. بما أنني لا أريد لعائلتها أن تعرف شيئاً عن تدخُّلي، فقد تتهمها أمها وأشقاؤها بأن لها عشيقاً. وقد تصبح حياتها في خطر إذا حدث ذلك.

سألتُ: «دكتورة مينا، أتودين سائقاً وسيّارة؟ سأخصص لك واحداً من سائقينا. ويمكنك استعمال هذه الخدمة لأي غرض، خدمة لنفسك أو لمساعدة أي شابة أخرى ينقطع بها السبيل».

«سيشكّل هذا حلاً رائعاً، أيتها الأميرة. ولا يمكن أن يشتكي أحد إذا استخدمت طبيبة سعودية في المستشفى سيارتها وسائقها لنقل الشابات إلى العمل وإعادتهن إلى المنزل».

ابتسمت ناديا ارتياحاً وسعادة.

فغرت مها فاها، وعرفتُ أنها ستنطلق في الهجوم طارحة وجهة نظرها القاضية بأن على جميع النساء السعوديات التمتع بالحق في قيادة السيارة. ولو أن مها فعلت، لواجهتها أماني بوجهة نظر مناقضة. ولم أكن مستعدة لسماع جدال آخر بين مها وأماني، فغيّرت الموضوع وأنا أقرص مها في ساقها، وأقول: «حسناً. لقد وجدنا حلاً لهذه المشكلة، وعلينا أن نجد حلولاً لمشكلات كثيرة أخرى. دعونا نتنزّه الآن في حديقة النساء».

وهكذا انتقلنا من داخل قصرنا إلى الحدائق، المكان المريح الذي تمشّت فيه ست نساء سعوديات بهدوء، وهن يتأملن بإعجاب كبير الأزهار الجميلة والخُضَر. وخلف الحديقة مكان لتربية الطيور، ذلك أن مراقبة العصافير المزقزقة ممتعة دوماً، وهي تستمتع بحياتها الخالية من التعقيد، وتحظى بالقدر الكبير من الغذاء والحب. لأن أماني تتولّى تدريب الموظفين على إبقاء الطيور سعيدة وبصحة جيدة.

أستمتع بمراقبة وجه أماني خلال مثل تلك الأوقات، إذ لا تعبّر ابنتي عن البهجة المطلقة إلا وهي بصحبة ابنها، أو مع الطيور والحيوانات. وقد أمل كريم أن تتخلى ابنتنا مع الزمن عن حبها الكبير للحيوانات، لكنني أدركت منذ فترة طويلة أن صغيرتي ستحمل معها هذا الشغف إلى النهاية.

جلسنا لدقائق على مقاعد مريحة. وعندها خططنا، باستثناء أماني، للاجتماع من جديد في غضون أسبوع، لتزوّدنا ناديا بمزيد من المعلومات عن العائلات التي عيّنتها إدارة المستشفى لمساعدتها. وستحوّل من لا تستطيع مساعدتهن إلى الدكتورة مينا وإليّ. وسنساعد، نحن الثلاث معاً، الكثيرات من النساء والفتيات.

وحين ودّعتنا الدكتورة مينا وناديا وهمّتا بالتوجه نحو المدخل،

توقّفت ناديا، وسحبت من حقيبة يدها أوراقاً مطويّة. اعتقدتُ أنها تريد إعطائي بعض المعلومات، لكنها استدارت، بدلاً من ذلك، نحو مها وأماني اللتين أحاطتا بها. تحدّثت ناديا إلى الفتاتين؛ لم أستطع سماع ما تقوله، لكنني رأيتها تسلم الأوراق إلى أماني. ثم أخذت يد مها ووضعتها فوق يد أماني، كما لو أنها تخلق رابطاً بين ابنتيّ، وقالت شيئاً آخر.

مزّقني الفضول، لكنني لم أقل شيئاً إلى أن غادرت المرأتان الشابتان منزلي. تطلّعتُ بتركيز إلى ابنتيّ وسألت: «ماذا أعطتكما ناديا؟».

«لا نعرف، يا أمي»، قالت أماني بحنق. «إنها كلمات على ورق. دعينا نجلس ونقرأها».

«نعم، بالتأكيد يا ابنتي».

«فكرة سديدة»، قالتها سارة موافقة. فقد أشعر هذا التطوّر شقيقتي بالإثارة هي الأخرى.

احتفظتْ أماني، بأسلوبها الديكتاتوري الدائم، بالأوراق، وراحت تقرأها صفحة صفحة قبل أن تقدّمها إلى مها. وابنتاي بطيئتان في القراءة، وقد نفد حينذاك صبري، لكن لم يكن في وسعي سوى الانتظار. وكما سبق أن قلت، فأنا بمرور السنين لا أحرم ابنتيّ مما تستحقانه من احترام كشابتين، بالرغم من وجود أوقات معيّنة أتشوّق فيها إلى بسط سلطتي عليهما!

وفي النهاية، أعطتني مها الصفحة الأولى.

كشفت الصفحات عن مجموعة مثيرة من أفكار ناديا حول محنة النساء في السعودية. اعتقدتُ أنها كتبت هذه الكلمات لتسلمها إليّ إذا لم نشجعها على الكلام. وهاكم ما جاء في الصفحات:

ما مدى تعاسة المرأة التي لم تعرف الحرّية قطّ؟

هذا سؤال لطالما شغل فكري. ما مدى تعاسة المرأة التي لم تعرف الحرّية قط؟ ما الذي يُمكن أن يُقدّم إلى هذه المرأة كبديل من الحرّية؟ هل تكفي البحبوحة المادية لتشكّل ترتيباً ذا مغزى؟ قد يعتقد بعضهم ذلك. وهذه، في النهاية، «الصفقة» المعروضة على النساء السعوديات. حافظي على الصمت، لا تلحّي في طلب الحرية ولن تحتاجي أبداً إلى المأوى أو الغذاء. إلا أن ما لا يُقال لكِ هو أنك، في مقابل هذا السلوك المستكين، لن تتذوقي أبداً طعم الحرّية.

عملتُ، على مدى الأعوام الثلاثة الماضية، مساعدة اجتماعية

وانشغلت كلّياً بالعائلات السعودية. واكتشفتُ من حياة النساء اللواتي التقيتهن في سياق تلك الأعوام الثلاثة أكثر مما أردت أن أعرفه. ولطالما تساءلت عن الضمانات المقدّمة إلى النساء السعوديات التي تضاهي يوماً واحداً من الحرّية. أعتقد بعدم وجود ما ينافس الشعور الرائع الذي يحظى به المرء من كونه حرّاً في عيش الحياة التي يريد.

أعتقد، بعد الكثير من الخبرة الذاتية والتفكير والقراءة، أن أفضل طريقة لوصف حياة الإناث المولودات في السعودية، هي في السطر الافتتاحي لكتاب تشارلز ديكنز الشهير، قصّة مدينتين. وبحسب وصف ديكنز، كانت حقاً أحسن الأزمان ومع ذلك أسوأها. شهدت على الحكمة والحماقة والجحود والظلمة والنور والأمل واليأس. وأعتقد أن كلماته تتضمّن أيضاً جزءاً من الحقيقة بخصوص محنة النساء السعوديات.

سأشرح. فأنا، كمساعدة اجتماعية في المستشفى، أشهد الأحسن والأسوأ. الأفضل يحمل لقلبي الوعد، لكن الأسوأ يتسبّب في الكثير من الخوف والقلق. وهذا من أفضل الأزمان للإناث في السعودية، لأن كل قصة عن نجاح امرأة، يرافقها ما يشبه ينبوعاً صغيراً من الأمل، ينبع من تحت الصحراء. لكنه ينبوع مياه خادع، فجميعنا يعرف وجود القليل من المياه العذبة تحت رمال السعودية. ونعرف أيضاً أن هذه البئر قد تصبح في أي لحظة حوضاً جافّاً من الرمل، لأن الكثيرين جدّاً من الرجال السعوديين لا يريدون لنسائهم حرّية العيش بكرامة. وهكذا تُسعدنا وتُوتّرنا فكرة أن حرّياتنا الصغيرة قد تختفي سريعاً، وكأن ثمة من يسحب البساط من تحت أقدامنا. حدث هذا من قبل، من سنوات ليست بالكثيرة. حذّرتني قريبة لي تكبرني بخمسة وعشرين عاماً أن الأمل راود النساء السعوديات من قبل، في سنوات 1970، عندما وقعت أحداث أرعبت حكومتنا، وهي سقوط شاه إيران وانتفاضة مكة سنة 1979. فضحّت حكومتنا الملكية بالنساء السعوديات لتهدئة رجال الدين السعوديين. وأرجعت النساء السعوديات، عقب تلك الأحداث، إلى الوراء في ما يتعلّق بحرياتهن الشخصية.

وهي أسوأ الأزمنة، لأن هذا الأمل يربك الجميع، ويظهر السلوك السيّئ إلى العلن. فالنساء السعوديات يظنّن الآن، ويعتقدن أن في وسعهن التمتع بحرّية الدراسة والعمل وفي الحصول بأنفسهن على بعض المال. وهبّ الرجال السعوديون، الذين لا يريدون لنسائهم الحصول على أي استقلال، أو على الأمل بالحرّية الشخصية، بالكثير من العزم لقتل كل الأفكار المؤدية إلى حرّية النساء. كما لو أنهم يشعرون، هم أيضاً، بأن الأمور قد تنقلب عليهم ويخشون من فقدان السيطرة. فإذا لم يتمكنوا من محو الأمل من أذهان نسائهم، فسيتحرّكون لطرد هذا الأمل من أذهانهن، تلك الأذهان التي لم تبدأ

إلا أخيراً بالتفتّح والنمو بالأفكار الجديدة والمعرفة. تحدّثتُ مع نساء شابات يحملن أكثر الجروح الجسدية فظاعة، شابات أفزع من الاعتراف بأن أزواجهن ضربوهن إلى حدّ الموت، لأنهن أعربن عن الرغبة البريئة في متابعة دراستهن أو في العمل بعد تخرّجهن في المعهد، أو لأنهن أملن في إرجاء أمومتهن إلى أن يصبحن أكبر سناً بعض الشيء، أي إلى ما بعد المراهقة فقط.

وتعيش بلادنا اليوم عصر الحكمة، لأننا حظينا في النهاية بملك، هو الملك عبدالله، يستخدم سلطته لمساعدة النساء. وقد قيل لي إن الملك فيصل كان ملكاً عظيماً لجميع المواطنين السعوديين، إلا أنني لم أكن حينها لأشهد على عظمة جلالته؛ ولهذا، فإن الملك عبدالله هو بطلي الشخصي. أعرف أنه يقوم بأكثر مما فعله الملكان السابقان معاً لضمان حياة كريمة وآمنة للنساء السعوديات.

وهو عصر الحماقة لوجود الكثير من الشبان الذين يرفضون أي تقدّم على الإطلاق، عندما يتعلّق الأمر بالنساء. هؤلاء المتعصبون الدينيون «الجدد»، وهم في معظمهم من الشبان، كثيرو العدائية؛ ويعتقدون أن من حقهم أن يجوبوا الشوارع ويضايقوا أي امرأة تسير فيها، حتى ولو كانت محجبة بالكامل. يجلس هؤلاء الشبان عند أقدام رجال الدين الأكبر سناً ممن يرفعون الصوت مطالبين بعودة بلادنا إلى عصر الظلمة الذي لم يُسمح فيه للنساء حتى بالخروج من منازلهن. وتمتلئ أعينهم، لدى مطالبتهم بالـ «بُردة»، أو عزل النساء، بنظرة متوهّجة مجنونة جدّاً، كما لو أنهم فقدوا عقولهم بالكامل. وسمعتُ قولاً مأثوراً ذكيّاً فحواه أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة. وفي وسع كل امرأة القيام بتلك الخطوة الأولى التي ستؤدي إلى الحرّية.

وهو عصر الجحود، عهد الإنكار، لأننا نعيش في حقبة لم تعد فيها الأحداث مخفية كلّياً كما في الماضي. لم تسمع جدتي وأمي في طفولتيهما الكثير من قصص الرعب، مع أنها كانت تُقال همساً. لكن الأمر مختلف اليوم. فهي تُكتب في تقارير الصحف. وقد استجمع العاملون في المستشفيات شجاعتهم على الكلام. وهم الذين يرون، مباشرة، كم يمكن لحياة بعض النساء أن تكون مؤلمة وخطرة. نكتشف الطبيعة الشريرة لبعض الرجال وما يفعلونه بالنساء لا لسبب إلا الأذى. فقد تحدّثت، مثلاً، إلى إحدى النساء وحاولت مؤاساتها، وهي صديقة مقرّبة من عائلة طفلة صغيرة اغتصبها والدها، رجل الدين، حتى الموت. ولم يُحكم على هذا الرجل إلا بالسجن ثمانية أشهر على تعذيبه واغتصابه ابنته ذات الخمسة أعوام حتى الموت. وقد كُسر ظهر الطفلة خلال الاغتصاب الطويل. ومزّق عضوه الذكري فتحة شرجها الصغيرة. وقد خضع عجز الطفلة الصغير للكي بالنار لوقف النزف. وبالرغم من أن الرجل لم يُحكم عليه إلا بأشهر قليلة من السجن، فقد ثارت ثائرة رجال الدين الذين اعتبروا أن الأشهرَ القليلةَ

كثيرةٌ جدّاً. ويحق لأي رجل أن يفعل ما يريده بأي أنثى في عائلته، ولا يحقّ لأحد إنزال الحكم أو القصاص به. وبينما يحظى الرجل بحرّية إنزال الألم والعذاب، لا تمتلك المرأة حرّية إنقاذ طفلتها البريئة.

نشرت الصحف هذه القصة الرهيبة. لكن هل تعرفن أن هذا الوضع لا يزال قائماً. يستطيع أي رجل في السعودية ممارسة العنف على أي أنثى في عائلته من دون أن يخشى العدالة الحقيقية؟ وما هي أشهر قليلة في السجن مقابل هذه الجريمة؟ لا شيء! أخشى أن هذا لن يتغيّر أبداً، لأن الحكومة لا تريد الدخول في خلافات بين رجل وأفراد عائلته.

لكن النساء السعوديات لم يستفظعن شيئاً كما استفظعن قصة هذه الفتاة الصغيرة التي أُبعدت عن أمها، وضربها والدها وعذّبها واغتصبها. طفلة لا حول لها ولا قوّة، ولم تجد من يستطيع مساعدتها. لكن العقاب لم يتناسب، وبشكل يصعب تصديقه، مع الجريمة حتى بعد الاحتجاج العام. وسمعتُ أن السجانين تعاطفوا مع المجرم الذي عذّب الطفلة وقتلها. لم يتلقَّ أي عقاب حقيقي، حيث عومل كبطل في الأشهر القليلة التي قضاها في السجن. وما عقوبته إلا استعراض لإسكات الأهالي الغاضبين.

وُجدت بالفعل أوقات أفضل لكثير من النساء السعوديات، وأصبحت لهن قصص مفرحة تروى، إلا أن القصص المحزنة والانتهاكات المروّعة تلغيان فرحة الأمور الجيدة.

وبالرغم من أنني أتوقّع الكشف عن كثير من القصص التي اكتشفتها في سياق عملي القاضي بتقديم الدعم إلى من أُجبروا على التعامل مع أوضاع مؤلمة، فإنني أشعر بالخجل لمعرفتي أنني لا أمتلك كامل الحرّية للقيام بالصواب! عليّ أن أخفي أفعالي وأحافظ على سرّية اسمي. ولو اكتشف ربّ عملي أو عائلتي أنني أبوح بهذه الأسرار فستُدمَّر حياتي. وستلتزم والدتي فراشها لعدة أشهر، ويتساءل والدي عن الحكمة من موافقته على تعليمي. أما أشقائي، فقد يسعون إلى إقفال فمي، إلى الأبد. وفي أقل تقدير سيضطرني العار إلى العيش في جيب اجتماعي صغير جداً، أقيم فيه وحيدة لبقية أيامي، في شبه عزلة عن كل ما هو عزيز على قلبي.

لكنني أعتقد بوجوب أن نعمل معاً، قوّة واحدة. ولهذا أمدّ يدي إلى الدكتورة مينا، المرأة التي أحترمها جّداً، وإلى أميرة تمتلك القدرة على مساعدة بعض الشابات اللواتي ليس لديهن من يلجأن إليه، أو من يبالي.

وإذا لم أمتلك القدرة على إنقاذ حياة واحدة، فلن تعني لي الحياة شيئاً.

***

بكيتُ، وبكت سارة هي الأخرى. وتبقّع وجه مها بالأحمر غضباً وإحباطاً. لم تقل أماني شيئاً، لكنها حدّقت بشوق إلى صورة أمي؛ كما لو أنها أرادت العودة بالزمن لتكون في ذلك المكان مع أمي.

قلتُ: «إن الفتاة تتصف بالحكمة، وهي محقّة في ما تقوله. يُرمى لنا، نحن النسوة السعوديات، بفتات الراحة الشخصية في مقابل حرّيتنا».

دخل كريم وعبد الله في تلك اللحظة، وقد راعتهما رؤيتنا نبكي.

وبلغ بي الاستياء حدّاً، هاجمت فيه الرجلين الوحيدين اللذين في متناولي.

«كريم! عبد الله! تستطيعان أخذ مُتاتكما ورميها في البحر الأحمر!». صحت قبل أن أسارع إلى مغادرة الغرفة.

أراد كريم اللحاق بي، لكن مها اعترضت طريقه، صائحة: «أمي على حق!». وتبعتني، ولكن ليس قبل أن ترمق شقيقها باشمئزاز.

وها هو زوجي المسكين وابني يقفان جامدين من هول الصدمة، في حين نظرت شقيقتي سارة، ألطف شخص في عائلتنا، إليهما نظرة اتهام وصاحت: «عيب عليكما معاً!».

استطاعت أماني وحدها تحمّل وجودها في الغرفة نفسها مع الرجلين. وعرفتُ لاحقاً أنها شاركتهما في قراءة ما كتبته ناديا. وحزن كريم وعبد الله جدّاً، وذُهلا من الكلمات التي قرآها.

مرت على النساء السعوديات أوقات كثيرة شعرن فيها بقرب الحرّية، إلا أن الرجال الذين يحكمون حياتنا قاموا بتنحيتها جانباً في اللحظة الأخيرة. إلا أن وقت التغيير قد جاء أخيراً. فالشجاعة تصيب بالعدوى. وفي النهاية، وجدت آلاف النسوة السعوديات الحكمة والشجاعة لرمي عباءة الخوف جانباً، وطلب الحرّية، الشرط الأساسي للسعادة الحقيقية.

الفصل السابع

أمثولات ممن نحبّ

لطالما لامني كريم على العداء الذي تكنّه مها لجنس الذكور، لأني ربّيت ابننا وابنتينا في مُناخ شككتُ فيه على الدوام بتقاليد بلادنا. وفسّر كلّ منهم على طريقته الأمثولة نفسها التي حاضرتُ فيها أنا الوالدة. ولم أكفّ، مذ كانوا أطفالاً، عن المناداة بوجوب حصول كل سعودي، أذكراً كان أم أنثى، على حماية الدولة للعيش بحرية وكرامة، وعدم نيل أي رجل تقديراً أرفع من التقدير الذي تحظى به المرأة.

استوعب ابني الأكبر عبد اللّه أمثولة المساواة أفضل استيعاب. وامتلك نتيجة ذلك تقديراً كبيراً للنساء؛ أي إنه يحترم الإناث تماماً كما يحترم الذكور. وأسهم اهتمامه هذا بالآخرين في جعله ابناً رائعاً وزوجاً محبّاً ووالداً حكيماً.

استمعتْ مها، كبرى ابنتيّ، بانتباه إلى آرائي، لكنها لم تتقبّل قط وجهة نظري بأن التغيير آتٍ لا محالة إلى بلادنا. بل تطلّعتْ من حولها لترى كيف تُروَّض الإناث بالمقارنة مع الذكور. وغالباً ما شاهدتْ الدليل على سوء المعاملة التي تتعرّض لها صديقاتها من آبائهن أو أشقائهن. وتوصّلت مها إلى نتيجة مفادها أن لا قيمة تذكر للإناث في بلادها، عند الحكومة وعند معظم الرجال السعوديين. ولأن مها أنثى، فلم تهضم الأمر. اعتقدتْ، وهي في سن المراهقة، أنها إذا ركّزت طاقاتها كلّها في القتال من أجل حقوق المرأة ستنجح في جعل السعودية مجالاً حيوياً مؤاتياً للنساء. غير أن شعب بلادي غير جاهز لفتاة مثل مها، وبات الإخفاق حتمياً. أحزنتها معرفتها الحياة الضائعة لصديقاتها اللواتي أجبرن على وقف الدراسة أو زُوّجن خلافاً لإرادتهن، فتيات عانين بطرائق شتّى ما تراه ممارسات بالية ومجحفة. وواجهت مها الخيبة تلو الخيبة، إلى أن يئست في النهاية ورمت بالتقاليد السعودية المقيدة للمرأة، وهربت لتعيش بحرّية في أوروبا.

بدا وكأن أماني، طفلتي الثالثة، ترعرعت على أيدي أكثر رجال الدين محافظة، بدلاً من والدتها صاحبة الفكر الحرّ. وهي تدعو كل أنثى إلى العيش في ظل الحكم الصارم للذكر. وتدّعي أنها تستمتع بمنح زوجها تاج الديكتاتور. وزوج أماني أكثر الديكتاتوريين خيراً، والحياة في ظل حكمه ليست على هذا القدر من الصعوبة، إلا أنني غالباً ما سألتُها إن كانت ستتوق إلى الحرّية، لو كان زوجها رجلاً يستمتع بضربها، أو بإبعادها عن عائلتها، أو باتخاذ زوجة ثانية أو ثالثة له، أو بطلب الطلاق والوصاية التامة على ابنها الصغير خالد. كنا سنحمي أنا وكريم ابنتنا من مثل هذا المصير، في حين أن الشابات الأخريات

في السعودية لا يحظين بمثل هذه الحماية. إلا أن أياً مما أقوله لن يخترق سُمْك وجهة نظر أماني «المناهضة لحرّية النساء».

وابني، كما سبق أن أشرت، رجل يؤمن بوجوب معاملة جميع النساء على قدم المساواة مع الرجال. وقد أثبت جدارته في ما يتعلّق بحرّية الأنثى، من خلال تفانيه في حب زوجته زين وابنته سلطانة الصغيرة.

وستؤدي حفلة شاي بعد ظهر أحد الأيام، في الواقع، إلى إحداث تغيير إيجابي لعائلتنا كلّها، من خلال طريق دائرية أفضت بنا عن غير قصد إلى امرأة سعودية تدعى ليلى.

فعندما دخلتُ أنا ومها منزل زين، لاقتنا عند الباب، وهي تصيح فرحاً بقدومنا.

***

لكنني، قبل أن أخبركم عن ليلى وتأثيرها في عائلتنا كلّها، أود أولاً أن أعرّفكم بزين التي تقربت كثيراً من عائلتنا. كنّتي زين امرأة من العائلة المالكة استثنائية جدّاً، وقد أضحت الآن عضواً مهمّاً جداً في عائلتنا الصغيرة. وهي جميلة، لطيفة، وفريدة من نوعها بأكثر الطرائق إثارة للدهشة. فقد أنعم الله عليها بصوت رائع. وذُهلنا في المرة الأولى التي سمعنا فيها صوتها وهي تغني، إذ لم يسبق لنا أن سمعنا مثل هذا الصوت الاستثنائي.

لن يغيب ذلك اليوم أبداً عن ذاكرتي.

سافرتُ أنا وكريم بشكل غير متوقّع إلى جدّة، لأمر لم أعد أذكره. وقرّرنا هناك زيارة ابننا المتزوج حديثاً. وشرح لنا عبد الله، لدى وصولنا، أن زين لم تستكمل بعد تحضير نفسها لملاقاتنا، فجلسنا في الغرفة المشمسة المطلة على مياه البحر الأحمر الزرقاء. وعندها انطلق فجأة صوت قويّ جدّاً وجميل من وراء الأبواب المغلقة لغرف نوم القصر.

احتار كريم وسأل ابنه: «من تلك التي تغنّي؟». احمرّ عبد الله خجلاً وقال: «أفضّل ألا أقول، يا والدي».

توقّف قلبي للحظة، وقد خشيت من أن يكون ابني قد تحامق واتخذ له خليلة، وهو أمر يفعله الكثيرون من الأمراء الشبان بعد زواجهم من امرأة أحلامهم، وهم يجهلون أن المرأة الوحيدة التي تهمّ ستصاب بجرح كبير يؤثر في الزواج.

وألححت عليه: «يجب أن تخبرنا يا عبد الله».

«عبد اللّه»، قالها كريم بصوت حازم «يجب أن تكشف عن هويّة هذه المرأة الغامضة في بيتك».

حدّق عبد اللّه إلى والده بشكل اعتقدتُ أنه تعبير ظريف، إذ افترّ جانب من شفته عن ابتسامة. واعتقدت لوهلة أن الزواج حوّل ابني الصالح إلى رجل فظّ. وتحدّثَ في النهاية، قائلاً: «سأسأل إذا كان يُسمح لي بإخباركما»، وسار مبتعداً، وحفيف صوت ثوبه الأبيض يسمع مع كلّ خطوة.

تبادلتُ أنا وكريم نظرات الذهول. ما الذي يحدث مع ابننا؟ من هي تلك المرأة الغامضة المقيمة في قصر ابننا؟ أين زين؟

ومرّت الدقائق كأنها ساعات، ليعود بعدها عبد اللّه مع عروسه المُحرَجة. ولأنني أتوقّع دوماً تصرُّف الرجال السعوديين، ومنهم ابني، غير اللائق، فزعتُ حقاً من أن يكون عبد اللّه على وشك أن يخبرني أمراً لا أرغب في سماعه.

وافترّ ثغر عبد اللّه الجدّي عن ابتسامة لدى رؤيته جزعنا.

«أمي، أبي، أريدكما أن تتعرفا إلى صاحبة أجمل صوت في العالم، كنّتكما».

أخذتُ نفساً عميقاً، وانتصبتُ واقفة، وعانقت ابني وزوجته وأنا أهتف: «أين تعلّمتِ الغناء يا زين؟».

«لم أُلقَّن أية دروس»، شرحت زين، «شرعت في أحد الأيام، وأنا فتاة صغيرة، في الغناء، وأخذ صوتي يتطوّر على مرّ السنين». بدت على الفتاة العزيزة أمارات الارتباك والتواضع، وتابعت: «لا أغنّي إلا عندما أعتقد أنني وحدي». ورمقتْ عبد اللّه بنظرة.

«وأغني لزوجي، طبعاً».

ابتسم عبد اللّه بفخر، واستطعت أن أكتشف أن لا أساس لمخاوفي. أظهر لي ابني وزوجته أنهما يتبادلان الكثير من العطف. «أنتِ إذاً واحدة من النادرين الذين يولدون، وهم يمتلكون صوتاً هائلاً».

أفرط زوجي في حماسته، لأن كريماً يهوى موسيقى الأوبرا. وأخبرني لاحقاً أن كنّتنا تستطيع بسهولة الفوز بدور البطولة في «تياترو ألاّ سكالا» (Teatro alla Scala) دار الأوبرا الشهيرة في ميلانو، وهي إحدى أهم دور الأوبرا، ليس في إيطاليا فحسب، بل في العالم. ولن تسمح أي عائلة سعودية، بالطبع، لأي من بناتها بالمشاركة في مثل هذا الدور العلني، إلا أن التفكير في اليوم الذي

سيصبح مثل ذلك ممكناً للإناث السعوديات، لهو أمر جيد.

وأخذنا منذ ذلك اليوم نطلب من زين أن تطربنا، لكنها كانت تخجل من القيام بذلك، بالرغم من أن عبد الله يشغّل الموسيقى ويشجّعها على الترفيه عن العائلة. وظلّت موهبتها الفريدة مقتصرة علينا دون باقي الناس لأنها لا تكشف عن صوتها الممتع إلا لعائلتنا. حتى أن أشقاءها غافلون عن موهبتها الرائعة، إذ تقول زين إنها عاشت في صباها ظلاً لأشقائها الستة؛ ولم تلاحظ العائلة صوتها لانشغالها التام باللهو الصبياني.

تبدو زين غير متأثرة بمقدرتها؛ وتقول إن زوجها وأولادها يشغلون معظم قلبها، وإن الغناء ليس أكثر من مجرّد تسلية ممتعة. ومن حسن الحظ أنها تبذل جهوداً صادقة لتشكّل جزءاً مهماً من حياتنا العائلية بطريقة ولّدت من جانبنا حبّاً كبيراً. وهي من الناحية الجسمانية طويلة القامة ذات بشرة شاحبة جدّاً وعينين سوداوين تشعّان لطفاً. وتمتلك ابتسامة مشرقة. وقد حببتنا بنفسها منذ زواجها بعبد الله. وأعرف أن ابني راضٍ جدّاً عن زوجته وبالتالي فإن عائلته راضية هي الأخرى.

ترعرعت زين في عائلة أكثر محافظة من عائلتنا. لكن لا يبدو أنها تشعر بأي مرارة من اعتبار أهلها أن حياتها أقلّ أهمية من حياة أشقائها. وتتذكّر الكثير من اللحظات الكئيبة، لشعورها، وهي تكبُر، أنه قُلّل من قدرها. لكنها، وعلى العكس من معظم الإناث اللواتي تعرّضن لمثل هذه المعاملة السيئة، لا تكنّ أي ضغينة لعائلتها أو لثقافتنا وبلدنا. والحمد لله أن زين قد وصلت في تعليمها إلى المرحلة الثانوية؛ وأنها تمتلك بعض الاهتمام بالعالم خارج نطاق حياتها، وإلا لكان ابني ضجر مع زوجة غير متعلّمة لا تهتم إلا بشعرها وحليّها والموضة والأثاث. وتختلف زين اختلافاً كبيراً عن معظم قريباتنا من العائلة المالكة، لأنها تشارك زوجها في الاهتمام بمحن الآخرين.

لكن من سوء الحظ، أن الطريقة التي ينظر فيها الرجال إلى النساء في السعودية لا توفّر للإناث سوى القليل من الفرص للمشاركة في الحياة العامة، حتى لأولئك النساء المهتمات تماماً بتحسين وضعنا.

أما نساء العائلة المالكة، فلا ينتاب أي منهن القلق في شأن ضرورات الحياة. وقد اكتشفتُ أن معظمهن لا همّ لهن إلا المقتنيات الثمينة التي تسمح لهن ثروتهن الضخمة باقتنائها. أدرك أن الحياة فارغة ومملّة عندما لا يفكّر المرء إلا في نفسه. وأنا مرتاحة جدّاً لأن هذا السلوك الأناني لا ينطبق عليّ وعلى مها وأماني وسارة وسلطانة الصغيرة وزين.

تحقّق زواج ابني من زين بضربة حظّ رائعة. وقد تعرّفنا إلى عائلة زين، إلا أننا لم نعرف شيئاً عن الفتاة نفسها إلا بعد أن حضرت شقيقتي سارة حفل زفاف واحدة من عمات زين، سبق لزوجها أن طلّقها ليتزوج مطربة مصرية جميلة. وقالت سارة إن هذه المغنية المثيرة كانت حديث العرس، وإنها شعرت بالأسف الشديد على الزوجة المهجورة التي تقترن مع ذلك بقريب آخر من العائلة المالكة اشتهر عنه ولعه الشديد بأي امرأة يستطيع إيقاعها في شركه. وامتلأ قلب سارة الطيّب بالأسى الشديد على إناث العائلة. فقضت مزيداً من الوقت في الدردشة مع نساء ذلك الفرع من العائلة. وقد تمتّعت معظم النساء بالقدر الكافي من اللطافة. لكن ما إن أتيحت الفرصة لسارة بالاستمتاع بحديث وجيز مع زين، حتى أُعجبت بمظهرها وبوقارها الهادئ. وعادت من العرس لتفيدني مباشرة بأنها التقت شابة استثنائية. وأمسكت بكتفي وحدّقت إلى عيني قائلة: «سلطانة، أعرف من كل قلبي أن ابنك سينجذب إلى زين الجميلة».

بلغ عبد الله نقطة تحوّل في حياته. وسبق أن أشار إلى أنه يودّ أن يلتقي امرأة استثنائية، ويستقر في حياته مع زوجة وأولاد. وبما أن الذكور والإناث في السعودية لا يتخالطون اجتماعياً، فلن تتاح طريقة سهلة لأن يتصل من هم في عمر الزواج بعدد كبير من أفراد الجنس الآخر.

شرعتُ، بعد أن أعرب لي عبد الله عن رغباته، في المراقبة الدقيقة لقريباتي من العائلة المالكة اللواتي هنّ في سنّ معيّنة، كلما حضرت مناسبة اجتماعية. ولم أنجح، لأنني أم لا تريد لابنها إلا الأفضل. ولم تتمتع أي امرأة قابلتها بما يكفي من العلم أو اللطافة أو الجمال لابني الوحيد. كانت لأماني، بالطبع، أربع صديقات أو خمس متديّنات للغاية، زعمت أنهن مثاليات لعبد الله. إلا أن من غير الممكن الثقة بتوصيات أماني. وليس في ذهن عبد الله الزواج من امرأة تملي عليه بشكل ممل ضرورة الصلاة في مواقيتها؛ وهو ذو طبع هادئ ومحبّ، كما أنه مؤمن ورجل طيّب حقّاً.

بعد أن قدّمت سارة توصيتها، دعونا والدة زين لزيارتنا في منزل سارة. وهذا الترتيب ليس غريباً على العائلة المالكة، إذ تميل النساء إلى حب التوسط في عملية الزواج.

تحفّظت والدة زين في الأساس؛ وعادة ما تتصرف أمهات البنات المرغوبات بهذه الطريقة في بلادي، بهدف الإشارة إلى أن لابنتها خطّاباً كثراً، وبالتالي فإن روزنامتهن الاجتماعية محجوزة لأسابيع. ولمعرفتي هذا، لم أقلق عندما طلبت والدة زين أسبوعاً لقبول دعوتنا.

مرّ الأسبوع سريعاً، وقد أعجبتُ وابتهجت سريعاً بلقائي زين.

واتفقتُ مع سارة، على الرغم من جهلي طبع زين، على أنها جميلة، فضلاً عن أنها مثيرة للاهتمام. وعلّمتني تجاربي في الحياة أن الشخصية المثيرة للاهتمام تشكّل واحداً من أهم المكوّنات عندما يتعلق الأمر بزواج دائم. فالجمال وحده لا يلفت الانتباه طويلاً، لأنه يجب توفّر مشجب من السمات الشخصية الفريدة يُعلّق عليه الزواج.

وافقت العائلة أن يرى ابني صورة لزين. تراجع عبد اللّه في البداية، لأنه أصيب بالتوتّر من مثل هذا الالتزام، لكنه عاد ودرس صورتها لأوقات كثيرة طويلة، وجعلني أبتسم ابتسامة عريضة عندما قال: «أرى، يا أمي، أمراً مثيراً للاهتمام في وجهها أثّر بي وأثار في داخلي رغبة في لقاء صاحبته».

عرفت من كلمات ابني هذه أنه يقارب الزواج بالمنطق الصحيح، أي العثور على زوجة تثير فيه الاهتمام في السنوات التي تلي تراجع الجاذب الجسدي.

وعندها قررت العائلتان أن من المناسب أن يجمع عبد اللّه وزين لقاء يجري الإشراف عليه في منزل سارة.

تجاوز اللقاء توقعات ابني. وأجريتُ، من جانبي، محادثات ودّية مع قريبات زين، إلا انني أبقيت عيناً حادة على ابني. كانت زين خجولة وعبد اللّه واثقاً بنفسه، وهذا ليس بالأمر الاستثنائي في معظم ثقافات العالم. لم أعرف قطّ ما تبادلاه من كلام، إلا أن عبد اللّه طلب بعد انتهاء اللقاء الاجتماعي أن يتحدث معي ومع أبيه، وقال: «أرجوكما، إنها المرأة المناسبة لي. رتّبا التفاصيل لنتمكن من الزواج».

وهكذا فعلنا. وسُررنا لعدم تظاهر أي من زين أو والدتها بعدم الاهتمام. فالكثيرات من الأمهات والبنات يمارسن تمثيليات من هذا النوع، اعتقاداً منهن أنهن إذا تظاهرن بعدم الاهتمام يحصلن على زيادة في المهر. لكن في حالتنا هذه تنتمي الأسرتان إلى العائلة المالكة، وأسرة زين ليست في حاجة إلى المال. والحقيقة هي أن زين قد انجذبت إلى عبد اللّه تماماً كما انجذب عبد الله إليها.

وحلّ اليوم السعيد الذين اقترن فيه ابني بقريبته زين آل سعود، في حفل زواج بسيط، ولكنه ذو مغزى، في احد الفنادق الحديثة بجدّة. واجتمعت النساء معاً، كما في كل الأعراس السعودية، في قاعة رقص الفندق، فيما احتفل الرجال تحت خيم بيضاء رائعة نُصبت على بعد كيلومترات من جدة، على طريق مدينتنا المكرّمة، مكة.

كانت المناسبة مثالية. بكيتُ، وكانت دموع فرح وليست دموع حزن. عرفت، بالرغم من أن الكلمات هذه مبتذلة، أنني لا أخسر ابناً، بل أربح

ابنة.

وهكذا زدنا، أنا وكريم، عدد أفراد عائلتنا بوجود زين الرائعة، العنصر المهم في العائلة، التي ستمدّنا قريباً بأحفاد انتظرناهم كثيراً. وأنا ممتنّة جدّاً، لأنني أقمت على الدوام علاقة ودّية مع زوجة ابني. أعرف أنها زوجة رائعة لعبد اللّه، إضافة إلى أنها أمّ متفانية لأولادها. ولو أتيحت لي فرصة الانتقاء من بين أميرات السعودية لما وجدتُ صديقة وزوجة أفضل منها لابني.

ليست النساء السعوديات جميعهن محظوظات كزين. وقد أخذ عدد الفتيات السعوديات غير المتزوجات في الارتفاع. وابنتي، مها، واحدة منهن.

***

حدث أن التقت مها، من خلال زين وسلطانة الصغيرة، ليلى الشابة السعودية التي بدت شخصيتها قريبة جدّاً من شخصية ابنتي. وحين أخذنا نتبادل الترحيب مع زين، دخلت سلطانة الصغيرة مسرعة بفرح إلى الغرفة وشعرها الطويل يتراقص. ولاحظتُ على الفور أنه قد سُرّح بأسلوب غير معهود بتجعيد ملفوف مثبّت بماسات على شكل حيوانات صغيرة الحجم. اندهشت لتصفيفة شعرها، وكذلك مها التي انحنت لتتفحّص التسريحة، وسألت من بعدها زين: «من سرّح شعر سلطانة الصغيرة؟ إنه شديد الأناقة».

«أخذتني أمي إلى مصفّفة الشعر الجديدة هذه. اسمها ليلى».

سألتْ مها: «أهي لبنانية؟»، وسؤالها في محلّه لأن خبرتنا علّمتنا أن اللبنانيات هن الأفضل في تصفيف الشعر والتزيين. وقد فتح عدد منهن صالونات في السعودية لكسب عيشهن، أملاً في أن تكتشف أميرة سعودية ما موهبتهن وتستخدمهن شخصياً لتصفيف شعرها، والإقامة في قصرها، ومرافقتها في رحلاتها حول العالم.

حظّر المطاوعة السعوديون، وأنا فتاة صغيرة، صالونات تصفيف الشعر ومراكز التجميل، مؤكّدين أن تحسين المرأة جمالها مناهض للإسلام، وأن على النساء أن يسعدن بما خلقهن عليه اللّه. وكان مألوفاً في تلك الأيام رؤية مجموعات من المطاوعة الجامحين يثيرون الفوضى باقتحامهم المؤسسات الخاصة بالنساء. وغالباً ما احتجز أولئك الرجال ذوو النظرة الشريرة جميع النساء الموجودات في المحل، الزبونات اللواتي رغبن في علاج تجميلي، والعاملات اللواتي يكسبن المال لدعم عائلاتهن عن طريق إسعاد نساء، لا يردن سوى تصفيف شعورهن، أو نتف حواجبهن وطلاء أظافرهن.

لكننا سعيدات، لأن الأفكار تأخذ في التبدّل في السعودية. وقد

بات شائعاً الآن أن تقضي النساء فترة بعد الظهر في أحد صالونات التجميل.

أجابت سلطانة الصغيرة بشكل غير متوقّع عن السؤال الذي طرحته مها على أمّها، زين: «لا يا عمّتي مها. فليلى واحدة منّا».

ابتسمتُ بفخر لحفيدتي الرائعة، وأنا أدركُ ما تعنيه. «أهي سعودية حقّاً؟».

«نعم، إنها فتاة سعودية».

«حسناً، حسناً، فالعالم يتغيّر»، قلتها بفرح، لأن من غير الشائع أن تعمل فتاة سعودية في خدمة أخريات. وتسعى الفتيات السعوديات في الغالب إلى البحث عن وظائف، والعمل بشكل روتيني معلمات وطبيبات صحة أو طبيبات أسنان (متخصصات في النساء والأولاد)، إلا أن عائلات قليلة تسمح لإحدى بناتها بالعمل في وظيفة تخدم فيها الأخريات، كأن تصبح ممرضة مثلاً، أو مصففة شعر، أو مدبّرة منزل.

إلا أن وظائف جديدة توفّرت في العام الفائت في المؤسسات الخاصة بالنساء، مثل متاجر الملابس الداخلية ومراكز التجميل الراقية، مع أنها المرة الأولى التي أسمع فيها بمصفّفة شعر سعودية.

نظرتْ زين إلى ابنتها استحساناً، قائلة: «سلطانة محقّة. هذه الفتاة السعودية واحدة منّا، ولديها زبونات كثيرات في العائلة المالكة. فليلى تبدع في استخدام المشط». وقامت زين بتعبير ظريف بعينيها الواسعتين وشفتيها الرقيقتين، ثم تابعت: «بل إنها جعلت شعر العمة مدينة الهزيل يبدو كثيفاً. لم أرَ بقعة واحدة من فروة الرأس تحت تسريحتها الأخيرة».

«لا! أحقّاً؟» ردّت مها.

كانت مدينة محطّ إشفاق نسوة العائلة المالكة، لأنها ابتُليت منذ صغرها بشعر «خفيف» آخذ في التساقط، وهو لا يكاد يغطّي فروة رأسها المتجعّدة. ويشكّل غياب الشعر الكثيف مشكلة كبرى لأي امرأة، لكنها تصبح أكبر في مجتمعنا العربي. ومع أننا نخفي شعورنا، ونحن في العلن تحت الوشاح، فالحال ليست كذلك في المجالس الخاصة. تعرض معظم النسوة في اجتماعاتهن بفخر خصلات شعورهن، لأن شعر المرأة يحظى بكثير من الانتباه. ويُطوّل الشعر ويُسرّح بمختلف الأشكال المُتقنة لإثارة الانتباه واستدرار الإطراء.

غير أن المسكينة مدينة تتفادى دوماً، وللأسباب الآنفة، نزع وشاحها. فالناس في ثقافتي قساة، وعادة يحدّق الأولاد ويشيرون بالإصبع ويضحكون من مدينة شبه الصلعاء، بالرغم من أن أمهاتهم

يقرص آذانهم أو أذرعهم أو يهدّدنهم باللجوء إلى العنف.

استشارت مدينة مختلف الأطباء في العالم العربي وأوروبا، ولم يتمكن أي منهم من إيجاد حل. وقالت لها طبيبة بريطانية إنها وُلدت ولديها اضطراب في جهاز المناعة، وعليها أن تتقبّل قدرها. وقال طبيب مصري متعالٍ إن حالتها سببها الضغط الذي تتعرّض له حياة المرأة السعودية. وسألت مجموعة من الأطباء الذين أُحضروا من سورية خصيصاً لها، ما إذا كانت تشد شعرها من دون وعي منها.

أثارت مدينة إعجابنا، لأن تصميمها على إيجاد حل لمشكلة شعرها لم يهدأ قطّ. وسمعنا أخيراً أنها وظّفت ثلاث معالجات للشعر لفرك فروة رأسها يومياً ولمدة أربع ساعات بزيت جوز الهند الساخن، وأيضاً لتغذية بصلات شعرها بالمغذيات المستَخرجة من جوز الهند.

واستفسرت مها قائلة: «هل تستخدم ليلى هذه حيلة خاصة لمساعدة النساء اللواتي يأخذ شعرهن في التساقط بشكل خطير؟».

شرعت سلطانة الصغيرة تقفز من رجل إلى أخرى وهي تتشوّق إلى الكلام. ولما أومأت زين برأسها وابتسمت، ضحكت حفيدتي وأجابت: «نعم، قالت الآنسة ليلى إن الأمر سهل، وكل ما على الواحدة أن تتذكّره هو 'ب' 'ق' 'ف' 'خ'».

وسألتُ وقد حيّرني الأمر، «ب ق ف خ؟ ما الذي يعنيه ذلك يا عزيزتي؟».

وقالت مها بابتسامة: «نعم. أخبرينا سرّ هذه الأحرف، يا سلطانة الصغيرة».

رمقت سلطانة الصغيرة والدتها بنظرة حائرة، مستفسرة: «ماما؟».

ضحكت زين بصوت مرتفع، وأجابت: «يمكنك أن تتذكري يا فتاتي الغالية»، ثم ذكّرتها زين، «تبريد...».

«أعرف، أعرف». ونطقت سلطانة الصغيرة الكلمات بوضوح: «برّدي قصّي فرشي الخنزير البري!».

ضحكت مها، «ماذا؟».

وأخبرتنا زين بقولها: «إنها طريقة سهلة تعتمدها مَن يتساقط شعرها لضمان نموّه وتوقّفه عن التساقط. وتقول ليلى إن على مَن يتساقط شعرها أن تتذكّر كلمات: برّدي، قصّي، فرشي، خنزير بري، ومعناها أن عليك أن تبرّدي شعرك ولا تخضعيه للسخونة. قصّي شعرك ولا تحاولي تطويله. وأخيراً فرشيه بعكس نموّه الطبيعي

بفرشاة من شعر الخنزير البرّي».

«يا للحذاقة»، تمتمت مها، «تبدو ليلى هذه ذكيّة جدّاً».

«إنها كذلك»، أجابت زين؛ «فهي فتاة سعودية عاشت، على غرار الكثيرات من السعوديات، حياة معقّدة جداً. لكنها حاربت الاستبداد وتابعت حلمها بامتلاك عملها الخاص، والعيش بذاك القدر من الحرية الذي يمكن لامرأة أن تعيشه في هذه البلاد. ليلى من الظافرات».

نظرتُ إلى مها ورأيت عينيها تشعان فضولاً. وتذكّرت بعد ذلك بأسابيع كلمات مها، ونحن الأربع نسير عبر الرواق إلى غرفة الجلوس. «أودّ، يا زين، أن أرافقك وسلطانة الصغيرة إلى موعدك المقبل مع ليلى».

***

فاجأتنا مها، على مدى الأسابيع القليلة التالية، عندما أرجأت مرات عدّة العودة إلى أوروبا. واعتقدتُ في أحد الأيام أنني قد رافقت والدها إلى جدّة، فأرسلت واحداً من سائقينا لإحضار مصفّفة الشعر ليلى لقضاء عدة أيام في قصرنا.

لم تعرف مها أنني لم أغادر القصر برفقة كريم إلى جدّة، بل لازمتُ غرفة النوم في جناحنا، بسبب إصابتي بجرثومة في المعدة.

تناهت إلى سمعي أصوات نسائية مفعمة بالحياة والضحك الصاخب. واعتقدت لوهلة أنني أتخيل نساء سعيدات، لعدم توقّعي زوّاراً. وظننتُ أن كل شيء نابع من مخيلتي. ولما سمعت صوت مها المميز، ظننتُ أنها ربّما تتحادث وتضحك مع خادماتنا، لأن ابنتي تستمتع دوماً باستكشاف حياة من يقمن معنا، ويعملن في خدمتنا. تمنّيتُ لو أن ابنتي ليست فتاة على هذا القدر من الصخب، واستدرت لأستلقي على بطني وأغطي رأسي بوسادة.

سمعت بعد ساعات صوتاً ثانياً غير مألوف، فدفعني فضولي إلى النهوض لرؤية زائرة ابنتي.

بقيتْ الأصوات قويّة إلى أن قرعتُ باب غرفة جلوس مها الخاصة، وعندها خيّم الصمت. لا بد وأن مها زحفت إلى الباب لأنني لم أسمع خطواتها قبل أن تشقّ فتحة الباب وتحدّق مندهشة إلى عيني.

ولأن مها تعرف والدتها تمام المعرفة، وتدرك أنني لن أرحل ما لم أعرف من هي الضيفة السرّية، فتحت الباب على مضض. «أمي، اعتقدتك في جدّة مع الوالد».

«لا، فقد أصبتُ بجرثومة في المعدة. ولم أشعر برغبة في السفر». وحاولتُ استراق النظر من وراء قامتها الكبيرة للتعرف إلى رفيقتها، بالرغم من أنها فتاة قوية وتزيدني طولاً بستة إنشات على الأقل ووزناً بعشرين كيلوغراماً. فكريم وعبد الله ومها، في عائلتنا، طوال القامة، فيما تشبهني أماني جسمانياً، فهي قصيرة وخفيفة الوزن.

دخلتُ إلى الغرفة لأشاهد شابة تنبض بالحياة ذات ابتسامة عريضة ترتشف محتوى أحد الفناجين.

وقفتُ على مسافة منها، لكنني رحّبت بها بابتسامة، قائلة: «أرجوك أن تعذريني لعدم الترحيب بك كما يجب، فأنا لا أريد أن أنقل عدوى الجرثومة في معدتي إلى أحد».

«نعمت بلطفك، أيتها الأميرة»، أجابت الشابة وهي تقف وتحني رأسها بامتنان.

«أمي، أريدك أن تتعرّفي إلى صديقتي، ليلى، مصففة الشعر الموهوبة التي تعتني بشعر زين وسلطانة الصغيرة».

«السلام عليكم. أنت إذن ليلى التي أسعدت كثيراً كنّتي وحفيدتي». وضحكتُ ضحكة خافتة، وأنا أتذكّر الرواية التي روتها لنا زين. «ومصفّفة الشعر الماهرة بشكل مدهش التي جعلت حياة قريبتنا مدينة مريحة أكثر. فلكم ضايقنا مدينة منذ صغرها بسبب فقدها الشعر».

ابتسمت ليلى مردّدة: «تقولين هذا من شدّة لطفك أيتها الأميرة».

أصرّت مها أن ننتقل إلى غرفة جلوس العائلة، حيث طلبت وجبة طعام خفيفة وشاياً ومشروبات غازية من مطبخ القصر. وجلستُ بعيداً من الفتاتين وأنا غير راغبة في نشر جراثيمي، لكنني اخترت مقعداً جيّداً أتمكّن فيه من رؤيتهما معاً بوضوح.

قلتُ: «ليلى، أودّ أن أعرف قصّتك. سمعتُ أنك فتاة استثنائية تغلّبتْ على العراقيل السعودية، وعلى المنظومة التي تعمل ضد النساء اللواتي يحاولن تحقيق أحلامهن». وخطفتُ النظر إلى ابنتي. «لا بدّ وأن مها أخبرتكِ أنني أوفّر الدعم للإناث اللواتي يمتلكن رغبة قويّة في التحرّر من القالب السعودي المعتاد».

أجابت ليلى: «لا، لم تأتِ على ذكر ذلك».

رفعتْ مها حاجبيها، ورمقتني بنظرة متوسّلة. عرفتُ أن ابنتي ترغبُ في أن أعود إلى غرفة نومي، وأتركها للاستمتاع بصحبة رفيقتها بسلام، إلا أنني أمّ تهتم بشدة بأصدقاء أولادها، وقد

اقتنعت بأنني لن أتمكن أبداً من كبح هذا الفضول. وهكذا استلقيتُ على كرسيّ وأنا ارتشف الشاي الأخضر، آملةً في أنه سيهدّئ ألم معدتي.

«تبدين فتيّة جداً يا ليلى. هل لي بسؤالك عن عمرك؟».

«نعم، أيتها الأميرة. أكاد أبلغ الرابعة والعشرين».

«هل تتابعين الدراسة في المعهد؟».

احتجّت مها قائلة: «أمي، أرجوك. تعرفين أن ليلى تمتلك محلّها الخاص وتعمل. فكيف لها أن تنتسب إلى المعهد؟».

«آه، عذراً. أنتِ محقة يا ابنتي».

«لا بأس، يا مها. سأسعد بإخبار أمّك عن حياتي»، قالتها ليلى مطمئنة ابنتي التي أخذت تضيق ذرعاً. علمتُ، لمعرفتي مها، أنها سرعان ما ستمسك بيد صديقتها، وتهرب منّي.

«أنتِ محقّة يا ابنتي». وألقيت نظرة سريعة على ضيفتنا، مردّدة: «أنا آسفة يا ليلى، لكن الكثير الذي سمعته عنك من زين أثار اهتمامي». وضحكتُ، متابعة: «أحبّ كثيراً عندما تتمكّن الفتيات السعوديات من التخلّص من براثن الرجال الذين يحاولون منعهن من السير وراء أحلامهن».

«لكن رجلاً ساعدني على تحقيق حلمي، أيتها الأميرة».

لم أُفاجأ كما سيعتقد البعض، إذ إن عدداً من الرجال السعوديين المثقفين شرعوا، في السنوات القليلة الأخيرة، في مساعدة بناتهم سرّاً على إكمال دراستهن، والعثور على عمل من ثم. وما يخيّب أملي هو أن الأمهات والشقيقات السعوديات هن في الغالب المذنبات بتثبيط عزم فتياتهن على إنجاز الدراسة وتحقيق طموحاتهن. فنساء السعودية اللواتي يهتممن فقط بالزواج والأمومة يشكّلن سريعاً العوائق الكبرى أمام الإناث اللواتي يتعذبن في السعي إلى التخلّص من مثل هذا الرقّ. وكأن بعض النساء السعوديات يخشين نجاح المرأة وإنجازاتها بالقدر نفسه الذي يخشاهما فيه الذكور السعوديون. وإذا اقتنعن بالعيش تحت الوصاية الشديدة للرجل ورضين باستقبال كل يوم من دون علم أو عمل، فسيخفقن في إدراك أن هذه الحياة لا تشكّل للأخريات ما هو أكثر من حكم بالسجن، وأمر يتوجّب احتماله. وهذه، بعبارات أخرى، ليست حياة على الإطلاق.

وأفهم ظاهرة تثبيط العزم هذه أفضل من كثيرين. ذلك أن ابنتي أماني لو امتلكت السلطة، لقيّدت شقيقتها مها بسلاسل العادات

القديمة، فيما يقاتل ابني عبد الله، الشاب المتنوّر، من أجل حق شقيقته في اتخاذ خياراتها بنفسها.

وأنا لا أريد لمها ما هو أفضل من أن تشاطرني مشاعري في شأن الزواج والأولاد. لكنني أدركت، منذ سنوات، أن ذلك لن يحدث أبداً. ولكم مررتُ في ما مضى بضائقة كبيرة جرّاء ذلك، إلا أنني لم أعد أفكر في الأمر، ما دامت ابنتي أضحت راشدة الآن وتعيش في أوروبا. وآسف أن أقول إن كريماً لم يتقبّل قط طريقة حياة مها، لكنه لا يسبّب توتّراً في العائلة، لأنه يمتلك تلك القدرة الرائعة على دفن رأسه في الرمل، مدّعياً أن رفض ابنتنا أي نقاش يتعلّق بالزواج والعائلة هو أمر عادي.

وأنا أعتقد بإمكانية التغيير. ومع ذلك بدت لي الحياة السعودية فجأة وكأنها انقلبت رأساً على عقب. وأصبح بعض الرجال أصدقاء ومساندين لنا، مع التلميح إلى التغيير الآتي بخصوص الإناث، في حين تعارضنا النساء اللواتي يفترض بهن أن يساعدننا.

ألححتُ للحصول على مزيد من المعلومات، الأمر الذي زاد من ضيق مها.

«لقد أثرْتِ كثيراً، يا ليلى، إعجاب أفراد من أسرتي، حيث يشرّفني أن أستمع إلى روايتك. أرجوك، هلّا ترويتها لي؟».

تصنّعتْ مها تنهيدة عميقة، واستكانت بين الوسائد السميكة، قائلة: «حسناً يا أمي. ليلى، أخبريها ما تريد معرفته، وإلا سنبقى هنا طوال النهار، وأمي تستقصي وتمحّص».

نظرتْ ليلى بدهشة إلى تمادي ابنتي، لأن الأولاد السعوديين لا يتحدّثون في العادة مع أهلهم بمثل هذه الطريقة الوقحة. ابتسمتُ لمها ثم لليلى، وأنا أردّد: «لا بأس يا ليلى، فلديّ علاقة غير معهودة مع أولادي. أريد أن أعرف تحديداً بماذا يفكّرون، حتى ولو أغضبتهم أمهم التي عانت طويلاً».

نظرتْ ليلى إلى مها. وعبّرت بعينيها أنها لم توافق على سلوك مها الوقح مع أمها. وفكّرتُ في احتمال أن يكون لهذه الفتاة تأثير جيّد في ابنتي، كأن تذكّرها بحسن طالعها في أن لها والدة تحبها بما يتخطّى العقل.

«أنا فتاة عاديّة بالفعل، أيتها الأميرة»، قالتها ليلى، «ومعظم صديقاتي في المدرسة مثلي، وغالبيتهن يردن أن يكون لهن رأيهن في شأن مستقبلهن، بدلاً من اعتماد المسار البالي القاضي بالتضحية بكل شيء لخدمة الرجل، وحمل أولاده».

أومأت برأسي مدركة أن للتعليم سبيلاً ما إلى تحرير الفتيات من الاعتقاد أن الأهمية هي للرجل وحده ولرغباته.

«وعلى غرار معظم الفتيات السعوديات، وبعد تخرّجي في الثانوية، تلهّفت أمي وأبي معاً لقبولي الزواج من رجل لا أعرفه. وفكّرا في عدة رجال من قرية والدي، وجميعهم كبار جدّاً على فتاة في السابعة عشرة. لم أكن أرغب في مثل هذا الزواج، وحاربتُ ضدّه. وقبيل وصول الوضع إلى حد الإكراه، أذعنتْ أمي لتوسّلاتي، لكن والدي أصبح أكثر تشدُّداً. فهو رجل يعتقد أن على المرأة أن ترتبط برجل وتملأ منزله بالأولاد الصغار. وإلا، على حدّ قوله، ستُلحق العار بعائلتها.

«لازمتُ السرير معظم الأيام، وأنا مصابة بكآبة حادة جدّاً إلى درجة خشيتْ معها أمي من انتحاري. أرادتني أن أتزوّج وأنجب الأحفاد، إلا أن خوفها على صحتي تغلّب على رغبتها في إجباري على الزواج. لكنها مغلوبة على أمرها، عاجزة عن التغلّب على مشيئة والدي».

توقّفت ليلى عن الكلام لفترة طويلة، وهي ترفّ بجفنيها لتحبس دموعها. وربّتت مها يدها لتهدئتها ونظرت إليّ بغضب كما لو أنني المسؤولة عن العادات والقوانين التي تتحكّم بحياة النساء في السعودية.

قالت ابنتي، وهي تصرّ بأسنانها: «أكره بلادي أحياناً».

«لا بأس يا مها»، قالتها ليلى. «أنا آسفة، لكنني أتأثر وأنا أتذكّر تلك الأوقات الصعبة التي شارفت فيها على الإذعان لكل ما لا أريده. ارتعبتُ لفكرة أنني سأُجبر على الانصياع لرجُل غريب يأخذني بعيداً من أهلي، ويجبرني على الاستسلام لكل رغباته. ثم، يا لمفاجأتي الكبرى، جاء شقيقي الأكبر لإنقاذي. من حسن حظي أنه يعمل في أرامكو السعودية في الظهران».

ابتسمتُ وهززت برأسي، وأنا أفكّر لبرهة في أرامكو، وهي الشركة السعودية التي تمتلك أكبر حقلَي نفط في العالم. حقل الغوار وحقل الشيبة. وهي الشركة الأغلى في العالم: إذ يقدّر الخبراء الاقتصاديون قيمتها بما يصل إلى عشرة تريليونات دولار. وتعود الشركة بأصولها إلى العام 1920، عندما أخذت حكومة الولايات المتحدة تبحث عن منابع النفط في الشرق الأوسط. وعثرتْ «ستاندرد أويل كومباني أوف كاليفورنيا» على النفط في العام 1932 في البحرين، وهو الحدث الذي جاء بها في السنة التالية إلى البرّ السعودي، بعد أن منحت حكومتنا الأميركيين امتيازاً للتنقيب عن النفط في بلادنا الناشئة حديثاً. وبعد أربع سنوات من الإخفاق، عُثر على النفط في الظهران في بئر أطلقت عليها تسمية الدمّام رقم 7،

كونها البئر السابعة التي جرى حفرها.

بنى الأميركيون، منذ نحو ثمانين عاماً، مدينتهم المسوّرة الصغيرة الخاصة في الظهران، المدينة التي أقيمت خصّيصاً لإدارة أعمال النفط السعودي. وهي مكان مهمّ لا يجري فيه تفريق الرجال عن النساء. ويرى معظم الناس الميالين إلى الحداثة في العالم أن من غير المعقول في هذه الأيام أن يعتقد معظم الناس في السعودية أن النساء شبقات جدّاً إلى حد يستوجب فصلهن عن الرجال في كل أمور الحياة العامة، بل والخاصة، والحال ليست كذلك في أرامكو الظهران. فذاك المجتمع الصغير يقدّم، برأيي، أمثولة جيّدة إلى الرجال السعوديين.

غرقتُ في هذا النوع من الأفكار العميقة، حيث توقّفت ليلى عن الكلام احتراماً منها لصمتي. وشجّعتُها قائلة: «تابعي». ثم سألتها: «أيقيم شقيقك في مجمّع أرامكو؟».

«نعم، أيتها الأميرة. فهناك انكشفت أمامه رؤية أكثر حداثة للحياة، حيث يعمل الرجال والنساء جنباً إلى جنب. ورأى شقيقي بأم العين أن النساء يستطعن أن يكنّ جزءاً منتجاً من المجتمع، ولا يهدرن وقتهن وطاقتهن في محاولة إغواء كل رجل تقع أعينهن عليه، كما يعتقد رجالنا بحماقة.

«غيّر ما ظهر من موقف حيال النساء في الشركة شقيقي وبدّل مستقبلي. لم يوافق، بعد خبرته مع الأميركيين، على الزواج المدبّر، بل إنه وقع في الحقيقة في حب فتاة سعودية تعمل في الشركة. وهي امرأة سعودية استثنائية تتمتع بإرادة قوية وتفرض الاحترام. وهي لا تقبل الإساءة من أحد. وأنجبت له زوجته ابنة وابناً، ودهشنا لأن الابنة هي المفضلة عنده بين ولديه الاثنين. وكونه يعمل في شركة تحظى فيها النساء بالاحترام، ومتزوّجاً من المرأة التي يحب، أفاق شقيقي بالتدريج من «الغفوة السعودية» الشائعة بين رجال بلادنا الذين لا يلاحظون التعاسة التي تلفّ النساء من حولهم.

«وهذا ما حدث وجنّبني الحياة البائسة. إذ عندما علم أخي بالصراع القائم بيني وبين والدي، جاء إلى منزلنا، وأظهر اهتماماً بأفكاري ومشاعري. وأصبتُ بصدمة عندما سألني شقيقي عمّا يسعدني، وعن طموحاتي. لم أعرف بالتأكيد بماذا أجيب، لكنه تذكّر عندها أن العائلة الكبرى عرفت عني طوال حياتي أنني فتاة تمتلك موهبة طبيعية في تسريحات الشعر الجميلة والمتقنة. فأنا التي كنت، على الدوام، أسرّح شعور قريباتي أيام زفافهن. وسرّني أن أخبره بأن مصدر سعادتي الكبرى كان في العمل مع النساء على تحسين مظهرهن. واستمتعت كثيراً في ابتكار تسريحات جميلة، لأنها مكمن مهارتي الحقيقية.

«رأيت أنه يُمعن التفكير في كلّ ما قلته. بدا حقّاً مهتمّاً بي وبمستقبل سعادتي، وطلب إليّ منحه بعض الوقت لإيجاد حلّ. ثم أجرى، بعد حديثه معي، حديثاً آخر طويلاً مع أمي وأبلغها أن من واجبها الحفاظ على سلامة بناتها، وعدم تزويجي خلافاً لإرادتي.

«انتقل جبل من القوة منه إلى والدتي، لأن كلماته عزّزت إرادتها في مواجهة والدي. ومن الواضح أن شقيقي اجتمع بوالدي وأبلغه رسالة مماثلة. غضب والدي وابتعد، لكنه أوقف أيضاً كل حديث عن الزواج. والأهم من ذلك أن شقيقي طلب حق الوصاية عليّ من أبي وحصل عليه. فمن سيمنحني هذا القدر من الحرية أكثر من وصيّ متعاطف، هو شقيقي؟

«جاء شقيقي، بعد شهر، في زيارة ثانية. ولن أنسى ذلك اليوم أبداً. نظر إلى وجهي الحزين وهمس: 'لا تقلقي يا أختي. سأواكبك، ومعاً سنحقّق حلمك'.

«عاد شقيقي بمخطط وضعه بعناية. فقد اجتمع مع أشخاص عدّة بحثاً عن الخطوات القانونية التي يتوجب عليه القيام بها لإنشاء مؤسسة صغيرة. عرف أن مواهبي الطبيعية تضعني في حلقة أولئك اللواتي ينشئن مؤسسات التجميل النسائية ويعملن فيها. وسُرّ لأن رجال الدين أضحوا أقل عدائية حيال مثل هذه المؤسسات، مع أنه ذكرَ أن رجل دين متمرّناً فتيّاً أخبره أن على النساء أن يسعدن بما جبلهن عليه الله. وعارض فكرة السماح للنساء بتصفيف شعورهن، ووضع مساحيق التجميل، لأن ذلك يعني أنهن يعاكسن الله!

«حاول شقيقي تهدئة رجل الدين، لكنه لم ينجح كثيراً في ذلك. ويعتقد شقيقي أن مثل هؤلاء المفكرين يجدون صعوبة كبرى في إخراج الأفكار البالية من رؤوسهم.

«وسرّ أخي لمعرفته أن المؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني أعلنت أنها ستمنح قريباً إجازات تسمح للنساء بفتح صالونات التجميل وتشغيلها. وشكّلت هذه طريقة لمساعدة الكثيرات من النساء السعوديات، العاطلات عن العمل والباحثات عن وظيفة. وهكذا وجد متجراً صغيراً في مجمع من المباني التجارية واشتراه.

«حين أنجز شقيقي ذلك، دعاني إلى العشاء احتفالاً. وقدّم إليّ في المناسبة إجازة العمل التي تثبت أنه يملك صالوناً للتجميل. وأكّد لي أنه المالك بالاسم فقط، وأن تنظيم شؤون الصالون يعود إليّ. مدّني بالمال للتأسيس، وترك لي تدبّر شؤون العمل. ووقّع شقيقي بوصفه الوصيّ المعيّن عليّ الأوراق التي تمنحني سلطة فتح حساب مصرفي في أحد البنوك المخصصة للنساء في المدينة. وهكذا بات

«رأيت أنه يُمعن التفكير في كلّ ما قلته. بدا حقّاً مهتمّاً بي وبمستقبل سعادتي، وطلب إليّ منحه بعض الوقت لإيجاد حلّ. ثم أجرى، بعد حديثه معي، حديثاً آخر طويلاً مع أمي وأبلغها أن من واجبها الحفاظ على سلامة بناتها، وعدم تزويجي خلافاً لإرادتي.

«انتقل جبل من القوة منه إلى والدتي، لأن كلماته عزّزت إرادتها في مواجهة والدي. ومن الواضح أن شقيقي اجتمع بوالدي وأبلغه رسالة مماثلة. غضب والدي وابتعد، لكنه أوقف أيضاً كل حديث عن الزواج. والأهم من ذلك أن شقيقي طلب حق الوصاية عليّ من أبي وحصل عليه. فمن سيمنحني هذا القدر من الحرية أكثر من وصيّ متعاطف، هو شقيقي؟

«جاء شقيقي، بعد شهر، في زيارة ثانية. ولن أنسى ذلك اليوم أبداً. نظر إلى وجهي الحزين وهمس: 'لا تقلقي يا أختي. سأواكبك، ومعاً سنحقّق حلمك'.

«عاد شقيقي بمخطط وضعه بعناية. فقد اجتمع مع أشخاص عدّة بحثاً عن الخطوات القانونية التي يتوجب عليه القيام بها لإنشاء مؤسسة صغيرة. عرف أن مواهبي الطبيعية تضعني في حلقة أولئك اللواتي ينشئن مؤسسات التجميل النسائية ويعملن فيها. وسُرّ لأن رجال الدين أضحوا أقل عدائية حيال مثل هذه المؤسسات، مع أنه ذكرَ أن رجل دين متمرّناً فتيّاً أخبره أن على النساء أن يسعدن بما جبلهن عليه اللّه. وعارض فكرة السماح للنساء بتصفيف شعورهن، ووضع مساحيق التجميل، لأن ذلك يعني أنهن يعاكسن اللّه!

«حاول شقيقي تهدئة رجل الدين، لكنه لم ينجح كثيراً في ذلك. ويعتقد شقيقي أن مثل هؤلاء المفكرين يجدون صعوبة كبرى في إخراج الأفكار البالية من رؤوسهم.

«وسرّ أخي لمعرفته أن المؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني أعلنت أنها ستمنح قريباً إجازات تسمح للنساء بفتح صالونات التجميل وتشغيلها. وشكّلت هذه طريقة لمساعدة الكثيرات من النساء السعوديات، العاطلات عن العمل والباحثات عن وظيفة. وهكذا وجد متجراً صغيراً في مجمع من المباني التجارية واشتراه.

«حين أنجز شقيقي ذلك، دعاني إلى العشاء احتفالاً. وقدّم إليّ في المناسبة إجازة العمل التي تثبت أنه يملك صالوناً للتجميل. وأكّد لي أنه المالك بالاسم فقط، وأن تنظيم شؤون الصالون يعود إليّ. مدّني بالمال للتأسيس، وترك لي تدبّر شؤون العمل. ووقّع شقيقي بوصفه الوصيّ المعيّن عليّ الأوراق التي تمنحني سلطة فتح حساب مصرفي في أحد البنوك المخصصة للنساء في المدينة. وهكذا بات

مسموحاً لي التصرّف بما أكسبه من مال».

أسعدني هذا الخبر، لأنني سمعت شكاوى كثيرة عن شابات سُمح لهن بالعمل، لكن لم يُسمح لهن بقبض مرتّباتهن. ويطالب معظم الآباء في السعودية بأن يتسلّموا مرتّبات بناتهم، وبالتالي فإن الكثيرات لا يحصلن على ريال واحد مما يكسبن. وهذه جريمة كبرى لا يمكن فعل شيء حيالها، مادام يتوجّب على كل فتاة سعودية أن تبقى تحت وصاية وليّ أمر ذكر.

تنهّدت ليلى بصوت مرتفع، قائلة: «ازدهرت أعمالي الآن، بعد ثلاثة أعوام، وأنا سعيدة جدّاً لأنني أول من ينهض من السرير في المنزل، وأحضّر في غالب الأيام الإفطار للجميع، قبل أن يوصلني شقيقي بالسيارة إلى عملي.

«يمتلئ قلبي، أيتها الأميرة، بفرح كبير. وعندما أنظر إلى صالوني الذي يحتوي على ستة كراسيّ، وإلى جدرانه الممتلئة بالصور الملونة لسيدات جميلات ذوات شعر وارف داكن طويل، لا أكاد أصدّق أنني مَن جَعَلَ ذلك ممكناً. والأكثر مدعاة لسروري هو إدراكي أن النساء السعوديات المطلّقات الأربع اللواتي يعملن في الصالون يَعِلن أولادهن الصغار. ويضيف هذا الواقع حلاوة على قالب حلوى الحياة.

«وهذه أنا امرأة سعودية تحترم أخاها وتكنّ له الإعجاب. ولو لم يتقدّم لمساعدتي، لأصبحت من دون ريال واحد باسمي، ولعجزت عن تحقيق أحلامي، أو تسهيل فرصة العمل لنساء أخريات يتمكنّ من توفير موجبات الحياة. ومن المرجح جدّاً أنني كنتُ سأرتبط بزواج بلا حب مع رجل يعتقد أنه يحق له تقصّي كل حركة من حركاتي. وسأجبر، إذا ذهبت إلى السوق، على السير وراءه متعثرة بحجابي. سأصبح عبدة له، أطبخ له وأنظف بيته، وألد له في كلّ سنة طفلاً. وسأصبح بائسة، لأنني لست مستعدّة بعد للزواج. أعرف أنني سأتزوّج يوماً، لكنني أستطيع الآن على الأقل تذوّق طعم الحرّية وامتلاك بعض الوقت لتنظيم العمل. وفي وسعي شراء ثيابي الخاصة بل شراء الهدايا لأفراد عائلتي.

«وفي رأيي أن إدارة هذا العمل هي بمثابة ثقافة شاملة، لأن السعودية تعج بأشخاص من كل أنحاء العالم جاؤوا إلى بلادنا للعمل. وتتوق نساء تلك البقاع الأجنبية إلى زيارة أمكنة يمكنهن فيها تصفيف شعورهن وطلاء أظفارهن. وفيما نمارس، أنا وموظفاتي سحرنا لجعلهن أكثر جمالاً مما هنّ عليه، تخبرنا تلك النساء الكثير من الأمور عن بلدانهن الأم».

ونظرت ليلى بطرف العين إلى مها وتابعت قائلة: «إنني في طور اكتشاف كثير من الأمور الفاضحة التي تحدث في تلك البلدان،

وهي أمور غير معهودة بين الرجال والنساء، تثير الكثير من الانبهار والضحك في محلّي الصغير. أخذت أعرف بوجود عالم كبير لا أعلم عنه شيئاً. ووددت مع مرور الوقت ومع ادخاري المال للسفر، أن أغادر السعودية وأكتشف بلداناً وثقافات أخرى. ومن يدري، قد أصبح في يوم من الأيام مشاكسة مثل فتيات الثقافات الأخرى تلك المختلفة أشد الاختلاف عن ثقافتي، وهو أمر لم يسبق أن فكّرت فيه إلى أن أصبحت حرّة في تكوين أفكاري الخاصة. ولو لم أدِر عملي الخاص لما عرفت أن بإمكان الفتيات أيضاً اللهو والاستمتاع بالحرّية.

«تلك قصتي، أيتها الأميرة».

أجبتُ: «ويا لها من قصة رائعة، يا ليلى. يمكنك الآن التخطيط لمستقبلك من دون الخوف من أي رجل. أدعو إلى الله أن تتمكّن كل أنثى من إناث بلادنا أن تحقق أحلامها الخاصة». استرقتُ النظر إلى ابنتي التي أخذت تحدّق إلى ليلى بتعابير شديدة لم يسبق لي أن رأيتها من قبل. وقاطعتها: «مها؟».

«نعم، عذراً أمّي. كنت أفكّر كم هو ظالم أن تقاسي أي امرأة الخوف والصدمة كما فعلت ليلى، لمجرّد أنها تفضّل إرجاء الزواج، وهي تسعى وراء مهنتها».

«نعم، أنت محقّة يا ابنتي».

«أعتقد يا أمي أن عليك أن ترتاحي إلى أن يهدأ ألم معدتك. هل لي بمرافقتك إلى جناحك؟».

لطالما كانت ابنتي الكبرى فظّة، وفهمت من تلميحها أنها ترغب في حيز من الخصوصية مع صديقتها، لمناقشة تلك النقاط. فاستأذنتُ وعدت إلى جناحي الخاص للراحة. استلقيتُ لساعات عدّة في السرير وحاولت قراءة 'مذكّراتي في سجن النساء'، الكتاب المحفّز للتفكير من تأليف الطبيبة المصرية والأديبة المؤمنة بالمساواة بين الجنسين نوال السعداوي، وهي امرأة تحظى باحترام كبير، وقد احتُجزت مرّة في سجن النساء السيّئ السمعة في القناطير. ونوال واحدة من أبطالي. إلا أن الكتاب لم يمنعني من التفكير بمها، وكيف تبادلت مشاعر الودّ مع ليلى.

ما الذي يحدث مع ابنتي؟

سأكتشف ذلك عمّا قريب.

عاد كريم بعد أسابيع إلى المنزل، وهو في حالة غضب نادر. كنت جالسة إلى طاولة الزينة، أضع الكحل على رموشي وجفني. والكحل مستحضر تجميل قديم تستخدمه شرق أوسطيات وإفريقيات كثيرات.

وأخافني كريم، حيث وضعت الكحل على جبيني بدلاً من جفني.

«كريم، زوجي، ما الأمر؟».

«هل عرفت يا سلطانة ما تخطّط له مها؟».

«لا. وما الذي تخطط له ابنتي؟» سألته، ولكنني شعرت بالتوجّس في صدري ومعدتي.

«ستصطحب مها مصففة الشعر معها إلى أوروبا».

جلستُ صامتة، وأنا أتذكّر تلك النظرات الودّية، وأتساءل: هل هي نتيجة الأفكار المحرّمة، أم أنها ليست أكثر من صداقة عادية بين شابتين. لكنني لم أعرب قط عن هذه المخاوف لزوجي.

«سلطانة؟ أتعلمين شيئاً في هذا الشأن؟».

أجبتُ بصدق: «لا، يا كريم. لا. أنت تخبرني بذلك الآن. ولم أعرف قبل هذه الدقيقة بالذات أي شيء يتعلّق بمثل هذه الرحلة».

«ابنتنا تتجاوز الحدود يا سلطانة. يمكنها أن تفعل ما يحلو لها وهي في أوروبا، لكنني أتوقّع سلوكاً مختلفاً، وهي في السعودية».

«الحدود؟ لا أعتقد أن مها قد جاوزت هذه الحدود التي تتكلم عنها».

«إنها تصحب امرأة سعودية إلى خارج المملكة».

«من المؤكد أن الوصيّ على المرأة أذن لها بذلك. أليس لها الحق في زيارة أوروبا؟ والحقيقة هي أن الشابة أعربت لي، عندما التقيتها، عن الاهتمام الحقيقي بالسفر، وهو أمر لم تقم به من قبل».

ثم سألتُ كريماً: «كيف اكتشفت تفاصيل هذه الرحلة؟».

«أماني اتصلت بي».

«أماني؟»، أصابني ما هو أكثر من الدهشة. فلم يُعرف عن مها أنها تكشف أسرارها لشقيقتها الصغرى.

«قالت أماني إنها وقعت مصادفة على بطاقتي سفر باسم مها ومصففة شعرها».

وتذكّرت أن أماني زارت منزلنا قبل أيام، وسألت إن كانت مها في جناحها. ولم تكن مها حاضرة في ذلك الوقت، ولم أولِ فضول أماني في شأن شقيقتها اهتماماً، إلى أن دخلتُ لاحقاً إلى غرفة مها، ووجدت أماني تفتّش في أحد صناديق أوراق شقيقتها الخاصة. وقالت إنها تفتّش عن بعض الصور لتريها لزوجها، لكنني عرفت الآن أن أماني كانت تتجسّس على شقيقتها.

«أنا متأكدة من وجود تفسير جيّد، يا كريم. وأنا، كما سبق أن أشرتُ، التقيتُ مصففة الشعر ليلى، وهي امرأة رائعة، تعمل جاهدة في حرفتها، وتحظى بكثير من الاحترام. وقد أصبحت هي ومها صديقتين لا أكثر. وأنت تعرف، يا زوجي، طريقة تفكير أماني. تجد الذنب حيث لا يوجد أي ذنب. أرجوك، دعنا ننتظر، ونتكلّم مع مها».

وفي تلك اللحظة، عبرتْ أماني الباب مسرعة، وعباءتها وحجابها يرفرفان من ورائها؛ وتحرّكت بسرعة كبيرة، حيث أخذ لباسها الإسلامي بالتساقط عن جسمها.

«أمي»، صاحت أماني، «هل عرفتِ أن مها اتخذت عشيقة لها؟».

ومن دواعي يأسي أن مها قد وصلت في تلك اللحظة بالذات، وتناهى إلى سمعها ما أطلقته شقيقتها من اتهام. فأمسكت مها بشعر شقيقتها وجذبتها بعنف إلى الغرفة. صرخت أماني بقوّة، وأسرعت أنا وكريم للفصل بينهما.

صببت غضبي على أماني، فيما انفعل كريم على مها.

«اعتذري من شقيقتك،» قلتُ لأماني بلهجة الأمر. «لا يمكنك توجيه مثل هذه الاتهامات المتهوّرة!».

وقال كريم بصوت بارد لمها: «يا ابنتي، ستجلبين العار علينا جميعاً».

ويشهد عليّ الله، فقد نادانا في تلك اللحظة عبد الله وزين وسلطانة الصغيرة من الرواق. كانوا قد سمعوا الجلبة وخافوا.

«لا تدخل إلى هذه الغرفة»، صحت بابني، وأنا أشد أماني من أذنها، ما دفعها إلى الصراخ. وتسبّب صراخنا، بالطبع، في حالة من القلق، فلم يطعني عبد الله، بل هرع نحو غرفتي وهو يعتقد أن هناك دخلاء في منزلنا، وأنني أحاول تحذيره ليهرب مع عائلته. وكنا قد اتفقنا أن يطلق أحد الإنذار في حال تعرّضنا لخطر الخطف.

ذُهل ابني لمشهد والده ووالدته وشقيقتيه مشتبكين، وكل واحد يمسك بالآخر.

«ماذا يحدث، يا أمي؟».

وقع قلبي عندما رأيت زين وسلطانة الصغيرة تتمسك واحدتهما بالأخرى في حالة من الخوف. وعندما لاحظ كريم ومها وأماني هم أيضاً أن سلطانة الصغيرة تشاهد خلافنا العائلي، ابتعد للتو كلّ منّا عن الآخر. وشعرنا بالخزي لحالتنا هذه، ونظر الجميع إليّ لأبرّر. وعجزت، لأول مرة في حياتي، عن التفكير في ما من شأنه تبرير تلك اللحظة الحرجة.

عابت سلطانة الصغيرة علينا جميعاً عندما نطقت بصوتها الناعم بالحقيقة عن الحادثة: «كنتم تتقاتلون. لقد رأيتكم». نقلت سلطانة الصغيرة عينيها من والدها إلى أمها فإلى كريم، وأخيراً إليّ. «كنتم تتقاتلون».

سقطنا على ركبنا، ونحن نريد يائسين استعادة ثقة أغلى طفلة في عالمنا. وحتى أماني أخذت تبكي إدراكاً منها أنها هي التي تسبّبت في هذه الواقعة المعيبة.

انفطرت قلوبنا عندما نظرت إلينا الطفلة العزيزة بخيبة أمل؛ وتمسّكت بأصابع والدتها وسحبتها من الغرفة، وهي تهزّ برأسها الصغير وتتمتم لنفسها، «كانوا يتقاتلون».

***

ما إن عادت زوجة عبد الله وابنته إلى جناحهما، حتى شرحنا له كل شيء. وتملّك ابني شعور قوي حيال الحادثة، حيث عاد في غضون ساعات إلى قصرنا للقاء مها. واجتمع الاثنان في جناحها الخاص، وتحدّثا لساعات عدّة، ولم نعرف شيئاً عما دار بينهما.

وجاء عبد الله بعد زيارته إلى والديه المضطربين للتعبير عن مشاعره. غضب ولدي عن حق، لأن زوجته وابنته شهدتا على شجارنا العائلي. وعلت وجهه مسحةٌ من الغضب، وهو يتحدّث بعبارات قاسية عن الحادثة.

«هذا كلّه خطأ أماني. تعتقد شقيقتي أن من حقها أن تفرض على الجميع طريقة حياتهم. عيل صبري حيال شقيقتي الصغرى. عليها أن تهتم بشؤونها الخاصة إلا إذا ألحق بها أحد أو بأولادها أو بأي فرد من عائلتها ضرراً مادياً. أرجوكما أن تبلغا أماني نيابة عنّي أنني لا أريد رؤيتها قريباً، وأعلماها أنها في المرة المقبلة التي تحتاج فيها إلى نشر شائعة ما سيكون عليها أن تواجه شقيقها الأكبر سنّاً».

علت وجه عبد الله نظرة قاسية وهو يحدّق إلى والده، نظرة لم يسبق لي أن رأيتها من قبل. فقد عرف أن أحداث تلك الأمسية

نتجت، بشكل ما، عن تقبّل كريم السهل لنميمة أماني التي لا أساس لها من الصحة عن شقيقتها.

تحرّك كريم نحو ابنه الذي رفع يده لمنع والده من إظهار العاطفة التي عرفتُ أن كريماً أراد التعبير عنها. لم يكن عبد الله فظّاً، بل صارماً.

«أبي، أحترمك وأحبك، لكن عليّ أن أقول الآتي: أنت مدين لابنتك مها باعتذار. فحين تنظر في المسألة تكتشف أن مها ليست على علاقة مع مصففة الشعر. فما هما سوى صديقتين، لا غير. وعليك أن تتذكّر، في حال وجود علاقة، أن ابنتك امرأة صادقة لم تخفِ مشاعرها قط. وهي لا تكذب بخصوص أي شيء. لم تؤذِ أحداً، ولا ينبغي لأحد في العائلة أن يؤذيها. فمها لا تفعل سوى مساعدة الأخريات على عيش حياة الحرّية. وهذا أمر تحبُّه أنت في والدتي. وأرجوك أن تجد بعض المحبة لما تفعله مها».

سار ابني نحوي فارتعشتُ ظنّاً مني بأنه سيتوجه إليّ أنا الأخرى بعبارات النقد. لكنه، بدلاً من ذلك، حدّق إلي بابتسامة رائعة وانحنى ليضمني بحنان. عرف ابني أنني أمّ لا تدير ظهرها لأي من أولادها بغض النظر عن خيارهم الشخصي في الحياة. وفهم كذلك أن هناك أسباباً وجيهة لعدم تحدّثي بصراحة مع مها، أو مع أي من أفراد العائلة. فثقافتنا تعتبر الأنثى التي تفضّل النساء على الرجال خاطئة كبيرة يجب أن تُعاقب بقسوة. ولو تسرّب مثل هذا الأمر من منزلنا إلى الشخص الخطأ الذي قد يُدخل رجال الدين في الأمر، فسيصبح من الخطر على مها العودة.

غادر ابننا خائباً، تاركاً والديه في حالة قصوى من الجزع، حيث لم يسهل على أي منا التكلّم بترابط.

بعد يوم، نحيّنا انفعالاتنا جانباً، وجلسنا وتحادثنا بشأن أولادنا، ووصلنا إلى بعض القرارات المهمة. واتفقنا على الحاجة إلى عقد اجتماعين جدّيين مع ابنتينا. تحدّثنا بداية مع مها التي اعترفت بسهولة أنها انجذبت إلى ليلى، لكن ليلى لم تبادلها الشعور نفسه. صحيح أن ليلى اختارت إرجاء زواجها، لكن ليس لذلك أي علاقة بأي انجذاب جسدي إلى امرأة أخرى، لأنها لا تمتلك هذا النوع من المشاعر. وهي لم تبغِ أكثر من الصداقة مع مها.

ومها شابة تحترم الصادقين والطيبين، وهي سعيدة بالصداقة البريئة مع ليلى. وفكرت أن تحقيق حلم ليلى برؤية شيء من العالم يشكّل مبادرة لطيفة، ودعت بالتالي صديقتها الجديدة إلى زيارتها في أوروبا. ووقّع شقيق ليلى، الوصي عليها، وثائق السفر، لتتمكن من زيارة أوروبا لفترة شهر. وستتولى مساعِدتُها، وهي امرأة

مصرية تكدّ في العمل، مسؤولية المحل أثناء ذهاب ليلى في عطلة نادرة.

اعتذر زوجي من مها، وبات الاثنان أكثر تقارباً من ذي قبل، لانتفاء وجود أية افكار أو آراء خفية. ولم يفرح كريم بمعرفة حقيقة مشاعر مها في شأن الرجال، لكنه قال إنه لن يقلّل أبداً بعد الآن من احترام ابنته.

أما في ما يتعلّق بأماني، فقد أبلغتُ كريماً أن عليه أن يناقش هذه المسألة مع ابنتنا الصغرى، لأنها كانت تستمع دوماً إلى والدها وتتجاهل أمها. وبحسب كريم، لم يسر ذلك الاجتماع على ما يرام، لأن أماني تميّزت بالمشاكسة زاعمة أن شؤون مها هي شؤونها، ثم إنها لم تصدق كلام شقيقتها عن أن العلاقة ليست أكثر من صداقة. واستاء كريم من أماني، وقال إنه تركها من دون أن يودعها بحنانه المعهود.

واجهْنا معضلة أخرى، تتمثّل في كيفية التخفيف من حزن سلطانة الصغيرة التي أصيبت بصدمة كبيرة لدى مشاهدتها العراك بين أفراد العائلة.

مهّد عبد الله طريقنا، وأخبرنا أنه جلس مع ابنته الحزينة، وحدّثها عن العيوب الإنسانية، وكيف أن الناس يفرطون في الحماسة، ويتصرفون بطرائق غير لائقة.

وعلى مدى أسبوع أو نحوه، لم تتلهّف سلطانة الصغيرة إلى رؤيتنا، لكن ذهنها توصّل إلى تسوية مفادها أن الذين تكنّ لهم أكثر الحب هم أقلّ مما يتوجّب عليهم أن يكونوا عليه، لكنها ستستمر في حبّهم. وانتظرنا زيارتها بشوق، وقد ارتدينا ملابسنا، وكأننا ذاهبون إلى حفلة رفيعة المستوى؛ فدخلتْ حبيبتنا الصغيرة إلى الغرفة، ومعها باقة من الورد. توقّفت، وهي تنظر إلى كل منّا، كما لو أنها لم تصادفنا من قبل، ثم هرعت في النهاية إلى مها؛ وقدمت إليها الورد وتحدّثت بكلام نابع من قلبها: «عمّتي مها، يقول لي أبي إنك تفكرين بالأمور في شكل مغاير للآخرين. أرجوك لا تتغيّري لأنني أحبّك كما أنت».

توسّعت حدقتا كريم تأثّراً، واحتضن سلطانة الصغيرة ومها بين يديه القويتين. نادراً ما شاهدت زوجي يبكي، لكن دموعاً كثيرة انهمرت في هذه المناسبة على وجنتيه.

جلستُ أنا وكريم مندهشين عندما رأينا أماني تقترب من شقيقتها. وشرعتْ هي الأخرى في النشيج، وتمسّكت بشقيقتها ترجو المغفرة. فأماني في مزاج يختلف عن ذلك الذي كانت عليه عندما غادرها

والدها قبل أيام. ربما أخذت تفكّر في أفعالها الهدامة التي جلبت على رأسها غضب جميع من تحبّهم.

بقيتْ مها متباعدة لكنها لم تقل شيئاً قاسياً؛ بل إنها ربّتت كذلك كتف شقيقتها. ودارت أماني المنتحبة على جميع أفراد العائلة وعيناها تفيضان بالدموع، وهي تطلب من كل منّا الصفح قائلة: «امنحوني، رجاء، فرصة أخرى. سأكون أقل انتقاداً. سأفعل. أرجوكم سامحوني».

سامحنا، أنا وكريم، بالطبع ابنتنا الصغرى، وأكّدنا لها أننا سننسى كل شيء، بالرغم من أنني فكّرت في قرارة نفسي أن الوقت وحده هو الذي سيخبرنا عن أماني، الولد الأصعب بين أولادنا الثلاثة. ولاحظتُ أن مها وعبد اللّه قد تبادلا نظرة شكّ، وهما يتساءلان إلى متى قد يستمر ندم أماني.

وكشفت مها لاحقاً عن أنها، على الرغم من عدم السماح لأي من آرائنا بتغيير مشاعرها أو سلوكها، قد ارتاحت كثيراً لأن كل شيء خرج إلى العلن، ولأن الجميع، على ما بدا، قد باتوا في حال أفضل من السلام حيال فرادتها.

وأسفنا كلّنا، بالتأكيد، لأن أياً منّا لا يتمنّى أن تكون مها شخصاً مختلفاً. فنحن نحبها على ما هي عليه فحسب، شابة يملؤها شغف تصحيح أخطاء عالمنا. وتطلّب الأمر حكمة من نحبّهم، عبد اللّه ومها وسلطانة الصغيرة، للوصول إلى هذا الوضع من التقبّل والحب.

اللّه كريم.

الفصل الثامن

الاسترشاد بمن نساعد

راودني حلمٌ دائم في أن يشبك أولادي أيديهم بيد أمهم في الكفاح نيابة عن الفتيات والنساء، في سبيل توفير التعليم والحرّية لهن. لكنني لم أستطع تخيُّل انخراط أماني في مثل هذا الكفاح. وحدث أمر مهمّ مع ابنتي، صغرى أولادي، التي سرعان ما ستُثبت أن الأحداث الأخيرة غيّرت نظرتها تجاه الآخرين.

يتمحور اهتمامي الفائق حول أهمية التعليم. لكن ابنتي لم تُظهر قط أي اهتمام بقضايا خارج حقوق الحيوان والفلسفات الدينية. بل إن أكثر ما أحبطني أنها تحدّثت بالفعل ضد بلوغ النساء المستويات العليا من التعليم؛ وهي تتبع في ذلك تعاليم رجال دين يُسقطون في الغالب من حسابهم أهمية تلقّي الفتيات والنساء العلم في بلادي.

لكنني اكتشفت أن بعض الأحلام تتحقّق أحياناً، وستُدخِل أماني في وقت قريب الفرح الكبير إلى قلب أمها.

بعد الاجتماع الذي عُقد في قصري مع الدكتورة مينا، التي أثارت إعجابي الكبير يوم التقيتها للمرة الأولى في مؤتمر بأحد مستشفيات الرياض، هي والمساعدة الاجتماعية الشابة ناديا، انتظرت بصبر أن تتصل بي إحداهما أو كلتاهما بالهاتف أو بحضورهما الشخصي، لأنني وجّهت إليهما دعوة مفتوحة لزيارتي في منزلي. الآن وقد بات في متناول الدكتورة مينا سيارة وسائق خاص، لم تعد لديها عقبات في التنقّل؛ وكذلك ناديا التي توفّرت لها الآن وسيلة النقل من عملها وإليه، حيث باتت أفعال شقيقها الانتقامية التي يتقصّد فيها تأخير وصولها إلى عملها أمراً غير ذي قيمة.

اتفقنا، نحن الثلاث، أن تواصل ناديا عملها الاجتماعي في المستشفى وتبقى متيقظة من تعرض سعوديات لسوء المعاملة، على أن تبلغني أنا والدكتورة مينا بهذه الحالات، لنتمكن من اتخاذ الإجراءات المناسبة وإنقاذ الفتيات من أوضاع قد تؤدي إلى الإصابة أو الموت. مرّت أسابيع عدّة على لقائنا ذاك، وقرّرت أنني، إذا لم أسمع شيئاً من الدكتورة مينا قريباً، سأتصل بها لسؤالها عن وجود أي معطيات من ناديا. وأنا أعلم بوجود إناث في حالة من الضيق الشديد، وأتشوّق إلى الشروع في مساعدتهن.

حدثت أمور كثيرة في عائلتي أدّت إلى تأخير في جدول أعمالي، إذ يشغل عدد من البرامج التربوية للفتيات معظم وقتي. وهكذا، عندما تلقّيت خبراً من إحدى موظفاتي في فلسطين يتعلّق بأحد

المشروعات التربوية المتواصلة، قررت أن أكرّس ما تبقى من الأسبوع لهذا العمل. وفيما انكببت على درس التقرير الذي تلقّيته، عرّجت أماني على بيتنا في الرياض، في ما بدا أنها ليست زيارة عابرة.

سارت ابنتي الهوينا إلى مكتبي، من دون أن تقرع الباب. وهي عادة حملتها معها منذ طفولتها، لكنها عادة لم تزعجني قط. يعرف أولادي أنهم الجزء الأهم من حياتي، وأتوقّف في العادة عن أي عمل عندما يعربون عن رغبتهم في الحديث معي.

«صباح الخير، أمّي»، قالتها أماني بابتسامة عذبة.

وأجبتها: «صباح النور، يا ابنتي». ووقفتُ للترحيب بأماني وقبّلتها على خدّها الأيمن أولاً، ثم على الأيسر، لأعود مرّة أخرى وأقبّل الأيمن كما هي العادة في السعودية.

نظرتُ، بعد الترحيب بها، لأتأكد من وجود ابنها. وسألتها: «أين خالد؟»، فمن النادر رؤية أماني من دون ابنها الصغير وهي تحتضنه بين ذراعيها، أو وهو يقتفي خطاها. فابنتي أم متفانية، ويحبها ابنها حبّاً جمّاً.

«آه، أمي، تشتكي حماتي من أنها لا تشاهد حفيدها كفاية، فأرسلتُ خالداً مع جو- آن لزيارتها. واليوم مناسب لأن لدي عملاً أنجزه».

«ذلك جيّد، يا ابنتي. لأن خالداً الصغير يجلب السعادة إلى جميع أجداده». سُررت كذلك لوجود مربية خالد الإنكليزية برفقته لقلقي حيال والدة صهري. فهي لم تُظهر أي مهارة في تربية أولادها. وهي الزوجة الثالثة لزوجها، وقد أنجبت، وهي في عمر أكبر من عمر النساء اللواتي أصبحن أمهات للمرة الأولى. وتوقّفتْ عن الإنجاب بعد ولادة ابنها الوحيد، وهو قريب من العائلة المالكة شديد اللطافة تزوّج لاحقاً من أماني. وعرفنا أنها نادراً ما اعتنت بابنها. وقد استغلت ثراءها لاستخدام أربع مربّيات أو خمس حتى لا تُزعج نفسها مع طفلها. بل إنها استخدمت مرضعة لدى ولادة ابنها لتفادي إرضاعه. وجفلنا منها عندما زعمت، لدى سؤالنا عن الأمر، أن من المعروف أن إرضاع الطفل يتسبب في سرطان الثدي بفعل الشد على حلمة المرأة.

تولع معظم النساء العربيات بالأولاد، ويحببن أن يحيط بهن أولئك الأبرياء الصغار. لكن حماة أماني تحاشت الأولاد في كل مناسبة. وشكّلت رغبتها في رؤية خالد الصغير في زيارة طويلة لغزاً، إذ تناهى إليّ من مصادر حسنة الاطلاع، أن الأولاد الصغار يؤثّرون سلباً في أعصابها. وأبلغتني سارة أنها كانت حاضرة عندما تملّكت

الهستيريا حماة أماني من بعض أولاد العائلة المالكة لأنهم كانوا فوضويين وكثيري الجلبة أثناء اللعب. ويزداد توترها إذا ما أوقع الصغير خالد عصيره أو شد حلقتَيْ أذنيها، أو لعب بشعرها، وحفيدي خالد تسحره الجواهر والشعر الطويل. ومن حسن الحظ أن مربية خالد، جو-آن، بارعة في مهنتها وقديرة للغاية. وهي تعرف تماماً متى تأخذ خالداً من ذراعي جدته، ليأخذ قيلولة، ولتحظى جدته بفرصة للاسترخاء.

لم أستفسر عن العمل الذي أشارت إليه أماني، لأن عملها يتعلّق عموماً بلقاء بعض صديقاتها المتدينات اللواتي يضعن لوائح مفصّلة بالسلوك الاجتماعي الذي يعتبرنه محرّماً. وستصل هذه اللوائح إلى أيدي جميع قريباتهن، ليعرفن كيف يتصرفن كمسلمات جيدات.

ألقت أماني نظرة على الكدسة الكبيرة من الأوراق على مكتبي، وقالت: «ماذا تفعلين، يا ماما؟».

فاجأتني في هذا اليوم. لم يسبق لها أن استفسرت عن مشروعاتي. وأسرعتُ في الردّ: «أعمل على مشروع خاص، يا عزيزتي».

«وما هو ذلك المشروع؟».

انتقيتُ ورقة من الأوراق الكثيرة المكدّسة على مكتبي، وقلت: «أترين هذه اللائحة؟ إنها أسماء فتيات فلسطينيات سيجري إخراجهن من المدرسة، ما لم يتمكن أهاليهن من إكمال تعليمهن. وأنا أراجع المعلومات قبل أن أعطي موافقتي على إرسال المال إلى تلك العائلات».

سحبتْ أماني كرسيّاً، وجلست على مقربة مني، وقالت مستغربة: «فتيات فلسطينيات؟».

«نعم يا عزيزتي. هذا مشروع محبَّب إلى قلبي، أمر أقوم به منذ سنوات. أدعم مئات من العائلات الفلسطينية المحتاجة، لتتمكن بناتها من البقاء في المدرسة».

«أحقّاً؟»

حدّقتُ إلى ابنتي بذهول. سبق في مرات كثيرة أن ناقشت مع كريم تفاصيل تحويل الأموال إلى فلسطين من أجل العائلات الفلسطينية والفتيات اللواتي أدعمهن. وتناهت هذه المحادثات إلى آذان أولادي الحاضرين. وأظهرت مها وعبد الله فضولاً، بل إنهما انخرطا شخصياً في الأمر. وفيما أسهمت مها في جمع المعلومات عن الفتيات وعائلاتهن، كان عبد الله يسافر من وقت إلى آخر إلى لبنان أو إلى باريس، ليسلّم الأموال إلى من يوصلها إلى فلسطين

لتوزيعها على العائلات المعوزة. واعتمدنا أقصى درجات الحذر في شأن تسليم الأموال، لأن الأمن الإسرائيلي يتشدّد جدّاً عندما يتعلّق الأمر بالعملة الأجنبية المرسلة إلى البلاد لمساعدة الفلسطينيين، حتى ولو لقضية غير عنفية، مثل التعليم.

«نعم يا أماني، مضت سنوات كثيرة وأنا ووالدك نقدّم العون إلى عائلات كثيرة لديها بنات في فلسطين. كما نساعد عائلات في مصر وفي اليمن. وهذا واجب المسلمين الذين يمتلكون وفرة من المال. علينا تقاسم ثروتنا ومساعدة الآخرين».

رأيتُ أن أماني تصغي بانتباه، فواصلتُ الكلام:

«قد لا تعرفين أن خالتك سارة ترسل الكتب الفنية واللوازم إلى المدارس في شتى أنحاء العالم الإسلامي. وتقدّم منحاً دراسية كاملة لفتيات وصبية أظهروا اهتماماً بالفن والهندسة. ويتابع بعض هؤلاء الآن دراستهم في أوروبا.

«ويهتم والدك بتوفير العناية الصحية المناسبة للجميع، وقد تبرّع بمبالغ طائلة من المال للمساعدة في بناء مستشفيات صغيرة في بلدات لا تتوافر فيها المنشآت الصحية. فنحن عائلة تريد أن تشارك الآخرين في الثروة الضخمة التي أُعطيت لنا. لدينا أكثر مما نحتاج إليه، ونعمد بالتالي إلى المشاركة».

«ولماذا لم أعرف بهذا، يا ماما؟».

وددتُ لو أعود بابنتي بالزمن لتذكيرها بالأحاديث الكثيرة التي لا بدّ من أنها سمعتها. لكنني أمسكت لساني، لأن ابنتي الصغرى كانت دوماً سريعة التأثر لدى تنبيهها لذاكرتها الانتقائية. وفي حال معالجتي المسألة بروّية، قد تنضم إليّ أماني في القضية الجوهرية المتعلقة بتوفير التعليم للجميع. ولا يوجد بالتأكيد من هو أكثر حماسة من أماني في أي قضية عندما تقتنع بها اقتناعاً تاماً.

«آسفة، يا أماني. اعتقدتُ، لسبب من الأسباب، أنك تعرفين اهتمامي بهذا الشأن، وما أشعر به من قلق حيال كل الأولاد الذين يقاسون بغض النظر عن جنسيتهم. وبالرغم من أن الفقر منتشر في الكثير من البلدان المجاورة، فإن العائلات الفلسطينية قاست أكثر من معظم العائلات الأخرى، في ما يتعلّق بالحياة الطبيعية. وتعيش عائلات كثيرة في عوز، لصعوبة العثور على الوظائف؛ وغالباً ما تؤدّي حالة الاضطراب التي تؤثر بجميع من يعيشون في تلك المنطقة إلى عجز أي من أفراد العائلة عن العثور على عمل. وتكافح عائلات كثيرة لتحصيل مصاريف الطعام والمأوى. وغالباً ما يشغل التعليم المرتبة الثانية بعد الضرورات الأساسية».

«أرجوكِ أن تخبريني بالمزيد».

«بالتأكيد. أشعرُ أنني أساعد أولئك الذين يحسنون الاستفادة من المساعدة، وهو ما يمدّني بشعور إيجابي جدّاً. وللتعليم تاريخ طويل في فلسطين حيث يوليه الأهل الكثير من الاهتمام؛ وهو أمر يحظى بالتقدير الحقيقي. ولا تزال نسبة الالتحاق بالمدارس في فلسطين مرتفعة بكل المقاييس، بالرغم من الانتفاضات السياسية والفوضى القائمة في المجتمعات الفلسطينية. وقد تُفاجئين لمعرفة أن استطلاعاً بيّن أن الفتيات الفلسطينيات يُصرّحن، وعلى عكس الكثيرات من الشابات في مختلف أنحاء العالم، أن أولويتهن الأساسية هي تحصيل العلم. وأنا أهدف إلى توفير العلم لمثل هؤلاء الفتيات. والأمر الوحيد الذي أطلبه من كل مستفيدة هو أن تعمد، بعد تخرُّجها وحصولها على وظيفة في موقع جيّد، إلى المساعدة في تعليم فتاة أخرى.

«والأمر، مع ذلك، صعب جدّاً يا أماني. وقد تواجهين مشقّة في تخيّل ذلك، لأن حياتك تميّزت بالسهولة مقارنة بالآخرين. فأنت، منذ لحظة ولادتك، لم تحتاجي إلى شيء. وأحبّكِ والداك محبّة كبرى. وحصلتِ على أكثر مما تحتاجين إليه من المأكل والملبس. وحصلت على غرفك الخاصة. وسُمح لك بتربية كل الحيوانات الأليفة التي أردتها في بلاد لا تستسيغ هذه المحبة للحيوانات. وشُجعتِ على طلب العلم.

«لكنك، يا عزيزتي، لو وُلدتِ فتاة فلسطينية لواجهتِ حياة أكثر صعوبة كثيراً. وأنا واثقة أن معظم الفتيات في فلسطين يحظين بحب أهاليهن، لكنهن قد يأوين إلى أسرّتهن ليلاً وهن جائعات. ويشهدن على ما يظهر على أهاليهن من توتّر ناجم عن القلق في شأن توفير المال الضروري لشراء الطعام. وقد يُقِمن في منازل صغيرة مع عدد كبير من الأشخاص الآخرين، ويرقدن في غرفة واحدة مع أربعة أو خمسة من الأشقاء والشقيقات. يُردن الذهاب إلى المدرسة، لكن لا تتوفّر لهن وسيلة نقل توصلهن إليها. ربما افتقرن إلى المال لشراء الزيّ المدرسي أو الكتب. وربما لم يعد في وسع آبائهن التنقل سيراً أو بالسيارة إلى أعمالهم بسبب الحواجز الأمنية التي تفصل بين المنزل والعمل. فهناك الكثير جدّاً من المشكلات الفريدة من نوعها التي تواجه أولاد تلك المنطقة.

«كان الفلسطينيون مكبّين دوماً على العلم. لكن الفقر بات يشكّل عائقاً أساسيّاً يحول دون أن يواصل معظمهم تعليمه. والعائلات كبيرة في حين أن التوظيف غير مضمون. ولا يتمكن معظمهم من تحمّل دفع الرسوم لإبقاء أولادهم في المدرسة. وقد يكون للفتاة أشقاء عدّة. وفي هذه الحال، وإذا اضطرت العائلة إلى الاختيار بين تعليم ابنها أو ابنتها، فسوف يجري اختيار الابن، كما تبيّن لي دوماً

في ثقافتنا الإسلامية».

لمعتْ عينا أماني السوداوان بشعور حاد؛ وهي النظرة نفسها التي تظهرها عندما تنفعل حيال حيوان في محنة. وقفز قلبي أملاً. فلطالما أردت لجميع أولادي أن يتبنّوا قناعتي بأن توفير التعليم للجميع يشكّل الخطوة الأولى على طريق حلّ الكثير من مشكلات «الجندر» في عالمنا. ووجدتُ، بالرغم من أن الكثير من المتعلمين مغفّلون، فإن الرجال المتعلّمين يميلون إلى دعم توفير التعليم للإناث إدراكاً منهم أن المرأة المتعلمة هي ذخر لأي مجتمع. وستتمكن النساء، إذا حصلن على التعليم، من إعالة أنفسهن إذا تبيّن أن أزواجهن غير قادرين تماماً على إعالتهن وإعالة الأسرة. كما أن النساء المتعلمات يحاربن من أجل توفير التعليم لبناتهن.

«وهكذا، يا أماني، تبذل والدتك كل ما في وسعها لمساعدة الفتيات على البقاء في المدرسة، ليكتسبن بذلك وسيلة لإعالة أنفسهن وأسرِهنّ. ومع التعليم يأتي التمكين، يا أماني. وطريق التعليم هي الطريق التي تؤدي إلى إخراج الجميع من الفقر. وهو ما أعتقد أنه صحيح».

هزّت أماني برأسها، ولم تقل شيئاً.

«في أي حال، يا ابنتي، عمدتُ سرّاً، من أجل اكتشاف الفتيات الأكثر حاجة ماسة إلى المساعدة، إلى توظيف عشرين مربّياً فلسطينياً ليراقبوا عن كثب تلميذات المدارس، ويتابعوا المجتهدات اللواتي يتعبن أو ينخفض معدّل حضورهن. وعند ظهور هذه الإشارات يتحدث هؤلاء المربون مع الفتيات ويزورون عائلاتهن لاكتشاف المشكلة. وتكون العائلات في أوقات كثيرة فقيرة جدّاً إلى حد أنها تُضطر إلى تشجيع بناتها على الزواج المُبكر ليتراجع مصروف إعالة الأسرة مع تراجع عدد الأفواه التي يتوجّب إطعامها.

«وإليك بالتالي كيف تجري الأمور: أتلقّى كل سنة وثائق تتضمن لوائح بأسماء الفتيات وشروحات عن أوضاعهن. وأقرأ عن الحالات الفردية. وأعمد، في العادة، إلى تمويل عائلات تلك الفتيات حتى لا يشكّل المال سبباً وجيهاً لإخراج البنات من المدرسة. ولم أرفض طلباً إلا في ما ندر. ويتعلّق الأمر في كل مرّة اضطررت فيها إلى الرفض بحالة من الاحتيال. لم يغشّني إلا اثنان من الأشخاص الذين وظّفتهم للمساعدة في إرشادي إلى الفتيات اللواتي يحتجن إلى المساعدة. فقد وضع هذان الاثنان في اللائحة السنوية أسماء وتواريخ حالات وهمية ليضعا في جيوبهما المال المخصص لتلميذات وهميات».

اقتربت مني أماني، واحتضنتني احتضاناً نابعاً من القلب، «عناق أم».

«كنتُ مخطئة، يا أمّي. وأدرك الآن أن العلم مهم».

حدّقت أماني إلي بصمت. وأنا أعرف ابنتي حق المعرفة، وبإمكاني أن أشعر متى تعمل على مشاورة عقلها. فهي التي تقرّر متى تكشف عن المزيد من المعلومات. أردتُ أن أطلب منها الكلام، وأن تنقل همومها من ذهنها إلى ذهن والدتها، لكنني لم أفعل. توصّلتُ، بعد سنوات من التعامل مع ابنتين شديدتي الاستقلالية، إلى أن أعرف بالخبرة متى ألحّ ومتى أصبر.

وعرفت أن عليّ، في هذه الحال، اعتماد الصبر.

ابتسمتْ أماني في نهاية الأمر، وكشفت عن أفكارها: «أمي، شرعت بعد ما جرى مع مها في التفكير كثيراً بخصوص تصرّفي. لا أريد أن أصبح الشخص الذي يتوجّس منه الجميع. وأنا لذلك أدعو اللّه لمساعدتي في كبح أفعالي، أو على الأقلّ تقليص عدوانيتي عندما أعبّر عن أفكاري. وحزنتُ كثيراً لمّا بدا أنك وعبد اللّه ووالدي ومها تتفادونني. أرجوك أن تعلمي أنني سأصبح أكثر لطفاً».

قاومتُ الحافز إلى الكلام للتواصل مع ابنتي؛ وصمتُّ اعتقاداً منّي بأنها تحتاج إلى أن تبوح لي بكل شيء.

«كذلك، بدّلتُ رأيي، يا أمي، في شأن أهمية العلم. أعرف أنكِ بقيتِ تتحدّثين إليّ لسنين، لكنني شعرت بقوة، بعد اللقاء مع ناديا والدكتورة مينا، أن في وسعهما توجيهي نحو أمور أفضل.

«التقيتُ ناديا مرتين في مكتبها في المستشفى. أتذكرين الملاحظة التي قالتها لي؟ قرأتُها، في الواقع، غير مرّة، وأشعرني صدقها في كل مرّة بالتأثر. شعرتُ بدافع قويّ للذهاب إليها، لأتمكّن من فهم متطلّبات عملها، ولأرى بنفسي بعضاً من الفتيات اللواتي تلتقيهن بصفتها مساعدة اجتماعية».

تطلّعتْ أماني إليّ بترقب، فاستجبتُ في النهاية، وقلتُ: «هذا رائع، يا أماني. أنت، يا عزيزتي، عندما تقومين بهذه الأمور تسعدين والدتك كثيراً».

«إنني أسعِد نفسي، يا أمي»، أجابت أماني. «فبالرغم من إيماني بأن معتقدنا يُعلّمنا أن على الرجل أن يكون رأس البيت، فليس هناك ضير في حصول المرأة على التعليم». وتوقّفتْ موحية بأمر ما ثم تابعت: «وأعترفُ أن العلم، في حالات كثيرة، يستطيع إنقاذ المرأة من سوء المعاملة حياة كاملة».

أخذتْ ابنتي تتحرّك عاطفياً في الاتجاه الصحيح. لكنها تتنقّل

بحذر على الصعيدين الروحي والفكري. وشعرتُ بسرور كبير لأنّها أخذت، على الأقل، تتجاوز التعاليم الخاطئة لبعض رجال الدين الذين يتلهّفون إلى تحوير بعض آيات كتابنا الحكيم لتستمر النسوة في معاناة العبودية للذكور. وعرفتُ أن أماني حين تصبح أكثر انخراطاً مع النسوة الأخريات ومساعدتهن، سوف تجد كم يخدع كثير من رجال الدين أولئك الذين يصدّقون كل كلمة من كلماتهم. وجلّ ما رغبتُه لابنتي هو أن تطوّر شخصية سليمة ومتوازنة، حتى تعرف بمن تثق، ولتصبح أيضاً أكثر قدرة عندما تواجه خير الحياة وشرّها.

وهكذا أكبّت أماني معي على الملفات الفلسطينية فيما تبقى من ذلك النهار، وفي قسم من اليوم التالي. وانخرطت ابنتي بحماسة في حياة الفتيات اللواتي نقرأ عنهن، واللواتي سيتحسن مستقبلهن بفضل المبالغ التي توفّرها عائلتنا لتعليمهن.

تُيّمت أماني بنوع خاص بشابتين لم تعرفا سوى الفقر والحظ السيئ في معظم طفولتيهما. ورد اسم إحداهما في التقرير تالا. وهي في حاجة ماسة إلى المساعدة لإكمال تعليمها. ومن دون مساعدتنا سيصبح مستقبلها قاتماً كماضيها. خسرت الفتاة المسكينة والدتها بسبب المرض، وهي لا تزال بعدُ في السادسة. وكونها فتاة وحيدة، فقد أنيطت بها مسؤولية القيام بالأعمال المنزلية والطبخ لوالدها وأشقائها الثلاثة. وطُلب إلى تالا، على غرار جميع الفتيات اللواتي يسألن المساعدة، أن تكتب رسالة من صفحة واحدة تخبرنا فيها بعض الشيء عن حياتها. ووصفتْ ما تواجهه من صعوبات في تحضير وجبات الطعام، وهي تقف على مقعد صغير متداعٍ لأنها أقصر من أن تبلغ جهاز الطبخ ذا العين الواحدة الموضوع على طاولة المطبخ. تعيش تالا وعائلتها في الضفة الغربية. لذا يصرّ والدها على أطباق من تلك المنطقة، مثل الكفتة بالطحينة، وهي كرات لحم مطبوخة بالصلصة، تُقدّم مع الأرز. كما أنه يحب الكفتة المطبوخة بصلصة الطماطم التي تُقدّم مع البطاطس. وقد ترعرعت والدتها في غزّة؛ وبالتالي تعوّد أشقاؤها أطباقاً شائعة في تلك المنطقة من فلسطين، مثل حساء العدس، ومختلف أطباق الباذنجان.

احمرّت عينا أماني، وهي تقاوم دموعها، وتأسف لفكرة وجود فتاة في السادسة بلا أم، أنيطت بها مسؤولية الطبخ لخمسة أشخاص. بدتْ أكثر قليلاً من عبدة في بيتها، مُنهكة ومنكسرة أشبه بامرأة عجوز صغيرة. ولم تحظ تالا، منذ وفاة والدتها، بفستان أو حذاء جديدين، وهي ترتدي ثياباً مستعملة تقدّمها إليها قريبتها.

وتُدعى الفتاة الثانية التي استرعت انتباه أماني، هبة. وهي كبرى خمس بنات، وعائلتها أشد فقراً من معظم العائلات، إذ عانى والدها إصابات عدّة في جسمه، وهو يقود آليات ضخمة في عمله. ولم يتمكن من العمل مجدداً. وباتت العائلة بالتالي تحت رحمة المؤسسات

الإنسانية، أو الأقارب الذين لا يملكون الكثير ليتقاسموه معها. ولم يبقَ أي من البنات في المدرسة، بسبب الفقر المدقع. وتعاني الفتيات في معظم الوقت الجوع، لأنهن لا يتناولن إلا وجبتين صغيرتين في اليوم. بل إن الطعام يغيب كلّياً في بعض الأيام.

شعرتُ ابنتي بحرقة العذاب في قلبها. أرادت السفر إلى فلسطين لتسليم المال، والتأكد من حصول تالا وهبة على ما نرسله. لكنني أكّدتُ لها أننا سنتحدث مع الفتاتين في الوقت المناسب. فقد سبق أن قمت، في مناسبات عدة، بجهد خاص للتأكد من وصول الأموال إلى العائلات المناسبة. ولا أكشف، بالطبع، عن هويتي الحقيقية لدى حديثي مع المستفيدين، لأنني أريدهم أن يشعروا بالراحة للحديث بحرّية؛ وقد وجدتُ أن التعريف بنفسي كأميرة يتسبب إلى حد بعيد بتوتر بعض الناس فيمتنعون عن الكلام بصراحة.

شعرتْ أماني بقوة الفرح النابع من مساعدة تلك الفتيات اليائسات. وليس ثمة فرح أكبر من هذا. وعرفتُ في تلك اللحظة أن ابنتي اختبرت جوهر الفرح الحقيقي الناتج من العطاء المجاني لمساعدة الآخرين. وأدركتُ أنها لن تعود أبداً إلى ما كانت عليه.

شعرنا بأننا محظوظتان، كوننا في موقع يتيح لنا مساعدة الكثيرات من الفتيات والنساء.

وأصبحتْ أماني بين ما يكاد يكون ليلة وضحاها المؤتمنة الموثوقة على أسراري، لتحل محل الابنة المولعة بالجدال التي تسبّبت منذ مراهقتها بالكثير من الأسى والقلق في داخل عائلتها. ولم يسبق لي قط، وأنا أعمل على هذا النحو مع أماني، أن شعرت بهذا القدر من الثقة بأن أولادي الثلاثة سيتبعونني جميعهم في خدمة الآخرين. فالسعادة الحقيقية تنبع من استثمار طاقتك في قضية أكبر منك.

***

اجتمعت أنا وأماني والدكتورة مينا ونادبا في الأسبوع التالي في منزلي في الرياض. وسبق لمها أن عادت في الأسبوع السابق إلى أوروبا بصحبة صديقتها ليلى التي استبدّت بها السعادة لسفرها للمرة الأولى في حياتها إلى خارج السعودية.

تعانقت أماني ونادبا وشرعتا في التحادث كما لو أنهما تعرف إحداهما الأخرى منذ نعومة أظفارهما، وليس منذ بضعة أشهر فقط. وهزّت الدكتورة مينا برأسها موافقة، مع أنها لم تبدُ متفاجئة بصداقة نادبا وأماني. افترضتُ، لمعرفتي أن الطبيبة هي مرشدة نادبا، أن الأخيرة تبوح لها بكل أسرار حياتها، بما في ذلك صداقتها الحديثة مع ابنتي.

«أخبريني، ماذا حدث مع فاطمة؟» وأحنَت أماني ظهرها إلى الأمام باهتمام، وهي تستفسر من ناديا.

جلستُ صامتة وأنا مسرورة حقّاً، لأن أماني تتولّى الأمر بهذا القدر من السهولة والثقة. وبالرغم من أنني لست عجوزاً وأشعر بحمد اللّه أنني شابة وبصحة جيّدة وأتمتع بالكثير من الطاقة، أعرف أنه سيأتي زمن أعجز فيه عن العمل بهذا القدر من الجهد. وأردت دوماً لأولادي أن يتدرّبوا على ما أقوم به من عمل ليتمكنوا، على غراري الآن، من مواجهة تحدّي الكفاح من أجل حقوق المرأة. ويوماً ما سأصل إلى نهايتي على هذه الأرض، وعلى أحدهم أن يحل محلّي. وإذا كان من أمر تعلّمته في حقبة حياتي القصيرة، فهو أن الكثيرين من الرجال سيستمرّون في العمل على إبقاء النساء تحت سيطرتهم. وبالتالي علينا نحن النساء، ما دام ذلك مستمرًا، أن نحافظ على قوتنا، ونواصل المعركة من أجل العدالة.

أجابتْ ناديا: «تزداد قصتها مأساة يوماً بعد يوم».

وقلتُ: «أخبريني عن فاطمة هذه». وأنا لم أفقد قط الاهتمام بسماع أخبار امرأة تحتاج إلى المساعدة.

«نعم، شاهدتُ فاطمة، وأنا في مكتب ناديا»، قالتها أماني. «لم أتحدث معها». ونظرتْ أماني إليّ بعينين حزينتين وقالت: «إن الفتاة المسكينة في العشرين من العمر فقط، أي إنها أصغر مني، لكن حياتها اتصفت بالكثير من القسوة، حيث تبدو وكأنها عاشت أربعين سنة، أو خمسين».

«أخبريني»، كرّرتُ القول لناديا. عرفتُ أن هذه الشيخوخة المبكرة مؤشّر على مشكلات لا تُحصى.

«نعم، أيتها الأميرة»، قالت ناديا. «لقد عانت ما تعانيه الكثيرات من النساء السعوديات الأخريات، بل وأكثر من معظمهن. سأخبرك قصتها كاملة».

وقالت أماني بصوت ملؤه الشغف الشديد: «نعم، عليك ذلك، يا ناديا. أعرف أن في وسعنا أن نساعدها».

«استرعتْ فاطمة انتباهي بعد أن أُدخلت إلى المستشفى، وهي مصابة بالاكتئاب الشديد. وهذه مشكلة كبيرة، لأنها والدة لابنتين توأمين، وليس لديها مَن يساعدها في الاعتناء بهما. ولم تُدخل المستشفى، إلا لأن واحدة من السكرتيرات في العيادة الخارجية رأتها جالسة وقد بدت غير مرتّبة، ومع طفلتين باكيتين بدتا متسختين وجائعتين. واكتشفت السكرتيرة أن ليس للمرأة مكان تذهب إليه، وأن زوجها قد طلّقها، وتفتقر إلى أي وسيلة لإعالة نفسها أو

ابنتيها. وقد استدعى أحدهم لها سيارة تاكسي دفع أجرتها لإيصالها إلى المستشفى. ولم تمتلك أياً من المستندات الضرورية للدخول، إلا أن شخصاً ما في العيادة أشفق عليها وتوجّه بها إلى مركز الاستقبال.

«وبطلب من السكرتيرة المسؤولة، توجّهت إحداهن إلى كافتيريا المستشفى، وابتاعت ثلاث وجبات طعام التهمنها بنهم. وتولت السكرتيرة الأمر، وتحدّثت مع رئيستها الطبيبة الإنكليزية التي وافقت على استقبال فاطمة في المستشفى. وستحظى على الأقل، وهي موضوعة تحت المراقبة، بالراحة والطعام. ويمكنها إبقاء ابنتيها معها، وهما في الثالثة من العمر.

«رفضت الحديث، فجرى إبلاغ الخدمات الاجتماعية بحالتها، وتوجّهتُ إلى غرفتها لتقويم الوضع. تجمّدتْ خوفاً واستمرّتْ برفض الكلام، إلا أنها ارتاحت للقاء فتاة سعودية. فجميع اللواتي التقينها سابقاً هن من الأجانب، بمن فيهن السكرتيرة الفيليبينية، والطبيبة الإنكليزية، ومجموعة من العاملات الأخريات من مختلف أنحاء العالم».

وأوضحتِ الدكتورة مينا مسألة الأجانب العاملين في المؤسسات السعودية: «تعرفين، أيتها الأميرة، أن المستشفى يوظّف أشخاصاً من شتى أنحاء العالم، من بلدان كثيرة، من أميركا وكندا وأوروبا وآسيا وأفريقيا والشرق الأوسط. ولم يكن في الماضي إلا قلّة من الموظفين السعوديين، غير أن أعدادنا تتكاثر. لكن ليس هناك ممرضون سعوديون، ولا الكثير من الأطباء السعوديين، ولذا لا يشاهد المواطنون السعوديون أبداً أي سعودي آخر، لدى دخولهم المستشفى».

أومأتُ برأسي، وأنا أعرف أن هذا هو الوضع في معظم المستشفيات والعيادات الطبية في المملكة. بيد أن الإحصاءات تتحسّن بسبب ارتفاع عدد السعوديين الذين يخضعون، مع مرور السنين، للتدريب في الحقول المرتبطة بالصحة.

«هل في وسعي المتابعة، أيتها الأميرة؟».

أصبحتُ، مع كل دقيقة تمرّ، أشدّ شوقاً إلى سماع هذه القصة، وإلى العمل على إيجاد حلّ لها، إذ اتضح أن أماني تتلهف إلى القيام بأمر كبير لهذه المرأة بالذات. وأجبتها: «بالتأكيد. أرجوك أن تخبريني بهذه القصة».

«مرّ على فاطمة أسبوع في المستشفى، قبل أن تبدأ بالردّ على أسئلتي. ومن حسن الحظ أن ممرضات ذلك الطابق تآلفن مع وضعها، وتبادلن الدور في الترفيه عن ابنتيها التوأمين. وبعد أسبوع من

الطعام والراحة والمعاملة اللطيفة، شرعت فاطمة في الخروج مما أسميه 'متلازمة المنحَبِس' locked-in syndrome، وهي تصيب الكثيرات جداً من النساء اللواتي يتعرّضن لسوء المعاملة، ويُصعقن عندما يجدن أنفسهن في وضع ميؤوس منه. وعندها أخبرتني قصتها».

تناولت ناديا حقيبتها، وأخذت بضع أوراق منها وتابعت قائلة: «كتبتُ، أيتها الأميرة، قصة فاطمة كما كشفتها لي. أعتقد أنها تأسر الألباب عندما أقرأ كلماتها أكثر كثيراً مما لو أخبرك إياها بنفسي. أيناسبك ذلك؟».

«طبعاً، أوافق. أعتقد أن من الأفضل سماع قصة فاطمة منها مباشرة».

ابتسمتْ ناديا لأماني، وشجّعتْ ابنتي، بإشارة من يدها، صديقتها الجديدة على متابعة القصة.

تنحنحت ناديا، وقرأت بهدوء ما كتبته:

«أنت تتحدثين مع أتعس امرأة عاشت على الإطلاق. أبلغتني أمي، وأنا فتاة صغيرة، أنني خيبة الأمل الكبرى في حياتها. أرادت ابناً، لكن اللّه رزقها بابنة. يئستْ لأنها الزوجة الثالثة لوالدي المبتئس مع جميع زوجاته لأنه أضحى، بولادتي، أباً لخمس بنات من دون أي أبناء. إلا أن أمي وضعت صبياً بعد ثلاث سنوات على ولادتي، ما رفع من مكانتها في البيت. وأظهر والدي تقديراً كبيراً لذلك الابن، وتُيِّمت أمي كثيراً بولدها إلى حد أنها كرهتني على كل لحظة أخذتها من حياتها، وكل لقمة طعام تناولتها. وخصّتني، مع تقدمي في العمر، بكل صفعاتها وصراخها، فيما دلّلت شقيقي الذي أصبح طاغية صغيراً.

«بات والدي أكثر تودّداً لأمي بعد أن منحته ابنين إضافيين مع بلوغي الثامنة. وصارت حياتي جحيماً. وكلّما أهانني أشقائي أو ضربوني تفرح أمي ويفرح أبي. وأبلغتني أمي، عندما أصبحتُ في العاشرة، أنني سأزوَّج قريباً من أرمل في الحيّ كبير في السن يحب الفتيات الصغيرات أكثر من النسوة الناضجات. واشتُهر عنه بأنه كثير الإساءة. وسرى خبر بأنه قتل بيديه زوجتيه الأخيرتين الشابتين اللتين ظهرت عليهما آثار الضرب. ولمّا انتحبتُ واحتججت، رفعتني أمي بذراعيها ووضعتني أمام إحدى المرايا؛ وطلبت مني النظر إلى صورتي في المرآة، وقالت إنني بشعة جداً وإنني محظوظة لأن أحدهم، حتى العجوز، يريدني زوجة له. لم أعرف حتى ذلك الحين أنني بشعة، لكن أمي أشارت عبر المرآة إلى أنفي الكبير وعينيّ الصغيرتين، ثم أخذت تشد أسناني بعنف لتخبرني بأنها كبيرة جداً

على فمي. وقالت إن هذا ما يجعل أسناني تبرز خارج شفتيّ حيث لا يمكنني إطباقهما تماماً.

«من حسن الحظ أن العجوز قد مات قبل زواجنا، لكن والدتي واصلت البحث عن عريس بديل. وسخر أشقائي مني، وقالوا بوجوب قتلي وطحني وإطعامي للماعز والجمال، لأن أحداً لن يتزوجني أحد، وما من داعٍ لهدر الطعام الجيّد على فتاة بشعة ستشكّل عبئاً دائماً. وعلمت ما جرى من تدليل عليّ لدى ما يزيد على العشرين عريساً محتملاً رفضوني بأجمعهم.

«لكن ببلوغي الرابعة عشرة، وافق رجل مشوّه الجسم على الزواج بي. فرحتُ في البداية لأنني لم أتخيّل كيف يمكن للحياة أن تصبح أكثر بؤساً. لكنني كنت مخطئة. فالرجل الذي تزوجني كان أبشع مني، وتسبّبت له بشاعته بعقدة.

«حلّ رعب الحياة الزوجية مُبكراً عندما أخبرتني أمي ليلة زفافي أن عليّ الاستعداد للكثير من الألم، لأنني سأصادف دماً لدى الزواج. ولم أستطع تخيّل سبب ضروري لذلك. ورفضت أمي إخباري بما يمكن أن يحدث، لكنها قالت إن سرير الزواج مؤلم ومُذلّ، وأن من الضروري أن يسيل الدم مني، وإلاّ. فإذا لم يحدث ذلك فسوف أقع في ورطة كبيرة، وأُطلّق على الفور، وأُعاد إلى بيت أهلي حيث يأخذني أشقائي ووالدي إلى الصحراء ويدفنونني حيّة، لاستعادة شرف العائلة.

«بلغ بي الذعر أشدّه، لكن لم يكن لي مكان ألجأ إليه. وفكّرت لأيام في الألم والدم. أخبرتني فتاة صغيرة أن زوجي الجديد سيجرح إصبعه ثم يجرح إصبعي ويحك إصبعينا الداميتين وعندها يُعتبر الزواج مشرّفاً. وما عليّ بعد ذلك كلّه إلا أن أنظّف منزله وأغسل ملابسه وأحضّر طعامه، وفي الأساس أطيع أوامره. ولم يبدُ الأمر على هذا القدر من السوء، لأنني دأبت على القيام بذلك في بيت عائلتي مذ أصبحت قادرة على الوقوف.

«وهكذا تلقّيت في ليلة زواجي صدمة عنيفة. قاومتُ زوجي عندما حاول إجباري على نزع ملابسي، لكنه كان رجلاً قوياً بالرغم من جسمه المشوّه. تركّزت مشكلاته في ساقيه الملتويتين وقدميه ذوتي الشكل الغريب؛ أما الجزء الأعلى من جسمه ففيه ما يكفي من القوة لقتل حيوان كبير. ذراعاه ضخمتان تكاد الواحدة منهما تكون بسِمْك جسمي. لكن الصدمة الكبرى لم تأتِ بعد. لم يحذّرني أحد من أن للرجال سلاحاً سرّياً، فشرعت في الصراخ عندما خلع ثيابه وشاهدت ذلك الشيء الكبير. وعندها طرحني على الأرض الصلبة وأدخل سلاحه بالقوة في داخلي. أدركتُ فجأة الألم والدم اللذين حذّرتني والدتي منهما. سال الكثير من الدم، لأنه واصل طعني بذلك السلاح. فعلى

الأقل لم ألوّث شرف عائلتي لينتهي بي الأمر مدفونة حيّة في الرمال.

« على مدى ثلاثة أيام أو أربعة، قضى وقتاً ممتعاً وهو يطعنني بسلاحه. واعتقدت أنني سأموت بالفعل. وأخذ، في كل مرّة رجوته فيها أن يتوقف، في الشروع بذلك من جديد. وغضب من صراخي وشرع في ضربي. ضربني بقسوة شديدة، حتّى تشقّقت شفتاي وكُسر أنفي.

«لم أشعر بعد ذلك الاعتداء إلا بالخوف والهول من زوجي. لم يحدث بيننا أي ودّ، مثل ذلك الذي رأيته ينمو بين والدتي وأبي بعد أن منحتْه ثلاثة أبناء.

«زادت مشكلاتي عندما ولدتُ توأمي بنات بعد تسعة أشهر من ليلة زفافي. أنجبتُ في المنزل بنفسي، لأنه قال إن ذلك واجب المرأة، وهو طبيعي، وإن أي امرأة تحتاج إلى المساعدة لا تستأهل العيش. وهكذا اعتنيت بنفسي أثناء الولادة، بالرغم من أنني لم أعلم ما الذي يحدث بعد إنجاب الابنة الأولى، واستمرّ ألم المخاض. وعرفت عندما ولدتُ الابنة الثانية أنني سأواجه مشكلة، لأن زوجي رجل عنيف وجاهل. ويتمتع أصدقاؤه وأهله بالقدر نفسه من الغباء. كما أن عائلتي لن تهبّ أبداً لمساعدتي. وهكذا غُلبتُ على أمري وبتُ وحدي مع رضيعتين تحتاجان إلى كثير من العناية، لأن كلتيهما أصغر حجماً من معظم المواليد الجدد.

«وبالفعل بلغ الغضب أشدّه بزوجي لمّا وجد نفسه أباً لابنتين توأمين، أسماهما مشكلة مزدوجة؛ وراح يضربني بوحشية شديدة وكسر ذراعي وبعضاً من ضلوعي، كما كسر أنفي للمرة الثانية. واحتجت حقّاً إلى الرعاية الطبية؛ لكنه رفض نقلي إلى المستشفى. وتوقّع مني أن أطبخ له وجبة طعام بعد أن أفقدني الوعي من شدة الضرب.

«نظرتُ بعد أسابيع إلى المرآة، ورأيت أنني أصبحت أبشع من ذي قبل، لأن أنفي أصبح كبيراً جدّاً ومشوّهاً؛ ولم يكن بإمكان أي امرأة أن تكون أبشع مني.

«استمرّ في طعني بسلاحه، لكنني فرحت لأن الهجمات أصبحت أقل من ذي قبل. بل إنه اتخذ لنفسه امرأة ثانية بعد عام من ولادة الطفلتين. كانت الزوجة الثانية فتاة صغيرة يتيمة قضى والداها في حادث سيارة، ولم يشأ عمها قبول مسؤولية طفلة أنثى بما أنه كان قد رُزق بابنتين من قبل. وحين جاءت الفتاة الصغيرة إلى بيتنا، استمتع بطعنها أكثر مني، وحصلتُ بالتالي على بعض الراحة بالرغم من أنني شعرت بالأسى على تلك الفتاة التي لم تتعدّ الثامنة

أو التاسعة من العمر. وبكتْ ليلاً ونهاراً في شكل يُرثى له، وهي تنادي أمها. حاولتُ، بأفضل ما أستطيع، مؤاساتها، لكنني لم أستطع القيام بالكثير لمساعدتها، لشدّة ما أصابها من رعب وانفطار في القلب.

«أنجبتُ لاحقاً فتاة أخرى، لكنها توفّيت عند الولادة. وطلّقني زوجي حينها، ورماني خارج المنزل. وأرسل والداي من يبلغني أنهما لا يرحبان بإحضار ابنتيّ إلى منزلهما. وهكذا جلست مع ابنتيّ على بعد بضعة منازل من بيت زوجي السابق. جاءنا قلّة من الناس بالطعام، لكن كبار القرية شرعوا، بعد أسبوع من نومنا على التراب، في الحديث عن الوضع الذي يُرثى له. ولم يستحسن زوجي السابق الحديث عنه، فجاء إلى الرياض، والتقى بعض المسؤولين الحكوميين الذين أرشدوه إلى مقرّ خاص للنساء والأطفال المنبوذين. وأشكر الله أنه لم يطلب الوصاية على الابنتين، لأنني أحبّ فتاتيّ أكثر من حياتي التي لا مبرّر لها من دونهما.

«لكنني لا أعرف ما العمل. فما من رجل سيتزوج من امرأة بشعة ولها ابنتان. وقد تعثر من تمتلك جمالاً رائعاً ولها بنات على زوج، لكنني لن أحظى أبداً بمثل هذا الحظ. آمل في أن تسمح لي الحكومة بالإقامة في المكان الذي أمكث فيه، بالرغم من أنني لست سعيدة بالحياة هناك، لعدم وجود ما أفعله سوى التحديق إلى الجدران وتناول الطعام الغثّ، ومراقبة ابنتي تبكيان من الضجر. فلا أولاد من عمرهما، ولا كتب أو لُعَب تتسلّى ابنتاي الصغيرتان بها. ولا أمتلك المال لمثل وسائل الرفاهية هذه. فهذا سجن آخر لنا جميعاً.

«أنا أتعس امرأة في العالم، لكنّ لدي ابنتان تحتاجان إليّ. ولا أرغب في الحزن والجلوس محدّقة إلى الفراغ، غير أن هذا الحزن نما في داخلي كالسرطان، وأنا عاجزة عن السعادة وعن إيجاد القدرة على الابتسام».

«هذه، أيتها الأميرة، قصة فاطمة»، قالت ناديا. «أشعر أنها حالة خاصة تستدعي اهتمامنا».

«يجب أن نساعدها»، قالت أماني، وهي تمسح الدمعة عن عينها، «ونساعد ابنتيها البريئتين».

ارتعشتِ الدكتورة مينا، ونظرت إليّ بأسى بالغ. عرفتُ، وأنا أتذكّر قصتها، أن بإمكانها فهم واقع فاطمة أفضل من معظم الناس.

طمأنتُ الجميع: «سنساعدها بالتأكيد. وعليكِ يا ناديا بالمزيد من الحديث مع فاطمة. ولن نتمكن، إلا بعد أن تصبح قادرة على اتخاذ القرارات التي ستؤثّر في حياتها، وعلى تقرير الخطوات التي يتوجب

عليها القيام بها».

وقالت أماني: «قد تريد أن تتعلّم. فهي لا تزال صغيرة. ربما استطعنا توظيف معلّمة خصوصية تعلّمها بالتزامن مع تعليم ابنتيها».

«هذه إمكانية»، أجابت الدكتورة مينا. «لا يفوت الأوان على التعلّم إلا في ما ندر. أعرف امرأة في الأربعين من عمرها حصلت أخيراً على شهادتها الجامعية».

قلتُ: «هذه كلّها اقتراحات جيّدة. إلا أنني أعتقد أن بإمكان فاطمة أن ترشدنا. فقد اكتشفت منذ أعوام أمراً مهمّاً جدّاً في ما يتعلّق بمساعدة الآخرين. يحدثُ سحر عندما تُعطى من تعرّضت لسوء المعاملة فرصة اتخاذ الخيار من دون إملاء. لم تمتلك فاطمة، طوال حياتها، أي خيار في ما تفعله بحياتها، إن كان في أمر التعلم، أو في الأعمال المنزلية التي قامت بها، أو في ما تتناوله من طعام، أو في الرجل الذي تزوجته. ولو أعطيت الفرصة للتفكير، والاستكشاف، والشعور بالشغف بأمر ما، فمن المرجح كثيراً أنها كانت ستنجح. ولو طرحنا عليها ما نفكّر أنه الأفضل لها، فمن المرجح أنها لن تكون راضية عن نفسها، أو عما يجب أن تفعل».

حدّقت أماني إليّ باحترام شديد: «أنت محقّة للغاية، يا أمي. يجب أن نسترشد بمن نساعدهن».

وقالت الدكتورة مينا موافقة: «ابنتك على حق، أيتها الأميرة».

افترّت شفتا ناديا عن ابتسامة عريضة، وقالت: «أنا متشوّقة لوضع فكرتك موضع التنفيذ أيتها الأميرة. فلطالما اتخذتُ القرار نيابة عمّن تحتاج إليّ، لكنني أرى الآن أن عليّ أن أشجّعهن على المشاركة، وأن ألبّي حاجاتهن ورغباتهن».

اتفقنا جميعاً على أن تتحدث ناديا مع فاطمة، وفي حال موافقتها، سنجتمع نحن الأربع مع المرأة التي تعتبر نفسها أتعس مخلوقة على الأرض. وسيتقرر شيء جيّد لمستقبل فاطمة، حين تقرّر ما تريده.

شكرتُ الله بصمت على إنعامه عليّ بالكثير من المال لمساعدة فاطمة وابنتيها في سلوك الطريق التي تريد أن تتبعه.

انتهى الاجتماع، وغادر الجميع منزلي؛ فجلستُ وحدّقتُ إلى الأمام، وغرقت في الأفكار المتعلقة بحياتي منذ الزمن الذي كنتُ فيه فتاة صغيرة وإلى يومنا هذا. ولم أشعر، إلا في ما ندر، بالرضى عن نفسي؛ كذلك لم يكن لدي الوقت الكافي للنظر في ما قمت به، وذلك بالرغم من ثروتي، ومن زوجي اللطيف، ومن أولادي وأحفادي

العزيزين على قلبي. ولطالما شعرت، حقاً، أنني الفتاة الصغيرة التي قلقت عليها والدتها، والابنة الشقية التي أثارت ثائرة والدها، لكن الحقيقة هي أنني أدركت فجأة أن لدى الأميرة سلطانة ما هو أكثر كثيراً مما كان باستطاعة والدتي ووالدي أن يتخيلاه أبداً. فمقدرتي العقلية وشغفي اللذان أقلقاهما كثيراً وأزعجاهما، لم يكونا إلا مؤشّراً مبكراً على التصميم الذي سأستخدمه، كامرأة، بطريقة إيجابية.

فقد عشت طوال سنوات حياتي أخدم وأحارب من أجل تحسين حياة النساء. وقد غيّرت بالفعل حياة الكثيرات نحو الأفضل.

شعرت فجأة برضى عظيم على العمل الذي أقوم به، وأنا أدرك أنه يحمل الكثير من المغزى، حيث لم يكن باستطاعتي اختيار مسار أكثر اعتباراً. فعملي ليس مهمّاً فحسب، بل مغيّر للحياة أيضاً.

وأنا سعيدة. وأسفي الوحيد هو أن أمي العزيزة ليست هنا لترى انتصار ابنتها على الشر الذي يضرب الكثيرات جدّاً من الفتيات والنساء البريئات. أعرف أنها كانت ستفتخر بسلطانتها الصغيرة.

الفصل التاسع
الأميرة عائشة

تبقى الحياة اليومية صعبة على معظم الفتيات والنساء في بلادي، علماً أن الأمور بدأت بالتحسّن وإن بشكلٍ بطيء في العام 2014. ويعود ذلك إلى أن رجالاً كثيرين ما زالوا يستمتعون بمحاربة النساء! فهم يشعرون، من دون شك، بأنهم عرضة للتهديد. ويتوثّب هؤلاء الرجال المتصلّبون كالنمور الغاضبة لإدانة أي رأي نسائي، أو تحرّك، وإصدار الحكم عليه بالعقاب. ومن سوء الحظ أن بعض السعوديات يندّدن بصورة معيبة بالمرأة السعودية التي تجرؤ على طلب حياة أفضل من خلال العلم والحرّية.

قد تؤمن بعض العزاء حقيقة أن النسوة السعوديات لسن وحيداتٍ في حياة البؤس هذه وانعدام المساواة. فقد استرعى انتباهي، ويا للمأساة، أن أعداداً كبيرة من الثلاثة مليارات امرأة تقريباً من سكّان كوكبنا يرزحن تحت رحمة سوط القمع والجهل والعنف.

يضم العالم، بحسب الأمم المتحدة، 193 دولة، سافرتُ إلى 49 منها، ودرست ظروف الحياة اليومية للمواطنين في عدد كبير آخر. ويحرّكني، بوصفي امرأة كرّست حياتها لحرّية النساء، فضول كبير في شأن معاملة النساء في كل بلد أزوره أو أقرأ عنه. وقد عشت كثيراً من الصراعات الشخصية في أرض مولدي؛ ويصدمني بالتالي اكتشاف أن هناك حكومات وثقافات أكثر قمعاً للنساء من حكومة السعودية وثقافتها. ومن هذه البلدان أخص أفغانستان وباكستان.

أعرف نسوة باكستانيات متحرّرات، وحصّلن درجة عالية من التعليم، لكنهن ينتمين إلى طبقة أثرياء البلاد. وأما النسوة الفقيرات في قرى باكستان، فيمكن القول أيضاً إنهن كمن يعشن على كوكب آخر، لأن حياتهن مختلفة للغاية. لست على تماسٍ مباشر مع طريقة معاملة النساء في أفغانستان، لكن يتضح من التقارير الإخبارية ومن الكتب التي طالعتها أن كل امرأة أفغانية تقريباً مقيّدة بسلاسل رجال عائلتها.

يتفق خبراء «الجندر» مع تقويمي الشخصي لأفغانستان وباكستان. وقد قرأت أخيراً، بقلب مُثقل، لائحة الأمم المتحدة للبلدان الأشد سوءاً في معاملة النساء، وقد كانت بهذا الترتيب، ولهذه الأسباب:

1. أفغانستان: تشتهر هذه البلاد التي يغلب عليها العنف بأنها الدولة الأسوأ في العالم بخصوص وضع النساء. وخلصت الأمم المتحدة إلى أن حياة الفتاة الأفغانية النموذجية قصيرة جدّاً، ومتوسّطها 45 عاماً. ويتزوّج أكثر من نصف الفتيات في أفغانستان

قبل بلوغهن السادسة عشرة. وتعترف غالبية النسوة الأفغانيات (87%) بأن أزواجهن يضربونهن بانتظام. أفغانستان هي الدولة الوحيدة في العالم التي تنتحر فيها النساء بأعداد تفوق أعداد المنتحرين من الرجال. ويتملّك أولئك النساء البائسات يأس شديد يدفعهن إلى حرق أنفسهن للتخلص من حياتهن القاسية.

2. جمهورية الكونغو الديمقراطية: يسير الاغتصاب والحرب جنباً إلى جنب. وتعاني الفتيات والنساء في الكونغو هذه المذلّة بانتظام. ويفيد فريق الأمم المتحدة الذي يحقق في النزاع في شرق جمهورية الكونغو الديمقراطية أن عمليات اغتصاب الفتيات والنساء همجية ومنهجية، بما لم يسبق له مثيل. وقرأتُ تقارير مريعة تفيد بأن الزمر المسلّحة لا تكتفي باغتصاب النساء، بل تجبر أبناء تلك النساء على اغتصاب أمهاتهم تحت تهديد السلاح. ولا شك في أن مثل هذه التجربة المقزّزة والوحشية أمر يتجاوز الخيال.

3. العراق: شكّل العراق فيما سبق ملاذاً نادراً للنساء في عالمنا الإسلامي، حيث ضمنت حكومة صدام حسين الحقوق الأساسية للمرأة. لكن جاء، بعد صدّام أشرار يظهر أنهم على القدر نفسه تقريباً من فساده، رجال لا يساندون إلا فئاتهم الدينية فحسب، وهي فئات كثيرة في العراق. وها هو العنف الطائفي في البلاد يستهدف الفتيات والنساء. كما أن معدّل التحصيل العلمي للإناث بلغ أدنى مستوى له بعد أن كان الأعلى في العالم العربي.

4. النيبال: يبيع الأهل بانتظام بناتهم الصغار لتجار الجنس. ويعمد هؤلاء بدورهم إلى تسويق الفتيات في المواخير، حيث يتعرّضن للاغتصاب الوحشي في كل يوم من أيام حياتهن الفتية. ومن تتمتع منهن بالحظ الكافي للتخلص من هذا القدر الرهيب تواجه الزواج المبكر الذي يؤدّي في الغالب إلى الموت أثناء التوليد.

5. السودان: إن مصير الإناث، الشابات منهن والأكبر سنّاً، في غرب السودان، هو كناية عن مشهد رعب، لأن الخطف والاغتصاب والتهجير القسري أمر شائع في حياة المرأة.

6. غواتيمالا: الفقر منتشر ومدقع في البلاد. وقد أثّر العنف المنزلي والاغتصاب والمعدّل المهول للإصابة بعدوى نقصان المناعة المكتسبة، الإيدز، في حياة الكثيرات من الإناث الفقيرات.

7. مالي: تنجو نساء قليلات من عذاب ختان الإناث. وتُجبر الفتيات بانتظام على الزواج المبكر. وتموت واحدة من كل عشر إناث جراء الحمل أو عند التوليد.

8. باكستان: تنتشر جرائم الشرف في باكستان. وغالباً ما يحكم

أعيان القرى بالاغتصاب الجماعي للنساء الباكستانيات عقاباً على جرائم الرجال. ويستهدف المتطرّفون الدينيون بشكل متكرّر المحاميات والسياسيات ويقتلونهن.

9. السعودية: تفيد الأمم المتحدة أن النساء، في ظل نظام الوصاية السعودي، يُعامَلن طوال حياتهن كالأطفال. وأستطيع، من خلال التجربة، أن أقول إن هذا صحيح. وتُجبر النساء السعوديات، غير القادرات على القيادة أو الاختلاط بالرجال في العلن، على حياة من العزلة الشديدة. ولا يزال سوء معاملة الرجال للنساء شائعاً في السعودية. وهناك حالات كثيرة يتعرض فيها الرجال لنسائهم بالضرب والاغتصاب. وفي حال الطلاق يحصل الوالد على الحضانة الكاملة للأولاد، بالرغم من وجود مبادئ توجيهية للحضانة في ديننا الإسلامي. ولا يتدخّل أحد لمساعدة الأم والأولاد في حال تجاهل الرجل هذه المبادئ. وفي بعض من أكثر الحالات ترويعاً تتعرض البنات للاغتصاب من آبائهن. وعند وقوع مثل هذه الجرائم يأخذ رجال الدين جانب المغتصب قائلين إنه يستطيع القيام بما يحلو له بنساء عائلته.

10. الصومال: قضت الحرب الأهلية الطويلة الأمد والشرسة على ما تبقى من المجتمع المتحضّر. وتتعرّض النساء، الصغيرات منهن والكبيرات، لهجوم العصابات المسلحة والاغتصاب.

كيف يمكن أن يكون هناك إحصاءات مريعة بهذا الشكل، عندما يطالب هذا العدد الكبير من الناس في شتى أصقاع الأرض بالمساواة والحقوق الإنسانية الأساسية والكرامة لجميع النساء؟ يشكّل تقرير الأمم المتحدة نقطة سوداء للعالم بأسره، ولجميع الرجال والنساء الذين لا ينزلون إلى الشوارع بالملايين لوقف هذه الإبادة في حق النساء.

هناك في الواقع ثماني دول تُعدّ أسوأ من السعودية في ما يتعلّق بحقوق النساء، لكن قلّة فقط تخالف الرأي القائل بأن حياة النساء في السعودية تظلّ صعبة ومعقّدة.

والقيود على النساء السعوديات كبيرة وصغيرة، مع أن الصغيرة منها هي الأكثر إزعاجاً وحصراً في بعض الأحيان. ولا تستطيع معظم النساء أن يتخيّلن كيف يكون القلق بشأن كل شاردة في الحياة اليومية، إذ على الفتاة السعودية أن تنتبه، مثلاً، لعدم الدخول في حديث مع رجل من غير عائلتها، لأنها قد تُتهم بأنها مومس في ما لو بلغت هذا الحد من التهوّر. وإذا وُجّهت إليها مثل هذه التهمة فقد تجد نفسها في زنزانة بانتظار تنفيذ عقوبة الجلد. وعلى الفتيات السعوديات المقيمات في مدن أو قرى محافظة أن يغطّين وجوههن؛ وإلا فعليهن توقّع تطاير الحجارة باتجاههن.

وفي ظلّ قانون منع النساء السعوديات من قيادة السيارة، وجدت الكثيرات منهن أنفسهن مضطرات إلى اعتماد وسائل النقل العامة، لانشغال الرجال في الغالب عن نقلهن إلى المدرسة أو العمل أو إلى عيادة الطبيب. وعلى الفتيات السعوديات اعتماد الحذر الشديد عند استخدامهن النقل العام، لأن بعض سائقي التاكسي يعتقدون أن الفتاة التي لا يواكبها أحد تبحث عن رجل يوفّر لها بعضاً من المتعة. وربما قام مثل هؤلاء الرجال بمحاولات غير لائقة؛ ولو اكتشفت هذه المحاولات فستُدمّر حياة الفتاة إلى الأبد بغضّ النظر عن براءتها.

تعني هذه القيود أن حزني لرؤية مها تغادر عائدة إلى أوروبا يمتزج أيضاً بشعور من الارتياح. فابنتي فتاة مندفعة تعيش في أوروبا بحرّية، ولا ترى موجباً للتغيير وهي في السعودية. ولهذا أصاب أنا وكريم بالتوتّر في خلال زياراتها. وأستطيع أنا ووالدها حمايتها من معظم ما قد تنزله بنفسها من مشكلات، إلا أننا لا نرغب في زج عائلتنا في أي فضيحة، لأن الفضائح الشخصية تشمل في ثقافتنا كل من يرتبط مع صاحبها بصلة الدم. ولو وُصمت مها بأنها فتاة فاضحة فستتلطخ سمعة شقيقها عبدالله وشقيقتها أماني بالعار نفسه، بغضّ النظر عن علاقتهما بأي نشاط محرّم في ثقافتنا قد تنغمس فيه مها. وقد اختار ابني وابنتي الصغرى البقاء في بلدهما وبناء حياة جيّدة لهما. ويجب توفير الحماية لهما.

لكن مها ليست الأميرة الشابة الوحيدة التي تتمتع بما يكفي من الجرأة لمواجهة التمييز ضد المرأة السعودية. فهناك غيرها. وتخطر ببالي أميرة واحدة بالتحديد.

الأميرة عائشة واحدة من قريبات مها المفضّلات، وهي ابنة أمير مرموق تولّى في السابق منصب حاكم منطقة في السعودية. وهذا القريب رجل كتوم بشكل استثنائي؛ ولا نعرف سوى القليل جدّاً عن مشاعره الحقيقية حيال أي أمر. ولهذا السبب لن أكشف عن اسمه في هذه الرواية، بالرغم من أنه يعمل في الشأن العام، ويخدم في مختلف المناصب الحكومية.

التقت مها وعائشة في المدرسة الابتدائية، واستمرت صداقتهما حتى سن البلوغ، لأن الفتاتين استأنفتا الاتصال في أوروبا حيث التحقت الأميرة عائشة بمدرسة سويسرية داخلية مشهورة. وقضت الكثير من العطل مع مها في أوروبا. وأعرف أنهما تتشاركان في المشاعر حيال السعودية، وانعدام حرّية النساء فيها، لأن مها أفضت إليّ ببعض من محادثاتهما.

التحقت عائشة، بعد المدرسة الداخلية، بعدد من الجامعات الأوروبية، وحازت ثلاث إجازات. وقضت في الدراسة وقتاً أطول مما يستطيع أي منّا أن يتذكّره، مع أننا ندرك أنها تستخدم استمرارها

في تحصيل العلم حجة للهروب من القمع في السعودية. وغالباً ما نقول على سبيل المزاح إن عائشة مصممة على تحصيل عدة شهادات دكتوراه، وربما شهادة في الطب قبل انتهاء حياتها.

تتميّز الأميرة عائشة بقامة طويلة ونحيلة، وبشعر بني فاتح وعينين سوداوين تشعّان بحب الحياة. وتبالغ هذه الأميرة في حركاتها، فهي تتحدث بيديها وتظهر تعابير وجه مفعمة بالحيوية. وهي، بخلاف مها، ليست بالفتاة التي تتجاوز الحدود، لكنها تمتلك بالتأكيد روحاً مشاكسة. وتثير شخصيتها كثيراً من المشكلات في عائلتها المباشرة لأنها، وبشكل استثنائي، أكثر تطلّعاً إلى الأمام من جميع أولاد عائلتها الكبيرة. تزوّج قريبي من أربع نساء رزق الله كلّاً منهن أولاداً. لكن عائشة كانت أصغر بنات العائلة كلّها، وأمها الزوجة الأصغر سنّاً، وهي امرأة رائعة من المغرب.

وأخوات عائشة غير الشقيقات الست الأكبر منها، هنّ من الأم نفسها، وهي الزوجة الأولى لقريبي. للأمهات في بلادي عموماً التأثير الأكبر في البنات، لأن من النادر أن يهتم الآباء ببناتهم، إذ يتركّز تفكيرهم، عموماً، في أبنائهم؛ ويدَعون لزوجاتهم رعاية البنات، إلا إذا وقع حدث كبير يستوجب انتباههم.

أخوات عائشة غير الشقيقات جميعهن متزوّجات، ويزعمن أنهن لا يفقهن شيئاً عن حاجة أي امرأة سعودية إلى التمتّع بحرية قيادة السيارة، أو الزواج من الرجل الذي تختاره، أو إلى قضاء معظم وقتها خارج البلاد، كما تفعل شقيقتهن الصغيرة. ويبدو أنهن سعيدات بالمجتمع السعودي، كما هو عليه اليوم، وكما كان عليه دائماً.

وأعرف كلتا الوالدتين شخصياً؛ فوالدة أخوات عائشة غير الشقيقات الست امرأة من أكثر نساء العائلة المالكة محافظة. وهي التي أصرّت، عندما دخل التلفاز للمرة الأولى إلى المنازل السعودية، على ارتداء الحجاب، وهي تشاهده زعماً منها أن «الصندوق يحتوي على رجال حقيقيين». واعتقدت حقّاً أن مقدّمي البرامج يستطيعون رؤيتها بسهولة كما تستطيع هي رؤيتهم. ويُقال إنها لا تزال تمتلك هذا الاعتقاد، لكن العائلة تخفي هذا الأمر.

وأعلنت هذه القريبة المنتمية إلى العائلة المالكة في يوم زواجها أن ما من رجل من الرجال، حتى وإن كان شقيقها، يستطيع أن يراها بعد الآن من دون حجاب. وفرحنا لأنها لم تلد أي ابن، لأننا افترضنا أنها لن تسمح له قط برؤية وجهها، الأمر الذي سيكون له وقع الصدمة.

غرست هذه القريبة الكثير من معتقداتها وقيمها في نفوس

بناتها الست اللواتي يؤكّدن جميعهن ضرورة أن يحكمهن الرجل، وأن من غير المفترض بأي امرأة أن تعارض الرجل، وبخاصة الذي يتولى السلطة. إلا أن والدة عائشة، التي وُلدت وترعرعت في المغرب، امرأة أكثر حداثة، وهي تتمتع بنوع من الحياة الحرّة مع زوجها؛ وتشعر أن على ابنتها تحقيق أحلامها. وهي شديدة الفخر بعائشة، وبشهاداتها الجامعية الثلاث. وتعتقد أنها أعطت الحياة لعبقرية نادرة، الأمر الذي تعلنه في كل لقاء نسائي، فيثير تنذّر جميع اللواتي يعرفن أن عائشة فتاة لامعة جداً، لكنها بعيدة أشدّ البعد عما يمكن أن يطلق عليه أي مرجع فكري صفة العبقرية.

زارت مها المملكة في السنة التي سبقت زيارتها الأخيرة لها، وكانت عائشة هي أيضاً تزور المملكة. ولم ترَ واحدتهما الأخرى إلا مرّتين، لكن مها تقول إن هاتين الزيارتين كانتا مثيرتين، لأن عائشة انخرطت في شجار كبير مع أخواتها غير الشقيقات الست. وحدث، بحسب ابنتي، التراشق بالاتهامات. ومها، على الدوام، تستمتع بالمشكلات، مع أنني لا أستطيع شرح السبب.

تميّزت تلك الواقعة العائلية بالخطورة، بالرغم مما وفرته من تسلية لمها. فقد حدث الشجار العائلي، لأن أحدهم وضع أغراضاً جنسية مختلفة في حقيبة سفر عائشة، وهي أمور تحظّرها ثقافتنا السعودية التقليدية للغاية، وخصوصاً إذا وُجدت بحوزة أنثى عزباء. وقد خُبئت مجلات جنسية وملابس داخلية فاضحة، فضلاً عن علبة من الواقيات الذكرية بطريقة متقنة في مختلف الجيوب الداخلية لأمتعة عائشة، ودُسّت بين الملابس العادية. ومن الواضح، كائناً من كان المُرتكِب، أنه أراد لعائشة أن تواجه متاعب مع مسؤولي الجمارك، أو مع والدها. وبما أن عائشة من العائلة المالكة، فلم تخضع أمتعتها للتفتيش في المطار، ولم تعرف بالتالي إذا كانت الأغراض المحظورة قد دُسّت قبل مغادرتها أوروبا، أو بعد عودتها إلى الديار.

وبما أن عائشة لا تزال تدرس في أوروبا، فقد فكّرت إحدى صديقاتها أن في الأمر نكتة مضحكة، وهي لا تعرف كفاية الثقافة السعودية، وما قد يُلحق الإمساك بهذه الأغراض مع سعودية عزباء من ضرر بها. ولو أثيرت حول عائشة ذرّة من الشك في أنها متورطة عاطفياً مع رجل، فسيُلحق ذلك ضرراً خطيراً بسمعتها؛ ويكلّفها، بالتالي، حريتها أو حياتها. ولا يستطيع إلا من زار السعودية، ويعرف القيود المفروضة على النساء، أن يقدّر خطورة مثل هذه الأعمال.

ذهلت عائشة، وهي تفرغ حقائبها من وجود هذه الأغراض في أمتعتها، فأقفلت حقائبها بسرعة على أمل أنها ستجد طريقة للتخلص لاحقاً من هذه الأغراض من دون أن يعثر عليها أحد.

لكن القصة لم تنتهِ عند هذا الحد.

وبعد مرور أيام قليلة على عودتها، قامت اثنتان من أخوات عائشة غير الشقيقات المخادعات بتفتيش غرفتها أملاً في العثور على ما يورّطها. وأقسمت مها، التي تعرف عائشة تمام المعرفة، على براءة الفتاة. وتقول مها إنها لم تلاحظ قط، طوال الفترة التي تبادلتا خلالها الزيارات في أوروبا، أنها تواعد أحداً، ومن المؤكد أنها ليست متورطة بإقامة علاقة جنسية.

وعائشة أذكى من أن تجازف بفقدان حرّيتها وبحسن حالها في المستقبل. وتدرك تمام الإدراك أن والدها سيصر في يوم من الأيام على زواجها، وإن كان لم يُثر الموضوع بعد، علماً أن عائشة أصبحت في أواخر عشريناتها، أي إن عمرها تجاوز عمر العروس السعودية. وقالت عائشة لمها غير مرة إنها ستذهب، عندما تتزوج في النهاية، إلى سرير الزواج وهي عذراء حتى ولو باتت في الأربعين. والقيام بغير ذلك يشكّل مخاطرة كبيرة في السعودية، حيث يُتوقّع حتى من العرائس الأكبر سنّاً أن يكنّ عذارى، إلّا إذا كنّ أرامل ومطلقات يتزوجن للمرة الثانية أو الثالثة.

نعرف حالة محددة واحدة لم تنزف فيها العروس الدم على سرير زواجها، وهي في الثلاثين، فأعيدت إلى أهلها ورُمي بها بشكل فظّ ومخزٍ عند باب منزلهم. ولم يعنِ لهم شيئاً أنها كانت فتاة تمارس دوماً الألعاب الرياضية مع أشقائها الذين بلغت بهم اللطافة حدّ السماح لها بالمشاركة في مباريات كرة القدم، بل ركوب دراجتهم في غياب أي حسيب أو رقيب. وقد حُظر على الفتيات في الماضي ركوب الدراجات أو أي وسيلة نقل مشابهة. وأكدت الطبيبة التي زارتها بعد زواجها إن أنشطتها الرياضية الشبابية تسبّبت في تمزّق غشاء بكارتها وهي صغيرة، وإن ذلك لم ينتج من علاقة جنسية غير مشروعة. وأقسمت الفتاة باكية أنها لم تلتقِ أيّ رجل من غير عائلتها. كانت بالفعل فتاة عفيفة نأى المجتمع بنفسه عنها منذ ذلك الوقت، وزُوّجت لاحقاً كامرأة ثانية لرجل أدنى منها مقاماً.

وعائشة، بحسب مها، فتاة طاهرة. فهي عفيفة، ولا تقوم بأي من الأفعال التي يزعم رجالنا أن جميع النساء يقمن بها في غياب الإشراف عليهن.

وصادف وجود مها مع عائشة في اليوم الذي عثرت فيه شقيقاتها على الأغراض الفظيعة والمحظورة. وصفت ابنتي المشهد البغيض قائلة إنها بدخولها وعائشة قصر العائلة كانت شقيقات عائشة الست بانتظارها وألسنتهن تكيل الاتهامات الباطلة. ولم تصدّق مها عندما شرعت واحدة من الست بالتلويح بحماسة بمجلة «بلاي بوي» المفتوحة عند صفحة الوسط وتظهر فيها صورة فتاة عارية.

رقصت تلك الشقيقات من الفرح لاكتشافهن الأغراض المهينة.

فقد كرهن عائشة منذ اليوم الذي أنجبتها فيه الزوجة الرابعة لوالدهن. وتمتّعت عائشة بالجمال، حتى وهي رضيعة. وتعرّضت منذ ذلك اليوم لانتقادات أخواتها غير الشقيقات اللواتي كرهن جمالها وذكاءها وقدرتها على الهروب من الحياة التي يدّعين كثيراً حبّها. ويشكّ كل من يعرف أولئك النساء الست في أنهن يحببن حياتهن المفعمة بالترف الفارغ، لأنهن قلن في مرات كثيرة إنه بات مريكاً لهن التعبير عن شكّهن في هذه الحياة الآن.

وعمدت أولئك الفتيات الحانقات إلى مناداة والدتهن لترى ما عثرن عليه، وتشهد على فسق أصغر بنات زوجها من الضرّة الغريمة. ولم يسبق لهذه القريبة المنتمية إلى العائلة المالكة أن رأت في حياتها صورة امرأة عارية، فأغمي عليها عندما أشارت إحدى بناتها إلى الصورة، فيما لوّحت أخرى بزوجين من ثياب النوم غير اللائقة والفاضحة التي اعتقدن أن عائشة قد اشترتها. وهكذا بقيت مستلقية على الأرض في سياق المشهد الميلودرامي.

تصاعد الشجار، فادّعت عائشة براءتها، فيما وصل الأمر بأخواتها غير الشقيقات إلى اتّهامها بالعمل كمومس في أوروبا، بدلاً من ذهابها إلى المدرسة. وهذا بالتأكيد زعم سخيف، لكنه واحد من الاتهامات التي تُكال بسهولة لأي امرأة تعيش بحرّية.

قالت مها إن النزاع قد تطوّر وخرج عن السيطرة، مع أنه بات مسلّياً بشكل هستيري، إذ واصلت الأميرة العجوز الإفاقة من غيبوبتها للنظر والإشارة إلى صورة المرأة العارية، قبل أن يُغمى عليها من جديد.

وابنتي مؤذية في الغالب، ولا ترحم في تعاطيها مع من يدينون صديقاتها أو يظهرون تطرّفاً في انتقاد الطريقة التي يختارها بعض الناس لعيش حياتهم. وأنا لا أوافق ابنتي على كل شيء، لكن مها هي مها، وتفعل ما يحلو لها. ولم يُفاجئنا أنها لم تتلقَّ منذ ذلك اليوم الدرامي الدعوة لزيارة ذلك المنزل. لكن مها تقول إن الأمر يستحق، بما حظيت به من تسلية، أن تُمنع بسببه من الزيارة، وأنها لم تضحك من قبل بهذا القدر، ولهذا الوقت الطويل!

وما كان ليسمح للأميرة عائشة بالعودة إلى أوروبا، لو لم يكن الأمير، والد البنات، خارج البلاد، وبالتالي لم يكن ممكناً إيصال شكاواهن مباشرة إليه بوصفه الوصي عليها. وعائشة، بالرغم من براءتها، ارتاحت للهروب من المملكة، لكنها اعترفت لمها بأنها شعرت بظل القدر المشؤوم يقتفي خطواتها، حتى وهي تدخل إلى شقتها، وتحضر الصفوف في أوروبا.

وفي النهاية، حققت أخواتها غير الشقيقات الحقودات مآربهن.

فبعد شهر من عودة عائشة إلى أوروبا، أُقفل حسابها المصرفي وباتت بلا أي مال. وأمرها والدها بالعودة إلى الرياض. ولم تمتلك خياراً آخر. وما إن أصبحت في الرياض، حتى خضعت لاستجواب والدها الساخط الذي لم يشر إلى الأغراض المحددة التي عُثر عليها في أمتعتها، ولكنه ركّز في سؤالها: «أطاهرة أنت يا بنتي؟».

وعندما أقسمت عائشة على القرآن بأنها عفيفة عفّة طفلة مولودة للتو، قال لها من دون أن يسرف في الكلام: «من الجيد معرفة ذلك، لأننا دبّرنا زواجك. وستطلعك والدتك على التفاصيل».

وقالت عائشة لمها: «لم أجد الوقت كي أناشده تخليصي من الزواج بغريب، لأن والدي قفز واقفاً، وهرب من أمامي قبل أن يتسنى لي الوقت لتحريك لساني والنطق».

وهكذا زُوّجت عائشة بشاب من غير العائلة المالكة، لكنه من عائلة جيدة، ويعرف معرفة وثيقة أفراد العائلة المالكة الذين يتشاركون مع عائلته في الصفقات التجارية، ويكنون لها احتراماً شديداً.

وجاءت الخاتمة سعيدة لمرّة من المرات القليلة التي يحدث فيها مثل هذا الزواج المتسرّع. واكتُشِف أن عائشة صدقت في شأن عفتها ولم تفقد عذريتها قط، حتى بعد سنوات من الحياة الحرّة في أوروبا. وأظهرت والدة عائشة بكبرياء ملاءة الزواج الملطخة بالدم لشقيقاتها الزوجات ولزوجها الذي ارتاح وفرح.

وكانت المفاجأة الكبرى في أن عائشة وجدت الحب مع شريك حياتها، وعاشت حياة سعيدة، حيث انتقل زوجها، بسبب عمله، إلى آسيا. وقد ناسبت الحياة بعيداً من السعودية عائشة وزوجها.

وتحمّست عائشة، وهي تخبر مها عن شعورها وكأنها ربحت الجائزة الكبرى بزفافها من زوجها، لأنهما يتشاركان في أمور كثيرة، ويتمتعان بالصداقة وبالحب الرومانسي. وخُيّبت أخيراً آمال أخواتها غير الشقيقات الست، عندما أسرفت في شكرهن على إعادة جرّها إلى محيط الحياة السعودية، حيث تزوّجت من رجل أحلامها.

هناك أوقات، حتى في السعودية، يُنعم فيها على بنات جنسنا برجل طيّب وبزواج سعيد. وما من امرأة تستحق ذلك أكثر من عائشة التي بقيت لسنوات تفتّش عمّا قد يجلب إلى حياتها الحب والسعادة. وتمثّل ذلك في رجل استثنائي أقام في السعودية، وهو ينتظر أن يجمعهما القدر معاً.

***

مضت عشرة أيام على اجتماعي أنا وأماني بالدكتورة مينا وناديا

في قصري بالرياض. وها هما تعاودان الزيارة وبرفقتهما فاطمة المرأة الأكثر تعاسة في العالم التي ناقشنا قضيتها في اجتماعنا السابق. وصلتْ، ومعها فتاتاها التوأمان الغاليتان على قلبها؛ طفلتان في عمر الثالثة. وما إن علمتُ بحضور الابنتين، حتى دعوت سلطانة الصغيرة لزيارتي، وشرحت لحفيدتي باختصار أن فتاتين صغيرتين عاشتا حياة حزينة ستزورانني، وقد تسعدان بلقاء أميرة صغيرة يمكن أن تقدم إليهما هدايا جميلة، وتستمتع معهما بحفلة شاي، فيما تجتمع النساء لمناقشة قضايا مهمة.

ابتهجت سلطانة الصغيرة، لأنها ستكون جزءاً من أمر مهم. وأسرّ إليّ عبد الله أن طفلته قضت ساعات تبحث بين لُعبها وتوضبها هدايا مناسبة للطفلتين. واغرورقت عينا عبد الله بالدموع وهو يخبرني عن إصرار سلطانة الصغيرة على إحضار لُعبها المفضلة التي تبدو وكأنها جديدة. وقال إنه أصرّ عليها ألّا تحضر دميتها المفضلة، ياسمين، وشاهد مسحة من الراحة على وجهها. واعترفتْ سلطانة الصغيرة أن ياسمين ليست على ما يرام، ومن الأفضل أن تبقى مندسة في سريرها في المنزل. بدا، وهذا أمرٌ طبيعي، أن هناك حدوداً لسخاء سلطانة الصغيرة!

بدت سلطانة الصغيرة أشبه بالحلم، وهي ترتدي فستاناً زهرياً بسيطاً وقد جُدّل شعرها الطويل. جلست معي منتظرة بصبر وصول الضيفات. واعتراها القلق من أن الفتاتين الصغيرتين اللتين عاشتا مثل هذه الحياة البائسة قد لا تشعران بالراحة في قصر مع أميرة، وممّا يمكن أن تقوله لهما لإسعادهما.

طمأنتها قائلة: «إنهما فتاتان صغيرتان يا حبيبتي، أصغر منك بخمس سنوات، ولذا ستكونين أشبه بشقيقة كبرى لهما. أشعريهما بأنه مرحبٌ بهما، والعبي معهما بعض الألعاب، وسيشعرن بالإثارة، أعرف ذلك».

أومأت سلطانة الصغيرة برأسها إيماءة جدية فطرت قلبي. ولم يسبق لي أن عرفت مَن هو أكثر رقّة ومحبة من حفيدتي. فإحساسها بمشاعر الآخرين رائع، ويعيد إلى ذهني نعومة أمي الإنسانة التي امتلكت هي الأخرى الإحساس الأكثر رهافة وحبّاً.

في هذه الأثناء، وصلت أماني مع ضيفاتنا. اتّجهت عيناي إلى وجه المرأة التي لا أعرفها، والدة الفتاتين الصغيرتين. وتذكّرتُ أن فاطمة تبلغ العشرين فحسب، وتصغر أماني ببضع سنوات. وقد أدّى ما تعرّضت له منذ طفولتها من سوء المعاملة المروعة إلى شيخوخة مبكرة؛ فبدت كما لو أنها في الأربعين أو أكثر. وسبق أن حضّرت نفسي لرؤية امرأة ذات وجه قبيح جدّاً، كما وصفت فاطمة نفسها. ووجدتها، بالرغم من أنها ليست جميلة، امرأة لطيفة الوجه ذات

سلوك مستحبٌ جدّاً. أنفها كبير ومشوّه، بسبب ما عانته من ضرب على يد زوجها. وقررتُ، إذا استجابت فاطمة لاقتراحاتي، أن أتولّى من فوري مصاريف العملية الجراحية لترميم أنفها المعطوب وكل إصابة أخرى ناجمة عن سنوات من سوء المعاملة البدنية.

إن الأمر المحزن أن عائلتها الشريرة أقنعتها بأن مظهرها بغيض خلافاً للواقع. لكنها صدّقتْ ذلك، وهذا ليس بالمفاجئ، لأنني أدركت منذ زمن طويل أن البشاعة في الذهن كالبشاعة في المرآة.

تقرّبتْ سلطانة الصغيرة بحذر من التوأمين المرتعبتين اللتين بدتا خجولتين وغير متأكدتين مما يجب فعله. تحدّثتْ حفيدتي بروّية ولطف معهما، وبدا أنهما تعلّقتا على الفور بسلطانة الصغيرة. سألتْ حفيدتي بتهذيب السماح لهن بالانتقال إلى غرفة الجلوس المجاورة للاستمتاع بحفلة الشاي. ركضت التوأمان بفرح إلى جانب سلطانة الصغيرة، فاطمأننت من أن كل شيء سيكون على ما يرام مع أولئك الأولاد الثلاثة. ثم إنني أعرف أن الأولاد يتأقلمون بسرعة كبرى مع الأوضاع الغريبة أو غير المألوفة. ويسعدون باللعب في قصر مترف، أو في خيمة متواضعة؛ إذ لا يشكّل الأمر فارقاً كبيراً لهم.

هدّأت ناديا، شأنها دائماً، من روع الجميع. فيما اكتفت الدكتورة مينا بالمراقبة، وراحت أماني ترتشف الشاي.

يمكن القول، بالرغم من هدوء فاطمة، إنها كانت حذرة من كل من يقع عليه بصرها. وبالنظر إلى أنها امرأة عانت كثيراً من سلبيات الطبائع البشرية، لم يفاجئني أنها تمالكت نفسها كما لو أنها تتوقع أن يندفع أحدنا في نوبة غضب من دون أي سبب، لأن تلك هي تجربتها السابقة والوحيدة مع أفراد عائلتها وزوجها السابق.

فجأة، اتخذت ناديا وضعية جدّية. وشرعت في إطلاعنا على خبر فظيع مفاده أن إدارة المستشفى أوصت بأن تقيم فاطمة بصورة دائمة في مأوى النساء المهجورات، على أن توضع الطفلتان في ميتم أنشأته حديثاً واحدة من أميرات العائلة المالكة.

بدا وكأن فاطمة قد ارتعبت، وشرعت على الفور في الانتحاب. «لا، لا، يجب أن أبقى مع ابنتيّ، فليس لديهن سوى أمهما. سيصيبهما الذعر من دوني. لم يكن لهما غيري طوال حياتهما ولا ينبغي أن نفترق!».

أذهلني الخبر لاعتقادي أن المستشفى سيصدر التوجيهات المناسبة لإبقاء فاطمة وابنتيها في مكان آمن، مع أنني خطّطت لمساعدتها بطرائق أخرى.

قلتُ: «لا بد، يا ناديا، أن يكون هناك حلّ أفضل. فلا ينبغي تفريق الأم عن ابنتيها». أدركتُ، وقد رأيت الطفلتين الخجولتين الماثلتين الآن مع حفيدتي، أنهما ستعانيان بشكل رهيب من دون أمهما. ولن أسمح بحدوث مثل هذا الأمر.

أجابت ناديا: «أنت محقة أيتها الأميرة. وهذا ليس بالحل الأفضل. لكن مأوى النساء المهجورات يكاد يفيض باللواتي لا مأوى لهن، ويعتقد مديرو المركز أن الفتاتين سترتاحان أكثر مع الأولاد الآخرين».

أجبتُ: «هذا هراء. فمكان الطفلتين مع أمهما».

تأملت فاطمة وجهي للحظات كثيرة طويلة وتحدّثت بعد ذلك بصوت متقطّع: «ما الغرض من وجودي هنا، أيتها الأميرة؟ ما الذي تفعله امرأة فقيرة مثلي في قصر أميرة؟».

طمأنتها بالقول: «قد أكون، يا فاطمة، أميرة، لكنني قبل أي شيء امرأة. ولا تدعي هذا القصر يخدعك. فقد عانيتُ، وأنا طفلة، من مشكلات كثيرة، لأنني عشت أنا الأخرى حياة فتاة كان والدها يحب أبناءه وليس بناته. وأعيش الآن حياة سعيدة، لكنني أعرف الألم الذي يتسبّب به النبذ».

حدّقتْ فاطمة إليّ مشكّكة، وهي تتساءل هل يمكن الوثوق بي؟ وطمأنتها للمرة الثانية.

«لن أسمح لأحد، يا فاطمة، بأخذ ابنتيك».

واصلتُ التحديق إلى المرأة المسكينة التي تواجه خطر إكراهها على العيش، وحدها وفي عزلة، في مأوى للنساء المهجورات، بينما تؤخذ طفلتاها للعيش في مكان آخر بعيد عنها. واستلقت فاطمة على كرسيها. فهي امرأة مرعوبة كحيوان محشور في الزاوية، وحدّقت إليّ في البداية، ثم إلى الدكتورة مينا التي بقيت صامتة حتى الآن.

«راودني الأمل، أيتها الأميرة، بأنك ستفعلين شيئاً لوقف هذا القرار الخاطئ. لا تستطيع أيٌّ منا، أنا وناديا، معارضة رغبات مديري المستشفى أو مأوى النساء، لأنهم رجال يعتبرون النساء بيادق يمكن تحريكها، بحسب نزواتهم، في هذا الاتجاه أو ذاك، من دون أي اهتمام بما هو أفضل للمرأة أو لأولادها».

وتحدّثت أماني البائسة للمرة الأولى: «ما الذي سنفعله، يا أمّي؟».

«إنني أفكّر يا ابنتي»، أجبتها بنبرة قلقة. فأنا لن أسمح بتفريق هذه المرأة التعيسة عن ابنتيها، لكن إيجاد حل للمشكلة سيتطلّب

وقتاً وتشتّتت أفكاري: أخذتُ أتذكّر طفولتي البائسة وأفكّر مرّة أخرى أن النساء يعملن وحدهن على حل المشكلات التي تواجهها امرأة أخرى.

أخذتُ أشعر بأنني وحيدة جدّاً في الحرب على الوحشية والتمييز ضد النساء. خضتُ معركة طويلة وشاقة كوني واحدة من أوليات نساء العائلة المالكة في التصدي لهذه الجرائم. وأيّدت بعض النساء احتجاجاتي، لكن لم تنْبرِ سوى قلة منهن لحماية بنات جنسنا. وها هم الرجال يتخذون قرارات مستهترة وغير رحيمة في شأن فتاتين صغيرتين، تقضي بإبعادهما عن والدتهما. ونحتاج بإلحاح إلى أن يواجه رجالُ السعودية الرجالَ الذين يتولّون المسؤولية أن يقوموا بالاعتراض نيابة عنا. بقي ذلك حتى الآن مجرّد حلم. ولا يتفق الكثيرون من الرجال السعوديين مع الأحكام القاسية التي يصدرها رجال الدين في حق النساء، ويعارضون التقاليد الثقافية التي تبقي المرأة في حال من العبودية، إلا أن هؤلاء الرجال المعارضين يلزمون الصمت في وجه أكثر العقوبات المُنزَلة بالفتيات والنساء وحشية. تساءلتُ مرّات عدة عن سبب تقصير الرجال في مساعدة النساء السعوديات. ولم أسمع قط عن أي رجل هُرع إلى حماية فتاة بريئة أو امرأة، سواء تعلّق الأمر بفتيات يُقتَلن بسبب جنح صغيرة، أو يُزوّجن وهن لا يزلن طفلات.

ولا يمكن التكهُّن بما إذا كان الرجال يخافون جدّاً من مواجهة المؤسسة أو رجال الدين، أو أنهم، وفي ذلك عار أكبر، يلزمون الصمت، لأنهم يتلذذون بمزايا وضعهم المسيطر. لكنني أدركت أن الوقت قد حان للإصرار على أن ينضمّ رجالنا إلى هذه المعركة.

جلست صامتة، لكنّ ذهني أخذ يعمل، وأنا أفكّر في ما يتوجب عليّ القيام به. وسألتُ: «متى ينوي هؤلاء المديرون فصل فاطمة عن ابنتيها؟».

نظرتْ ناديا إلى فاطمة بقلق.

وقلتُ: «عليّ أن أعرف كم تبقّى لنا من الوقت».

«بقي يومان»، قالت ناديا بصوت خافت.

«لا!» صاحت فاطمة بلوعة. «لا!».

وانتقلت الدكتورة مينا سريعاً إلى جانب فاطمة، قائلة: «لا تقلقي. فالأميرة ستساعدنا».

انتقلت أماني إلى الوقوف قرب فاطمة، وهي تفرك يدها. أدركت حينها أن على زوجي كريم، سواء أحبّ ذلك أو لم يحب، أن يساعد

في حل المعضلة المروعة التي نواجهها. فهو إنسان طيّب، ورجل له بعض النفوذ في المملكة.

«أرجوكن الانتظار، سأتصل بزوجي»، قلتُ وأنا أغادر الغرفة على عجل.

ابتسم لي القدر عندما سمعت صوت زوجي عند الطرف الآخر من الخط. شرحت له الوضع سريعاً، وتأثير ذلك في فاطمة المسكينة وابنتيها إلا إذا تدخّلنا.

وفوجئت عندما لم ينزعج مني، كما في الماضي، لإلقائي، بشكل غير متوقع، مثل هذه المشكلة في وجهه. أصبح، بعد أن قرر في وقت سابق من السنة أنه لن يتجاهل بعد الآن أبداً المحنة المؤسفة للنساء السعوديات، رجلاً أكثر صبراً لا يفقد أعصابه حيال ردودي على الأوضاع الرهيبة التي تؤثر في النساء والأولاد. وها هو يظهر لي الآن أنه ينوي الوفاء بوعده لي.

قال كريم: «أنت محقة، يا حبيبتي. لا نستطيع البقاء مكتوفي الأيدي ونسمح بأن تفقد امرأة طفلتيها. والجواب على هذه المشكلة سهل. دعينا نأخذ فاطمة وابنتيها إلى أحد منازلنا، سواء في القاهرة أو في لندن. فعلنا ذلك في الماضي. وتستطيع فاطمة أن تعيش مع خدمنا في بلاد أخرى وتحتفظ بابنتيها إلى جانبها».

«أمتأكّد أنت تماماً، يا زوجي؟».

«لن تعرفي للسعادة طعماً بعد الآن، يا سلطانة، إذا لم نفعل شيئاً. يجب عدم فصل هذه الأم أبداً عن ابنتيها. وإذا تركنا القرار لمسؤولي الحكومة فستأتي النتيجة مأسوية. دعينا لا نمنحهم الفرصة لتدمير حياة هذه المرأة. قولي لطبيبتك مينا ولناديا أن تبلغا المسؤولين أن إنقاذ فاطمة قد جرى. وسيشعر المديرون والمسؤولون بالراحة للتخلص من امرأة تتسبب هي وابنتاها في مشكلة. ولن يسائلوا أحداً. وسأتصل بهم إذا تسببوا في مشكلة».

«أنت محق، يا زوجي. لن أدعها تعود إلى ذلك المكان».

«اذهبي، شأنك دائماً، وتولّي الأمر يا سلطانة. عاودي الاتصال بي في حال بروز مشكلة ثانية، أو أي تطوّر جديد».

«أمتأكد من أن علينا أخذها إلى الخارج؟ ألا تستطيع العيش معنا هنا، في القصر، أو في جدّة؟».

«نستطيع مناقشة التفاصيل مع المرأة، لكن بوجود عائلة مثل تلك التي وصفتِها، سيأتي أفرادها إلينا في وقت قريب، محاولين

استعادتها، ويقايضون عليها مستغلين نيّاتنا الطيبة. وستعمد عائلتها إلى استغلالها فحسب. ولو توفرت لهم الفرصة فسيؤذونها من جديد».

«أنت محق يا زوجي. لم أفكر في ذلك الاحتمال». فآخر ما أريده في حياتنا، بالطبع، هو أن يطلب أفراد عائلة فاطمة وزوجها السابق الأشرار المال. فلا يستحق أولئك أي شيء. ودّعت زوجي وأنا أشعر بقدر هائلٍ من الإيجابية، لأنني دأبت معظم حياتي على إنقاذ النساء وحدي، وها هو زوجي يصبح شريكي الكامل، وهو مهتم حقّاً بأداء دوره، لمساعدة النساء على كسب الحرية.

عدت إلى ضيفاتي، وابتسامة عريضة تعلو وجهي. نظرْن جميعهن إليّ نظرة تفاؤل. «كل شيء على ما يرام. لقد تحدثت مع زوجي. وهو يتفق معنا تماماً على أننا لن نسمح بتنفيذ مثل ذلك القرار السيّئ».

تفرّست بفاطمة المحاطة بثلاث نساء على استعداد للدفاع عن حقها بالاحتفاظ بابنتيها الصغيرتين، وهن الدكتورة مينا وناديا وابنتي الغالية. وشعرت بقدر كبير من السرور.

«أتودين، يا فاطمة، العمل لدينا، أنا وزوجي؟ إذا وافقتِ فسأتدبر وضعك في مركز آمن، وتكون ابنتاك معك. ستحصلين على المسكن وعلى كل الحاجات الضرورية، وعلى مُرتَّب، ويجري توفير التعليم الجيّد لابنتيك. ولن يكون لديك ما تخشينه».

«أميرة، أميرة، لا أعرف ما أقول».

«قولي نعم، يا فاطمة»، قالتها أماني ضاحكة. «قولي نعم فحسب».

«نعم، بالتأكيد. لي الشرف، أيتها الأميرة، لي الشرف».

أخذ قلبي يخفق بسرعة من شدة الفرح الخالص بأنني وزوجي سننقذ هذه المرأة وابنتيها. وأخذت أحتسب في ذهني كل الأمور الجيدة التي قد أقوم بها لمصلحة فاطمة، المرأة التي لم تعرف طوال حياتها سوى الإهمال والمعاملة السيئة. ومن المؤكّد أنها لن تتعرض أبداً لسوء المعاملة في منزلنا.

وحين تعانقت نادية وأماني وعبّرتا عن فرحهما مع فاطمة، ظهر على وجه الدكتورة مينا تعبير شديد الجدّية. وسارت إليّ على مهل وطلبت التحدّث معي على انفراد. توجهنا إلى غرفة أخرى، ونظرت إليّ الطبيبة بقلق.

«اعتقدتُ، أيتها الأميرة، أننا سنحل مشكلات النساء بطريقة مختلفة. لا أعتقد أنك تستطيعين أخذ كل امرأة تجد نفسها في أوضاع صعبة أو خطرة للإقامة في منزلك».

ابتسمت للدكتورة مينا التي بدت جدّية أكثر من اللازم.

قلتُ لها: «أنت محقة بالطبع، يا دكتورة، في أنني لن أتمكن شخصياً من نقل جميع الفتيات والنساء السعوديات اللواتي لديهن مشكلات إلى قصري. وسنجد حلولاً أخرى لنساء أخريات. لكن هذه الحالة فريدة من نوعها. فالأمر يتعلّق بفتاتين توأمين، والصعوبات أكثر تعقيداً من العادة. وإذا أُخذت الفتاتان من والدتهما فقد يجري فصل واحدتهما عن الأخرى، الأمر الذي سيكون مرعباً لتينك الفتاتين الصغيرتين. أعدك بأننا سنجد أجوبة مختلفة للحالات الأخرى. لكن دعينا في الوقت الحاضر نحتفل بالفرصة التي أتيحت لي لتغيير حياة فاطمة وحياة ابنتيها بأكثر الطرائق استثنائية».

ابتسمتْ الدكتورة مينا للمرة الأولى منذ لقائي بها. «أنت محقة أيتها الأميرة. فحالة فاطمة تختلف عن الحالات الأخرى كلها».

أمسكتْ بذراعي وشبكت يدها بيدي، كما لو أننا صديقتان منذ الطفولة. وعادت بي بكثير من البهجة إلى فاطمة، قائلة: «عليك الآن أن تتصلي بي وتخبريني بكل المفاجآت الرائعة التي تخبئينها لهذه المرأة. فهي قد فازت بيانصيب الأميرة سلطانة، وأنا سعيدة بذلك بقدر سعادتها».

قفزت سلطانة الصغيرة طرباً عندما علمت بأن الفتاتين ستحظيان مع والدتهما بمنزل آمن، وبأنها ستراهما من وقت إلى آخر.

وجاءت لحظتي المجزية، عندما احتضنت فاطمة توأميها بين ذراعيها وبكت بسعادة لم يسبق أن رأيت مثلها في حياتي. رأيت، وأنا أحدق إلى فاطمة، التي بدت رائعة في عيني بالرغم مما لحق بوجهها من ضرر، امرأة تعيش لحظة من السعادة التامة.

ولا يوجد، في ذهني، منظر مجزٍ وجميل أكثر من ذلك.

الفصل العاشر
حُلّت مشكلة فاطمة، والآن دور نور

شكلت المعاينة الجسدية والعاطفية لامرأة لم تعرف منذ لحظة ولادتها سوى الإهمال والاستغلال، فرحاً من أعظم أفراح حياتي. فقد دخلت فاطمة إلى قصري، وهي في حاجة إلى العناية الطبية؛ كانت محطّمة عاطفياً إلى حد أنها تخاف من جميع السعوديين. أحسستُ بأنها خائفة مني ومن عائلتي، مع أن رغبتنا الوحيدة تمثلت في ضمان حسن حالها وإنقاذها من المزيد من الأذى، وإحلال السعادة على حياتها. لقد أضرّت عشرون سنة من سوء المعاملة بعواطف فاطمة. لم تنل فرح الحياة وهي طفلة صغيرة، ولم تعرف سوى الخوف والرعب. وبدا أن كل مشاعرها الأخرى سطحية وغير قادرة على الارتقاء إلى الأمل أو الفرح. لم يحدث لها طوال حياتها أي أمر ممتع، بالرغم من أنها تستمد الكثير من الرضا من محبتها لابنتيها التوأمين. وحتى في هذه الحال، فإن تفانيها الكبير تجاه طفلتيها يقوّضه القلق، مما قد يحل بهما لاحقاً في السعودية، لا بد وأنهما، بوصفهما فتاتين فقيرتين تتحدّران من عائلة فقيرة، ستتبعان مسارها نفسه الذي أدى إلى الحزن والأسى.

هناك أوقات تتطلّب منّا أن نمضي كبشر، يملؤنا الأسى، في مسار مظلم للعثور على السعادة في النهاية. ومن حسن الحظ أن ذلك ما حدث لفاطمة. صحيح أنها أُجبرت على ترك منزلها وعلى المعاناة الشديدة، لكن مشكلاتها أوصلتها هي وابنتاها إلى باب قصري، حيث سيتوفّر لها ولابنتيها الكثير من الفرص.

فكّرتُ ذلك اليوم، قبل مغادرة الدكتورة مينا ونادیا، في أن أطلب من فاطمة أن تمدّهما ببعض المعلومات عن زوجها السابق وعن الفتاة الصغيرة التي تزوّجها، والتي تعاني ولا بد من العذاب الذي عانته فاطمة، لعلّنا ننقذ تلك الشابة أيضاً. بالرغم من أن الدكتورة مينا بدت غير مرتاحة لخطتي، وذكّرتني بهدوء بأن لدينا وفرة من الفتيات والنساء اللواتي يتوجب إنقاذهن، وليس علينا الذهاب إلى القرى واقتحام البيوت.

اكتسبتِ الدكتورة مينا احترامي منذ لقائنا الأول، لأنني أدركتُ أنها ستتحدّث دائماً بصدق عندما تعارض خططي. وطمأنتها إلى أنني لن أفعل أي شيء يلفت أنظار الحكومة أو السلطات الدينية. لكنّني ذكّرتها بوجود فتاة صغيرة تتعرّض للاغتصاب والضرب على يد رجل متوحش. وأعرف كيف يستجيب، مثل هؤلاء الرجال عندما يُعرض عليهم مبلغ من المال. وفكّرت بالتالي أنني قد أقنع زوجي بإرسال أحد مساعديه لإنقاذ الفتاة وأي أولاد قد تكون رُزقت بهم. ووافقتْ، على غير اقتناع، على أن نادیا تستطيع أن تستخدم موقعها في

الخدمات الاجتماعية للعثور على الفتاة.

وعندما غادرت الدكتورة مينا ونادبا، بعد أن خططنا لمعاودة الاجتماع في غضون أسابيع قليلة، أصاب التوتّر الشديد فاطمة كوني غريبة عنها. وطلبتُ إلى أماني أن تستدعي سلمى المصريّة، وهي إحدى طباخاتنا، وحنين، المربية الأردنية الممتازة التي تقيم في منزلي وتساعد عندما يأتي أحفادي الأمراء الصغار في زيارة طويلة. وعرفتُ أن في وسع المرأتين كلتيهما المساعدة في تهدئة روع فاطمة الخائفة والتي لا تعرف ما الذي سيحدث بسبب هذه التجربة الجديدة. أدركت أنها تحتاج إلى من يحيط بها ويتواصل معها بسهولة.

تصرّفتْ سلطانة الصغيرة، بعدما التقت الفتاتين التوأمين، وكأنها أم صغيرة لهما. وما إن هدأت الإثارة حتى تراقصت فرحاً لاكتشافها أن الفتاتين ستمكثان لفترة في منزل جدتها. ثم حان وقت مغادرتها مع والدها الذي وصل لاصطحابها، لكنها أقنعت ابني بهدوء أنها لن تذهب إلا بعد أن تتناول التوأمان العشاء وتستحمّا وتصبحا على استعداد للذهاب إلى السرير. رمقني ابني بنظرة خاصة وقال: «أرى، يا أمي، أن حياتي ستنتهي كما بدأت مقيماً في قصر مع أنثى تعمل دوماً على إنقاذ المحتاجات».

«يوجد ما هو أشد سوءاً، يا بنيّ».

واتصل عبد اللّه بزين، فلم تمانع كنّتي مبيت سلطانة الصغيرة في منزلنا.

اعتراني قلق شديد حيال وضع فاطمة النفسي، بالرغم من أنها وجدت نفسها في حياة لم تكن تحلم بمثلها قط، إذ أخذت تزداد توتّراً مع مرور كل دقيقة. وأدركتُ سريعاً أن وجود الدكتورة مينا ونادبا قد ساعد على تهدئتها، ووددتُ لو طلبت منهما البقاء لفترة أطول. من الواضح أن أموراً كثيرة تحدث بسرعة كبيرة للأم الشابة.

رأيتُ عين فاطمة اليسرى ترفّ بعصبية ويديها ترتجفان. وبحّ صوتها لدى إجابتها عن الأسئلة. وبدا عليها التوتر في لحظة لتحلّ محلّه في اللحظة الأخرى علامات الرعب. وأنا متأكدة من أنها لم تحضر من قبل داخل جدران قصر؛ ورأيت عينيها تجحظان دهشة، وهي تتفحص غرفنا الضخمة والأثاث الفاخر والديكور. وخشيت حقّاً من أن يُغمى عليها.

وما إن تعرفت فاطمة إلى سلمى وحنين حتى أضحت أكثر بؤساً. نظرتْ إليّ، ثم أدارت ظهرها، وهي تتحدث إلى حنين همساً.

بدت حنين لبرهة في حيرة، ثم ابتسمت وربّتت بلطف كتف فاطمة،

وأجابت بصوت مرتفع كفاية لأسمعه:

«لسنا، بالتأكيد، عبيداً في هذا القصر يا فاطمة. نعمل للأميرة ولعائلتها. وأنا أحب عملي وحرّة في المغادرة في أي وقت أريد».

يا لفاطمة المسكينة! تخشى من أننا قد نسجنها. أردت أن أهرع وأطمئنها، لكنني امتنعت. فكلما ارتاحت فاطمة في غرفتها الخاصة، ستهدأ سريعاً. ولدينا الكثير من الغرف الشاغرة في قصرنا في الرياض، فأعطينا فاطمة وابنتيها غرفة واسعة جداً.

طلبنا إلى سلمى وحنين أن تنسيا لبضعة أيام أمر وظيفتيهما وتساعدا بدلاً من ذلك فاطمة وابنتيها على الاستقرار. وبدا أن الاثنتين قد رضيتا بظروفهما الجديدة، لأنّهما ألفتا طريقتي؛ فقد قالتا لي في الماضي إن الضجر لا يعرف مكاناً له في عملهما، لأنهما لا يسعهما التأكد مما سيفعلانه كل يوم. وأعرف أن سلمى تستمتع بعملها كطباخة؛ فطلبت إليها أن تتولّى تحضير أي نوع من الطعام تحبه فاطمة وابنتاها، والانضمام، من ثم، إلى حنين لإشعار ضيفاتنا بالراحة.

شغلتْ أماني نفسها في أخذ قياسات فاطمة والفتاتين، لأنهن يحتجن إلى ملابس جديدة. فقد ارتدين ملابس عادية جدّاً، بالية وممزقة، وكادت أحذيتهن تتهرأ. ونحن نحتفظ بتشكيلة من الملابس الجديدة والأحذية في خزانة كبيرة على مقربة من غرف نوم الخادمات، تحسّباً لعدم امتلاك مَن يعملن عندنا المال اللازم لشراء الملابس الضرورية، وبخاصة لدى وصولهن إلى العمل في القصر. كما أنني أحتفظ بمجموعة من ملابس الأولاد والأحذية وأقواس الشعر، وغير ذلك من اللوازم، إذ يحدث أحياناً أن أضطر إلى المساعدة، كعادتي، عندما أسمع بوجود طفل محتاج.

أخذتْ حنين وسلطانة الصغيرة ابنتَيْ فاطمة إلى الحمام الكبير، الأمر الذي أثار الكثير من صيحات الحماسة عند الطفلتين. فقد أحبتا بنوع خاص الجِمال والخراف المطاطية الصغيرة التي كانت في انتظارهما. ولعبتا باللُّعَب الصغيرة في مياه الحوض الدافئة. وقد وضع في المياه سائل عطر أحدث الكثير من الفقاقيع وأدى إلى المزيد من الإثارة.

حمل مثل هذا الفرح الطفولي الكثير من السعادة إلى سلطانة الصغيرة، إضافة إلى النساء الراشدات اللواتي راقبن تلك الفتاتين البريئتين اللتين ربما لم تحظيا طوال سنواتهما الثلاث بمثل هذا الاستحمام، أو بمثل هذه اللعب الجديدة. ولاحظتُ، قبل مغادرتي المكان، أن فستان سلطانة الصغيرة الجميل قد تبلّل بالماء، لكنني لم أبالِ. فقد انغمستْ حفيدتي بابتهاج في مساعدة الآخرين، ولم

يسبق لي أن شعرتُ بمثل هذا اليقين بأنها ستكرّس حياتها للإحسان والعمل الإنساني، وتلك هي أمنيتي.

تركتُ فاطمة بين يدي سلمى الكفيّتين، وشكرت أماني على اهتمامها بتولّي جمع أدوات الزينة والثياب لضيفتنا وابنتيها. وعندما تركتُ أماني لأنسحب إلى غرفة نومي وأرتاح لبضع ساعات قبل عودة كريم من يومه الطويل في المكتب، بدا على ابنتي مظهر المرأة التي تمارس رسالة الرحمة. نادراً ما يشتكي زوجي من عملي الإنساني إلا عندما أنهك نفسي ويعجز معها جسمي، بعد يوم من العمل، عن الاسترخاء والاطلاع على آخر أمور العائلة. وعرفتُ أنه عَقد في ذلك اليوم عدة اجتماعات مهمة، وسيستمتع بمشاركتي في المعلومات عنها. ويريد أيضاً معرفة المزيد عن فاطمة وابنتيها لنناقش معها مختلف الخيارات، واتخاذ القرار النهائي في شأن مقر إقامتها الدائم.

عدتُ إلى غرفة نومي، واسترخيت في حمام مهدّئ، وارتديت عباءة مريحة من نوع الكيمونو اشتراها لي عبد الله من اليابان، وسرّحت شعري الطويل، وتمدّدت على سريري، بعد هذه المهمة الطويلة، معتقدة أنني سأكتفي فقط بإغماض عينيّ من دون أن أغفو.

أفقتُ بعد ساعات عدة على قبلات صغيرة على جبيني وخدّي وعلى شفتيّ من ثم. عاد كريم إلى المنزل، وهو في مزاج رائع بعد نهار ناجح بشكل استثنائي. كما أنه قضى في الصباح وقتاً جيّداً مع عبد الله. فابننا هو أفضل صديق لوالده، ويشعر بالأمر نفسه حيال والده.

شعرتُ بسعادة أكبر لرؤية زوجي، لأنني تأكدت، وللمرة الأولى في حياتنا، أنه أدرك أخيراً أهمية العمل الذي أقوم به، وأن كل امرأة يجري إنقاذها تجعل من العالم الذي نعيش فيه مكاناً أفضل. وقد انقضت سنوات، وأنا أبشّر بأن خسارة كل امرأة تضرّ بنا جميعاً، وها هو زوجي قد أخذ أخيراً يتفهم ذلك.

استمتعت أنا وكريم بتناول القهوة معاً، وشجّعني بعدها على دعوة أماني وسلطانة الصغيرة لقضاء الوقت معه، فيما أتفقّدُ فاطمة وابنتيها.

مرّت لحظات قليلة هُرعت بعدها سلطانة إلى غرفة نومنا لمشاركتنا في حماستها بخصوص ضيفاتنا. وسُررت لرؤية أماني وقد ألبست سلطانة الصغيرة ثياباً جافة، بالرغم من أن حفيدتي قد ارتدت لباساً غير متناسق وصغيراً جدّاً عليها. ومن الواضح أن أماني قد استخدمت ثياباً من جناح الخدم، لكن سلطانة الصغيرة كانت سعيدة، كما لم يسبق أن رأيتها من قبل.

تمسكت سلطانة الصغيرة بيدي قائلة: «لم تعرف عفاف وعبير، يا جدتي، أن كرة البوظة تؤكل! اعتقدتا أن كرات البوظة لُعَب. ورمتا بها على عمّتي أماني. أترين ثوبها؟ لقد اتسخ الآن».

«نعم، أرى ذلك»، قلتُها، وأنا أتفحص ثوب أماني وقد تلطخ جزؤه الأعلى ببقع من الفراولة والشوكولاتة. وأماني دائمة النظافة، ولا تحتمل ارتداء ثياب ملطخة، منذ كانت طفلة، لكنها هزّت الآن كتفيها، من دون اهتمام متجاهلة البقع بابتسامة.

سمعتُ، وأنا أغادر الغرفة، سلطانة الصغيرة تخبر جدها بحماسة أنها تسهم في إنقاذ الفتاتين الصغيرتين، وأنها تريد من الفتاتين اللتين لهما الوجه نفسه والشعر نفسه، الإقامة في قصر والدها ووالدتها.

استولت الفتاتان التوأمان على قلب سلطانة الصغيرة. لم يسبق أن سألتُ عن اسميهما، لكنني سُررت لأن فاطمة أسمتهما عفاف، أي البتول أو الطاهرة، وعبير، أي عطر الورد.

عندما دخلت إلى غرفة النوم التي تشغلها فاطمة وابنتاها، لاقتني حنين وإصبعها على شفتيها، وهمست: «نامت التوأمان أخيراً. فقد أنهكتا بعد الاستحمام الطويل والعشاء الكامل».

«هل تناولت فاطمة الطعام هي الأخرى؟».

«القليل منه. بدت مضطربة جداً، أيتها الأميرة. أعتقد أنها تحتاج إلى رؤية طبيب».

«طبعاً. ستحصل فاطمة وابنتاها في الغد على فحص طبّي دقيق».

«لا تزال شديدة التوتّر».

«لا يمكن لومها، فقد عاشت أفظع حياة. لم تستطع قط الوثوق بأفراد عائلتها. ولا بد من أن منظر جميع أولئك الغريبات اللواتي يحاولن المساعدة قد أخافها جدّاً. آمل في أنك أعدت التأكيد لها أنها لن تكون أمَة».

«نعم، لقد فعلتُ أيتها الأميرة»، قالتها حنين بابتسامة عريضة. «طرحتْ عليّ أسئلة كثيرة. وتساءلتْ إذا كنتِ تضربين خادماتك، وارتاحت إلى حد بعيد عندما أكّدتُ لها أنك لم ترفعي صوتك قط بوجه خادمة، ولم يُعرف عنك بالتأكيد أنك تضربيننا!».

«نعم، يا للعزيزة المسكينة. أتأسف كثيراً على الحياة التي عاشتها.

لكن لم يعد لديها ما تخشى منه، بالرغم من أنها لم تتأكد من ذلك بعد».

انفطر قلبي على فاطمة. فهي لا تعرف أنها ستكون في مأمن مادمت على قيد الحياة، ومن ثم سيتولى ابني وابنتاي أمرها بعد غيابي عن وجه هذه الأرض. وتملّكني شعور رائع لمعرفة أن هناك امرأة سعودية تعرّضت في السابق لسوء المعاملة، ولن يكون عليها أن تعيش في خوف بعد الآن.

سرتُ بهدوء إلى غرفة نومهن واسترقت النظر. فاطمة غافية. ولتشعر بالأمان وضعتُ فتاة عند كل جانب من جانبيها، وفي السرير نفسه. لا يمكنني لومها، فقد شارفت على فقدان ابنتيها بسبب البيروقراطية الحكومية المجرّدة من الإحساس.

رتّبت أماني في اليوم التالي عدة مواعيد مع طبيباتها الخاصات. فهي تتمتّع بعلاقات جيّدة مع عدد من طبيبات القصر. وهكذا دبّرت موعداً خاصاً لفاطمة كي ترى طبيبة أمراض عامة من مصر. وقامت بالترتيبات اللازمة لتكشف على الفتاتين واحدة من أفضل طبيبات الأطفال في السعودية، وهي امرأة إنكليزية رائعة.

ارتحنا لعدم وجود أي مرض خطير عند فاطمة، مع أننا لم نُدهش لمعرفتنا أنها مصابة بالجروح القديمة الناجمة عن الضرب الذي تعرضت له من زوجها، بما في ذلك كسور في الضلوع واليد والأنف؛ سبق أن تعافت منها بصورة سيئة، لأنها لم تعالج كما يجب. وستعاني دوماً من الألم في يدها إلا إذا أعيد كسر العظمة وتجبيرها من جديد. كما أنها تحتاج إلى عناية كبيرة بأسنانها بعد أن تسبّب لها زوجها في كسر أكثر من عشر منها.

أرسلتُ خبراً إلى الطبيبات عبر أماني بأن فاطمة ستغادر المملكة عما قريب، طالبة منهن كتابة إحالة إلى حيث ستستقر فاطمة. أردت ترميم أنفها وإعادة تجبير عظمة يدها، وتصليح أسنانها، وما تحتاج إليه غير ذلك.

أحمد الله أن الصغار مرنون جدّاً، وقد تمتعت كلتا الفتاتين بالصحة باستثناء إصابتهما بالطفيليات، وهو أمر شائع لدى العائلات الفقيرة في بلادي. وحصلتا على الأدوية المناسبة. وقيل لي ألاّ أقلق بشأن سلطانة الصغيرة لأن من غير المرجح أن تصاب بالعدوى. إلا أنني اتصلت بزين لعرض سلطانة الصغيرة على طبيبة الأطفال نفسها في شأن تلك الطفيليات.

احتاجت إحدى الفتاتين إلى نظارة طبية، في حين تمتعت الأخرى بنظر ممتاز. ولطالما اعتقدتُ أن التوائم نسخة طبق الأصل الواحدة

عن الأخرى، وكانت تلك المعلومة جديدة علي.

أصبحتْ نفسيّة فاطمة، على امتداد الأسابيع القليلة التالية، أكثر هدوءاً بعد أن أدركت أنها بأمان بالفعل. وقد عنينا، أنا وكريم، ما قلناه؛ لم يعد عليها أن تخاف من أن تصبح مشرّدة، أو من أن تؤخذ منها ابنتاها. ويجب ألّا تقلق بعد الآن من أن يجري التخلي عنها. ويمكنها العمل عندنا لما تبقى من حياتها، مع أننا أردناها أن تريح جسمها المتعب لبضعة أشهر قبل اتخاذ أي قرار في شأن مستقبلها.

سألتها مرّة، وهي في مزاج جيد: «أتودّين، يا فاطمة، التفكير في يوم من الأيام بالزواج من جديد؟».

انقبضت نفس فاطمة بشكل ظاهر، وهي تحدّق إلي بعينين جاحظتين، وقد فغرت فاها. بدا كما لو أنها تخشى من أنني فقدت عقلي وأصبحت خطرة. ابتلعتْ ريقها بقوة، حيث سمعتُ الصوت يخرج من حنجرتها. وأجابت أخيراً بصوت ضعيف: «لا، أيتها الأميرة. أرجوك، لا. كان لي حاكم واحد، ولا أريد أبداً لرجل آخر أن يحكمني. لا».

«لكنك شابة جدّاً يا فاطمة. وليس جميع الرجال كزوجك السابق».

وأشارتْ فاطمة المسكينة إلى وجهها، وهي تمسّد أنفها الكبير الملتوي بأصابعها. «لن يحبّني أي رجل، بهذا الوجه القبيح، كما يحبّك زوجك أيتها الأميرة. لا، يا أميرة، هذا غير ممكن. جلّ ما أريده من الحياة هو أن أتخلّص من خوفي من التعرّض للضرب، أو من أنني سأجوع، أو من أن يحاول أحدهم أخذ ابنتيّ مني. وحين أحصل على مستقبل كهذا، فسوف أكون أسعد امرأة على قيد الحياة».

اقتربتُ من فاطمة، وعانقتها بلطف قائلة: «أهذه هي الحياة التي تريدينها؟ إنني أعدكِ يا فاطمة، أن تنعمي بها». وشعرتُ بفرحة كبيرة لمعرفتي أن المرأة التي وصفت نفسها مرّة بأنها أتعس إنسانة في العالم باتت لديها اليوم الفرصة لتصبح أسعد امرأة على قيد الحياة. وسأحرص أن يكون ذلك هو واقع فاطمة الجديد.

«شكراً، أيتها الأميرة. شكراً. لقد أنقذتنا جميعاً»، قالتها، وهي تنظر إلى ابنتيها بابتسامة مفعمة بقدر كبير من اللطف والحب، حيث بدت في نظري أجمل ما يمكن أن تكون عليه امرأة.

شجّعتُ فاطمة على صرف ما تريده من الوقت لإراحة جسمها المتعب، وتكرّس كل لحظة من لحظاتها لابنتيها. وكان من المجزي رؤية أمّ شابة تستمد مثل هذا الفرح من اللعب مع ابنتيها. ولما استخدمتُ معلمة خصوصية للبدء بتعليم الابنتين، سألتْ فاطمة إن كانت تستطيع أن تنضم إليهما، لأنها لم تتلقَّ أي تعليم قط، وتعتقد

أنها فرصة جيدة لتعلُّم القراءة والحساب.

مضت ثلاثة أشهر على إقامة فاطمة وابنتيها في منزلنا. ناقشنا بعدها معها كل الخيارات، لكننا طلبنا منها أن تقرّر أين تريد العيش. فكّرتْ لبضعة أسابيع في وضعها قبل أن تأتينا بالجواب، طالبة البقاء في السعودية، إن أمكن ذلك، لأنها متآلفة مع بلادنا، وتخشى الذهاب إلى إنكلترا أو مصر أو أي أرض غريبة أخرى.

تعلّقت عائلتي جدّاً، بفاطمة وابنتيها الغاليتين. ودعونا فاطمة، على أثر عدة نقاشات عائلية، إلى الإقامة في قصرنا الصغير في الطائف، حتى نتمكّن من متابعة حالها وحال ابنتيها اللتين نريد جميعنا رؤيتهما؛ وقد تلقتا أفضل تعليم. وأشارت أماني إلى أن الابنتين كلتيهما تظهران إشارات ذكاء حاد، بالرغم من صغر سنهما، وتعتقد أن علينا تحضيرهما لتلقي المستوى العالي من التعليم. وربما تمكنتا، على غرار الدكتورة مينا، أن تبلغا في يوم من الأيام مركزاً أكاديمياً مرموقاً.

ولِمَ لا؟ فقد حقّقت الدكتورة مينا ذلك الهدف العظيم من دون أن تحصل على الدعم من أميرة ترعاها. وفي وسع التوأمين، بدعم منّا، متابعة أحلامهما، مهما تكن.

وهكذا، أنا مسرورة بالإفادة من امرأة شابة تدعى فاطمة تساعدنا كما نحن نساعدها، فهي واحدة من أكثر الموظفات اللواتي سُررنا بتوظيفهن إخلاصاً واجتهاداً. وهي على درجة عالية من الكفاءة حيث باتت تشرف على منزلنا في الطائف. وترتبط بعلاقات جيّدة مع جميع خادماتنا هناك، إضافة إلى أفراد عائلتنا. وتكسب فاطمة مرتّباً جيّداً وتدخر معظم أموالها، لأنها تحصل على غرفتها وطعامها مجاناً. وتستطيع ابنتاها الالتحاق بالمدرسة التي تريدانها إذ تولّت أماني الدعم المالي لهما.

باتت سلطانة الصغيرة تستمتع بالطائف أكثر من استمتاعها في أي منزل آخر من منازل عطلتنا، لأنها تدّعي أنها مسؤولة عن سعادة عفاف وعبير اللتين تحبّان سلطانة كشقيقة كبرى، بدلاً من كونها حفيدة ربة عمل والدتهما.

هذا التفاعل كان جيّداً لأولادي وأحفادي، لأننا حصلنا على نعمة الثروة من دون أن نكتسبها. ومن حسن حظنا أن اللَّه قد خلقنا في هذه العائلة. ونحن لا نستحق الثروة التي أعطيت لنا، وعلينا بالتالي أن نشارك الآخرين بها، ونعاملهم بالكرامة والاحترام أنفسهما اللذين نتمتع بهما. وتساعدنا هذه الأخلاقيات على إبقاء أقدام أولادنا وأحفادنا على الأرض. فنحن في النهاية نتعلّم كمسلمين أننا لسنا أفضل من أي رجل أو امرأة، وليس هناك بالمقابل رجل أو امرأة

أنها فرصة جيدة لتعلُّم القراءة والحساب.

مضت ثلاثة أشهر على إقامة فاطمة وابنتيها في منزلنا. ناقشنا بعدها معها كل الخيارات، لكننا طلبنا منها أن تقرّر أين تريد العيش. فكّرتْ لبضعة أسابيع في وضعها قبل أن تأتينا بالجواب، طالبة البقاء في السعودية، إن أمكن ذلك، لأنها متآلفة مع بلادنا، وتخشى الذهاب إلى إنكلترا أو مصر أو أي أرض غريبة أخرى.

تعلّقت عائلتي جدّاً، بفاطمة وابنتيها الغاليتين. ودعونا فاطمة، على أثر عدة نقاشات عائلية، إلى الإقامة في قصرنا الصغير في الطائف، حتى نتمكّن من متابعة حالها وحال ابنتيها اللتين نريد جميعنا رؤيتهما؛ وقد تلقتا أفضل تعليم. وأشارت أماني إلى أن الابنتين كلتيهما تظهران إشارات ذكاء حاد، بالرغم من صغر سنهما، وتعتقد أن علينا تحضيرهما لتلقي المستوى العالي من التعليم. وربما تمكنتا، على غرار الدكتورة مينا، أن تبلغا في يوم من الأيام مركزاً أكاديمياً مرموقاً.

ولِمَ لا؟ فقد حقّقت الدكتورة مينا ذلك الهدف العظيم من دون أن تحصل على الدعم من أميرة ترعاها. وفي وسع التوأمين، بدعم منّا، متابعة أحلامهما، مهما تكن.

وهكذا، أنا مسرورة بالإفادة من امرأة شابة تدعى فاطمة تساعدنا كما نحن نساعدها، فهي واحدة من أكثر الموظفات اللواتي سُررنا بتوظيفهن إخلاصاً واجتهاداً. وهي على درجة عالية من الكفاءة حيث باتت تشرف على منزلنا في الطائف. وترتبط بعلاقات جيّدة مع جميع خادماتنا هناك، إضافة إلى أفراد عائلتنا. وتكسب فاطمة مرتّباً جيّداً وتدخر معظم أموالها، لأنها تحصل على غرفتها وطعامها مجاناً. وتستطيع ابنتاها الالتحاق بالمدرسة التي تريدانها إذ تولّت أماني الدعم المالي لهما.

باتت سلطانة الصغيرة تستمتع بالطائف أكثر من استمتاعها في أي منزل آخر من منازل عطلتنا، لأنها تدّعي أنها مسؤولة عن سعادة عفاف وعبير اللتين تحبّان سلطانة كشقيقة كبرى، بدلاً من كونها حفيدة ربة عمل والدتهما.

هذا التفاعل كان جيّداً لأولادي وأحفادي، لأننا حصلنا على نعمة الثروة من دون أن نكتسبها. ومن حسن حظنا أن الله قد خلقنا في هذه العائلة. ونحن لا نستحق الثروة التي أعطيت لنا، وعلينا بالتالي أن نشارك الآخرين بها، ونعاملهم بالكرامة والاحترام أنفسهما اللذين نتمتع بهما. وتساعدنا هذه الأخلاقيات على إبقاء أقدام أولادنا وأحفادنا على الأرض. فنحن في النهاية نتعلّم كمسلمين أننا لسنا أفضل من أي رجل أو امرأة، وليس هناك بالمقابل رجل أو امرأة

أفضل منا.

إن اتباع مثل هذه التعاليم أمر جيد، ومن الأفضل كذلك الإيمان بأنها حقّ. وأنا أؤمن بذلك.

***

تلقّيت، بعد أيام قليلة من توفير الاستقرار لفاطمة وابنتيها، اتصالاً هاتفياً غير متوقع من الدكتورة مينا. طلبت إليّ المجيء إلى مكتبها في المستشفى، لأتمكّن من مقابلة امرأة سعودية أخرى تجلس في عيادتها الخارجية.

وسألتها، بالنظر إلى كثرة انشغالي في هذا الصباح. «وهل تحتاج المرأة المسكينة إلى المساعدة الفورية؟».

صمتت الدكتورة مينا لبرهة طويلة وأردفت: «أعتقد، أيتها الأميرة، أن عليك مقابلتها شخصياً لتقرري بنفسك. أرجو أن تتوفر لديك ساعة واحدة من يومك للمجيء».

ولمعرفتي أن الدكتورة مينا لا تلحّ إلا في حال وجود حاجة إليّ، وافقتُ على تنظيم يومي، لأتمكّن من مغادرة القصر، والذهاب إلى المستشفى بأسرع ما يمكن.

أرجأتُ مواعيدي، وتوجّهت إلى المستشفى الذي تعمل فيه الدكتورة مينا. ووجدتُ نفسي مرّة أخرى أسير عبر الرواق الطويل، أدقق في الأشكال الغامضة الملفوفة بالعباءات السود والبراقع، وكل منهن تمضي في سبيلها. سارت امرأة أمامي ببطء، وقدماها المتشققتان تخبطان بلاط الأرضية الصلبة بصندلها البلاستيكي. وارتدت امرأة أخرى، بدوية، وشاحاً بفتحة صغيرة استطعت من خلالها رؤية التحديقة الثابتة في عينيها السوداوين.

تلحّفت كل واحدة، على غراري، كلّياً بالأسود. وأملتُ، صدقاً، في أن يكنّ معظمهن سعيدات، يشعرن كما أشعر بأنني امرأة تتمتع بحياة كاملة، وأرتدي الحجاب إلى أن ينتهي العمل بهذا التقليد في الرياض، وسواها من المدن المحافظة.

وسرعان ما وقعت عيناي على ناديا، التي ارتدت عباءتها ووشاح رأسها، لكن من دون الحجاب. وأفرحني مثل ذلك المنظر، فناديا تتمرّد على عادة التحجّب. وتحرّكتْ مسرعة في اتجاهي، وهي كما يظهر لا تصبر على وصولي. وقد رُكّز ذهني في لقاء الدكتورة مينا، لكنني رحّبت بناديا بلطف قبل أن أسأل: «هل تطورت حال المرأة المسكينة نحو الأسوأ؟».

أفضل منا.

إن اتباع مثل هذه التعاليم أمر جيد، ومن الأفضل كذلك الإيمان بأنها حقّ. وأنا أؤمن بذلك.

***

تلقّيت، بعد أيام قليلة من توفير الاستقرار لفاطمة وابنتيها، اتصالاً هاتفياً غير متوقع من الدكتورة مينا. طلبت إليّ المجيء إلى مكتبها في المستشفى، لأتمكّن من مقابلة امرأة سعودية أخرى تجلس في عيادتها الخارجية.

وسألتها، بالنظر إلى كثرة انشغالي في هذا الصباح. «وهل تحتاج المرأة المسكينة إلى المساعدة الفورية؟».

صمتت الدكتورة مينا لبرهة طويلة وأردفت: «أعتقد، أيتها الأميرة، أن عليك مقابلتها شخصياً لتقرري بنفسك. أرجو أن تتوفر لديك ساعة واحدة من يومك للمجيء».

ولمعرفتي أن الدكتورة مينا لا تلحّ إلا في حال وجود حاجة إليّ، وافقتُ على تنظيم يومي، لأتمكّن من مغادرة القصر، والذهاب إلى المستشفى بأسرع ما يمكن.

أرجأتُ مواعيدي، وتوجّهت إلى المستشفى الذي تعمل فيه الدكتورة مينا. ووجدتُ نفسي مرّة أخرى أسير عبر الرواق الطويل، أدقق في الأشكال الغامضة الملفوفة بالعباءات السود والبراقع، وكل منهن تمضي في سبيلها. سارت امرأة أمامي ببطء، وقدماها المتشققتان تخبطان بلاط الأرضية الصلبة بصندلها البلاستيكي. وارتدت امرأة أخرى، بدوية، وشاحاً بفتحة صغيرة استطعت من خلالها رؤية التحديقة الثابتة في عينيها السوداوين.

تلحّفت كل واحدة، على غراري، كلّياً بالأسود. وأملتُ، صدقاً، في أن يكنّ معظمهن سعيدات، يشعرن كما أشعر بأنني امرأة تتمتع بحياة كاملة، وأرتدي الحجاب إلى أن ينتهي العمل بهذا التقليد في الرياض، وسواها من المدن المحافظة.

وسرعان ما وقعت عيناي على ناديا، التي ارتدت عباءتها ووشاح رأسها، لكن من دون الحجاب. وأفرحني مثل ذلك المنظر، فناديا تتمرّد على عادة التحجّب. وتحرّكتْ مسرعة في اتجاهي، وهي كما يظهر لا تصبر على وصولي. وقد ركّز ذهني في لقاء الدكتورة مينا، لكنني رحّبت بناديا بلطف قبل أن أسأل: «هل تطورت حال المرأة المسكينة نحو الأسوأ؟».

واجهتني ناديا بابتسامة عريضة وجدتُها غير مناسبة في مثل هذه الظروف الطارئة. لكنني أطبقت فمي، ولم يصدر عنّي أي نقد.

«لا، أيتها الأميرة، فالمرأة بخير، في الوقت الحاضر». إلا أن ما تفوّهت به ناديا لاحقاً من كلام اتّسم بنبرة غريبة. «لكنّ عائلتها قد تكون في خطر».

«ماذا؟». أخذت هذه المسألة تتحوَّل إلى لغز لي. فما الذي تتحدّث عنه ناديا؟

«أرجوك، أيتها الأميرة، أن تأتي معي إلى العيادة الخارجية حيث تنتظرك الدكتورة مينا مع المرأة، واسمها نور».

تبعت ناديا، إذ أخذت القضية تصبح أكثر إثارة للاهتمام مع مرور الوقت. وازداد شوقي إلى سماع هذه القصة. وبعد دقائق، ونحن نقترب من العيادات الخارجية المتراصفة كلّها في خط مستقيم إلى جانب الرواق الرئيسي، سمعتُ صوتاً نسائياً قوياً يستعر غضباً.

«تلك نور، أيتها الأميرة»، قالتها ناديا.

«نعم»، لاحظتُ. ولم أستطع تماماً فهم ما يُقال، لكنني افترضتُ أن المرأة المسكينة، التي عانت سوء المعاملة ووجدت نفسها الآن في رفقة أخريات حاضرات لحمايتها، قد تحلّت بالشجاعة للدفاع عن نفسها ضد زوجها.

واكبتني ناديا إلى مكتب الدكتورة مينا الصغير قبل أن تودعني على عجل. كان الباب المجاور المؤدّي إلى غرفة الفحص مفتوحاً. لم أكن، وأنا أقف عند الباب، جاهزة لرؤية ما رأيته. رجل بدوي قوي البنية، يرتدي ثوباً أبيضَ ملطّخاً وشماغاً (الكوفية التقليدية ذات المربعات الحمراء والبيضاء التي يرتديها الرجال السعوديون) غير مرتب، وقد انهار على الكرسي، ورأسه متدلّ على صدره، كما لو أن المنية قد وافته فجأة. أهو ضحية نوبة قلبية؟ شهقتُ بحدّة عندما رأيت الدم يسيل من عنقه وذراعه. دخل هذا الرجل في شجار، وهو، على الأرجح، يهاجم امرأة مغلوباً على أمرها!

لم يستطع رؤية وجهي، إلا أنني استطعت رؤية وجهه الممتلئ بندوب كبيرة ناتجة من إصابته بحبّ الشباب عندما كان في سن المراهقة. وعندما أفاق من غفوته للنظر إليّ، رأيت أن بياض عينيه تحوّل إلى اللون الأحمر. بدا منهكاً، لكنه وجد ما يكفي من الطاقة للابتسام بخبث، وهو يهمس: «أأنت الأميرة؟».

لم أتجشم عناء الردّ على سؤاله! يتضح أنه واحد من أولئك الرجال الذين يفتخرون بإساءة معاملة النساء في عائلته. عبستُ في وجهه،

لكنه لم يرَ نظرتي الغاضبة بسبب الحجاب الذي يغطّي وجهي.

ويبدو أن الدكتورة مينا تتمتّع بحاسة سمع استثنائية، حيث نادتني قائلة: «أرجوك، ادخلي».

بلغ فضولي عند هذا الحد أوجّه. ولبّيتُ طلب الدكتورة مينا التي وقفت بجانب مريضة تملأ التجاعيد وجهها. ولا يمكن استخدام مثل هذه العلامات في السعودية للتثبت من عمر المرأة، لأن الكثيرات من النسوة يشخن باكراً. لكنني تكهّنت أنها على الأرجح في الخمسين أو أكبر. وهي ترتدي فستاناً قطنياً أحمر مطرّزاً في جزئه الأعلى برسوم ذات ألوان فاقعة. وقد لفّت عنقها بوشاح أسود.

ظهرت على وجه المرأة تعابير مريرة، وهي تجلس على طاولة الفحص، وقد تدلّت رجلاها الحافيتان، وكتّفت يديها الخشنتين السمراوين على صدرها؛ وكأنها تحتضن ذراعها المصابة برضوض قوية وخدوش. خفضتُ عيني إلى قدميها الحافيتين اللتين تحتاجان إلى العناية، بالنظر إلى خشونتهما ووجود بقع سميكة من الجلد الجاف؛ وقد تكسّرت أظفار قدميها وتشقّقت. أما بنيتها العامة فقد كانت بنية امرأة نحيلة وضعيفة لا يغطي عظامها إلا القليل من اللحم.

كنت أنظر إلى امرأة بدوية، من المؤكد أنها زوجة الحيوان الجالس في الرواق. تصوّرت أنني قد استُدعيت للمساعدة في إنقاذ هذه المرأة التي قد تكون تعرّضت لضرب زوجها أو إلى ما هو أسوأ، بالرغم من أنني لم أر علامات على سوء المعاملة. ولم تظهر بشرتها المتورّدة أي دليل على كدمات أو ندوب. رأيت على يديها، وأنا أتفحص جسمها كله بعينيّ، دماء جافة اعتقدت أنها، على الأرجح، ناجمة عن حالة دفاعية.

«شكراً، أيتها الأميرة، على مجيئك».

«نعم، بالطبع، دكتورة مينا».

أومأت الدكتورة مينا برأسها نحو المرأة، قائلة: «هذه المرأة اسمها نور. وزوجها، محمّد، ينتظرها في الغرفة الأخرى».

نظرتُ إلى المرأة التي تدعى نور ورفعت حجابي من الأسفل وابتسمت. لكن المسكينة لم تبادلني الابتسامة. لا ريب في أنها تتعافى من الاعتداء الجسدي الأحدث عليها.

«ما المشكلة، دكتورة؟». سألتُ، وقد أخذ الغضب يتراكم في داخلي.

قاطعتني نور بوقاحة مشيرة بإصبعها إلى الباب المفتوح، وهي حركة مهينة جداً يقوم بها أي سعودي، وتحدّثت بصوت مرتفع: «المشكلة هي ذلك الرجل الكسول. لقد حان وقت الطلاق».

ولم يصدر أي ردّ عن زوجها محمّد.

أخذت نور تلهث غضباً، وهي تزعق: «أنائم أنت، يا حمار؟».

وتدخّلت الدكتورة مينا قائلة: «أرجوك، يا نور، نحن هنا لحل المشكلات. فلا تتسببي في أخرى جديدة».

حدّقت نور إلى الدكتورة مينا، وقالت: «لكنه حمار!».

وتناهت إليّ ضحكة خافتة وصوت ذكوري يقول: «لن أطلقك أبداً، يا نور، أبداً. ستبقين زوجتي حتى يوم مماتك».

وصاحت آمرة، مع تلويح رافض من يديها السمراوين: «أطلبُ الطلاق!».

أخذ المشهد المتكشّف أمامي يربكني فوضعت يدي على جبهتي متسائلة عمّا يجري. ولماذا جرى استدعائي؟

دخلتْ نسخة أصغر سنّاً عن نور إلى الغرفة. هزّت برأسها وابتسمت لكنها لم تتكلّم. وانتقلت لتصبح أكثر قرباً من أمها. وبدا كما لو أن نوراً لم تلاحظ ابنتها.

انتقلت الدكتورة مينا إلى المدخل المفتوح، وتوجّهت ببضع كلمات هادئة إلى زوج نور قبل أن تقفل الباب.

ولما توفّرت الخصوصية نزعتُ حجابي بالكامل.

واستفسرتُ، قائلة: «ما الذي فعله بهذه المرأة المسكينة؟».

«أرجوك، أيتها الأميرة، أن تجلسي لبرهة»، قالتها الدكتورة مينا وهي تشير إلى طاولة صغيرة وكرسيين. «سأجلس معك. وأرجوك أن تغفري لي مقاطعة نهارك من أجل وضع غير عادي». هززتُ كتفي بلامبالاة، لكنني لم أتكلّم وأنا أعاود خطف النظر إلى وجه نور الكالح، وقد شرعتْ فجأة في التحرك للنزول عن طاولة الفحص.

«أرجوك يا نور أن تبقي جالسة في مكانك. واسمحي لنا بلحظة».

أوقفت نور بامتعاض تحرّكها، وعادت على مضض إلى وضعها السابق، وجلست من دون أن تأتي بحركة.

توقّفتْ الدكتورة مينا عن التحدّث بالعربية وتواصلت معي بالإنكليزية حتى يبقى كلامنا سرّاً.

«أرجوك أن تعذريني أيتها الأميرة على إخبار قصة امرأة أخرى، لكن نور مضطربة جدّاً. كما أن ابنتها سريعة الغضب هي الأخرى. وكلتا المرأتين شديدتا الانفعال، فإذا بدأتا بالكلام لا تستطيعان التوقف».

«أرجوك يا دكتورة أن تخبريني».

«هدفنا، كما سبق أن ناقشنا ذلك أيتها الأميرة، هو مساعدة الفتيات والنساء السعوديات على التخلص من العلاقات المسيئة. كما أننا نستخدم طاقتنا لإنقاذ الفتيات الصغيرات من الزواج، والأهم من ذلك إبقاؤهن في المدرسة. وبإمكان هذه المهمة الكبيرة أن تثبط عزيمة الجميع لوجود الكثير من الروايات المفجعة المرتبطة بالنساء السعوديات. وبالرغم من أننا نستمتع بانتصاراتنا، مع شابات مثل ناديا، أو فاطمة وابنتيها، فإننا نعرف جميعاً أن أصابعنا الصغيرة الموضوعة في الثقوب الدقيقة لحاجز البؤس البشري، لا تستطيع وقف الفيضان؛ وأن هناك الآلاف الكثيرة من الشابات والنساء اللواتي يستحيل إنقاذهن».

زمّت الدكتورة مينا شفتيها، وأشاحت بنظرها واعتنت في اختيار كلماتها وتابعت: «تعرف كلتانا أيتها الأميرة أن الفتيات والنساء هن اللواتي يحتجننا أكثر. لكن ما هي مسؤوليتنا في مساعدة امرأة جلبت على نفسها سوء المعاملة، ويُحتمل أنها أضحت خطراً على الآخرين؟».

«ما الذي تقولينه يا دكتورة مينا؟» سألتها وأنا محتارة كما لم يسبق لي أن احترت في حياتي.

«آسفة لإرباكك أيتها الأميرة»، أجابت الدكتورة مينا. «سألتكِ المجيء إلى هنا اليوم للإسهام في حل مشكلة غير عادية. أعتقد أن في وسعنا معاً الحؤول دون وقوع جريمة قتل».

«جريمة قتل؟».

نظرت الدكتورة مينا إلى نور، ثم إليّ.

وسألتُ: «مَن يواجه خطر القتل؟ أهذه المرأة البدوية؟».

«ربما»، أجابت الدكتورة مينا. «وقد يصبح زوجها هو الضحية».

وجدتُ مثل هذا السيناريو عصيّاً على التصديق. فزوج نور البدوي رجل ضخم الجثة ويبدو مفتول العضلات، في حين أن نور النحيلة

امرأة صغيرة الحجم.

رمقتني الدكتورة مينا بنظرة قوية وثابتة وتابعت: «الأمر على هذا النحو. الاثنان في هذه العلاقة مسيئان وكلاهما مساء إليه. ولا أدري في الحقيقة مَن أساعد أو من أحمي. فنور ليست بالمرأة اللطيفة جدّاً، لكنها تكدّ كثيراً في العمل، وقد أهدرت صحتها وهي تعيل زوجها الكسول وأولادهما الأربعة. ومحمّد رجل متلاعب، ومذنب بالإساءة النفسية والجسدية».

توسّعت عيناي دهشة.

راقبتْ الدكتورة مينا نوراً وابنتها لبرهة قصيرة، قبل أن تكمل قصتها العجيبة. «اسمحي لي، أيتها الأميرة، أن أخبرك قصة نور».

أومأتْ موافقة.

«نور فتاة بدوية ورحّالة صحراء حقيقية. وأعتقد أن إرثها الجيني وبيئتها القاسية هما اللذان كوّناها. كانت عائلتها، في صباها، من البدو الرحّل، لا تقضي إلا الفترة الأحرّ من السنة في الواحات أو تنتقل إلى الهضاب، بحثاً عن الكلأ للحيوانات في الجزء الأخير من الشتاء، أو الجزء الأول من الربيع. وهي واحدة من أربع بنات من أصل تسعة أولاد. وتقول إنها لما بلغت عامها العاشر لاحظ والدها أنها أقوى وأسرع وأكثر دهاء من أشقائها الخمسة.

«وبفعل قدراتها المتنوعة، والأوامر التي أصدرها والدها، لم توكل إلى نور قط أعمال نساء البدو، وهي كما تعرفين تشتمل على نصب الخيم والطبخ والعناية بالمحصول لدى وجودهم في منطقة خصبة يحاولون فيها زراعة بعض الذرة البيضاء والبرسيم أو القمح. وقامت نور بأعمال الرجال منذ سن مبكرة، حين عُهدت إليها مسؤولية الجمال الثمينة. وطُلب إلى أشقائها العناية بالخراف والماعز.

«أدهشتْ قدرات نور الواسعة العائلة بأسرها والقبيلة. وامتلكت تواصلاً خاصاً مع الحيوانات، بالنظر إلى أنها تشعر فطريّاً بالمشكلات الصحية حتى قبل أن تُظهر الحيوانات إشارات الألم. وسرعان ما شرعت نور، والدهشة تغمر الجميع، في المساعدة على التشخيص الطبي للحيوانات، وعلى معالجتها إلى جانب الطبيب البيطري في القرية البدوية.

«كانت نور ترتدي الحجاب، على غرار الفتيات والنساء البدويات الأخريات، في كل مرة تأتي فيها العائلة إلى الرياض لبيع بعض سلع النساء، لكنها رفضت تغطية وجهها لدى عودتها إلى القرية، إذ ادعت أن ذلك يحد من قدرتها على إصلاح الشاحنات أو العناية بالأنعام.

«وتقول ابنتها إنها لم تجد رجلاً يمتلك ما يكفي من الشجاعة لمواجهة نور، بالرغم من أنّها أنثى وصغيرة. ويقول من يعرفها منذ صغرها إن من الضروري رؤية نوبات غضبها للتأكد. وأبلغ شهود عيان ابنة نور أن والدتها تنفعل بقدر كبير من الضراوة، حيث يُخشى منها جسدياً. فلا أحد يعرف ما الذي يمكن أن تفعله.

«نعرف، كذلك، أن بإمكان النساء البدويات أن يكنّ قويات، وأن بعضهن لا يرتدين الحجاب، وهن في قراهن قاطنات، وهن يعملن في الحقول.

«ومما أخبرتني به ابنتها، أن والد نور شرع، عندما أصبحت في الثالثة عشرة، في معاملتها بأفضل مما عامل أشقاءها؛ بل إنه بدأ في الواقع بتفضيلها إلى حد بعيد على أبنائه.

«أضحت العائلة عند ذاك من البدو شبه الرحّل، تعيش في معظم السنة في قرية واحةٍ صغيرة لا تبعد كثيراً عن الرياض. وبات الأبناء، وهم الأكبر سنّاً، جميعهم متزوجين، ولهم عائلاتهم الخاصة. ووجد جميع أشقاء نور عملاً في الصناعة النفطية، وانتقلوا إلى مكان عملهم.

«استقرّت العائلة في القرية، فتعلّمت والدة نور وشقيقاتها حرفة جديدة، وهي فن صناعة الحلى البدوية الفضية. وأخذ، حينها، الكثيرون من الأجانب يتوافدون إلى البلاد للعمل في مدارسنا ومستشفياتنا. وتعرفين كم تحب الأجنبيات الحلى البدوية. وهكذا ازدهرت أعمال العائلة بالمقارنة مع حياتها البدوية السابقة. واستخدم والد نور بعضاً من مدخول العائلة لشراء شاحنة تويوتا بيضاء.

«تولّى الوالد في البداية قيادة الشاحنة، إلى أن عانى جلطة دماغية قُبَيل بلوغه الخمسين. فشجّع نوراً على القيادة في غياب أي أبناء يقيمون في الجوار لتولّي المسؤولية. وتعلّمت نور بنفسها. وبالرغم من ادعائها بأنها باتت سائقة ماهرة منذ اللحظة التي لمست يداها المقود، فإن ابنتها كشفت أن أمها صدمت خطأ في فترة تعلّمها زوجين من البدو وولديهما الصغيرين. ومن حسن الحظ أن نور كانت تسير ببطء شديد، ولم يتأذّ أحد. لكنها قتلت مع ذلك زوجين من الماعز وكلباً.

«أعرف وتعرفين أيتها الأميرة أن من غير المستغرب على أولئك البدويات القويات العزم تعلّم القيادة وهن صغيرات، فينقلن الأنعام والمحاصيل إلى مزارع العائلات في القرى الصغيرة».

أومأتُ برأسي موافقة. وقد رأيت بنفسي، في مناطق عدة من

السعودية، بدويات أو مُزارِعات يقدن الشاحنات والسيارات. ووُجدت مزارع كثيرة في منطقة الطائف. ومن غير النادر رؤيتهن وهن يساعدن أزواجهن أو آباءهن في نقل البضائع على طرق البلاد. واختارت سلطات الحكومة تجاهل عنادهن بالنظر إلى بعد مواقعهن.

تابعت الدكتورة مينا قصتها الفائقة التشويق: «اختلفت نور، بطرائق كثيرة، عن فتيات القرية الأخريات. فقد امتلكت مهارة خاصة في القيادة. وسرعان ما أصبحت واحدة من أقدر السائقين في القرية. وامتلكت أيضاً موهبة طبيعية في كل ما هو ميكانيكي. وسرعان ما انتشر في القبيلة خبرٌ فحواه أن الفتاة الشابة لا مثيل لها في إصلاح الآليات. وشرع الشبان في ملاحظة نور، وهي ليست فائقة الجمال لكنها تمتلك ما يكفي من الجاذبية. كما أنها، وهذا هو الأهم، قادرة على معالجة كل الأمور الضرورية للحياة. وأدرك هؤلاء الشبان أن امرأة كهذه ستضاعف قدراتهم على النجاح، وربما استطاع رجل فقير أن يثرى مع مثل هذه الزوجة الموهوبة.

«توسّعت شهرة نور في منطقتها إلى حدّ أن والدها تلقى عروضاً بالزواج منها أكثر من العروض التي تلقّاها في شأن شقيقاتها الأخريات الثلاث مجتمعات. وهذا أمر جيّد للعائلة، إلا أن هذا القدر الكبير من الانتباه ولّد قدراً كبيراً من الغرور في شخصية نور. وسرعان ما شعرت بأنها فوق جميع النساء وجميع الرجال. وأصبحت فتاة صعبة الإرضاء، بحسب ما روته والدة نور لحفيدتها. وبلغت بها العدوانية حدّاً لم يتمكن معها أحد من الوقوف في وجهها. وماذا عن نور؟ الحقيقة هي أن والدها دفعها إلى الاعتقاد بأنها أذكى وأقدر شخص في القرية.

«واعتقدت العائلة أن زوجاً قد يتمكّن من كبح بعض الشطط الأكبر لدى نور، لكن نور أحبت الحياة كما تعيشها فحسب، وردّت بعنجهية كلّ توسلات أمها إليها بقبول عرض من عروض الزواج. وارتاح والدها سرّاً، لأنه خشي من فقدان هذه الابنة الكفيّة جدّاً التي في وسعها القيام بكل ما تصمّم عليه، بما في ذلك المساومة على صفقات أفضل للمحاصيل وقيادة الشاحنة وإصلاحها والعناية بالجِمال الثمينة، وإلى ما هنالك.

«أصبحت نور الرفيقة الدائمة لوالدها في غياب أشقائها المقيمين في مكان آخر، وشقيقاتها اللواتي وافقن على عروض الزواج. وتقارب الاثنان إلى حد أن الوالد اتّكل على نور في التعامل مع معظم شؤون الحياة اليومية بالطريقة نفسها التي يعتمد فيها معظم الآباء على أبنائهم المفضّلين.

«وأخيراً، وقبل بضع سنوات من وفاة والد نور، رضيت ابنته بالزواج على مضض، لكن شرط أن يوقّع من يجري اختياره لهذا الشرف على

وثيقة يوافق فيها على الإقامة مع عائلتها إلى جانب كثير من الطلبات غير المألوفة، مثل الموافقة على عدم اتخاذ زوجة ثانية، أو توقُّع أن يثمر اتحادهما عن إنجاب أكثر من ثلاثة أولاد. وهذه الأفكار كلها غريبة تماماً على أي رجل في السعودية، وخصوصاً على رجال القرية البسطاء الذين يُعتبرون مناسبين جداً لفتاة قروية. لكن، ومهما بلغ توق هؤلاء الرجال إلى الزواج من نور المجتهدة، فإن طالبي يدها رفضوا إضعاف أنفسهم علناً بالموافقة على مثل هذه الشروط غير المعتادة. فهم يريدون من نور أن تعمل لهم وتجعل حياتهم أكثر سهولة، لكنهم لا يتطلّعون إلى امرأة تحكمهم».

هزّت الدكتورة مينا كتفيها. «هذا كان الأمر للجميع باستثناء شاب واحد. اسمه محمّد، هو الذي شاهدتِه للتو في غرفة الانتظار. فقد وافق محمّد عن طيبة خاطر على شروطها للزواج».

وسألتُ، وأنا أتذكّر الدم الذي رأيته يغطّي عنقه وذراعيه ويديه: «وبالتالي، لم يهاجم محمّد نور، بل هي التي تسبّبت في تلك الجروح التي رأيتها عليه، أليس كذلك؟».

«ليس الأمر بهذه البساطة أيتها الأميرة. فنور تضرب زوجها، لكن محمّداً يضرب نور أيضاً. إنه وضع رهيب سيؤدّي إلى مقتل أحدهما».

قاوم ذهني ما أسمعه. «وكيف تضربه، وهو يبلغ ضعفَي حجمها؟».

«نعم، نور فطنة جداً. تهاجمه، وهو نائم بألواح الخشب وتخدشه بأظفارها القوية».

«يا إلهي»، تمتمتُ في النهاية. «وماذا تقول عن الأسباب التي تدفعها إلى ضربه؟».

تنهّدت الدكتورة مينا وتابعت قائلة: «تسعى نور يائسة إلى الطلاق، ويرفض محمّد الموافقة عليه. فهو شديد الكسل. وقد تزوّج من نور للأسباب الخاطئة كلّها، وقضى حياته الراشدة مع زوجة مستعبدة تقوم بكل الأعمال. أما وقد تقدّمت نور في العمر، ولم تعد قادرة جسدياً على العمل كما في السابق، فقد أصبح محمّد كريهاً جداً ويزداد عنفاً يوماً بعد يوم. وتعتقد نور أنها إذا أشبعته بما يكفي من الضرب فسيطلّقها. وقد تعبت جداً من كونها مستعبَدة لرجل لن يرفع إصبعاً واحدة للمساعدة».

وسألتُ: «وهو لن يطلّقها لأنه يحتاج إليها للقيام بكل العمل، أليس كذلك؟».

ولو أراد محمّد الطلاق لكان الأمر بالطبع سهلاً جداً، إذ يسهل

على أي سعودي أن يطلّق زوجته بالقول لها ثلاث مرات إنها طالق. وعليه، من ثم، إبلاغ السلطات بهذا الطلاق. والطلاق للرجل في السعودية فعل بسيط، إلا أنه يصبح للمرأة مهمة أكثر صعوبة. ويقف المجتمع في العادة ضد المرأة الساعية إلى الطلاق. وغالباً ما يرفض رجال الدين منحها طلبها، ويسألونها العودة إلى المنزل وإسعاد زوجها. ومن الواضح أن هذا ما حدث للمسكينة نور التي لم يُسمح لها بترك الرجل الذي استغلّها طوال حياته. وهي مُجبرة على البقاء معه».

ألقيت نظرة خاطفة على نور. ووجدتُ، عندما تطلّعت إليها عن كثب، أنها تبدو هزيلة تماماً. أصبحت بالتأكيد كبيرة جدّا على العمل في المزرعة. ولا عجب في أن طباعها قد أصبحت على هذا القدر من الحدّة.

«لا أعرف حقّاً ماذا أقول، يا دكتورة مينا».

«أفهم ذلك، أيتها الأميرة. لكنني قلقة، لأن العنف يتصاعد. لم تعد نور تتمتع بهذا القدر من الصحة، ولم يعد في استطاعتها أن ترجع كالسابق تلك 'المرأة الخارقة' الفريدة من نوعها. وهو ما يولّد الإحباط، لأنها عاجزة عن القيام بالعمل الذي ألفت القيام به. وهي تدرك الآن أن محمّداً لم يحبّها قط، بل أرادها للعمل وإعالته هو والأولاد، هذا كل ما في الأمر».

بدا كما لو أن الدكتورة مينا تفكّر بصوت مرتفع: «كان زواجهما غير متكافئ منذ اليوم الأول. فمحمّد كائن كسول، يسعد بالسماح لزوجته بإدارة العائلة والأعمال، في حين أنه يتسكّع حول نار المخيم ويشارك في رواية القصص البدوية واقتباس الشعر».

رفعت الدكتورة مينا حاجبيها خلال السرد: «تقول ابنته إن أشقاءها قد غادروا المنطقة، لأنه لم يعد في وسعهم تحمّل رؤية النزاع بين والديهم. ويشعر الأولاد جميعهم بالأسى على والدتهم ووالدهم.

«ويكنّ محمّد في الواقع الإعجاب لنور، ويعتقد أن انصرافها الاستعبادي للعمل يزيد من مكانته في القرية. وتتعلّق إحدى رواياته المفضّلة بواحد من أمراء آل سعود زار المنطقة لحضور مجلس معيّن».

والمجلس كناية عن اجتماع لرجال من العائلة المالكة مع رجال سعوديين من قبائل محدّدة أو قرى للاستماع إلى شكاواهم، والموافقة على طلباتهم في المساعدة المالية أو لمعالجة النزاعات على الأرض. ويخلو المجلس من الرسمية، فالقرآن يعلّمنا أن جميع الرجال متساوون، بالتالي يشعر الرجال في مثل هذه الاجتماعات

بحرية التوجه إلى الأمير بكنيته.

وأجبتُ الدكتورة مينا، «نعم، بالطبع».

«وحين كان الأمير يتناول القهوة مع رجال القرية، اقتحمت نور الاجتماع، وأذهلت الأمير عندما شرعت في توبيخ زعماء القرية واتهامهم بتقبيل الأمير في حضوره ولعنه في غيابه. وأعلنت أن العيادة الطبية المحلية تُدار في شكل سيّئ جدّاً، وأن الأطباء فيها لم يخضعوا للتدريب المناسب، ويفتقرون كثيراً إلى المهارة إلى درجة أن القرويين يموتون بلا سبب. ولم يوفّر لسان نور الحاد الأمير؛ وأبلغته أنها حظيت بعناية دون المستوى لمشكلة صغيرة، واضطرت إلى علاج نفسها بنفسها. وقالت إن في وسعها إدارة العيادة أفضل من أي طبيب ترسله الحكومة. ولم تعرف متى تقفل فمها. وتابعت تقول للأمير إنها تعتقد أن العائلة المالكة تستطيع، مع هذه الثروة التي تجنيها من النفط، أن تديرها على الأقل بما يكفي من الجودة لتحسين الخدمات الطبية البسيطة في القرى الصغيرة.

«ومن حسن حظ نور، أن الأمير رجل كريم النفس وطيّب الخلق، وبدا أنه يحترمها، بل أبلغ شيوخ القرية أن نور امرأة ذات ذهن متّقد، وعليهم الإصغاء إلى أي نصيحة منها».

وراحت ذاكرتي تعمل بسرعة. فتذكّرت فجأة أن سارة قد أخبرتني قصة عن زوجها اللطيف، أسد، الذي قضى عدة أسابيع يحضر فيها المجالس في أكثر من قرية على مقربة من الرياض لتوثيق العلاقة بأفراد إحدى القبائل. وقال أسد إن ثمة امرأة بدوية قاسية صادفها خلال زيارته واحدة من القرى، قد أذهلتْ جميع مَن في الاجتماع، عندما قاطعته للشكوى من وضع المرافق الطبية المتوافرة، وغياب التنظيم لدى أمراء العائلة المالكة.

كادت الحادثة كما وصفتها الدكتورة مينا تتطابق مع المشهد الذي صوّره صهري. وترددتُ في إخبارها أن الأمير المعني متزوج من شقيقتي، فأومأتُ برأسي من دون أن أتكلم، وقد أذهلني كم أن عالمنا صغير حقّاً، وكيف أن سبل الناس تتقاطع بهذا القدر المُفاجئ.

تبادلتُ أنا والدكتورة مينا التحديق، ثم نظرنا إلى نور. عرفتْ أننا نتحدث عنها. أومأتْ برأسي وابتسمتْ، لكنها لم تجب.

زاد تعاطفي مع وضعها. فنور تتمتع بجوانب كثيرة من القوة، إلا أن حياتها كناية عن بؤس كبير من العمل المضني الذي يكسر الظهر. وها هي قد تقدّمت في السن، وباتت عاجزة عن الاستمرار في روتينها المعتاد. لا تستطيع التخلص من زوجها، فالرجل في السعودية هو ولي أمر المرأة. ولا تستطيع أن تغادر القرية ببساطة

والمضي في حال سبيلها، لأن مثل هذا الأمر محظور في بلادي.

وسألتُ: «ما الذي تقترحين عمله؟».

«أردتُ سؤالك، أيتها الأميرة، إذا كان زوجك يستطيع أن يوفد أحداً من الحكومة للتحدّث مع محمّد وتشجيعه على قبول الطلاق. أعتقد أن استمرار الوضع في التصاعد، سوف يؤدي إلى ذهاب نور أو محمد بعيداً في صراعهما. فنور لا تزال حتى الآن تستخدم ألواح الخشب، ومحمّد يستخدم قبضتيه. لكن أحدهما سيستخدم يوماً، ما هو أكثر فتكاً، ربما أداة حادة كالخنجر. ولا أريد رؤية أي من هذين الشخصين في الكفن، بالرغم من وجود أمور كثيرة لا أحبها فيهما. أعتقد أنني إذا لم أفعل شيئاً فسوف تحدث جريمة قتل، وأنا أريد منعها».

تردّدتُ. إذ لم يسبق أن تدخّل أي رجل سعودي أعرفه بين زوج وامرأته. فالخصوصية الشخصية، المتعلقة بالرجال والإناث في عائلاتهم، تُعدّ من أقدس المقدسات.

«سأتحدّث في ذلك الليلة مع كريم، لكنني لست متفائلة أيتها الطبيبة».

وأجابت الدكتورة مينا: «أدرك ذلك، صدّقيني».

«وماذا ستفعلين في هذه الأثناء؟».

«سأدخل نور إلى المستشفى لبضعة أيام، وأمنحهما الوقت لتهدئة أعصابهما. وإذا تمكّن زوجك من التفكير بما يمكن أن يفعله لإقناع محمّد بطلاق نور، فستقيم نور عند أحد أولادها. وقد وافقوا على استضافتها».

تنهّدتُ، ثم قلتُ، «سأمضي إذاً، أيتها الطبيبة. أشكرك على اتصالك بي. سأتحدّث الليلة مع كريم. وسأتصل بك غداً لأبلغك رأيه بفكرتك». رمقتُ، وأنا أستعد للمغادرة، الدكتورة مينا بنظرة ذات مغزى، لأنني شعرت بأن هذه المرأة تفهمني أكثر من معظم الآخرين، واعتقدتُ أنني أفهمها. نهضتُ وأعدتُ وضع حجابي، ثم رتّبتُ ثيابي.

غادرتُ من دون أن أقول شيئاً لنور أو لابنتها، مع أنني شعرت بالسوء حيالهما.

وتلقّيتُ، وأنا على وشك مغادرة الغرفة، صدمة أخيرة. سمعنا محمّداً ينادي نور، ويبلغها مرّة أخرى أنه لن يطلّقها أبداً. وبدا أن نور قد انفجرت وقفزت عن طاولة المعاينة، وفتحت الباب بعنف وركضت نحو زوجها. وأخذت تقفز وهي تضرب محمّداً على رأسه بقبضتي يديها. وأدركتُ، لمّا شاهدت اسوداد عينيها المشؤوم حقداً على

زوجها، أن الدكتورة مينا على حق: فقد تكون نور قادرة على القتل.

وقف محمّد ونظر بازدراء إلى نور، واعتقدتُ عندها أنه قادر هو الآخر على قتل نور!

ومن حسن الحظ أن اثنين من مساعدي الدكتورة قد تدخلا قبل أن يتعرّض أحد لإصابة. نظرتُ إلى الخلف لأرى الدكتورة مينا واقفة وقد زمّت شفتيها وراحت تهزّ برأسها هولاً.

غادرتُ الغرفة بسرعة، وأنا أشعر بتشويش أكبر مما أحسست به في سنوات كثيرة.

وأثقلتْ قلبي المشاعر غير المركّزة، حين كنت أعبر الرواق لمغادرة المستشفى. أردتُ الصراخ على أحد، لكنني أطبقت فمي. الهواء في المستشفى ساكن وحار، وشعرت بعد خطوات قليلة بالعرق ينساب على عنقي وظهري، في مجارٍ صغيرة أشبه بالحشرات الزاحفة.

تسارع إلى ذهني كثير من الأسئلة والأفكار. فكل زواج يتسم بالتعقيد. وإلى أي مدى يجب أن أمضي في سعيي إلى إنقاذ النساء اللواتي يتعرّضن لسوء المعاملة؟ وبالرغم من أن نور قد تعرّضت لسوء المعاملة النفسية، وتعاني منها الآن جسدياً، فإنها مذنبة أيضاً بإساءة معاملة محمّد.

وماذا لو أنني ارتكبتُ أخطاء في الماضي؟ ماذا لو أدنت رجالاً غير مذنبين، فيما أعادت نساء متآمرات بدهاء صياغة واقع حياتهن؟ فقد ارتكز أساس حياتي كلّها على محاربة رجال متوحّشين في سبيل حماية نساء بريئات. وشكّلت النساء في ذهني دوماً الطرف البريء، وشكّل الرجال الطرف المسيء.

أخذت هذه الأفكار كلّها تدور في ذهني، وأنا أواصل المشي. وتضاعفت الشكوك حول مقدرتي على تقدير الأوضاع المؤذية. وغشتْ دموع الغضب عيني فاصطدمتُ، قبل أن أتمكن من الخروج من المستشفى وبلوغ سيارتي، بامرأة محجبة أخرى صرختْ وكأن أحداً طعنها بخنجر. أجفلتُ بقوة إلى حدّ أنني تعثّرت. حاولت عدة نساء أجنبيات منعي من السقوط، لكنني انزلقت من بين أيديهن وهويت مرّة أخرى على المرأة المحجّبة نفسها. وسقطنا كلتانا على الأرضية المبلطة القاسية. وانحرف حجابها ووشاح رأسها. ولمّا رفعت رأسها كشفت حركتها عن عنق طويل ناعم. وبلغتْ عباءتها ركبتيها كاشفة عن ساقين متناسقتين، عضليتين سمراوين من الواضح أنهما ساقا امرأة شابة جدّاً. فمن هي؟ وما قصّة حياتها؟ وهي، بغض النظر عن هويتها، ذات قوة بدنية كبيرة ظهرت عندما قفزت من وضع الاستلقاء واقفة من دون أي جهد. أهي رياضية سرّية؟ فنساء

السعودية يُمنعن من المشاركة في الرياضة، فتعمد بعض الفتيات إلى ممارسة التمارين الرياضية في المنزل سرّاً، من دون أن يعرف أحد من الحكومة باهتماماتهن الرياضية.

أُصبتُ بالإحراج الشديد عندما وجدت نفسي أتدحرج على الأرض؛ وهذه واحدة من المرّات القليلة في حياتي التي سرّني فيها ارتدائي الحجاب. صعقني كل ما يجري إلى حدّ أنني احتجت إلى بضع لحظات لأدفع نفسي واقفة على قدمي. وشرع عدّة أشخاص في الاستفسار، وهم يسألونني إن كنت بخير، لكنني أوشكت على البكاء؛ فاندفعت عبرهم راكضة عبر الرواق وأنا أتعثّر وألهث. ومن حسن الحظ أن أحداً لم يلاحقني. وبلغتُ سيارتي وسائقي المذهول.

لم يسبق لي أن شعرت بمثل هذا الارتياح لدى بلوغي المنزل والانكفاء في غرفة نومي. وفي وقت لاحق من ذلك المساء، أبلغت كريماً القلق بالسبب الذي دفعني إلى التزام السرير من دون أن أنبس بكلمة. أبلغته أيضاً بأنني شعرت بقدر كبير من التشاؤم، وأنني أخذت أشعر باكتئاب حاد ينمو في داخلي.

تخوّفت من الطلب إلى كريم التدخُّل في مسألة زوجية، لأنني أعرف بالفعل جوابه. واستجمعتُ في النهاية شجاعتي، ووصفت أحداث اليوم بالكامل ومخاوف الدكتورة مينا من احتمال حدوث جريمة قتل، وهو ما دفعها إلى طلب تدخُّل زوجي، وتشجيع محمّد على منح زوجته الطلاق.

لم يحتج كريم إلى التفكير في جوابه: وهو اللا الفورية. لأنه، وككل رجل آخر في السعودية، لا يعتقد أن أي رجل يستطيع أن يعرف عن حياة رجل آخر مع زوجته. فللمسألة خصوصيتها.

كما أن كريماً فوجئ في المقام الأول باتصال الدكتورة مينا بي. «هذا، يا سلطانة، ليس من نوع المشكلات التي يمكن حلّها. على الطبيبة أن تعالجهما، وعليهما بعد ذلك المضي إلى المنزل ومعالجة تلك المشكلات بوصفهما زوجين. وأنت غالباً، يا حبيبتي، ما تجترحين المعجزات، لكن لا تستطيعين التدخل بين رجل وزوجته».

«لكن ماذا لو قتل واحدهما الآخر؟ فلن أغفر لنفسي أبداً. ولو قُتل محمّد فستُعدم نور. وإذا قُتلت نور فسيواصل محمّد الجلوس قبالة النار يسلّي أصحابه برواياته. وذلك ليس صواباً. وكيف أواجه الدكتورة مينا؟».

«لا تستطيعين، يا سلطانة، صياغة حياة كل امرأة. وإذا قتل واحدهما الآخر، فسيكون ذلك مقدّراً، لأن مصيرهما في يد اللّه».

أحبطني الإخفاق، لأنني أريد دوماً التدخّل. وأعتقد أن من شأني

التدخل في أي وضع تتعرّض فيه المرأة لسوء المعاملة، حتى لو كانت تسيء هي الأخرى معاملة زوجها.

ولمّا تكوّنت الدموع في عيني، قال لي كريم: «لا تفكّري، يا سلطانة، في محاولة حملي على الشعور بالذنب. فلن يوصلك ذلك هذه المرة إلى النتائج المرجوة».

«هذه ليست خدعة، يا كريم. فأنا مكتئبة فحسب. أفضّل المشكلات الواضحة وضوح الأبيض والأسود. لأنني لا أعرف ماذا أفعل عندما يغشى الغموض المشكلات. دفعتني هذه الواقعة إلى التشكيك في كثير من القرارات التي اتخذتها في الماضي. وأخشى الآن أن أكون قد ارتكبت، في سياق حياتي، أخطاء لا نهاية لها. أخطاء، وأخطاء، وأخطاء... الخطأ تلو الآخر».

أدّى زوجي دور المعطّل المثالي لمفعول النهار الصادم الذي صادفني. نظر إليّ في البداية بجدّية قبل أن يقبّل يديّ، ويعبّر لي عن حبّه. ثم غادر غرفة نومنا لبضع لحظات، ومضى إلى المطبخ ليعود بكوب من عصير الأناناس الطازج المفضّل لدي. ناولني الكوب قبل أن يجلس على حافة سريري. ولمّا تكلّم في النهاية، قال: «سلطانة، أتثقين بي يا عزيزتي؟».

هززت برأسي، وأنا أتحدث بصوت خفيض: «أثق بك، نعم».

«حسناً. اسمعيني إذن يا سلطانة. لقد عشت معك يومياً على مدى سنوات كثيرة حتى الآن. عزيزتي»، ثم انحنى نحوي ليلامس وجهي وينظر في عينيّ؛ وتابع قائلاً: «أعرفك يا عزيزتي أكثر مما تعرفين نفسك».

حرّكت رأسي بعض الشيء.

«سلطانة»، قالها بجدّية تامة، «أنت، يا سلطانة، الإنسانة الوحيدة التي أعرف أنها لم ترتكب خطأً واحداً».

أذهلتني كلمات زوجي فكاد العصير يخنقني، وسعلتُ لفترة طويلة قبل أن أتمكّن من التقاط أنفاسي.

حدّقت إلى كريم. راقبته، في حين قوّست بداية ابتسامة صغيرة شفتيه. ولمعرفتي أن زوجي يمزح، تحوّل الأسى عندي فجأة إلى فرح، ولم أتمكن من كبح ضحكتي. وضحك معي. ضحكنا بصخب كولدين صغيرين، وواصلنا الضحك إلى أن شعرت بأن ضحكنا المختلط استأصل السموم التي أخذت تتراكم في ذهني وقلبي. جعلني كريم أدرك في تلك اللحظة أننا جميعنا نرتكب الأخطاء، والأكثر من ذلك أننا نبذل في هذه الحياة جهدنا للقيام بأفضل ما في وسعنا.

وعاودتُ، منذ تلك اللحظة، المضي قدماً في سعيي إلى مساعدة الإناث، إلا أنني أبقيت عيني مفتوحتين على أي وضع يكون الذكر فيه عرضة لسوء المعاملة، وفي هذه الحالة سأتدخل. وفي كلّ مرّة تراودني الشكوك في شأن أفعالي، يبتسم زوجي قائلاً لي: «لكنك امرأة مثالية لم ترتكب أي خطأ، فامضي قدماً يا عزيزتي».

ويصدف في بعض الأوقات وجود أولادنا، ونحن نتبادل هذا الكلام، فيتبادلون بدورهم النظرات التي تجعلهم يعتقدون أن والديهم قد مسّهما بعض الجنون.

أعتقد أن بعض الناس يمقتون المرح.

ذلك هو الوقت الذي نضحك فيه أنا وكريم بالقدر الأكبر من الحرّية، لأن كلمات زوجي لا تخفق أبداً في تذكيري بأنني إنسان فحسب، وسأرتكب في حياتي الأخطاء. لكن عليّ أن أتذكّر، بالرغم من هذا، أن أستمد السعادة الكبرى من انتصاراتي.

لكن في ما يتعلّق بنور ومحمّد، فقد جرى اكتشاف حلّ جيّد من دون مساعدة من كريم أو منّي، وهو ما أراحني جدّاً. فقد شعرت الدكتورة مينا، على المدى القصير بالطبع، أن الدواء قد يساعد على تهدئة الوضع، وطرحتْ معالجة الاثنين بعقّارات لإزالة القلق. وأثبت ذلك أنه حلّ ممتاز وله فعل المعجزة. وآخر ما سمعتُه الدكتورة مينا من ابنة نور أن الزوجين قد توقفا عن القتال بالأيدي، مع أنهما يظهران، من وقت إلى آخر، مهاراتهما اللفظية لدى انخراطهما في شجار. ونتيجة هذه المقاربة الأكثر هدوءاً للحياة، وجد الزوجان أنفسهما أكثر قدرة على مناقشة اختلافاتهما وتسويتها من دون اللجوء إلى العنف المادي؛ كما أنهما قد توصّلا بالتفاوض إلى تقاسم أكثر عدلاً لأعباء العمل. وساد المنطق السليم والعدالة كلا الفريقين!

شكلت تلك الواقعة أمثولة جيّدة لي وللدكتورة مينا، إذ غالباً ما بتنا نذكّر واحدتنا الأخرى بأن علينا استخدام وقتنا وطاقتنا ومهاراتنا ومالنا لحل المشكلات الأكثر خطورة المتمثلة بسوء معاملة النساء في السعودية.

الفصل الحادي عشر
فارعة وشدا

فارعة وختان النساء

لمّا يمضِ وقت طويل على مساعدتي لنور، حتى دعت الحاجة إليّ مرّة أخرى. تعلّق الأمر هذه المرّة بشابة تدعى فارعة واجهت محنة مؤلمة، وتسعى يائسة إلى التخلّص من وضعها. فارعة ابنة قبيلة من أشد القبائل محافظة في المملكة، ولا أستطيع تسميتها خوفاً من الأعمال الانتقامية ضد أفراد عائلتها الذين سيصبحون في خطر، بالرغم من أنهم لم يؤدّوا أي دور في فرار فارعة إلى الحرّية؛ بل من المرجح جدّاً أنهم، لو امتلكوا الفرصة، فسوف يعاقبونها، لأن رغبتها في ترك حياتها وراءها هي بمنزلة إهانة لنساء القبيلة. وثمة تاريخ مثير وراء قصة فارعة، لأن رجال قبيلتها يكرهون عائلتي، حكّام آل سعود، بشدة، ولا يكنّون الاحترام لهم. ومن المؤكّد أن فارعة ستُقتل بسبب تواصلها مع من يعتبره هؤلاء الرجال العائلة الأكثر مدعاة للاحتقار في المملكة.

تتحدّر عائلة والدي، عشيرة آل سعود، من قبيلة عنزة، وهي واحدة من أكبر قبائل المنطقة وأقدمها. لكن آل سعود، وعلى عكس قبائل كثيرة، صمّمت منذ أمد بعيد على الاحتفاظ بنقاء عشيرتها. وقد تآخت، منذ ثلاثينات القرن العشرين، مع قبائل كثيرة عندما خطط جدّي الملك عبد العزيز لترسيخ التحالفات، عبر تزويج بنت من بناته في كل قبيلة من قبائل المنطقة. ولا توجد سوى قلّة من القبائل التي رفضت الاتحاد مع عائلتي. إن الروابط القَبَلية عميقة في السعودية، حيث ولاء الرجال الأول لقبيلتهم، ثم لبلادهم. ومن هنا نجد قبائل في السعودية لا تشعر بالولاء لحكامها آل سعود؛ وسوف يُسعد أفرادها إذا أطيحت عائلتي، ليحل محلها حكّام جدد يتحدّرون، إذا أمكن، من قبائلهم.

إلا أن فكرة جدّي اتّسمت بالذكاء، لأن الزواج والأولاد يؤدون في الغالب إلى نشوء شعور من المجاملة، حتى بين أكثر القبائل تعارضاً. وشهدت السنون على عبقريته في هذا الشأن، لأن نجاح كثير من القبائل في السعودية وثراءها يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بنجاح حكامها وثرائهم. وقد كانت معظم خلافات آل سعود تنشأ مع القبائل التي رفضت ذلك الرابط المبكر مع جدّي.

والواقع أن رجال قبيلة فارعة لم يختلطوا قط عبر المصاهرة مع القبائل الأخرى. ويعتبرون أنفسهم الأنقى بين القبائل الإقليمية. ويعتقدون، كونهم لا يشعرون بأي قرابة مع القبائل الأخرى، أن من حقهم، بل من واجبهم، ازدراء أي قوانين أو محظورات حكومية لا

تعجبهم. وختان النساء واحد من المحظورات التي يتجاهلونها.

حظّر جدّي في أوائل حكمه الأشكال الأكثر تطرّفاً من ختان الرجال، إضافة إلى ختان النساء الذي يُعرف اليوم أكثر بتشويه الأعضاء التناسلية للنساء. ولا تزال قبيلة فارعة تمارس هذه العادات المروّعة على نسائها.

وفي حين تحتوي لائحة منظمة الصحة العالمية على تسع وعشرين دولة ينتشر فيها ختان الإناث، توجد مناطق أخرى لا تزال هذه الممارسة قائمة فيها، لكنها لا تشمل إلا عدداً قليلاً من الأشخاص، وبالتالي لا تشغل هذه الدول مكاناً في مثل هذه اللائحة. سبق أن قرأت الكثير من التقارير التي كتبها غربيون جاء فيها أن ختان الإناث لم يعد يُمارس في السعودية، لكن هذا غير صحيح. وبالرغم من أن القانون قد حظّر هذه الممارسة، ومن أن عدد النساء اللواتي يتعرضن للختان منخفض باعتراف الجميع، فإن هناك قبيلتين سعوديتين فقط تحتفظان بهذه العادة، ويشاركهما في ذلك مختلف السكان المهاجرين المقيمين على أرضنا. إلا أن كل حالة من حالات ختان النساء تشكّل في حد ذاتها مأساة شخصية تستدعي اهتمامنا.

هناك، كما سبق أن قلتُ، قبيلتان محددتان في بلادي تواجه فيهما الفتيات خطر الختان. وهذا واقع يجهله معظم العالم، لكن من الذي يستطيع أن يتطفّل على القرارات التي يركّز فيها الرجال على نسائهم السعوديات؟ لا يملك أحد القدرة أن يفرض على القبيلة المتجاسرة تطبيق القوانين المتعلقة بالنساء، ولا حتى الرجال الذين يحكمون السعودية. لمَ؟ السبب بسيط. فمن الناحية الأولى والأهم تُعدّ العلاقات بين الرجال والنساء في السعودية علاقات محصورة وخاصة. ومن الناحية الثانية، ليس هناك أي اعتبار أو أهمية لسعادة المرأة على الإطلاق. ورجال عائلتي ليسوا على استعداد لشن أي حرب ضد أي قبيلة لمجرّد ضمان حماية النساء. وتُعدّ المسائل المتعلّقة بقرارات العائلة في شأن نسائها محصورة فيها، حتى في نظر حكومتنا المركزية. ولا يزال الأذى يلحق بالنساء لأن حكومات العالم غير معنية بسلامة النساء وصحتهن.

ولمن لا يعرف، فإن منظمة الصحة العالمية تصف تشويه الأعضاء التناسلية الأنثوية بأنها ممارسة تنطوي على إتلاف تلك الأعضاء أو إلحاق الضرر بها عن قصد ولدواعٍ لا تستهدف العلاج. ويتابع تقرير المنظمة بالقول:

- لا تعود هذه الممارسة بأيّة منافع صحية على الفتيات والنساء.

- يمكن أن تتسبّب هذه الممارسة في وقوع نزف حاد ومشكلات

عند التبوّل. وتتسبّب، لاحقاً، في ظهور أكياس والتهابات، وفي الإصابة بالعقم، وبمضاعفات عند الولادة، وفي وفاة المواليد الجدد.

- نجد اليوم أكثر من 125 مليون فتاة وامرأة على قيد الحياة قد تعرّضن للختان في تسع وعشرين دولة تشمل إفريقيا والشرق الأوسط، حيث تتركّز عمليات الختان.

- يُمارس الختان، في أغلب الأحيان، على فتيات تُراوح أعمارهن بين سنّ الرضاعة و15 سنة.

- يشكّل تشويه الأعضاء التناسلية الأنثوية انتهاكاً للحقوق الإنسانية للفتيات والنساء.

يعتقد كثيرون من غير المطّلعين، أن ختان الإناث يعني مجرّد قطع صغير، لكنّ ذلك غير صحيح. فتشويه الأعضاء التناسلية الأنثوية يتضمن التشويه الجزئي أو الكلّي للأعضاء التناسلية الخارجية، ما يتسبّب في جروح خطيرة بل في موت الفتيات الصغيرات والنساء. وهي ممارسة بربرية لا تستند إلى أي أساس مُقْنع في أي دين، مع أن الكثيرات من الفتيات اللواتي يخضعن لهذه العملية الوحشية ينتمين إلى الدين الإسلامي.

والأمهات هن اللواتي يكون لديهن في الغالب الإصرار على عملية التشويه هذه لبناتهن لعدد من الأسباب. وتعتقد أمهات كثيرات تعرّضن للبتر وهن صغيرات، أن ما كان جيّداً لهن هو الأفضل أيضاً لبناتهن. ولأنهن يرغبن في حفاظ بناتهن على عفّتهن، يعتقدن خطأ أن بتر الأعضاء التناسلية يحدّ من الرغبة الجنسية. وتحمّل نساء أخريات في القبيلة الأمهات على الشعور بخيانة ثقافتهن، إذا اخترن عدم ختان بناتهن.

ويجري ختان رضيعات لم تتجاوز أعمارهن الأسبوعين، وفتيات حتى عمر السادسة عشرة. ومعظمهن يخضعن لهذه العملية من دون أي عملية تخدير. وما يثير الصدمة، أن عملية بتر الأعضاء التناسلية تجري على أيدي نساء أو رجال غير مدرّبين، يستخدمون أدوات حادة ملوّثة، وغير خاضعة لأي عملية تعقيم.

وهذا ما حلّ بفارعة. فقد استرعت الفتاة انتباه ناديا عندما أُدخلت إلى المستشفى، وهي تعاني من النزف والالتهاب. لم تنقلها عائلتها إلى هناك إلا بعد أن شارفت على الموت؛ وقد حفّز العائلة خوفها على طلب العناية الطبية. وبلغ الالتهاب حدّاً بعيداً من الانتشار والخطورة، حيث توقّع فريق المستشفى ألا ينقضي عليها الليل وهي حيّة. بيد أن فارعة تخطّت توقعات الأطباء الذين أخذوا يعلنون عند كل مساء أنها لن تبقى حية عند انقضاء الليل، ليجدوا

عندما يستأنفون جولتهم في الصباح التالي أنها لا تزال بين الأحياء. تغلّبت فارعة على التوقّعات وتمسكت بحياتها الغالية.

وسرعان ما أثار تمسكها بإرادة الحياة اهتمام الأطباء والممرضين الغربيين الذين شرعوا في تكريس المزيد من الساعات الإضافية للعناية بها. وبعد أسبوع من العناية الطبية المركّزة، أفاقت فارعة من غيبوبتها في غرفة العناية الفائقة، وقد فوجِئَتْ بأنها لا تزال حيّة.

كان أحد الأطباء البريطانيين المشرفين على علاج فارعة من المطلعين على تاريخ بلادنا. ويعرف أن المستشفى يستقبل في الغالب مهاجرات من بلدان أخرى، بمن في ذلك نساء من إندونيسيا ومصر، لتلقّي العناية الطبية اللازمة بسبب مشكلات صحّية متكرّرة ناجمة عن تشويه الأعضاء التناسلية. لكن نادراً ما شاهد فتيات أو نساء سعوديات تعرّضن للختان. وفارعة واحدة من الأوليات. اعتراه قلق على شابات أخريات في المنطقة، بالرغم من علمه أن هذه الممارسة قد حُظرت قبل سنوات. ودفع به قلقه إلى إبلاغ ناديا بالأمر، مشيراً إلى أن من المناسب تدخّل الخدمات الاجتماعية.

وقالت ناديا لاحقاً إن أذنيها قد انتصبتا اهتماماً، لأنها لم تعمل من قبل على حالة تتعلق بختان الإناث، مع أنها سمعت عدداً من الروايات عن نساء أُدخلن المستشفى بسبب التداعيات الناجمة عن الختان الذي يحدث للصغيرات؛ وهكذا تعاني الكثيرات جداً من النساء، طوال حياتهن وبفظاعة، بعد سقوطهن ضحايا عمليات الختان.

فهناك التهابات متواصلة تنتج عن الدفق غير الطبيعي للبول. وتصاب معظم ضحايا ختان النساء بندوب تغطّي المهبل وتجعل عملية الجماع أمراً مؤلماً للغاية. وتواجه عملية الحمل والولادة مشكلات كبرى. كما أن مخاض النساء المصابات بالندوب طويل ويمزّق الأنسجة، ويتسبّب في نزف شديد. وتؤدي هذه المشكلات كلّها إلى إجهاد المرأة والرضيع. وتُضاف إلى مشكلات جسمانية أخرى نفسية وعاطفية، إذ تخضع الفتيات عموماً للعملية وهن صغيرات جداً، ولا يمتلكن أي فكرة عن سبب تقييدهن وختانهن بشكل عنيف ومؤلم.

تعرف ناديا أن الموضوع من المحرّمات في السعودية. ولهذا اختارت توقيت زيارة فارعة بعناية، وهي وحدها في غرفتها في المستشفى. وروت ناديا، عندما تحدّثت في المرة الأولى معي، أن «حمل فارعة على الكلام كان صعباً، لكن ما إن شرعت في ذلك حتى وصفت بالكثير من التفصيل ما حلّ بها. ولم أجرؤ على مقاطعتها».

روت فارعة قصتها لناديا بعينين دامعتين:

«يا لي من غبية. كان عليّ أن أقاومهم، وأهرب إلى الصحراء. فمصيري وحدي في الصحراء أقل ألماً مما عانيته وأنا في حماية أهلي.

«سمعت سابقاً عن الختان، هذا الوقت الرائع الذي تصبح فيه الواحدة امرأة، فقبلتُ على مضض فكرة خضوعي لذلك. وعندما أعربتُ في إحدى المرات عن شكّي، قالت أمي بغضب إنني إذا رفضت سأصبح مسخاً. زعمتْ أن عضوي الأنثوي، بظري، سيستمر في النمو إلى أن يصبح ضخماً، بحجم العضو الذكري. وسأتعرض للسخرية، وأُعتبر نجسة. ولن يوافق أي رجل على الزواج بي. وستُحتقَر أمي وشقيقاتي الأصغر منّي.

«اقتنعت بفكرة أن بظري سيكبر ليبلغ حجم العضو الذكري، ووافقت على القيام بما من شأنه أن يؤدي إلى تفادي مثل هذا المصير. بل إن الإثارة تملّكتني بعض الشيء مع اقتراب موعد ختاني. جرى تحضير حفلة كبرى للبنات اللواتي سيخضعن للعملية. وشرع أهالينا في شراء الهدايا الخاصة بالمناسبة الكبرى. وكانت بعض الفتيات اللواتي تقرّر ختانهنّ في الوقت نفسه من صديقاتي. وسنحظى بالتكريم، وندخل مجتمع النساء، أو هكذا قيل لنا.

«كما رُويت لنا قصة خرافية. ووُعدنا بسعادة لا تنتهي. وأننا سنُخطَب بعد الختان الناجح والشفاء، ونتزوج في سياق السنة من رجل وسيم، ونصبح زوجات وأمهات سعيدات. وهل من امرأة لا تريد الزواج والأولاد؟

«اتصفت الحفلة بما يكفي من الجودة، مع أنني بدأت أشعر بالتوتّر عندما شرع عدد من صديقاتي اللواتي سيخضعن لعملية الختان في الارتجاف والنشيج. هؤلاء الفتيات أكثر اطلاعاً لأن لديهن شقيقات أكبر سناً حذّرنهن من الألم والدم. استبدّ الرعب بأولئك الفتيات لمعرفتهن ما ينتظرهنّ.

«وبوصفي الابنة الكبرى في عائلتي، لم يحذّرني أحد. فأمي خضعت لعملية الختان وهي فتاة صغيرة، وحدث ذلك قبل سنين كثيرة ومُحي من ذاكرتها. بدا وكأنها نسيت هول الأمر. كما أن أمي ليست في أي حال من النوع الذي يتحدّث في الموضوعات الحميمة. بقيتُ تحت تأثير الانطباع بأن العملية قد تؤلم بعض الشيء، لكن والدتي أكدت لي أن القطع والألم سينتهيان بسرعة، وهما أشبه بقرصة حادة على ذراعي. وزعمتْ أن ما سيستتبع الأمر من المكافآت يستحق تماماً التعرّض لأي ألم. كذبَت أمي.

«عندما حان الوقت، قادت نساء لا نعرفهن تمام المعرفة الفتيات الست من قاعة الحفلة إلى غرفة مجاورة. فُرشت ستُّ سجادات جنباً

إلى جنب على الأرض، وطُلب إلى كل منا خلع ملابسها الداخلية والتمدّد. قمنا بما طُلب إلينا من دون اعتراض.

«شغلت مكاني على سجادة موضوعة في الوسط، لأنني أردت معرفة ما الذي سيحدث، افتراضاً مني أن النساء سيبدأن أولاً بفتاة من أحد الطرفين. ازددتُ رعباً مع مرور الوقت، لأنني استطعت اشتمام رائحة الخوف، خوف صديقاتي، أولئك اللواتي تلقيّن التحذير المسبق من شقيقاتهن.

«طُلب إليّ رفع فستاني إلى ما فوق رأسي، ما ترك أسفلي عارياً. كما طُلب إليّ أيضاً رفع ساقيّ والمباعدة بينهما. ونفّذتُ ما أُمرت به، مع أن قلبي ارتعش خوفاً؛ وجلّ ما أردته أن أقفز عن تلك السجادة وأهرب بعيداً، لولا وجود امرأة جالسة بالقرب مني ويداها على كتفي على أهبة الاستعداد لردعي عن الهرب.

«المرأتان اللتان كانتا في انتظارنا هما اللتان كُلّفتا بتشويه أعضائنا التناسلية، وهما بالتالي جاهزتان وعلى أهبة الاستعداد ويداهما تمسكان بمقصّين كبيرين. بدأت عملية الختان بشكل شبه فوري. واختلط الصراخ الحادّ بالأنين من كلا جانبيّ. لم يتوقّف الصياح الهستيري، فقرّرت أن وقت المغادرة قد حان. جلستُ. فأمسكت المرأة التي واكبتني إلى الغرفة بكتفيّ وعاودت دفعي إلى السجادة. لم ألحظ حتى هذه اللحظة أن النساء اللواتي أوكلن بالمراهقات ضخمات الجثة جدّاً ويتمتعن بالقوة، وقد وقع الاختيار عليهن لإخضاع الفتيات الصغيرات.

«ثم جاء دوري. شعرت بداية بيدين بين ساقي، وبأصابع قوية تمسك بجزء صغير من أعضائي التناسلية. وجرى سحب وشدّ ذلك الجزء من جسدي بشكل مؤلم، ثم شعرت بمعدن المقص. أحسستُ عندها بألم مبرح. تخيّلي، لو أمكنك، الخضوع لعملية جراحية من دون بنج. فقد شُرِع في قطع لحمي من دون أن أُعطى أي مخدّر للتخفيف من الألم. وأخذتُ في الصراخ. ولم أستطع التوقف. واشتدّ العذاب عندما أمسكت تلك الأصابع المتقصّية بالجلد الطليق في منطقة عورتي. وجرى جزّه في تلك المنطقة إلى أن أصبحت ملساء. شعرتُ وكأنني أُقطّع إلى أجزاء! وشرعت إحداهن في تقطيبي بإبرة كبيرة وخيط. وهذا أيضاً كان مؤلماً بصورة رهيبة، وأوشكتُ عند هذا الحد أن أفقد الوعي.

«لم يوقف التقطيب النزف. ولم ينفع كلّ ما فعلنه، حيث استمر الدم الحار في التدفّق من جسمي. شعرت بالسائل يتجمّع تحت جسمي. وشرعت إحداهن تنادي طلباً للشاش الذي حُشي وحُزم في داخل جسمي. وأذكر أنهن نقلنني إلى غرفة صغيرة وضعن فيها الطفلات والفتيات اللواتي عانين من أسوأ الأعراض الجانبية، مثل

النزف التام. وأذكر قليلاً ما تناهى إليّ من زعيق الطفلات والبنات الصغيرات. وأنا واثقة أن صراخي تداخل مع صراخهن.

«اعتقدت حقّاً أنني أموت، ورحّبتُ بالموت خلاصاً، لشدة ما بلغ بي من حدّة الألم. وفقدت وعيي بعد وقت قليل على نقلي إلى تلك الغرفة، لأجد نفسي، لدى استعادتي الوعي، في مكان مختلف أخضع للعلاج على أيدي أطباء وممرضين معسولي اللسان. بقيت أهذي من الألم، لكن تناهت إلى سمعي أجزاء متفرّقة من الأحاديث. أدركت أنني أوشكت على الموت بسبب ما فقدته من الدم. واستمعت إلى ممرضتين تهمسان أنني لم أعد أبدو كفتاة، وأن كل ما يمنحه الله للنساء في عورتهن قد اقتُطع من جسمي.

«وعدتني أمي بأحلام من الأنوثة والزواج والأولاد، لكنها دفعت بدلاً من ذلك ثمن تحويلي إلى معوّقة تفتقر إلى أعضاء جسدها الضرورية لتعيش حياة الزوجة القنوعة والأم».

عند هذا الحدّ منعت الدموع ناديا من إكمال رواية فارعة. وأخذتُ أنا الأخرى أقاوم دموعي. وناديا ساذجة في ما يتعلّق بتشويه الأعضاء التناسلية الأنثوية، لكنني أدركُ الأوجه المختلفة لهذه الشعائر البربرية، لأن عدداً من شقيقاتي الأكبر سنّاً خضعن لهذه العملية في الأيام التي سبقت بوقت قصير حظر هذه الممارسة، ولم تكن قد بلغت بعد أخبار الحظر مسامع كل أم في المملكة.

وُلدت أمي وأبي من قبيلتين مختلفتين. عاشت عائلة والدي في منطقة نجد التي لم تمارس قط التقليد البدائي القاضي بتشويه الأعضاء التناسلية الأنثوية. إلا أن الحالة اختلفت في قبيلة والدتي التي بقيت في تلك الأيام الغابرة تمارس تقليد الختان، مع أنها توقفت عن ذلك كلّياً في الخمسينات. ومن دواعي المأساة أن شقيقاتي اللواتي وُلدن قبل العام 1955 أخضعن لمأساة تشويه الأعضاء التناسلية؛ وجُنّبت البنات الأصغر سنّاً ذلك، بمن فيهن أنا وسارة.

أخبرتني شقيقتي الكبرى مرّة بتفاصيل تشويه أعضائها التناسلية. أرعبني الأمر تماماً، لكنني سُررت لأن جدّي رأى من المناسب حظر هذه الممارسة في المرحلة المبكرة من حكمه، بعد أن شاهد شخصياً الختان الواضح لفتى، والجلد المسلوخ من عضوه التناسلي وقد بلغ ركبتيه. وأُبلغ حينها أن بعض القبائل تتبع تقليداً مماثلاً من ختان النساء. وعلى الفور، حظر جدّي الحكيم كلتا الممارستين الشنيعتين، إلا أن بعض القبائل اختارت تجاهل قراره، ولا تزال بالتالي، تُجبر فتيات صغيرات مثل فارعة على معاناة ما لا يُطاق.

أصيبت ناديا بحزن وانفعال شديدين وهي تروي قصة فارعة،

فرتّتُ يديها مقدّمة لها القليل الذي أمكنني من العزاء. وتفهّمتُ انفعالها، وقد تذكّرتُ كوابيسي الخاصة عندما سمعتُ للمرة الأولى عن ختان الإناث. وسألتها، في عودة إلى الأمر المهم الذي بين أيدينا: «ما الذي سيحدث لفارعة، يا ناديا؟ هل تعلمين؟».

«عندما أبلغتُ فارعة، أيتها الأميرة، أنني من الخدمات الاجتماعية وأنني هنا لإرشادها في شأن خططها المستقبلية، تكلّمتْ من دون أن تفكّر حتى، وقالت إن عليها الفرار من عائلتها. وهي تغلي غضباً على أمها التي دفعت بها إلى مثل ذلك العذاب. وقالت إنها إذا أُجبرت على العودة إلى المنزل فستُجبر أيضاً على الزواج المدبّر. وهي الآن تخشى كثيراً الزواج المبكر وتقف ضده. وتنبع مخاوفها من واقع أن الأطباء أبلغوها أن عليها مواجهة عدد من المشكلات في أعقاب ما حلّ بها، والعلاقة الجنسية المؤلمة هي الأكثر إثارة للقلق.

«تتمثل رغبتها الوحيدة الآن في وقف ختان الإناث. وتعرف أن عليها أن تتابع علمها لتصبح خبيرة قانونية، وربما محامية، وتعمل من دون كلل للحؤول دون استمرار مثل هذا التعسّف».

وسألتُها: «هل تتكلّم جرّاء الانفعال المباشر الناجم عن هذه الحادثة ذات المغزى، أم تعتقدين أن الهدوء يسود ذهنها وقلبها؟».

صمتت ناديا لبرهة، وهي تستذكر حديثها مع فارعة: «التقيتُ فارعة ثلاث مرات، أيتها الأميرة، وأشعر بكل تأكيد أنها تتحدّث بتعقّل لا بانفعال».

نظرتُ ناديا إلى البعيد، وهي تتذكّر ما قالته لها الضحية الشابة، قبل أن تنظر في عينيّ وتابعت قائلة: «لو افترضنا أنها متأكّدة بالفعل من هذا القرار، فماذا تعتقدين أن عليها فعله لتحقيق مثل هذا الهدف؟ قد تكشف لي المزيد إذا ذهبت إليها وفي يدي خطة ما».

«أنت محقّة تماماً يا ناديا. فهذا كلّه جديد جدّاً على فارعة. وقد تحتاج في غضون أسبوع إلى مؤازرة أمّها. ونحن، بالتأكيد، لن نستعجلها. أرجوك أن تتصلي بابنتي أماني لتتمكني من ترتيب لقاء خاص بينها وبين هذه الشابة. فابنتي الآن منغمسة في كل جوانب عملي، وتتمتع بذهن حاد. وحين تلتقيها أماني تتحدث إليّ، وعندها سنعمل على وضع حل قابل للتطبيق بحسب استقرار انفعالات فارعة ورغباتها الحقيقية».

سُرّت ناديا، لأنها تواصلت جيّداً مع أماني، ولأن كلتا الشابتين تثق بالأخرى. وأردت بذلك أن تتحمّل أماني المسؤولية الحقيقية، ولا تكتفي باتّباع تعليماتي. وخالجني ما هو أكثر من السرور بالتخلّي عن

جزء من سيطرتي على عملي، لتشعر ابنتي بأنها شريكة حقيقية.

وهكذا، كافحتُ لإبعاد الويلات التي عانت منها فارعة عن ذهني. ولم يتسنّ لي كثيراً الإسهاب في التفكير بمشكلات هذه الشابة، حيث جاء زوجي مسرعاً إلى منزلنا، ليخبرني عن امرأة سعودية شابة، هي ابنة أحد موظفيه؛ وقد اعتُقلت هذه المسكينة بتهمة ارتكاب جريمة خطيرة جداً.

شدا وشعبة مكافحة السحر والشعوذة

أعرف أن الكثيرات من النساء السعوديات يعشن أوضاعاً خطيرة. ومع ذلك أشعر دوماً تجاه كل مصيبة تسترعي انتباهي وكأنها الأكثر إلحاحاً. بيد أنني في حالة شدا الغريبة، شعرتُ حقّاً بأنني لن أتمكن من إنقاذها من الإعدام المؤكد. فشدا ابنة واحد من موظفي كريم الأمناء، يعمل ميكانيكيّاً في مرآب عائلتنا الذي يشغل قسماً من عقارنا الواسع في الرياض. وبالرغم من أن كل العقارات الملكية في المملكة مجهّزة بكل منشأة ضرورية لدعم مدينة صغيرة، بما في ذلك العيادات الطبية وإسطبلات الأحصنة والملاعب الكبيرة ومرائب إصلاح السيارات والمطاعم والجوامع، فقد اعتنى كريم تحديداً بقسمنا الخاص بإصلاح السيارات. وأنشأ مبنى المرآب بعد أن بلغ عبد الله السن التي يحق له فيها اقتناء سيارة وقيادتها. وصدف أن العمل بمبنى المرآب لم يكن قد انتهى تماماً، عندما زار ابننا عبد الله مرآب خدمة محلّياً في الرياض لإصلاح سيارته، فتورّط عندها بالصدفة في حادث بغيض جداً، سأرويه عرضاً بإيجازٍ.

بُعيد وصول ابننا إلى مرآب التصليح، اقترب منه ميكانيكي غاضب جدّاً، وهو يهاجم جسديّاً رب عمله السعودي بمفتاح ربط كبير. ولما رأى عبد الله الميكانيكي يحمل مفتاح الربط ويهاجم به مالك المرآب، حاول أن ينتزع المفتاح من يد الرجل. لكن الميكانيكي كان يتمتع بالقوة، وبقي متمسّكاً بالمفتاح. وهوى به على رأس ابني في خلال النزاع. وتمكّن عبد الله من الحفاظ على توازنه، لكنه أصيب بجرح بليغ في رأسه. وعندها تدخّل عدد آخر من الزبائن، وأنقذوا ابني من التعرّض لمزيد من الضرب الخطير. بدا واضحاً أن الغضب الشديد قد استبد بالميكانيكي الذي صمّم على إيذاء رب عمله، وكل من يقف في طريقه.

اكتشفنا لاحقاً أن هناك سبباً لغضب الرجل. فقد رفض رب عمله السعودي منذ أكثر من عام دفع مرتّبه. وعانت زوجة الرجل وأولاده في موطنهم بسبب افتقارهم إلى المال اللازم لشراء حاجيات الحياة. وزاد في الطين بلّة أن رب العمل السعودي رفض السماح لأي من موظفيه بترك عمله والعودة إلى وطنه، إلا بعد إنجاز سنتَي العمل الكاملتين اللتين ينصّ عليهما عقد العمل.

والأمر المحزن يكمن في عدد من الأثرياء السعوديين الكبار في المملكة الذين يزدادون ثراء باستخدام أشخاص فقراء من مختلف دول العالم، طالبين منهم مغادرة أوطانهم والسفر إلى السعودية للعمل وكسب المال لإعالة عائلاتهم. ولا يتوجّب على أرباب العمل السعوديين دفع أية نفقات، لأن الفقراء يستدينون المال ويدفعونه للوكلاء في بلدانهم، كي يجدوا لهم عملاً في الخارج. وعليهم، عموماً، أن يدفعوا أيضاً نفقات السفر إلى السعودية. وحين يصبح هؤلاء الناس في البلاد، يصادر أرباب عملهم السعوديون جوازات سفرهم. ويصبح الموظفون الأجانب، منذ تلك اللحظة، تحت رحمة أرباب العمل العديمي الضمير الذين يتمنّعون عن دفع مرتّباتهم. ويوفّر أرباب العمل الحد الأدنى من المأوى وما يكفي من الغذاء لإطعام موظفيهم. لكن الكثيرين منهم لا يدفعون المرتب الشهري المتفق عليه في العقد. وقد يلجأ رب العمل، ما إن يصبح عمّاله في المملكة، إلى الاحتفاظ بمرتّباتهم حتى نهاية عقدهم؛ ولا يمتلك هؤلاء العمال، حينذاك، أية أموال يرسلونها إلى عائلاتهم.

شيوع مثل هذه الأمور الجائرة فضيحة معيبة. بل إنني أعرف أفراداً من العائلة المالكة، ممن يملكون مالاً يعجز مصرف يعج بالموظفين عن إحصائه، يتصرّفون على هذا النحو مع عمالهم. ولا أعرف ماذا أقول سوى وصف هذه التصرّفات بالفاسدة وغير الأخلاقية. وكم أتمنى أن تُسنّ قوانين تحمي مثل هؤلاء الناس الذين يكدّون في العمل، لكن لا صوت للفقراء في بلادي. وهذا في الغالب ما يدفع بذوي القلوب الطيبة من أفراد العائلة المالكة إلى رفع الصوت نيابة عن المعدم والعاجز.

لم يعد غضب الميكانيكي عليه طبعاً بأي نفع؛ بل جرّ عليه بالفعل حكماً بالسجن لفترة طويلة. ويعرف اللّه وحده ما كان ليحل بعائلة الرجل لولا عمل الخير الذي قام به ابني. فحين سمع عبد اللّه تفاصيل القضية، وعرف أن مالك المرأب السعودي قد أساء معاملة موظفيه وحرمهم من مرتّباتهم، استاء من الرجل، وشعر بالتعاطف مع موظفيه. واستخدم ابني محامياً سعودياً للحصول على الإذن بسؤال الرجل الذي أرسل إلى السجن. وحين جرى اكتساب ثقة الرجل والحصول على المعلومات في شأن كيفية الاتصال بعائلته، تدبّر عبد اللّه حصول العائلة على ضعفي مرتّب الرجل طوال فترة حكمه بالسجن.

والمهاجر الحانق الذي كره في السابق جميع السعوديين، بل وحاول إيذاء عبد اللّه، توصّل إلى احترام ابني، الرجل السعودي، ومحبته.

أنعم اللّه على ابني عبد اللّه بالقلب الطيّب، ولم يتمكن قطّ من تحمّل استغلال أي كائن بشري، وليس بالطبع عندما يصبح السوء

على درجة كبرى من الأذى، حيث يُدفع الشخص إلى الجنون فيسعى إلى القتال حتى وهو يعرف أن مثل هذا الأمر سيودي به إلى السجن أو حتى إلى الحكم بالإعدام. وهذا سلوك العاجز الذي ليس لديه من يلجأ إليه.

من حسن الحظ أن عبد الله لم يتأذَّ بشكل خطير في ذلك الهجوم، لكن كريماً كاد يفقد عقله وهو يفكّر بما أمكن أن يحدث. واتسم صوت كريم بالصخب وبارتفاع النبرة عندما أخبرني القصة، قائلاً: «كاد ابننا يُقتل، يا سلطانة. فتلقّي ضربة على الرأس بمفتاح الربط أمر خطير».

ولدينا الآن مرأب التصليح الخاص بنا وعمالنا من ألمانيا والولايات المتحدة، وقد تلقّوا درجة عالية من التدريب، وهم يتلقّون أجوراً جيدة، وسعيدون جداً مع هذه العائلة السعودية. وهناك خمسة رجال سعوديين أو ستة يعاونون هؤلاء الميكانيكيين الماهرين.

وسأعود الآن إلى القصة الغريبة للمسكينة شدا، وهي ابنة أحد المساعدين الميكانيكيين السعوديين العاملين لدى كريم. وأنا لم أعرفها شخصياً قبل الحادثة، لكنني شاهدتها مرّات عدة من بعيد، وقيل لي إنها فتاة خجولة جداً. لكن لم تُتح لي فرصة محادثتها، بالنظر إلى أنها مجرّد تلميذة مدرسة ولا تعمل لعائلتنا. وسمعت أكثر عن والدها، إذ أشاد به زوجي على اهتمامه بالتفاصيل وطبعه الهادئ.

لكن ذلك كلّه تبدّل عندما جاء كريم ذات يوم مندفعاً، ليخبرني بأمر طارئ خطير يجب التعامل معه، وهو أمر يتعلّق بشدا.

سبق أن أردت صرف ذهني عن مشكلات فارغة، فشرعت في قراءة تقرير مثير للاهتمام عن الأحداث الراهنة في الهند، حيث بدا أن بعض الرجال قد فقدوا عقولهم، ويعتقدون أن أي امرأة تسير في الشارع متوفّرة للاغتصاب. لكن وجه كريم القلق استرعى انتباهي، فانتصبت واقفة، واستمعت بانتباه إلى ما سيقوله، وقد وضعت الأوراق على مكتبي لقراءتها لاحقاً.

وسألته: «ما الذي حدث؟».

راح كريم يتكلّم من دون ترابط، لكنه أخبرني في النهاية أن ابنة أحد موظفيه المفضّلين أودعت السجن، وأن رجال الدين يقولون إن جريمتها عقوبتها الشنق. فقد اتُّهمت شدا بأنها ساحرة.

وهذا الأمر مخيف جداً، لكنني أشعر، وقبل أن أعيد رواية ما أخبرني به كريم، أن من المهم إضفاء بعض الخلفية على حياة شدا المنزلية، وأن أشرح أيضاً بعضاً من التطوّرات المثيرة للقلق المتعلقة بالسحر

والشعوذة، والتي تسيطر باطّراد على أوساط معيّنة من المجتمع السعودي.

تلزم والدة شدا المنزل مع العائلة. وهي، بوصفها أماً لخمسة أولاد، تبقى منهمكة في العمل منذ شروق الشمس وإلى أن تنام في الليل. ووالد شدا يكدّ في عمله ليدّخر ما أمكنه من الأموال، حيث، كما يقول كريم، أنه معجب بالقول إن السنين تمر عليه سريعة، وسرعان ما سيصبح رجلاً عجوزاً.

ويحصل العاملون لدينا على أماكن إقامة نظيفة في أملاكنا، ولا يتكلّفون مصاريف الخدمات أو النقل. ويزوّدهم كريم بأساسيات الغذاء مثل الأرز والبطاطس والفاصوليا والشاي والقهوة والفراريج. وتُقدّم إليهم في مرات عدة في السنة الخراف والجمال للولائم. وثمة بقعة جيدة واسعة من الأرض يمكنهم فيها زراعة الخُضَر لتعزيز نظامهم الغذائي. ويستطيعون اختيار ملابسهم من تلك التي نوفّرها لموظفينا، إلا إذا أرادوا شيئاً خاصاً فيصرفون عندها من أموالهم مقابل هذه الأمور الإضافية. وتضم عيادتنا مرافق للإسعافات الأولية، وتُلبّى حاجاتهم الصحية في حرم القصر، ما لم يتعرّضوا لمشكلة صحية كبرى. وبنى كريم منذ عامين عيادة لطب الأسنان افتُتحت حديثاً حيث بات عندنا طبيبا أسنان في عداد موظفينا.

ومع توفّر كل الضروريات بشكل شبه كامل، ادّخر والد شدا معظم مرتّبه، ليتمكن في يوم من الأيام من التقاعد. وتمثّل حلمه في العودة إلى القرية التي وُلد فيها، وبناء بيت متواضع مع احتفاظه بوفرة من المال لتأمين حاجاته الأساسية لدى تقدّمه في العمر.

شعرت العائلة أن من حظها الكبير أن تعيش وتعمل في الوقت الراهن لدى أمير. وتضاعفت فرحتهم، لأنهم يعملون لدى أمير لم يسلبهم مرّة بالخداع المال الذي اكتسبوه بعرق الجبين. ويعرفون أن كثيراً من المواطنين الذين يعملون لدى أفراد من العائلة المالكة لا يتمتعون بهذا القدر من الحظ.

وقعت الحادثة الغريبة التي أدت إلى توقيف شدا، بينما كانت تزور أحد أحدث مراكز التسوق في الرياض الذي يحتشد فيه أشخاص من كل المشارب. من أكثر الناس ثراء في السعودية إلى أفقر العمال المهاجرين القادمين من مختلف البلدان النامية. ويجول هؤلاء الناس الذين ينتمون إلى مختلف الطبقات الاجتماعية-الاقتصادية على مقربة واحدهم من الآخر، وهم يتنزهون أمام واجهات المحالّ التجارية الحصرية التي تعرض أغلى الملابس والجواهر، لكن يندر أن تتوفّر لهم فرصة اختلاط واحدهم مع الآخر أو مناقشته.

لم يسبق لشدا أن زارت مركزاً للتسوّق فهي لا تمتلك المال لذلك،

ولم يكن لديها بالتالي أي سبب للقيام بنزهة في عالم من الأحلام. ويبدو أن والدَيْ شدا سمحا لها بالذهاب إلى مركز التسوّق برفقة عائلة يعرفانها. وكما سبق أن قلتُ، فإن هذه كانت أول زيارة لها إلى مركز للتسوق، وقد أدّت سذاجتها إلى الأزمة.

علمت أن شدا قد شُدهت بما شاهدته من مناظر، حيث لم تتوقف عن التحديق إلى كل من تشاهده وإلى كل شيء. وهذه عادة سيئة في السعودية، حيث يتمسّك الناس بشدة بخصوصيتهم وخصوصاً الإناث.

عندما دخلت شدا متجراً للملابس الداخلية، ورأت من وصفتها بأجمل امرأة في العالم: شابة سعودية خلعت حجابها، وهي في حرم المحل. اقتربت منها وحدّقت إلى وجهها فاغرة فاها كالبلهاء. كما أنها حملقت بعباءتها، وذهبت إلى حد الانحناء لتفحُّص حذائها الغالي ذي الماركة المعروفة.

شعرت المرأة السعودية بالإهانة الشديدة، بل حتى بالاضطراب، فغطّت نفسها بسرعة وخرجت راكضة من المحل لإيجاد والديها اللذين كانا يتناولان القهوة في مكان قريب. واستدعى والدها الخائف الشرطة التي أحاطت بشدا لدى خروجها من محل الملابس الداخلية واعتقلتها. وقالت الشرطة في البداية إن شدا تلاحق الشابة وستتهمها بالتحرّش، وهي جريمة خطيرة في بلادي.

ومن سوء الحظ أن الفتاة السعودية الجميلة ادّعت أنها أصيبت بالهلع وتقيّأت على الأرض. وعند ذاك ارتمت شدا، البسيطة إلى حد البلاهة، على الأرض وحاولت تنظيف القيء بمنديلها المطرّز. وحاولت الاقتراب من الفتاة لتبلغها أسفها، وتشرح لها أنها جميلة جداً، حيث لم تتمكن من إشاحة نظرها عنها، وأنها لم تكن تعلم بوجود مثل هذا الجمال.

عندها أصيبت والدة الفتاة بالهستيريا وصاحت للشرطة أن منديل شدا قد طُرّزت عليه تعويذة، وهي في الحقيقة ساحرة تحاول جمع قيء ابنتها لتصنع منه رُقية. وادعت الوالدة أن جميع النساء يصبن بالغيرة من جمال ابنتها، وأن هذه الساحرة تحاول قتل ابنتها باستخدام تعويذة أو رقية.

لم أدرِ في الحقيقة ماذا أقول. فقد عرفت على مدى السنوات القليلة الماضية عن هذا المنحى الجديد والمخيف في السعودية، لكنها المناسبة الأولى التي يجد فيها أحد موظفينا نفسه عالقاً في شرك هذا الجنون.

«حسناً»، قلتُ، سألتُ كريماً: «وأين شدا الآن؟».

«في السجن. ففي الوقت الذي جرى فيه إبلاغ والدها كانت قد أوقفت بالفعل ووُجهت إليها التهمة».

«وما التهمة؟».

كاد كريم يصيح: «السحر! تُتهم الفتاة الحمقاء بأنها ساحرة!».

«وماذا نستطيع أن نفعل؟».

«لا أدري، يا سلطانة. فهذا موضوع حسّاس».

«نعم».

ارتمى كريم على أحد الكراسي. مرّ زمن طويل لم أر فيه زوجي على هذا القدر من الاضطراب. حدّق إليّ والحزن في عينيه.

«لا شيء يواسي والديّ شدا. وهما يعتقدان، في ما هو أكثر إثارة للاضطراب، أن في وسعي القيام باتصال هاتفي واحد وينتهي كل شيء. وأنا في الحقيقة لا أعرف ماذا أفعل».

ألقيت نظرة سريعة على الساعة، وقلت: «لا يسعك شيئاً الليلة، يا زوجي. فقد تأخر الوقت».

تنهّد كريم بصوت مرتفع. وقال: «إنني أكره ما يحدث في بلدنا. فنحن محاطون بالجنون. ولا أدري ما الذي يتطلبه الأمر لوقف هذا الانزلاق نحو الجنون التام. ساحرات وشعوذة! يلقي هؤلاء الرجال الجامحون بظلّهم على بلدنا، وعلينا!».

يعتقد معظم الناس أن في وسع العائلة المالكة إبعاد مثل هذه المشكلات بنقرة من أصابعنا، لكن هذا غير صحيح. فالسلطات الدينية في السعودية قوية إلى حد أن ملكنا يتعامل معها بالكثير من الحساسية. وهو أكثر نفوذاً منها، إلا أن عليه أن يُعنى باختيار معاركه. ولا نستطيع، أنا أو كريم، الفوز في مواجهة كهذه مع رجال الدين، ولا إنقاذ حياة شدا.

طلب كريم من أحد مديريه المبيت في منزل شدا ومواساة أهلها، وإبلاغهم أنه سيفعل ما في وسعه في الصباح التالي.

نمنا بتقطّع، وحلّ الصباح من دون أن ننعم بالقسط الوافي من الراحة.

غادر كريم المنزل وهو رجل ذو تصميم. جمع عدداً من أقربائه الأكثر نفوذاً طلباً للنصح. وتبيّن أن الأقرباء لا يريدون التدخّل في القضية،

لأنهم يدركون أن كل ما له علاقة بالسحر والشعوذة أمر مهين جدّاً في السعودية، إلا إذا أراد أحدهم الانضمام إلى حفلة الجنون وتسليم ضحايا جدد إلى السلطات الدينية لتقوم بتعذيبهم. وسيصبح رجال الدين في حالة كهذه مسالمين وودّيين.

وجد كريم ضرورة لاستخدام أحد المحامين المحترمين في بلادنا للدفاع عن قضية شدا: محامٍ لا يوجد ما يضمن سلامته الشخصية، بالرغم من الدعم الذي توفّره له العائلة المالكة. وازداد خوفه على سلامته عندما حملق به رجال الدين في قاعة المحكمة، وهدّده القاضي بفترة سجن طويلة على تولّيه الدفاع في قضية ساحرة! ومن المروّع لجميع السعوديين أنه غالباً ما يوضع المحامون الذين يمثّلون الضحايا في السجن إلى جانب موكليهم.

حلّ علينا كابوس رهيب. فكل ما في بلادنا يتحرّك ببطء، وخصوصاً نظامنا القضائي. ووجدت أنا وكريم أنفسنا عالقين في حمأة من التوجّس والأسى. فقد أبلغنا المحامي الذي وكّله زوجي أن شدا وُجدت مُذنبة، وسيُقطع رأسها.

تدرك قلّة من الناس في الغرب أن كثيراً من المسلمين يؤمنون بالخرافات، مثل السحرة والسحر الأسود وعين الحسد والجن، وهي كائنات فوق الطبيعة، تحاول إخافة المسلمين الصالحين أو إصابتهم بالأذى.

لكن جرى تحذيري، مذ كنت طفلة، من العين الحاسدة ومن الكائنات فوق الطبيعية، مع أن والدنا كان ينزعج إذا ذكر أحدهم الجن في حضوره. فهو، بالرغم من أنه ليس على قدر كبير من العلم، ذكي، وأعلن أن الجن غير موجود إلا في الذهن، وليس في الحياة المادية.

لم أعرف أي تفاصيل حقيقية عن السحر والشعوذة إلا بعد أن تزوّجت، واكتشفت أن حماتي مؤمنة إيماناً قويّاً بقدرة السحر الأسود. وهي، على غرار الكثيرات من نساء العائلة المالكة السعوديات ممن لديهن الكثير من أوقات الفراغ، تحصل على البهجة الغامرة من خلال كشف الغيب. بل إن حماتي أثّرت في ابنتي مها التي دخلت في مرحلة من ممارسة السحر الأسود، لكنني أنا وكريم ثنيناها كثيراً عن ذلك، وسرعان ما نسيتْ أمره.

ثمة مناسبات تثير فيها الروايات عن الشعوذة والسحر الأسود الضحك، وإحداها كانت في أواسط الثمانينات، عندما شاركتنا صديقة أميركية تقيم في بلادنا قصة ظريفة. وهي قارئة نهمة، وتتابع الأخبار عن كثب أكثر من معظم الناس. قرأتْ عن إعلان في الإذاعة بجدّة يتعلّق بجنّي مؤذٍ مختبئ في مجتمع محدّد في المدينة. واعترى الخوف من هذه الرؤيا كثيراً من المواطنين. وسرعان ما شرع

الناس في نشر الأقاويل عن رؤيتهم الشخصية لجنّي خبيث بشكل خاص يجول في حيّهم. وقالت الصحيفة إن أحد مراسليها قد رأى الجنّي. وهو، بحسب الصحافي، قبيح جداً إلى حد لا توجد معه كلمات مناسبة لوصفه. وجاء في مقال أن أحد السعوديين في الحي الذي «يسكنه الجن» تمكّن حتى من التقاط صورة للجنّي القبيح. ووعدت الصحيفة بنشر الصورة، بالرغم من أنها، ولسبب لا تفسير له، حجبت الصورة لمدة أسبوع. وطُلب في غضون ذلك من سكان جدّة التزام منازلهم ليلاً والإبقاء على أبوابهم موصدة في كل الأوقات. وأخذت الهستيريا الجماعية تتزايد، في حين ينشر محررو الصحيفة كل يوم الأخبار عن مختلف ظهورات الجن الذي أصبح يزداد خطراً، على ما تؤكّد الصحيفة.

وانتظر جميع مَن تابعوا الموضوع بتوتُّر عصبي تائقين إلى أن يروا بأنفسهم صورة الجني هذا.

ولما حل أخيراً اليوم الموعود، نشرت الصحيفة الصورة. وكانت صديقتي الأميركية من بين أول من فتحوا صفحاتها. واعترفتْ لاحقاً بأنها ضحكت بصوت مرتفع. «فالجنّي» المرعب ليس إلا كناية عن صورة فوتوغرافية لـ «إي. تي» (E.T)، المخلوق الفضائي الصغير في فِلم ستيفن سبيلبرغ، «إي. تي» الذي لاقى رواجاً كبيراً، ووُزّع في العام 1982.

لم يسافر، في تلك الأيام، سوى قلّة من السعوديين إلى الخارج. ولم يتسنَّ بالتالي إلا لعدد محدود منهم مشاهدة «إي. تي» لأن الفلم مُنع عرضه في بلادنا.

شاهدتُ لاحقاً بنفسي تلك الطبعة من الصحيفة. وبالرغم من أنني ضحكت أنا الأخرى من سخافة الخوف الذي ولّده فلم خيالي أُنتج في هوليوود، فإنني أتذكّر أيضاً شعوري بالخجل من هذا القدر الكبير من أبناء بلادي الذين صدّقوا الرواية. وسمعنا أن هستيريا حقيقية اندلعت في جدّة لدى رؤية صورة مثل هذا المخلوق. وصدّق الكثيرون أنها حقيقية، وأن «إي. تي» كائن حقيقي يترصّد حيّهم ويتربّص بهم في الظلام لمهاجمتهم أو مهاجمة أولادهم.

يعتري السعوديين دوماً فزع من الجانب المظلم من الحياة، لكن هذا الجانب الخفي، ولسبب لا أعرف ماهيته، قد اجتاح البلاد في الأعوام العشرة الماضية، حيث احتل الذهان الضخم الكثير من عقول السعوديين. وبلغ الأمر بالسلطات السعودية أن حظرت سلسلة هاري بوتر للكاتبة البريطانية جي. كي. رولينغ، اعتقاداً منها أن الكتب والأفلام ستدفع بالمواطنين السعوديين إلى ممارسة الشعوذة والسحر.

وانطلاقاً من الخوف على المواطنين السعوديين وغيرهم من المقيمين على أرضنا، فإن هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو الشرطة الدينية المتمثلة بالرجال ذوي العيون الغاضبة الذين غالباً ما يُشاهَدون وهم يجوبون الشوارع بلحاهم الطويلة وعباءاتهم التي تصل إلى كواحلهم، راحت تركّز بشكل استحواذي في القضاء على الشعوذة ومطاردة السحرة، الأمر الذي يتداخل بشكل عجيب مع حماستهم في التمسك بإيماننا المحافِظ. وأكثر ما يثير القلق هو أن هذه الهيئة نفسها قد أنشأت الآن وحدة خاصة هي «شعبة مكافحة السحر والشعوذة» لتثقيف جميع المقيمين في السعودية حول شرور السحر والشعوذة. وخُصّصت لشعبة مكافحة السحر ميزانية حكومية ضخمة لمطاردة جميع مَن يلقون التعاويذ ضد الأبرياء. وهم يشبعون مجتمعنا بالخوف بتوزيعهم المناشير وتشغيل الخطوط الساخنة، والقيام بعمليات استدراج لجرّ مسكين ما إلى الإدلاء بأي نوع من التصريح ينزل الشبهة على رأسه. ويشجّعون الناسَ العاديين على الإبلاغ عن أي سلوك يعتقدون أنه شاذ. هل حدّق إليهم أحد؟ وكم من الوقت؟ هل مرضوا بعد أن جاء أحد الجيران لزيارتهم؟ هل أصبح رجل ما عاجزاً جنسياً؟ وعليه في هذه الحال أن يتذكّر مع من كان قبل أن يفقد «رجولته». هل حاول أحدهم أن يشتري خروفاً أو جملاً، واصفاً ملامح محدّدة يريد توافرها في الحيوان؟ وعلى الشخص في هذه الحال أن يتصل بالخط الساخن لمكافحة السحر وتزويد السلطات باسم الطرف المذنب. وارتكازاً على مثل هذا الدليل الغامض والفارغ، يواجه المواطنون السعوديون أو زائرو بلادنا خطر التوقيف المحتمل والاتهامات الخطيرة.

يخلق هؤلاء الرجال، الذين أعتبرهم شخصياً جهلة بالقدر الذي يستطيع فيه كائن بشري أن يكون جاهلاً، أرضاً خصبة لمطاردة السحرة، إذ وقع عدد من الحالات يدّعي فيها كذباً، من يسعون إلى الانتقام، أن أشخاصاً أبرياء يمارسون السحر أو الشعوذة. وربما أبلغتْ خادمة ما عن حادثة اغتصاب، أو سائق عن عدم قبضه مرتَّبه. ويعمد عندها أرباب العمل الغاضبون، إلى رفع دعوى مضادة يتهمون فيها مثل هؤلاء الناس بأنهم سحرة أو يمارسون الشعوذة. ويجري، في حال توجيه [الموظفين] مثل هذه الاتهامات، توقيف المتهمين ومحاكمتهم وفي الغالب إعدامهم، بالرغم من براءتهم.

ويستحيل عليّ الاعتقاد أن أي شخص حاز على قدرٍ متوسّط من العلم، أو يتمتع بعقلانية جزئية قد يقبل بمثل هذا الهراء ويعتبره حقيقة! لكن هذا هو واقع حياة البعض في السعودية سنة 2014.

وقعت منذ سنة 2012 نحو ألف حالة توقيف ومحاكمة وسجن، كما أُعدم بعض الموقوفين بتهمة السحر والشعوذة.

وحتى وضع هذا الكتاب، بلغ عدد الذين سجنوا في السعودية، إما

لأنهم من المشعوذين وإما لأنهم من السحرة، ما يزيد على مئتي شخص. وخسر أكثر من عشرين منهم حكم الاستئناف، وأدرجوا على جدول الإعدام بقطع الرأس.

وفي ما يأتي بعض الوقائع المعروفة بخصوص حالات محددة وقعت في السعودية على امتداد الأعوام الأخيرة:

1. حُكم على عامل منزلي سريلانكي بسنة في السجن وبألف جلدة لممارسته السحر الأسود، علماً أن أحداً لم يتمكّن من إظهار أي دليل حسّي على نوع السحر الأسود الذي مارسه.

2. أوقفت مواطنة سريلانكية للاشتباه بممارستها السحر، بعد تحديقها لفترة أطول من اللازم إلى طفل في مركز للتسوق، وقد لفّت شريطاً أسود حول معصمها، فوجد القاضي أن ذلك يشكّل، ولا بدّ، إشارة إلى أنها ساحرة. وحتى وضع هذا الكتاب لم تكن عقوبتها قد عُرفت بعد.

3. نُفّذ حكم الإعدام بامرأة سعودية تدعى أمينة بنت عبد الحليم بن سالم ناصر لممارستها السحر والشعوذة، إلا أن ما ارتكبته من أفعال محدَّدة لم يُنشر على الملأ. واكتفى عناصر الشعبة ببيان بسيط مفاده أن السيدة ناصر تشكّل خطراً على الإسلام.

4. جرى الإخبار زوراً عن سعودي يدعى مريع بن علي بن عيسى العسيري بأنه يمارس أعمال السحر. ووُجدت في منزله كتب وتعاويذ، فاعتُقل وحوكم وقُطع رأسه في محافظة نجران الجنوبية.

5. قُطع رأس امرأة سعودية، في الستين من العمر، بتهمة ممارسة السحر بعد أن «خدعت الناس لتحصيل المال» زاعمة أنها تستطيع شفاء أمراضهم.

6. قُطع رأس المصري مصطفى إبراهيم، بعد اتهامه بوضع رُقية للتفريق بين زوجين. وقال القاضي إنه مقتنع بذنب مصطفى بعد اكتشاف شموع وأعشاب ذات رائحة كريهة وكتب في منزله.

7. انتشرت في العالم قضية شهيرة تتعلق بمواطن لبناني مسلم، كافحت الحكومة اللبنانية لإطلاقه، واحتلت قصته نشرات الأخبار. يقدّم الرجل، واسمه علي حسين سباط، برنامج «كشف المستور» التلفزيوني الذي يحظى بشعبية في لبنان. والبرنامج ليس في الواقع إلا عبارة عن خط تنجيمي ساخن، يقدّم فيه السيد سباط النصح للمتصلين به من المشاهدين ويصف أحياناً بعض الرقيات. استرعى هذا البرنامج ولا شك انتباه الشرطة الدينية السعودية، فأوقف بتهمة الشعوذة خلال وجوده في السعودية للقيام بفريضة الحج. ولم يردع عدم كونه مواطناً سعودياً، وأن «جرائمه» وقعت في

بلاد أخرى، شعبة مكافحة السحر والشعوذة. وشعوراً من أفرادها بأنهم حرّاس الإيمان، ليس في السعودية فحسب، بل في العالم كلّه أيضاً، ساقوا السيد سباط إلى المحكمة وحازوا قراراً بالذنب من القاضي الذي حكم عليه بقطع رأسه. وجرى في مرّات عدة تحديد تاريخ تنفيذ الحكم، لكن الحكومة اللبنانية نجحت، مع اقتراب كل موعد، في إرجاء تنفيذ حكم الإعدام. ويُعتقد أن رأس سباط لم يُقطع، إلا أن السلطات السعودية ترفض القول إذا كان قد أُطلق، أو لا يزال في السجن، أو عاد إلى موطنه لبنان. وهو، في حال إطلاقه، قد حافظ على الصمت علناً، بالرغم من يقيني من أنه يتحدّث في السر بحدّة عن بربرية بلادي. ووعد كريم بمعرفة مصيره. وعندما يفعل أعلنُ ذلك على الملأ.

8. أوقف إريتري، وسُجن، على أثر مصادرة دفتر عناوينه الهاتفية الذي قُدّم إلى المحكمة بوصفه «طلسماناً»، لأن الشرطة الدينية لم تتمكّن من قراءة الكتابة الأجنبية للرجل، واعتقدت أن الدفتر ممتلئ بالتعاويذ التي تجعل الرجل يتخلّى عن زوجته والزوجة عن زوجها. لا بد وأن الرجل المسكين قد ارتبك وارتعب، إذ حُرم من توكيل محام، وجرت المداولات كلّها بالعربية وهي لغة لا يفهمها، فيما رُفع دفتر أرقام الهاتف عالياً، وضُرب على الطاولة، وهو ما تسبّب بسجنه وبمعاقبته بمئات الجلدات.

9. وقع السوداني عبد الحميد بن حسين مصطفى الفكّي ضحية عملية استدراج، طلب إليه فيها عميل سرّي للشعبة صنع رقية تحمل والده على ترك زوجته الثانية. وأقسم العميل السرّي أن الفكّي قال إن في وسعه القيام بذلك، لكن مقابل ألف وخمسمئة دولار. ولا يعرف أحد حقيقة ما حدث، لأن السلطات الدينية توّاقة جدّاً إلى توقيف الناس وجلدهم وقطع رؤوسهم. ومن يستطيع الثقة بشهادتهم؟

10. وأخيراً، أوقعت عميلة سرّية بامرأة مسكينة بعد أن سألتها عن قدرتها على تحويل زوجها إلى رجل مطيع. ويُفترض أن المرأة قالت إنها تستطيع ذلك، فأوقفت لاحقاً وحكم عليها بالموت.

***

فارعة وشدا، فتاتان بريئتان، وكلتاهما ضحية الشعائر البربرية والإيمان بالخرافات، وهو ما سيفسد حياتهما إلى الأبد. ولم أستطع، على مدى أشهر عدّة، إبعاد أي من الفتاتين من ذهني. أعلمتني ناديا أن فارعة قد اختفت في مستنقع قبيلتها المسرفة في المحافظة، عندما ظهر أهلها في المستشفى، وأصرّوا على اصطحاب ابنتهم للعودة إلى ديارها. وقالت ناديا إن فارعة ذرفت الدموع الغزيرة وهي تغادر غرفتها.

عانيت من كوابيس رأيت فيها أن المسكينة فارعة قد زُوّجت خلافاً لإرادتها من رجل متوحّش، رجل لن يشفق على حالتها المشوهة، وسيمزّق لمرّات كثيرة أعضاءها التناسلية، ويُنزل بتلك الشابة تكراراً الألم والعذاب.

وماذا عن شدا؟ كيف تواجه شدا المسكينة الحجز عليها في سجن في الرياض؟ هل هي قادرة على أن تتهيّأ نفسياً للمصير الرهيب الذي ينتظرها؟ فهي ستفقد رأسها لا لشيء إلا لأنها أُعجبت بجمال إحدى النساء؟

قضيت ليالي كثيرة أتعايش فيها مع ما اعتقدت أنه يحدث لفارعة وشدا إلى درجة شعرت معها أنني بلغتُ حافة الجنون.

وجدتُ أن زوجي يعاني هو الآخر. تعب وجهه، وأخذت تظهر عليه بعض التجاعيد؛ وأخذ شعره الأسود يتحوّل إلى اللون الرمادي. أعرف أن زوجي شعر بأنه أمير من دون سلطة، وهو أمر يصعب على رجل فخور وجدير بالاحترام أن يتصالح معه.

ذرع كريم في إحدى الليالي الطويلة أرض غرفة نومنا جيئة وذهاباً قبل أن يجلس إلى مكتبه، ويتناول قلمه ويكتب كلمات سَكبت من قلبه. فزوجي شاعر ويستطيع التقاط ألمٍ وفرحٍ لا أستطيع التقاطهما. وجلست في اليوم التالي، بعد أن انسحب كريم من غرفة نومنا طلباً للقهوة، على كرسيه، وقرأت الكلمات الكئيبة التي ألّفها:

وُلدتُ ووطني يسكنُ في أحداقي..

وها هي رمال الرياض تموج وتتعرّج..

تنتظر وقْع زوجين من الصنادل..

رمت جمال الطائف بظلالها الوارفة..

وبرّدت مياه البحر الأحمر جسمي الحارّ..

ما أراه اليوم من وطني يغتال حُلمي..

والرمال الحارقة تخترق حرارتها صندلي، وتحرقني..

سيول الجبل تغمر الأشجار الظليلة..

ومياه البحر الأحمر تكاد تختفي، ولا تدعني أتنفّس..

ثمة رجال غاضبون يدّعون محاورة اللّه..

وهم يجهلون لغة اللّه، فأبعدوهم..

أسمع أصواتهم الغريبة وادّعاءاتهم، وهم يدمّرون وطني..

وأنا مكتوف الأيدي، لا قُدرة لي على إنقاذ أرضي الحبيبة..

لم يسبق لي أن أحببت كريماً بقدر حبّي له في تلك اللحظة.

الفصل الثاني عشر
حفنةٌ أخرى من الدموع

أعاني، ويا ليأسي، من الإخفاقات بقدر ما أحقق من الإنجازات في مساعدة النساء الضعيفات في السعودية. فبعد أشهر من إخراج فارعة المسكينة بالقوة من المستشفى، أعيدت إليها ثانية. وانفعلتْ ناديا كثيراً عندما اتصلت بأماني لإبلاغها الخبر المزعج بأن فارعة أُجبرت بالفعل على زواج لم تُرده.

لم تكن فارعة قد استعادت كامل قواها بعد الجروح والالتهابات التي أصابتها بسبب ما قاسته من تشويه لأعضائها التناسلية. فزوجها، ويا للأسف، وحش لا يهتم إلا بلذّته الجنسية. وقد استبدّ به الغضب لأن فارعة لم تكن ترغب في معاشرته. واختبأت منه عندما أمرها بالمجيء إلى السرير.

استعادت عافيتها، بعد دخولها الثاني إلى المستشفى، وعادت إلى زوجها. إلا أن الشابة المسكينة بقيت تعيسة ويائسة، وانتحبت وتوسّلت لمساعدتها على التخلّص من زواج ومن زوج يتسببان لها في الاشمئزاز.

بقيت ناديا، قدر استطاعتها، على اتصال بفارعة التي أسرّت لها في المرّة الأخيرة التي تحدثتا فيها عبر الهاتف، بأن زوجها قد بدأ يضربها بالرغم من أنها حامل. وخافت فارعة مما ستعانيه من ألم لدى ولادة طفلها بعد أن عانته نتيجة تشويه أعضائها التناسلية. ثم توقفت فجأة عن الاتصال. بدا كما لو أنها اختفت.

لم تعد تُجب فارعة قط على اتصالات ناديا، كذلك لم تعد إلى المستشفى. ويُحتمل، ولو أن الأمر مستبعد، أن تكون عائلتها قد انتقلت بعيداً، لكننا قد لا نكتشف ما حلّ بالفتاة المسكينة، ونخشى من الأسوأ.

تذرف المسكينة أماني دموع الحزن في كلّ مرّة تتحدّث فيها عن فارعة. وهكذا أدركت ابنتي الصغرى في النهاية تمام الإدراك أن حياة النساء السعوديات وحشية في الغالب وقاسية. وأعلم الآن، مع شغف أماني الكبير بعملنا، أن ابنتي قد أخذت تفتح عينيها على واقعنا.

أما شدا، الشابة البريئة التي عوقبت بقسوة شديدة على تحديقها البريء إلى امرأة أخرى، واتُهمت بأنها ساحرة، فقد انتهت قصتها إلى خاتمة أكثر سعادة، لأن زوجي قام بأمر قال إنه لن يفعله أبداً. فبعد أن أبلغه المحامي الذي يمثّل شدا أن رجال الدين القيّمين على

المحكمة لن يحكموا أبداً لمصلحة امرأة اتُهمت بأنها ساحرة، بالنظر إلى أن المؤسسة الدينية في السعودية حريصة بوجه خاص على معاقبة أي متهم بالسحر أو بالشعوذة. رشا كريم ثلاثة رجال دين يتولّون قضية شدا بمبالغ كبيرة من المال. وهو ليس فخوراً بتبنّي مثل هذه التكتيكات؛ ولم يسبق لي مع ذلك أن افتخرت بكريم كما أفتخر به الآن؛ يتطلّب الأمر شخصاً استثنائياً لمخالفة كل ما يؤمن به، ليس لمصلحته الخاصة بل لمساعدة شخص آخر. ويبرّر كريم رشوة شخص بأنها مجرّد خطيئة صغيرة، وثمناً قليلاً يُدفع بالمقارنة مع خطيئة أكبر كثيراً تتمثل بإعدام شابة بريئة مثل شدا بسبب سذاجتها. فخطيئتها الوحيدة أنها أُعجبت بامرأة جميلة وأعلنت عن إعجابها.

وهكذا مُنينا بخسارة ونعمنا بانتصار. لكننا لم نحظ بالكثير من السرور بانتصارنا، بسبب تفجّعنا على خسارة فارعة.

أصلّي وآمل أن يحل اليوم الذي لا تعود فيه النسوة يعانين معاناة عذاب تشويه الأعضاء التناسلية، أو أسى إجبارهن على الزواج من رجل، شاب أو عجوز، غريب عنهن.

***

لا بد وأنكم صرتم تعرفون الآن أنني امرأة شغوفة، امرأة تحب بعمق. وتُنتج عن عاطفتي الشديدة رغبة في حماية من أحب. كان لحاجتي في توفير الحماية وأنا صغيرة أثر جانبي سلبي تمثل في حاجتي أيضاً إلى السيطرة، وهو ما أفضى إلى وقع غير محبَّب على الجميع: على المُحِب وعلى المحبوب.

توصّلتُ، وقد نضجت، أن أرى أن للحب، الذي يقول الرجال السعوديون أنهم يشعرون به حيال النساء السعوديات، علاقة في الحقيقة بالسيطرة. وسمعت في مرات كثيرة الرجال السعوديين يزعمون أن حبّهم يعني أن عليهم توفير الحماية، فيما ينفون حاجتهم إلى إعطاء الأوامر وفرض القيود والسيطرة.

لذلك غدوت أحرس الحب الذي أشعر به، وأحب برفق ورعاية من دون محاولة السيطرة.

وأنا ابنة أحبّت، منذ لحظة ولادتها، والدتها حبّاً كبيراً. ولا يزال حبّي لها ينمو مع كل سنة تمر، ولن يخبو أبداً مادام قلبي النابض يضخ الدماء في أنحاء جسمي. وأودّ لو أمكنني قول الأمر نفسه عن والدي. غلّب الخوف، وأنا صغيرة، على توقي إلى محبة والدي بالقدر الذي أحببت فيه أمي. واعتقدت طويلاً، وبحزن بالغ، أنني، لن أشعر أبداً بالحب الحقيقي حيال والدي حتى اللحظة التي يُلف فيها جسمي بالكفن، وأدفن في الصحراء. لا أستطيع أن أسامحه أبداً على

الطريقة التي فضّل فيها أخي عليّ وعلى شقيقاتي، وهو ما غذّى الشعور السيّئ السائد حتى اليوم بيني وبين شقيقي. لكن، وبعد بلوغي عمراً معيّناً، أخذ الحب ينمو حيال الرجل القاصر عن الكمال الذي وهبني الحياة. وبات باستطاعتي الآن، وللمرة الأولى، القول بأنني ابنة تحب والدها.

وأنا شقيقة تحب كل واحدة من شقيقاتها التسع، ولو أنني أكنّ حبّاً أقوى لشقيقتي سارة. ولا أستطيع قول الأمر نفسه عن شقيقي، عليّ. شعرت في الماضي بلحظات من المودّة تجاهه، لكن حبّي كان يتراجع مع كل فعل وحشي يرتكبه ضد زوجاته وأولاده وشقيقاته وأولاد شقيقاته. ولا أشعر اليوم، عندما أفكّر بعليّ، إلا بالأسى.

وأنا زوجة تحبّ زوجها. وزواجي، على غرار معظم نساء السعودية، كان مدبّراً. كنت مراهقة عندما قيل لي بأنني سأتزوج، إلا أنني واحدة من الفتيات السعوديات المحظوظات، حيث سُمح لي، قبل الزواج، بلقاءات خاضعة للإشراف وبمكالمات هاتفية مع خطيبي. وجاءت هذه اللقاءات والاتصالات لتطمئنني بأن كريماً رجل طيّب. بل إن وجه كريم الجميل حمل إلي السعادة في لقائنا الأول. وهمس قلبي برسالة حب منذ اللحظة التي نظر فيها واحدنا في عيني الآخر. وأحببته في كل لحظة تقريباً منذ ذلك الوقت. ولم يهتزّ حبي إلا مرة واحدة عندما أعرب عن رغبته في اتخاذ زوجة ثانية. لم يتوقع ردّ فعلي العنيف، ونجحتُ في عرقلة خطته الجهنمية عندما هربت منه إلى خارج البلاد. وأشكر اللّه أن هذه الحادثة الرهيبة لم تكن إلا فترة عابرة، ولم يحرّك زوجي بعد ذلك قط ذلك السمّ الذي ستجلبه زوجة ثانية. وأنا شريكة كاملة في زواجنا وأعرف أننا نعيش، أنا وكريم، واحدة من أسعد الزيجات في السعودية. ويعرب زوجي كل يوم عن حبّه لي، وعن سعادته في أننا زوجان، وأنا أبادله المشاعر نفسها.

ومحبّة الآخرين كنز كبير لي. لكن ما من حب أعظم من الحب الذي أكنه للأولاد.

وأنا جدّة تحبّ أحفادها بقوة. تزوّجتُ وأنا صغيرة، وأنجبت أولادي وأنا صغيرة. وها أنا الآن جدّة شابة تحب أحفادها الثلاثة بقدر ما يمكن للمرء أن يحب. وسأضحي بحياتي من دون تردد من أجل الأميرة الصغيرة سلطانة والأمير خالد والأمير فيصل.

وأنا أم تحب أولادها الثلاثة بشغف لا يمكنني وصفه. وبالرغم من كوني طفلة متمرّدة تسببت بالكثير من المشكلات في حياة عائلتنا، إلا أن تركيزي كلّه انصب منذ اللحظة التي أصبحت فيها أمّاً شابة على وقاية أولادي وحمايتهم. لكنني كنت دوماً، بالرغم من هذه الحاجة إلى توفير الحماية، مصمّمة على تربية أولاد أقوياء

ومستقلين يترعرعون ليصبحوا راشدين واثقين بأنفسهم، أشخاصاً أحراراً في التعبير عن أنفسهم، وفي الدفاع عما يؤمنون به.

وأذكر ولادة كل طفل كما لو أنها حدثت بالأمس.

تحمّستُ، لدى ولادة عبد الله، عندما جاءني المخاض، لمعرفتي أنني سرعان ما سأحمل، بمشيئة الله، رضيعاً بين ذراعي. علّمتني تجارب الطفولة كفتاة في السعودية أن الطفل الذكر سيحظى بحياة أكثر سهولة، إلا أنني متيمة بحب ابنتيّ وقلبي يمنّي النفس بالحصول على ابنة صغيرة. وأعرب جميع من حولي، باستثناء شقيقتي سارة، عن التوق إلى طفل ذكر، لأن الناس في السعودية يحتفون بولادة الأبناء الذكور، ويحزنون على ولادة البنات. أغضبتني الفكرة في حد ذاتها. واستنكرت ظلم هذا التقليد الثقافي، واشتعلت نزعتي المتمرّدة من جديد، بالرغم من أنني أخذت أتلوّى من آلام المخاض، وأعدّ نفسي لولادة بنت.

لكن شاء الله أن يكون مولودي الأول صبيّاً؛ فذلك قدري وقدر ابني.

هيّأتُ نفسي للحزن على منظر طفل ذكر، لكنني ذُهلت لظهور مشاعر الحنان، وأنا أنظر إلى هذا الرضيع الجميل. وهاكم ذكرى ولادة ابني عبد الله كما ذُكرت في الكتاب الأول عن حياتي:

حين وُضع ابني المتثائب بين ذراعي تلاشت كل الأفكار المتعلقة بإنجاب ابنة. الابنة ستأتي لاحقاً. سيجري تلقين هذا الطفل الذكر طرائق مختلفة أفضل من الطرائق التي تعلّمها الجيل الذي سبقه. شعرت بقوة نياتي وهي خطط لمستقبله. لن يكون ذا تفكير رجعي؛ وسيُمنح شقيقاته منزلة شرف واحترام؛ سيتعرف إلى شريكة حياته ويحبها قبل الزواج. توهجت الإمكانات الكبرى لإنجازاته وتوقّدت بوصفها بداية جديدة. قلت في نفسي إن التاريخ قد شهد مراراً على رجل استطاع بمفرده أن يحدث تغييراً أثّر في الملايين. امتلأ صدري اعتزازاً وأنا أفكّر مليّاً في خير البشرية الذي سيتدفق من هذا الجسم الصغير الذي أحمله بين ذراعي. ويمكن، من دون أي شك، أن تنطلق من نسبي بداية جديدة لنساء السعودية.

العودة إلى الماضي ممتعة، حين أنظر بعيني الذاكرة فأرى طفلي الجميل، وأقارن بين أحلامي المتعلقة بحياته وبين واقعها اليوم. وتذهلني دقّة أفكاري وأمنياتي لابني، لأن الرضيع الصغير عبد الله كبر بالفعل ليصبح رجلاً ذا شخصية لا تشوبها شائبة، وصاحب إنجازات تدعو إلى الإعجاب. وابني رجل متنوّر كرّم شقيقتيه واحترمهما، وأحب لاحقاً زوجته وابنته وكرّمهما. وعبد الله فائق الذكاء. ويقول زوجي إنه يجترح المعجزات في العمل. وهو إنساني أيضاً، وقد أثبت تكرّسه

للخير مرّات أكثر مما أستطيع إحصاءها، إذ إنه يساعد دوماً المحتاجين الأقلّ منه حظّاً.

لو مُنحت فرصة التلويح بالعصا السحرية التي تُحدث تغييراً فورياً، لما بدّلت شيئاً في مظهره أو شخصيته أو طبعه.

وإذ أتذكّر ولادة عبد الله، أذكر أيضاً كل لحظة من لحظات اليوم الذي وُلدت فيه ابنتي الكبرى. ولم أخبر العالم بعد عما حدث عندما جاءتنا مها قبل أوانها. لم نكن أنا وكريم قد أكملنا استعدادنا بعد، اعتقاداً منا أن أمامنا عدة أسابيع إضافية قبل أن ينضم طفلنا الثاني إلى عائلتنا. لكن مها اتصفت دوماً بأنها طفلة نافدة الصبر، وتتفاعل بطريقة غير متوقعة مع كل أمور الحياة. ولم يختلف مجيئها إلى هذا العالم عن ذلك.

أذكر توقي، وأنا في آخر مراحل الحمل، إلى أمسية هادئة مع زوجي في قصرنا في الرياض. لكن كريماً حرص على قضاء الأمسية مع شقيقه أسد. وتحدّث، بالرغم من رغباتي، عن الحاجة إلى مناقشة بعض أمور العمل المتعلقة بشركة مهمة متعددة الجنسيات تحاول القيام بأعمال في المملكة. وعرف أن هذا النوع من الاجتماعات لا يثير اهتمامي، ولن أطرح بالتالي الأسئلة في شأنه، كما أوضح أنه لا يرغب في تركي في المنزل. وقال كريم إن بإمكاني، وهو يناقش شقيقه في الأعمال، أن أترافق مع سارة. وأشار كريم إلى أنهما كانا سينضمّان إلينا، لكن واحدة من بنات سارة تناولت سمكاً فاسداً وتشعر بالغثيان. ولا شيء يشعر المرء بالمرض مثل ثمار البحر الملوثة. ورفضت سارة، بالطبع، ترك ابنتها المريضة. وهذا الأمر ليس مفاجئاً، لأن شقيقتي هي الأم الأكثر تكرّساً لجميع أولادها.

وهكذا وافقتُ على مرافقة زوجي، بالرغم من أن إصراره قد عكّر مزاجي لاعتقادي أن من الواجب دوماً مكافأة المرأة التي تصبح في آخر مراحل الحمل، بتحقيق كل رغباتها.

انتهت الرحلة بالسيارة إلى قصر شقيقتي من دون مشكلات. إلا أن الأمور أخذت، بوصولنا، تتحوّل إلى ما يشبه المشهد الكوميدي، إلى مشهد هزلي سار على غير ما يرام. كانت العائلة كلّها قد أكلت من ثمار البحر الفاسدة نفسها، فمرض أسد في لحظة الترحيب بي وبكريم. وضع يده على فمه وابتعد مسرعاً للعثور على حمّام يتقيّأ فيه. وعندها تماماً، وفيما كانت سارة تدعونا إلى الانضمام إليها في غرفة الجلوس، دخلت ابنتها المريضة، وهي تتعثّر إلى الغرفة بحثاً عن أمها. حاولت الطفلة، بنوع من العذوبة، أن ترحّب بي بالقبلات، إلى أن قلت لها بلطف: «لا حاجة إلى القبلات أيتها الطفلة العذبة. اذهبي وارتاحي ليشفى جسمك جيّداً».

ابتسمت ابنة سارة بشجاعة، ثم امتقع وجهها، وشرعت مرّة أخرى في التقيّؤ، وهذه المرة عليّ كلّياً!

أمسكت سارة بابنتها المحرَجة من كتفيها، وأبعدتها عنّي بلطف، قائلة: «لا تقلقي يا عزيزتي. عودي إلى السرير. سأتولّى أمر سلطانة».

صُعقتُ وعجزت عن الحركة. شعرت بالقيء الرطب والرائحة الكريهة. شهق كريم بصوت مرتفع، ونادى على الخادمات لإحضار المناشف. شعرتُ بأنه سيغمى عليّ، وكدت أتقيّأ مرّة أو اثنتين قبل أن أتقيّأ فعلاً على سجادة شقيقتي التي لا تقدّر بثمن. أخذ الأمر يتحوّل برمّته إلى كابوس!

ذُعر كريم بسبب قلقه الشديد عليّ. انتشلني وأخذ يدور كالبلبل وهو يصرخ: «أين يجب أن آخذها، أين يجب أن آخذها؟».

وزاد دورانه بي من سوء حالتي. أصبت بدوار وأخذت أشعر مرّة أخرى بالغثيان. لا بد وأن ابنتي التي لم تولد بعد قد شعرت بالإثارة. يقال إن الجنين يستطيع أن يسمع كل ما يدور من حوله ويشعر بانفعالات أمه التي تحمله في داخلها.

شرعت مها تركل داخلي في الوقت نفسه الذي شعرتُ فيه بأول آلام المخاض. كانت مها، حتى وهي جنين، جدّية للغاية وقوية جدّاً، ودفعتني ركلاتها، مقرونة ببدء الألم، إلى الصراخ بصوت مرتفع جدّاً، حتى أن كريماً، الذي أصيب بالخوف الشديد، أفلتني وانزلقت من بين ذراعيه إلى الأرض، لكنني تمكّنت، بفضل اللّه، من السقوط في وضعية الجلوس.

لم أصب بأذى، لكن كريماً لم يعرف ذلك، وظن أنه قد آذاني. صاح طالباً كرسيّاً نقالاً، ولما لم يحضر أحد على الفور، تجاوزني راكضاً لينزلق على الأرضية الرطبة ويسقط بقوة على الأرض.

قطعت الانقباضات الشديدة نَفَسي، ولم أستطع سوى الجلوس وطلب المساعدة، فيما أخذت الأوجاع تصبح متقاربة أكثر مما يُفترض. تعلّمتُ ما يكفي من ولادتي الأولى أن الانقباضات كلما تقاربت اقترب موعد الولادة. وتعافى أسد عند ذاك من التقيؤ، وهرع إلى الغرفة لدى سماعه صراخي. وارتبك حين رأى منظر شقيقه وشقيقة زوجته على الأرض. وزاد من سوء هذا الارتباك إصرارُ كريم، وهو لا يزال مذعوراً، أنني تأذيت عندما أسقطني.

وتمكنتُ من الحديث لأقول لهما: «لا لم أتأذّ، لكنني أشعر بالتأكيد أن مولد طفلتنا قد اقترب. إنني أحتاج إلى مستشفى».

علا الرعب وجه كريم، إذ لا يزال، على حد علمه، شهر على موعد ولادة طفلتنا. وخشي من أنه قد أضرّ بي أو بالجنين. وبدا أن أسداً يعاني صعوبة في تحريك قدميه، لكن كريماً شرع عندها في النهوض. وهزّ شقيقه وقال: «يجب أن نمضي».

عادت سارة مع اثنتين من خادماتها إلى الغرفة ومعهن المناشف، وأذهلهن المشهد وأنيني الذي أخذ يتصاعد. أمسك كريم بالمناشف من يدي سارة، وقال لها: «سلطانة سوف تلد».

«سلطانة!» صاحت سارة، لكنها لم تتحرّك لأنها صُدمت هي الأخرى.

نظّفني زوجي بأفضل ما يكون، ثم نظف ثيابه بمسحة سريعة، قبل أن ينحني ويلفني بذراعيه من جديد.

أصرّ أسد أن يوصلنا بالسيارة إلى المستشفى. وآخر صورة انطبعت في رأسي كانت لسارة، وهي تقف عند الرواق مصدومة من تطورات الأحداث التي وقعت في منزلها.

ولن أنسى أبداً الرحلة المجنونة بالسيارة؛ فقد انفعل أسد وأخطأ في سلوك المنعطفات الصحيحة. وما زاد الأمر سوءاً أن زوجي استمر في الصياح على شقيقه المتوتّر؛ وصفعه صفعة خفيفة على جانب وجهه بعد أن تخطى شقيقه المسكين مرتين المنعطف الصحيح. وصاح «انتبه، يا أسد. أتريد للطفلة أن تولد في السيارة؟».

وأخيراً وصلنا. ونقلوني سريعاً إلى غرفة الولادة. وسرعان ما عرفت الممرضات أن طفلتي تستعجل المجيء إلى هذا العالم. وفي الحقيقة، كنت أخشى ما سيحدث لو أن أسداً لم يسلك في النهاية المنعطف الصحيح.

كان ألمي قصيراً مع مها، لكن الأمسية تميّزت بقدر كبير من الجنون، فأضحى مجيئها هو الأكثر مدعاة للذكرى بين ولادات أولادي الثلاثة، والأكثر فوضى!

شعرتُ بقدر كبير من عدم الاستقرار بعد صدمة الأمسية، لكنني استرحت بعد اطمئناني إلى أن ابنتنا في صحة جيدة. وشيئاً فشيئاً هدأت انفعالاتي. وهكذا أمسكت بابنتي الغالية، وحدّقت إلى كمالها، وشكرت الله على ولادة فتاة ستملأ بعذوبتها الكثير من ساعات العائلة. وها نحن نعرف الآن أن مها إنسانة طيبة وتتمتع بالجدارة. لكنها، بخلاف شقيقها عبد الله، لا تمتلك شخصية سهلة. فقد سبّبت توتّراً في عائلتنا أكثر مما تخيّلناه لدى ترحيبنا بها في حياتنا وهي رضيعة جميلة صغيرة. إلا أنني لن أبادل ابنتي بأخرى لأنني أحبها وأحترمها كما هي عليه.

أنعم الله على عائلتنا بعد سنين بابنة ثانية هي أماني. وأعلن زوجي، بعد فورة الاضطراب التي أثارتها ولادة مها، وبعد أن أصبحتُ في الشهر السابع من حملي بطفلتنا الثالثة، أن علينا البقاء على مقربة من المنزل من دون أي زيارات اجتماعية خارج القصر. ولم أمانع. وهكذا كلّما شعرنا بالحاجة الماسة إلى رؤية أفراد العائلة جاءت عائلاتنا إلينا. بالرغم من أنني شعرت مع طفلتي الثالثة بالنعاس، بل وحتى بالإنهاك، في كل لحظة تقريباً من لحظات اليوم. لم أتمتع بالكثير من النشاط، وكنت أقضي معظم الوقت وأنا أتسكّع ومعي كتاب أو أتسلّى بألعاب الطاولة مع كريم وغيره من أفراد العائلة المقربين.

شعرتُ، قبل أسبوع من الموعد المتوقع لولادة أماني، بشيء يشدّني في مختلف أنحاء جسمي، وقلقت. عندها أصرّ كريم المتوتّر أن أذهب إلى جناح الحمل الملكي في المستشفى والبقاء فيه حتى ولادة طفلتنا. لم يسعدني تطور الأحداث هذا كثيراً، لكنني جاريت كريماً، إذ علت علامات الأسى وجهه بسبب القلق المزعج الذي اعتراه. وما إن أصبحت في المستشفى حتى تناوبت شقيقاتي على البقاء معي، ووجدتُ الصفاء مع نورا، كبرى شقيقاتي، ومع سارة التي تجمعني بها علاقة وثيقة جداً ومحبة، إلا أن شقيقاتي الأخريات أنهكنني لأنهن حاولن تسليتي بسردهن المتواصل قصصاً عائلية اعتبرنها مضحكة جداً، لكنها لا توفّر في الحقيقة سوى القدر القليل من التسلية. ويمكن للضحك الصاخب الذي لا ينتهي أن يصبح مضنياً ومضجراً إلى حد بعيد، ومزعجاً إذا اقتصر كلّ ما يسمعه المرء على ذلك.

وهكذا حدث أن الطفلة التي ستثير أكثر الصعوبات والمحن في حياتي ستأتي إلى العالم من دون أي جهد تقريباً. ابتهجتُ بإنجابي ابنة ثانية لأنني اعتقدت خطأً أن ابنتيَّ ستصبحان أقرب الرفيقات، لكن البؤس أصاب معظم أفراد عائلة كريم الذين لم يستطيعوا الحديث عن شيء إلا عن أهمية وجود الكثير من الأبناء. وعندما أصابني الإحباط إلى حد الغضب، وبّخ كريم من ضايقوني من أفراد العائلة، فلم يعودوا يتفوّهون بالمزيد، باستثناء التعليق على حجم أماني الصغير غير الاعتيادي؛ فهي أكبر قليلاً من أولئك الذين يسمّيهم الأطباء عالمياً بأطفال الولادة المبكرة. وبالطبع أثار أيضاً حجمها الصغير الانتقاد، لأن السعوديين يفضلون الفتيات القويات اعتقاداً منهم أن الأنثى الأكبر حجماً تلد أبناء أكبر وأقوى. فكل ما له أهمية في السعودية يدور حول حسن حال الذكور.

لم أفكر كثيراً في عدد الأولاد الذين سنحصل عليهم أنا وكريم، لكن النساء في ثقافتي يواصلن الإنجاب إلى أن تعجز أجسامهن عن المزيد. ونحن بلاد وثقافة تشدّدان كثيراً على العائلات الكبيرة. وتشفق على من ليس لديهم أولاد، أو أنجبوا أولاداً قليلين. لكن

أيام حملي بلغت خاتمتها بعد أن أُصبت بسرطان الثدي، ولم تكبر عائلتي أكثر من ذلك. وشكّل ذلك واحداً من أحلك الأوقات في حياتي، لأنني خفت أن أموت قبل أن أربّي أولادي الصغار، فأتركهم بلا أم كما تركتني أمي، إلا أن هذه الأيام ولّت منذ زمن طويل. ولم أعد أعاني الآن مثل هذه الكوابيس، بعد أن كبر أولادي، وأصبحوا راشدين.

وهكذا اكتملت سعادتي. ويبلغ الحب الذي أشعر به لأولادي الثلاثة وأحفادي الثلاثة حجماً كبيراً جداً، إلى حد أن ابتسامة واحدة من أي منهم تستطيع أن تكتم أنفاسي. إن حبي الأبدي لأولادي وأحفادي، ومعرفتي براءة الطفل وعذوبته، يجعلانني أسقط على الأرض غير مصدقة وبائسة، عندما أسمع بالوحشية التي يتعامل بها بعض السعوديين مع من هم من لحمهم ودمهم. وتصبح الجريمة جريمتين، عندما تعمد الوكالات الحكومية التي أُنشئت لمتابعة مثل هذه القصص وحماية من لا حول لهم ولا قوة، إلى تجاهل مثل تلك الجرائم.

عندما جُمعت القصص التي قرأتموها في هذا الجزء الرابع من الكتاب الذي يروي قصة حياتي، أصابت الوحشية الكبرى المرتكبة بحق بعض الأطفال السعوديين، أوتار قلبي. أدركت أن من واجبي الإبقاء على ذكرهم، ونشر قصصهم، وهالني في الحقيقة أن أثير موضوعهم. ولم أتمكّن، إلا في الفصل الأخير من الكتاب الرابع هذا، من تمالك نفسي، لأعيش مُجدّداً الهول والبؤس اللذين أُنزِلا بأولئك الأطفال الأبرياء.

لن أستمرّ في إرجاء المحتوم. وسيقتصر إخباركم على قليل من هؤلاء الأطفال الذين عذّبوا وأسيء إليهم، لعدم وجود ما هو مدعاة للمأساة أكثر من إساءة معاملة الأولاد وموتهم. وأمنيتي الوحيدة أن يجتمع العالم كله لتحويل عنف البالغين ضد الأطفال إلى الموضوع الأهم في زماننا. يجب أن تجتاح حركة عظمى العالم، من السعودية إلى كل دولة قائمة ومجتمع، لضمان أن يعيش كل طفل بريء في منأى عن الوحشية والإساءة.

وهكذا أطلب منكم الانضمام إلي في أكثر رحلة بغيضة يستطيع القيام بها قلب فيه إحساس، ونحن ندخل قلوب وأذهان الأطفال الصغار الذين تعرّضوا للتعذيب، وفي بعض الحالات للقتل، على أيدي من يفترض بهم حمايتهم من كل أذى.

أكثر القصص حزناً على الإطلاق

تتمتع مدينة جدّة الساحلية السعودية القديمة بجمال مذهل. وتلتف المدينة التي لا تشيخ على امتداد المياه الدافئة الزرقاء

للبحر الأحمر بجاداتها المحاذية للشاطئ، والتي تعج بالناس. ويضم الجزء القديم من جدة متاهات من المباني العتيقة ذات مشرّبيات خشبية للنوافذ مبتكَرة بالأسلوب الهندسي الحجازي، صُمّمت خصيصاً للسماح بدخول النسيم المنعش، والمحافظة في الوقت نفسه على خصوصية الفتيات والنساء اللواتي لا يستطيع الرجال السائرون في الشوارع رؤيتهن.

كنت كل مرة أزور فيها جدّة، أطلب إلى سائقي أن يأخذني إلى الجزء الأقدم من المدينة، ونتوقف أحياناً بعض الوقت لأتمكّن من النظر إلى مشربيات النوافذ هذه، متذكّرة القصص الكثيرة التي روتها لي أمي وخالاتي الأكبر سناً عن بعض النساء المولودات في جدة، اللواتي لم يغادرن قط تلك البيوت القديمة. وبحسب أمي، فإن هؤلاء النساء دخلن تلك البيوت الجميلة وهن عرائس صغيرات، وغادرنها وهن ملفوفات بالكفن، من سرير الزوجية إلى المقبرة.

راودتني، في تلك الأوقات فكرة أن أموراً كثيرة قد تغيّرت في بلادي، وأن هذا التغيير قد حدث، وهذا هو الأهم، على مدى أجيال قليلة فحسب. لكنني، وقبل أن أسمح لنفسي باسترجاع الكثير من ذكرياتي الجميلة، أستحضر الحياة الموحشة لأولئك النساء أنفسهن اللواتي أقمن إلى الأبد وراء تلك الجدران، نساء أُخفين عن العالم، عاجزات عن مواجهة أولئك الذي قد يسيئون معاملتهن.

يغمر الحزن قلبي عندما أتذكّر أن غالبية الذين يتعرضون للإساءة في بلادي هم من الإناث. لكن هناك حالات يعاني فيها الصبية أيضاً من الإساءة.

تتعلّق القصة التالية بصبي صغير من جدة تُرك وحيداً في بيته، بعد أن تعرّض لسوء المعاملة. وهي قصة مهمة أخبرها لأنها تُثبت كيف يصبح الأولاد الصغار العاجزون، في مختلف أنحاء العالم، ضحايا سوء المعاملة. ويجب عدم إدارة ظهورنا وتجاهل تلك الحقائق القاسية. بل من واجبنا، لمصلحة الأطفال، أن نبقى متيقظين، وندرك دوماً أن هذه الجرائم المروعة تحدث من حولنا. وعلينا، كلّما استطعنا ذلك، القيام بأفضل ما في وسعنا للحؤول دون وقوعها.

لفتت انتباهي إلى القصة أميرة قريبة لي تعيش في جدة. وأصيبت باضطراب كبير، وهي تخبرني عن هذا الصبي السعودي ابن السنوات التسع الذي تعرّض على مدى سنوات إلى سوء المعاملة. وهاكم قصته كما روتها لقريبتي الأميرة عاملة اجتماعية في جدة استطاعت الوصول إلى ملفه الطبي، وقرأت على مسامعها كلمات الصبي الصغير:

«لدي ثلاثة أشقاء وشقيقة. أحبّهم والداي؛ ولكنهما، لسبب من

الأسباب، لم يريداني، وتمنيا لي الموت. واعتقدا أنني بموتي لا أعود أتسبب لهما بالمزيد من الإزعاج. ولا أعرف السبب في عدم محبتهما لي. كنت صبياً صالحاً وأحببتهما. وأردتهما أيضاً أن يبادلاني المحبة.

«أعتقد أنهما توقّفا عن حبي بعد أن بللت سريري في إحدى الليالي. فكان يجنّ جنون أمي وتبدأ بالصراخ وتضربني كلما حدث ذلك. وكان والدي يضيف بركلاته إلى بؤسي بؤساً كلما سمع صراخها. ولأنني صبي صغير، كنت أخاف كثيراً. وقد بلغ بي التوتّر حدّاً أخذت معه أبلل سريري كل ليلة.

«استبد الغضب بأهلي كثيراً، فأقفلوا عليّ في غرفة نوم صغيرة من دون أي طعام. وبلغ بي الجوع مبلغاً أخذت أشعر معه بالدوار في رأسي، وأتعثّر لدى محاولتي السير. كما أن العطش استبد بي كثيراً، وأصبح لساني أكبر من فمي. شعرت كما لو أنني أختنق، وقد تشققت شفتاي. وظننت أنني سأموت. كان في الغرفة الصغيرة مرحاض، فعمدا إلى قطع المياه عنه. لكنهما نسيا أن بعضاً من المياه لا يزال راكداً في المرحاض. فشربت من تلك المياه وأنقذتُ حياتي.

«وضعت أذني في إحدى المرات على الباب لأسمع ما يدور. سمعت ضجة خفيفة وأدركتُ أن والدتي تتنصت من الجانب الآخر من الباب. لزمتُ الهدوء التام بسبب الخوف الكبير الذي اعتراني. ولمّا لم تسمع أمي أي ضجة تصدر من الغرفة، سمعتها تقول لوالدي إنها تعتقد أنني متُّ، وأن بإمكانهما مع حلول الليل، إخراجي إلى طريق المدينة ودفني في الصحراء. ولن يعلم أحد بشيء، ولن يفتقدني أحد. أعتقدُ أنني قد أصبحت بالفعل طفلاً منسيّاً.

«لكنني قاومت الموت، بالرغم مما تعرّضت له من معاملة سيئة جداً، ومن خوفي من الظلام. قضيت وقتي كلّه أبكي بصمت متمنياً تحريري من الغرفة. كنت أسمع أشقائي يلعبون ويلهون، لكن لم يُسمح لهم بالتحدّث معي.

«أردت الذهاب إلى المدرسة كما يذهب أشقائي ويلهون مع أصدقائهم، لكن والديّ قالا إنني أغبى من أن أتعلّم شيئاً.

«أصبتُ بالمرض الشديد وبالحمّى، فقالت أمي إن حرارتي مرتفعة جدّاً. وسُرّ والداي وضحكا بصوت مرتفع، وأتذكر قول أبي إن هذا الأمر قد يقتلني. وازداد غضبهما عندما بقيت على قيد الحياة. وعندها شرعا في غلي الماء في وعاء كبير. وأمسكني والدي وشرعت أمي تسكب الماء المغلي على جسمي. فأخذت بالصراخ من شدة الألم، ومن الخوف من الموت فعلاً وأنا لم أرده. أردت أن أعيش.

«علمتُ لاحقاً أن أحد الجيران الطيبين سمع صراخي، وعرف أن هناك طفلاً يتعرّض للأذى. اتصل ذلك الجار بالشرطة، وأفاد أن جيرانه في صدد قتل طفل، طالباً النجدة.

«عندها جاء بعض الأشخاص اللطفاء وأخرجوني. ذهلوا واتسعت أعينهم لرؤية جسمي الهزيل المصاب بحروق.

«لا أعرف ما الذي سيحلّ بي الآن، لكنني لا أزال مرعوباً. لا أعرف ما الذي سيحل بوالديّ. أشعر بالحزن الشديد. لو أنهما أحباني وأراداني لكنت بحال أفضل. ولكنت نمت على الأرض لكي لا أبلل السرير. ولو لم أبلل السرير لأمكنني البقاء في المنزل والعيش مع أشقائي وشقيقتي».

عانيت، بسبب ما أُنزل بهذا الطفل من معاملة سيئة، من الأرق ليالي كثيرة. وحمدت الله لأن جاراً سمع صراخ الصبي وقرر أن يتحرّك. ويجب على السعودية أن تحتفي بهذا الجار بوصفه بطلاً. ومن سوء الحظ أن قلّة من الناس يتدخلون في أي مسألة عائلية حتى ولو سمعوا الصراخ. فكثير من السعوديين يعتقدون أن خصوصية العائلة أثمن وأهم من الحياة البشرية.

والناس الطيبون، الذين يعملون في الهيئة التي عيّنتها الحكومة لحماية النساء السعوديات والأطفال، هم أبطال أيضاً. ومن دواعي المأساة أن معظم المنظمات الحكومية تشيح بنظرها عند إساءة رجل ما إلى زوجته، أو إساءة والد إلى طفله. ففي حالة الصبي الصغير، تميّز المختصّون بالذكاء والشجاعة للسير في اتجاه معاكس للمنظومة التي تحمي الرجال السعوديين من العقاب على أعنف الجرائم التي يرتكبونها في حق النساء والأطفال.

سمعت أن مثل هذه الأحداث المريعة تصبح أكثر انتشاراً في البلاد. إلا أنني مع الرأي القائل إن عدد حالات سوء المعاملة لا يتزايد في الواقع؛ وكذلك معدّل الإحصاءات لا يتغير، لأن مثل هذه الحالات باتت تعلن على الملأ، وأصبح هناك إدراك أكبر لما يحدث في بعض البيوت السعودية. وحتى تاريخ قريب كان يجري إخفاء كل الإساءات. أما اليوم، فقد باتت بعض حالات سوء المعاملة تبلغُ، وللمرة الأولى، عيون السعوديين وآذانهم، وأنا سعيدة بذلك.

تحدث الإساءة للأطفال في كل أنحاء البلاد، حتى في أمكنة قد يعتقد المرء أن الشعب فيها يعيش حياة هادئة وطيبة؛ أمكنة مثل أبها.

لو كنت تقيم في جدّة، وتوجّهت بالسيارة جنوباً، فسوف تصل إلى أبها، وهي مدينة غير عادية قياساً على مملكة صحراوية. ويقيم نحو

خمسمئة ألف مواطن في هذا المكان الجميل. وأبها محاطة بالجبال الخصبة، وهي ذات مناخ لطيف، وتشهد تساقطاً للأمطار أكثر مما يراه المرء عادة في السعودية. وتحتوي على الكثير من الحدائق والمتنزّهات والجداول. وأصبحت، على مرّ السنين، مكاناً مفضّلاً لسياحة السعوديين. ويشاهد المرء أينما نظر في أبها روعة البيئة في هذه الأرض، لكن هذا الجمال المادي لا ينعكس، للأسف، على الطبيعة البشرية.

إلا أن هناك منزلاً في أبها لا يمكن لأي شيء جميل أن يعيش فيه، حيث استهدف الشرّ العائلة التي تقيم فيه بكاملها، حيث جرى تعذيب فظيع لثلاث بنات صغيرات توفيت إحداهن، واسمها دلال التي تبلغ ثلاث عشرة سنة من عمرها. انفصل الوالدان وبقيت الشقيقات الثلاث تحت رحمة والدهن.

تعيدنا حالة دلال إلى موضوع حضانة الطفل. ففي السعودية، التي تسترشد بالشريعة، يمتلك الآباء الحق القانوني الحصري في حضانة أولادهم في حالة الطلاق. ويتوقف مصير الأولاد خلال الانفصال على العلاقة بين الأهل أو على شخصية الوالد. وفيما يقتضي الإنصاف عدم إبعاد الأم عن أولادها، لا تملك الأم خلال مرحلة الانفصال أي سلطة على أولادها. أما في المرحلة اللاحقة، التي تعقب الطلاق، فتقول الشريعة إن للأمهات الحضانة الفعلية للأولاد الصغار التي تستمر بخصوص البنات حتى سن البلوغ (يقال إنها السابعة أو التاسعة، وذلك بحسب قوانين الدولة المسلمة التي يعيش فيها المرء)، وبخصوص الأبناء حتى سن السابعة. وبالرغم مما ينص عليه القانون، فإن اعتراض الوالد ومطالبته بالحضانة الفعلية يجعلان رؤية الأم لأولادها شبه مستحيلة. وقلّة هي المحاكم التي تفضّل الزوجة على زوجها في بلادي هذه المهووسة بالذكور.

رفض الوالد، في حالة دلال وشقيقتيها المحزنة، منح أي حق للوالدة بزيارة بناتها. وهكذا أضحت الفتيات الثلاث تحت رحمة والدهن، الرجل الذي يفيض قلبه بأكثر أنواع الحقد.

أخرج والد دلال، منذ بدء الانفصال، بناته الثلاث من المدرسة، وأجبرهن على البقاء معزولات في المنزل. ورفض طلب مديري المدرسة السماح لهن بالعودة إلى الدراسة، لاعتقاده أنهن لن ينتفعن شيئاً من الدراسة.

لم يشاهد أحدٌ الفتيات الثلاث على مدى شهور كثيرة. لم يحضرن إلى المدرسة، لم يشاهدهن أحد في حديقة العائلة، ولم يرهنّ أحد يسترقن النظر من النوافذ.

لم يرهن أحد، لأن والدهنّ قيّدهن بالسلاسل.

تبيّن بعد موت دلال، أن الوالد كان يعمد، عند مغادرته المنزل إلى العمل أو لقضاء حاجة، إلى تقييد بناته بالسلاسل كالحيوانات. فيقيّد اثنتين منهن بالنافذتين، فيما يقيّد دلال بالباب. وكان يتركهن معلّقات بالسلاسل حول أذرعهن وأعناقهن إلى أن يقرر الوقت المناسب للعودة إلى البيت. ولم يكنّ يحصلن على أي طعام. وهكذا أصبحن كالرهائن، لا يمكنهن الذهاب إلى المرحاض، أو الجلوس.

ثم جاء اليوم الذي فقد الوالد فيه أعصابه من دلال، ولفّها بالسلاسل بطريقة أدت إلى اختناقها ببطء حتى الموت. وكانت دلال ابنة الثالثة عشرة لا تزال معلّقة لدى عودة والدها في وقت لاحق من إحدى الأمسيات، لكنها كانت قد باتت في عداد الأموات.

كذب هذا الوالد السعودي الشرير في البداية، قائلاً إن دلال اختنقت بحبال الأرجوحة وهي تلعب. لكن سرعان ما اعترف بأنه قتلها. وبدا فخوراً بفعلته. لم يخش من الحكومة، لأن الرجال في السعودية يستطيعون أن يقتلوا زوجاتهم وبناتهم من دون تلقّي أي عقاب جدّي. وقد يكون دفع الديّة للأم، أو لا يكون. وقد يقضي بضعة أشهر في السجن، أو لا يسجن أبداً. وكل ما عليه قوله إن ابنته لوّثت اسم العائلة بالعار، فلا يلقى أي قصاص، لأن للرجل، بحسب المعتقد، الحق في حماية شرف عائلته الذي لا يقدّر بثمن، في حين لا قيمة على الإطلاق لطفلة مثل دلال.

***

أصبحت عبارة «أنا أمل»، المتعلقة بفتاة صغيرة اسمها أمل، شعاراً في منزلنا، يذكّرنا بالخطر المتربص بالكثير من الأولاد، وبالصعوبة التي تواجهها الإناث الضحايا في نيل العدالة.

ليس ثمة حالة، بين كل الحالات المأسوية في السعودية، أكثر هولاً من كابوس التعذيب وسوء المعاملة اللذين عانت منهما الصغيرة أمل، ذات الأعوام الخمسة التي تعدّ روحاً سعيدة تبتهج بفترة اللعب، على غرار معظم الأطفال في عمرها. وكانت أيضاً فتاة صغيرة أحبّت والديها كثيراً.

تبرهن قصة أمل المأسوية أن فتاة في عمر الخامسة أكثر عرضة للأذى من معظم الفتيات. ولا تستطيع المرأة، في حالة الطلاق، أن تبقى مع أولادها كل الوقت. وفي هذه الحال، يقضي أولاد الأهل المطلقين فترات طويلة مع الأب. ويحب معظم الآباء السعوديين أولادهم ويحمونهم، لكنّ ثمة رجالاً ساديين ومتوحّشين، مثل والد أمل. وعندما يضرب مثل هذا الرجل ابنته ويغتصبها، يستحيل على تلك الطفلة الصغيرة الدفاع عن نفسها. فأمل، في الخامسة من عمرها فقط، وهي أصغر وأضعف من أن تدافع عن نفسها في

مواجهة رجل بالغ.

تزوجت والدة أمل من فهيم، الرجل السعودي الذي قضى الكثير من حياته مدمن مخدّرات. وهو رجل ضخم وعلى درجة كبيرة من العنف والوحشية، ما دفع والدة أمل إلى طلب الطلاق في إحدى محاكم الدمّام في المنطقة الشرقية. وحصلت عليه. وهذا في حد ذاته معجزة صغيرة في بلادي. وبالرغم من أن والد أمل احتفظ بالوصاية على ابنته إضافة إلى الحضانة، وهو أمر روتيني في السعودية، سُمح للوالدة بالحضانة الفعلية إلى أن تبلغ أمل سنتها السابعة.

وتقضي الشريعة ببقاء البنات مع أمهاتهن حتى بلوغهن السابعة، مع أن هناك حالات كثيرة يرفض فيها الوالد التخلي عن الحضانة، حتى مع الرضّع، ولا تلاحقه المحاكم كي تحقّق العدالة للوالدة أو للطفل.

مُنح والد أمل حقّاً سخيّاً بالزيارة، على أن تكون أسبوعين في كل مرّة، حتى بلوغ أمل السابعة، حين سيتولى الوالد الحضانة الفعلية التامة. ومن دواعي المأساة أن أملاً لم تعش للاحتفال بذكرى ميلادها السابعة.

مرّ زمن وتوقف فهيم عن إدمان المخدرات. وأقنع والدة أمل بمعاودة الزواج منه. إلا أن كلامه المعسول عن أنه أصبح رجلاً جديداً، شخصاً تغيّر، لم يكن إلا خدعة. ومرّة أخرى طلبت والدة أمل الطلاق، وحازت الحضانة الفعلية نفسها، في حين بقي والد الفتاة ولي أمرها ومحتفظاً بالوصاية القانونية.

لم يمر وقت طويل حتى أخذ فهيم يظهر على مختلف المحطات التلفزيونية الإسلامية زاعماً أنه رجل دين، ومقدّماً شهادة مؤثرة عن كيفية تخلّيه عن المخدرات، وتحوّله إلى رجل صالح. وصار له أتباع مخلصون اعتقدوا أنه بالفعل رجل يتوجّب تصديقه والثقة به والإعجاب به.

لم يعرب عن رغبة كبيرة في رؤية ابنته، إلا أن والدة أمل طبّقت القانون، وعملت على تنفيذ متطلّبات الزيارة للطفلة لتقضي فترة من الوقت مع والدها وزوجته الجديدة.

أُجريت زيارات ثلاث، وانتهت من دون أي مشكلة. وكانت تشعر أمل، بحسب والدتها، بالأمان مع والدها وعائلته الجديدة، وكانت تتوق إلى الوقت الذي ستقضيه معه.

انقطع الاتصال لفترة طويلة، بعد انتقال والد أمل إلى الرياض. وعندما حان موعد زيارته ابنته، عملت والدة أمل بموجب قرار

المحكمة، وأخذت ابنتها إلى الرياض لرؤية والدها.

وقع حادث رهيب خلال زيارة الرياض. فإما أن فهيماً قد استسلم لعادته السابقة في تعاطي المخدرات، وإما أن طبيعته الشريرة قد تغلّبت. وعندما اتصلت والدة أمل بزوجها السابق في نهاية الزيارة لترتيب تسلُّم طفلتها، أبى قائلاً إنها لا تستطيع استعادة ابنتها. وأبلغها أنه سيجعل أمل تنسى أمها. وتحدثت أمل مع أمها على الهاتف وقالت لها بصوتها الرقيق العذب: «أحبك يا أمي. أحبك وسأصلي من أجلك على الدوام».

لم تستطع والدة أمل معرفة أن زوجها السابق أصبح في حالة خطيرة من جنون الارتياب، معتقداً أن ابنته ذات الأعوام الخمسة فقدت عذريتها! وهذا يُعدّ عاراً كبيراً على أي رجل سعودي، وفكّر في معاقبة ابنته على هذه الجريمة. وشرع بالتالي في تعذيب الفتاة واغتصابها في كل فتحة من فتحات جسمها، وجلدها بالأسلاك. وحطم جمجمتها وكسر أضلاعها وذراعها. ومزّق فتحة شرجها في عملية اغتصاب عنيف، وعندما حاول وقف النزف، أحرق نسيج شرجها.

وكسر فهيم ظهر ابنته الصغيرة، وهو يغتصبها المرة تلو الأخرى. ومع ذلك بقيت أمل حيّة.

أين كانت زوجة والد أمل أثناء الجريمة؟ هل شاهدت ذلك؟ هل انضمت إلى فهيم في تعذيب الفتاة الصغيرة؟ لماذا لم تتصل بالشرطة وتنقذ الطفلة؟ هذه كلها أسئلة لم تلقَ جواباً.

استمرّ التعذيب إلى أن اتضح في النهاية أن الفتاة تُحتضر.

نقلها والدها إلى أحد المستشفيات في الرياض، غير نادمٍ أو خجل بما فعله بابنته، بالرغم من الخوف الذي أبداه الفريق الطبي. أدرك أن ما من محكمة في السعودية تنزل به القصاص المناسب لأنه والد الطفلة، ولأن الأحكام في مثل هذه الجرائم تستند عادة إلى القوانين السعودية التي لا تقضي بإعدام الوالد عقاباً على قتل أولاده، كما لا يُعدم الأزواج على قتل زوجاتهم.

لا قيمة لأمل في أعين المحاكم السعودية، فهي ليست إلا مجرّد فتاة.

مضت أشهر على أمل، وهي في غيبوبة، قبل أن تلفظ في النهاية أنفاسها، نتيجة التعذيب الذي تعرّضت له، إلى درجة تقف عندها الكلمات في أي لغة عاجزة عن وصف هذه الجريمة.

شهد سير القضية الكثير من اللف والدوران. وشعر السعوديون بالغضب الكبير على هذه الجريمة الشنيعة، وعلى رد فعل المحكمة

على مقاضاة الوالد، وما تبعها من حكم.

حُكم على فهيم بدفع ديّة للأم بعد قضائه بضعة أشهر في السجن. وحكم القاضي أن الدية هي العقاب المناسب، وأن الأشهر التي قضاها فهيم أثناء المحاكمة تشكّل عقوبة كافية على جريمة اغتصاب ابنته وقتلها. وقدّم القاضي مطالعة مخزية قائلاً من وجهة نظره إن فهيماً لم يقصد قتل ابنته، الأمر الذي يعني في الجوهر أن الاغتصابات الوحشية والضرب لا يشكّلان جريمة في أعين القضاء!

وشهدت المملكة حالة من الاستنكار. وأدرك معظم الناس أن حُكمًا مخفَّفًا كهذا سيشجع بعض الآباء على إساءة معاملة أولادهم. واقتنع أصحاب المنطق السليم أن مثل هذا العنف المنزلي سيزداد في غياب القوانين المناسبة لردعه.

أعيد فهيم إلى المحكمة، بفعل الضغط العام، ليواجه قاضياً جديداً؛ واتخذت هذه المحكمة، في حوطة بني تميم جنوب الرياض، موقفاً مختلفاً وأكثر جدّية. وحكم القاضي بأن الحكم السابق اتصف بالكثير من التساهل، وحكم على فهيم بالسجن ثماني سنوات مع ثمانمئة جلدة على جريمته. وحُكم على زوجة والد أمل بالسجن عشرة أشهر وبمئة وخمسين جلدة، لأنها لم تبلّغ عما تعرّضت له أمل الصغيرة من اغتصاب وتعذيب.

قرّرت والدة أمل، بعد الحكم، قبول مال الدية. فقضت المحكمة عندها أن الديّة والأشهر الأربعة التي قضاها فهيم في السجن تشكّل عقوبة كافية على الجريمة.

وأدى استنكار عام آخر إلى أن تعيد المحاكم النظر في القضية. ولم نُعرف بعد النتيجة النهائية، بالرغم من اعتقاد معظم الناس أن الوالد سيُطلق بهدوء من السجن، ليعاود حياته من دون العقاب المناسب على جريمته الأكثر شناعة.

وإذا حدث ذلك، فسنتأكد أن الظلم القائم الشبيه بقساوة صخور الغرانيت مستمر ضد النساء والفتيات السعوديات حتى عندما يطالب المواطنون السعوديون بالتغيير.

وأنا، على غرار نساء كثيرات في السعودية، لن أنسى أمل الصغيرة أبداً، أو الإساءات التي يمكن أن تحدث للإناث في بلادي. وهناك مثل مصري يقول: «إن ذكر الميت بالاسم يحييه من جديد». وأنظر في كل يوم من حياتي إلى المرآة، وأفكر بأمل، وكيف كانت طفلة عذبة، متأكدة من أنها كانت لتصبح امرأة رائعة، وأقول: «أنا أمل».

وأطلب منكم القيام بالأمر نفسه.

سألفظ اسم أمل كل يوم من حياتي وستحيا، في ذهني وقلبي ما حييتُ.

***

ليس مستغرباً، مع تلك الجرائم المرتكَبة في حق النساء والأولاد، وهي جرائم لا تزال من دون عقاب في مجتمعنا، أن أشعر أحياناً باليأس والأسى على مصير الكثير من الناس الضعفاء في السعودية. وتبدو أحياناً جهودي لمساعدة الآخرين صغيرة جدّاً وضئيلة جداً. وأعاني، كما سبق أن قلتُ، من الإخفاق بقدر ما أحقق من نجاح.

نحن في حاجة ماسة إلى تغيير في قوانيننا وتقاليدنا الثقافية التي تربطنا بممارسات القرون الوسطى، ونرحّب دوماً به. ولو أن تغييرات كهذه هي في الغالب غير فاعلة ولا تأتي إلا ببطء. لكن هذا هو السبب الذي يجعلني أرفض التخلي عن القتال من أجل العدالة والمساواة.

لا يزال هناك الكثير لأنجزه. ولهذا، أيها القارئ العزيز، لا يزال أمامي ذرف حفنة أخرى من الدموع.

جين ساسون تتذكّر

هذا الكتاب، الذي وُضع بالاشتراك مع الأميرة سلطانة آل سعود، يُطلع القارئ على آخر مستجدات حياة الأميرة وعائلتها؛ ويفصّل طبيعة حياة النساء السعوديات اليوم، في هذا الوقت بالذات. كما أنني سلّطت فيه الضوء على نساء سعوديات من غير أفراد العائلة المالكة، وهن شخصيات يكافحن يومياً لتأمين الحرّية لنساء وطنهن مما يتعرّضن له في كل خطوة يخطونها، بسبب الحرب التي يشنّها الرجال عليهن.

بدأت في العام 1978 رحلتي الشخصية إلى العالم المغلق والخاص للنساء السعوديات، وأنا أعمل في مستشفى الملك فيصل التخصّصي ومركز البحوث في العاصمة السعودية، الرياض. والمستشفى حلم أبصر النور في عهد الملك السعودي الثالث، فيصل. إلا أنه، وللأسف، قُتل في العام 1975 على يد ابن أخيه، قبل افتتاح المستشفى الرسمي. وصلتُ، ولمّا تمضِ ثلاثة أعوام على افتتاحه. ومن حسن حظّي أنني عملت منسّقة للشؤون الطبية لدى رئيس المستشفى الدكتور نزار فتيح. وسمح لي موقعي بالوصول إلى معلومات سرّية عن أكثر أفراد العائلة المالكة السعودية نفوذاً، بمن فيهم الملك خالد، وولي العهد الأمير فهد، ونساؤهما وأولادهما.

وعلى الرغم من أنني كنت قد وقّعت عقداً لمدة سنتين، وكان في إمكاني مغادرة المملكة في العام 1980، لكنني اخترت البقاء والعمل لمدة أربع سنوات. وبقيت في السعودية، بعد مغادرتي المستشفى، ثماني سنوات أخرى، حتى العام 1990.

الأمر الأول الذي لاحظته لدى وصولي إلى المملكة في العام 1978، هو أن النساء يعشن فيها بوصفهن مواطنات من الدرجة الثانية. وتمتعتُ، كوني مهاجرة أميركية، بحرّية شخصية أكثر من معظم النساء. وفّر لي عملي، فرصة التواصل مع نساء من كل فئات المجتمع. والتقيت، في الواقع، نساءً من البدو، ومن العاملات في المهن الحرّة، ومن العائلة المالكة. واستطعت، أينما نظرت، أن أعاين التمييز الصارخ ضد النساء. فالنساء يتحجّبن، ويسرن صامتات وراء الرجال، وتحظّر عليهن قيادة السيارة، أو حتى ركوب الدراجة. والزيجات كلّها مدبّرة. ولم يراودني يومها الكثير من الأمل في إحراز تقدّم في حياة المرأة، بسبب الحظر المطبّق حتى على مناقشة محنة النساء السعوديات.

ومع ذلك، عبق جو تلك الأيام الغابرة بالإثارة، إذ شرعت حكومة المملكة في ضخّ مليارات الدولارات من أموال النفط في أعمال البنى

التحتية وفي تقدّم المملكة. وتطورت السعودية سريعاً، بعد أن كانت متخلّفة تماماً عند وصولي؛ وفي غضون عشر سنوات، أضحت مدن الصحراء الواسعة، بسحر ساحر، مدناً حديثة. وقدمت، في تلك الأيام، ألوف عدّة من المهاجرين للعمل في السعودية. وسُرَّ معظم السعوديين باستقبال هؤلاء العمّال في أوساطهم. لكن اعتماد السعوديين «الحداثة»، لم يعنِ «اكتساب الثقافة الغربية». فبالرغم من التقدم الضخم والسريع، بقيت نساء سعوديات كثيرات يعشن محجوبات، مختبئات خلف الخمار، في ظل حكم لم يعترض عليه الرجال.

في العام 1983، وبعد خمس سنوات من وصولي إلى المملكة، التقيت الأميرة سلطانة آل سعود، الشابة، الجميلة والجريئة التي صمّمت على إحداث التغيير في وضع نساء بلادها. التقينا في حفل عشاء في السفارة الإيطالية. جئتُ مع زوجي البريطاني، بيتر ساسون، وجاءت مع زوجها كريم آل سعود، الأمير في العائلة المالكة، مع أن سلطانة وُلدت أميرة أباً عن جد.

أعجبت إحدانا بالأخرى على الفور، وتوثّقت شيئاً فشيئاً أواصر الصداقة بيننا. حتى أصبحت الثقة بيننا تامّة مع الوقت. ولمّا يمضِ وقت طويل، حتى صرت أحضر حفلات النساء في منزلها، بل أرافقها في سفراتها إلى جنوب فرنسا، وسواها من الأماكن المشوّقة.

وبتُّ، منذ وصولي إلى المملكة، على معرفة بمأساة حياة الكثيرات من النساء السعوديات. إلا أنني، بوجود الأميرة سلطانة إلى جانبي الآن كدليلة، رحت أنظر بعمق أكثر من ذي قبل إلى البعد الحقيقي لحجم المشكلة. ومن الواضح أنني غفلت حينها عن أن حياة نساء الأسرة المالكة يمكن أن تكون، هي الأخرى تعيسة للغاية ومجرّدة من الحريات الشخصية.

فوجئت عندما طلبت إليّ الأميرة سلطانة كتابة قصة حياتها. لم أستطع تصوّر أن تخاطر مثل هذه الإنسانة المميزة بكل شيء لتخبر الحقيقة عن محنة النساء في بلادها. فهي في النهاية أميرة رفيعة المقام، ابنة واحد من أولاد الملك الأول عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، كما أنها من خلال زواجها «المدبّر» زوجة أحد أمراء عائلة آل سعود المالكة.

لم تعرف سلطانة الحرّية الحقيقية، على الرغم من أصلها الملكي الذي لا يرقى إليه الشك، وبالرغم من امتلاكها ثروة لا يمكن تصوّرها. وها هي تتمرّد على ثقافتها القديمة التي تفرض العبودية الواقعية على النساء، جميع النساء، بمن فيهن نساء العائلة المالكة.

شعرتُ بالرضى عن حياتي المتميّزة في المملكة، وقاومت، بالتالي،

مشاركة الآخرين في ما باحت به الأميرة، مرجئةً ذاك البوح إلى اليوم الذي أستعد فيه لمغادرة البلاد. أدركت أنني لا أستطيع وضعَ كتابٍ يكشف الستار عن الأميرة السعودية والبقاء في البلاد، لأنني سأتعرّض للسجن أو لما هو أسوأ.

وتطورت صداقتنا، على الرغم من خيبة الأمل التي أصابت سلطانة بسبب رفضي، في البداية، كتابة قصة حياتها. وبقيتُ أستمتع برفقتها. ومن حسن حظي أنني حصلت على تأشيرة خروج وعودة إلى المملكة من أحد أفراد العائلة المالكة، فعدت في العامين 1991 و1992. ولم أختلط، وأنا في السعودية، إلا مع الإناث في العائلة المالكة، فيما شارك الذكور أيضاً في غالبية لقاءاتنا في أوروبا.

وبعد أن كتبتُ في العام 1990 «اغتصاب الكويت» الذي يفصّل الفظائع التي ارتُكبت بعد غزو البلاد، أضحت الأميرة أكثر إصراراً على أن أكتب قصتها. وهو ما فعلته.

شكل «سمو الأميرة»: القصة الحقيقية للحياة وراء الحجاب في السعودية، بحثاً كان له وقع الصدمة، لم يتلقّفه القراء الذين يتحدثون الإنكليزية فحسب، بل أيضاً أولئك الذين يقطنون في أوروبا وآسيا وإفريقيا والكثير من أجزاء العالم الأخرى. وكان كتابي عن الأميرة سلطانة، هو في الواقع، الأول من نوعه الذي يكشف عن أسرار المجتمع والثقافة السعوديين. وأتبعت الكتاب الأول، بفعل الطلب الشعبي، باثنين آخرين حصد كلاهما النجاح الكبير.

توسّل إليّ قرائي، على مدى سنين، لتزويدهم بآخر الأخبار عن حالة الأميرة سلطانة وعائلتها. تاق هؤلاء المعجبون إلى كتاب رابع. وغالباً ما كانت تفاجئني دموعهم عندما أخبرهم بأنني لست في صدد العمل على كتاب آخر. (وضعتُ، مُذ نُشر سمو الأميرة للمرة الأولى قبل عشرين عاماً، عشرة كتب أخرى تُركّز كلّها، باستثناء واحد، في حياة النساء. وجرت أحداث هذه الكتب في العراق وكردستان وأفغانستان والكويت).

وشكّل حذري من العودة مرّة أخرى إلى السعودية، سبباً آخر في معارضتي كتابة جزء آخر. فقد تلقيت، بعد نشر كتاب «سمو الأميرة» الأول، تحذيراً من أنني سأتعرّض للتوقيف إذا ما عدت مستخدمة اسمي الحقيقي. فالسلطات السعودية تعاقب كل من تبلغه يدها ممن ينتقدون الأوضاع في بلادها.

أضف إلى ذلك، أنني لطالما قلت إنني لن أضع كتاباً رابعاً عن الأميرة سلطانة ونساء السعودية، إلا إذا طرأ تغيير ملموس على حياة النساء. وأخبرتني الأميرة سلطانة، على مر السنين، أن المملكة تتغيّر بشكل كبير، إن من ناحية بنيتها التحتية أو من ناحية شعبها.

وبالرغم من أن بعض النساء لا يزلن يواجهن تمييزاً رهيباً، ومن أن وتيرة التغيير بطيئة، فقد أخذت حياة بعض النساء فيها تتحوّل تدريجاً نحو الأفضل. وشعرنا، بالتالي، أن الوقت قد حان للكشف عما يحدث اليوم في حياة النساء السعوديات.

وهكذا واصلنا، أنا والأميرة، رحلتنا الفريدة. وأدّت الأميرة سلطانة دور الدليل الممتاز في توجيهي داخل تعقيدات حياة المرأة في السعودية. وهي استثنائية في مجتمعها. امرأة مثقفة مصممة على فضح الوحشية الشائعة جدّاً في بلادها. وقلّة هن النساء في العالم الغربي اللواتي يستطعن مضاهاة الأميرة سلطانة في صراحتها. ولا تستطيع، أي امرأة قابلتها في السعودية مضاهاة شجاعتها الفريدة.

الأميرة سلطانة واحدة من آلاف أفراد العائلة المالكة السعودية، وهي طبقة قدّر عددها في العام 2013 بـ 15000 شخص. بيد أن آلافاً قلّة من أفراد العائلة المالكة يمسكون بسلطة حقيقية في المملكة؛ والأميرة سلطانة وعائلتها ذراع لها أهميتها في عشيرة آل سعود الحاكمة. فوالدها أمير قوي من أبناء الجيل الأول للحاكم الأول الملك عبد العزيز. كما أن شقيقها وزوجها من الجيل الثاني من أمراء آل سعود المتقدمين. وبالنظر إلى ذلك، بقيتُ على اطلاع على الآليات الداخلية للعائلة المالكة.

وسلطانة ثرية للغاية وأميرة ذات نفوذ بكل معنى الكلمة. تمتلك مع زوجها الكثير من الأعمال حول العالم، وقصوراً أسطورية في السعودية ومصر وفرنسا وإسبانيا. بيد أن الأميرة سلطانة ليست واحدة من أفراد العائلة المالكة اللواتي لا يهتممن إلا بالمال والملابس والجواهر. بل إنها كرّست حياتها للنهوض بالمرأة. وتساعد مؤسساتها الخيرية البنات والنساء في بلدان عدة. وهي في الحقيقة تعيل ما يفوق السبعمئة عائلة مسلمة، وتتأكد من تلقّي جميع أولاد هذه العائلات التعليم إذا رغبوا فيه.

والأميرة سلطانة أم لصبي وبنتين. وهي جدّة لصبيين وبنت. اعتنت كثيراً بتربية أولادها، محاولة أن تغرس فيهم شعور الالتزام باستخدام ثروتهم الواسعة في مساعدة الآخرين.

الأميرة سلطانة فريدة من نوعها في العائلة المالكة، وربما كان هذا السبب في أن الكتب الثلاثة كلّها لاقت رواجاً هائلاً في شتى أنحاء العالم. وقد نُشرت في أكثر من أربعين دولة، واحتلت رأس قائمة المبيعات في الكثير من البلدان. ولم تزل طباعة الكتب جارية في معظم البلدان.

ركّز الكتاب الأول في الأميرة سلطانة، في طفولتها وسنوات

زواجها الأولى وأمومتها. وتضمّن عدداً من الروايات المثيرة عن الأميرة وغيرها من النساء اللواتي تعرفهن. وروى الكتاب الثاني قصة أولاد الأميرة سلطانة الثلاثة، وتحدث عن المفاهيم الاجتماعية السعودية للأمومة. ووسع الكتاب الثالث المجال ليزوّد القراء بنظرة حميمة إلى حياة الأميرة وحياة شقيقاتها وأولادهن وغيرهن من نساء المملكة، بمن فيهن العاملات ذوات الأجور المنخفضة اللواتي يعانين أوضاعاً رهيبة.

والروايات كلّها حقيقية. وتضمّن بعضها أخبار فتيات أجبرن على الزواج من رجال يكبروهن بثلاثة أضعاف أعمارهن، في حين تحدّثت أخرى عن نساء تعرّضن لقدر كبير من الوحشية، إلى درجة أن موتهن المبكر اختصر حياتهن المأسوية. وكان لذلك كلّه تأثير بالغ، واجتذب القراء إلى حياة النساء السعوديات بحميمية لا تزال معها فتيات ونساء من شتى أنحاء العالم يخبرنني كيف أن الكتاب غيّر مجرى حياتهن بشكل إيجابي جداً. وتعمل نسوة كثيرات اليوم في مجال حقوق الإنسان، لأنهن استوحين ذلك من الأميرة سلطانة.

ومع أنني حرّرت هذا الكتاب، إلا أن مصدر المعلومات كلها كان الأميرة سلطانة. ووضعتُ الكتاب بلسان الأميرة، لأن كلامها مؤثر جدّاً، ولأن شخصيتها الجذابة هي التي تستميل القراء.

وكما سبق أن أسلفت، فإنني والأميرة نعتقد أن الآن هو الوقت المناسب لمشاركة القراء الروايات الجديدة عن النساء في السعودية، لأن رغبة كبيرة في التغيير قد أخذت تظهر في أوساط الشعب السعودي. وتشهد البلاد، للمرة الأولى في تاريخها، نقاشاً مفتوحاً حول حياة النساء، حتى في الصحف الوطنية السعودية، في تعبير عام عن الرأي، لم أكن أسمع به في زمن إقامتي في البلاد.

يخضع كذلك المناخ السياسي السعودي للتغيير. ويعود الفضل الكبير في ذلك إلى الملك عبد اللّه. وعُرف عن الملك عبد اللّه شدّة محافظته، لكنه فاجأ الجميع لدى تولّيه العرش بالحض على التغيير في ما يتعلّق بالنساء. ونعتقد، أنا والأميرة، أن هذا التطوّر يعود في جزء منه إلى امرأتين شديدتي الجرأة والعزم في حياة الملك عبد اللّه، هما ابنتاه. وقد حثّتاه على استخدام نفوذه القوي لمساعدة النساء السعوديات. فمثلاً، أوقفت شابة سعودية مباشرة بعد أن صوّرت نفسها بالفيديو وهي تقود سيّارة، ونشرت الفيديو على «يوتيوب». فخسرت حضانة ابنها الصغير، وسُجنت، وحُكم عليها بالجلد. ولم يكن الملك ليقف في الماضي في وجه هذا النوع من الأحكام، لكن الملك عبد اللّه تدخّل، بناء على إلحاح ابنتيه، وعفا عن المرأة زاجراً رجال الدين من خلال إلغاء الحكم بالجلد. ومع أنه توجب على المرأة أن توقّع تعهّداً بعدم القيادة من جديد، فقد تنفّس الكثيرون في السعودية الصعداء بسبب الحؤول دون واحدة من

أقسى العقوبات.

من المؤكّد إذاً أن تغييراً يحدث في حياة النساء، يحفّزه بشكل كبير واقع أن السعودية توفّر التعليم المجاني لجميع السعوديين، بمن فيهم الإناث. صحيح أن هناك بعض النساء اللواتي لا يسمح لهن آباؤهن بالتعلّم، إلا أن معظم الفتيات والنساء يسعين وراء التعليم العالي. وها هي الثقة المتزايدة بين النساء السعوديات وقدراتهن، تقنع رجال البلاد بأن النساء المتحررات اللواتي يتمتعن بالذكاء وبالثقافة، أمر جيّد للعائلة وللمجتمع ككل.

لا شكّ في أن الافتتان بالسعودية وبتقدّم نسائها استحوذ على ضمير العالم. لكن، قبل أن يأخذنا ما تحقّق من تغيير إيجابي بعيداً، يهمنا أن نتذكّر أن السعودية واحدٌ من آخر أماكن الأرض التي لا تمتلك النساء فيها حرّية حقيقية. وعلينا، لهذا السبب، ألا ننسى، على الرغم من حصول تقدّم، أن هناك حكايات تُفطِر القلب لا تزال تتفاعل. ولا تزال النساء السعوديات عرضة للمحاسبة من الرجال الذين لا يعاقَبون حتى ولو قتلوا زوجاتهم أو بناتهم. والأمر المخيف أن قلّة قليلة من القوانين السارية فقط تحمي النساء من العنف. يكشف هذا الكتاب عن بعض هذه القصص المأسوية. وبسبب هؤلاء النسوة قالت لي الأميرة سلطانة: «لا تزال لدي حفنة أخرى من الدموع أذرفها».

نتحادث، أنا والأميرة، مرات عدة في السنة، ونحاول ترتيب لقاء شخصي بيننا مرّة كل 12 شهراً أو 18. وتركّز محادثاتنا، بالطبع، في مشكلات النساء في العالم، ولكن بصورة رئيسية مشاكل نساء السعودية. وشرعت أنتظر نوعاً من التغيير داخل المملكة، ويبدو الآن أن التغيير يأخذ طريقه إلى التحقّق.

عندما ناقشت مع الأميرة سلطانة إمكان إصدار كتاب جديد، فكّرَتْ لبرهة، ثم وافقت بحماسة. واتفقنا أن تستمر رواية الأحداث على لسانها، شرط أن نركّز في النساء السعوديات العاديات اللواتي لا يزلن يكافحن، لكنهن شرعن في تحقيق انتصارات حقيقية في حياتهن الخاصة.

ويكشف الكتاب أيضاً تفاصيل عن الحياة الراهنة للأميرة سلطانة؛ ما الذي يحدث مع أولادها وأحفادها وأشقائها وشقيقاتها وسواهم من الأقارب. وسيسعد القراء الذين يحبّون الأميرة سلطانة وعائلتها بهذه المعلومات الحديثة.

لا تعرف الكثيرات من شابات العالم بعد، بهجة لقاء هذه المرأة السعودية الفريدة، التي تظهر شجاعة فائقة في مواجهة أكثر الاحتمالات سوءاً. فهي تقاتل ضد رجال يحاربون لإبقاء النساء في

العبودية.

هذا الكتاب ليس مخصّصاً فقط لملايين من مؤيدي الأميرة سلطانة؛ بل إنه أيضاً لجيل جديد من القراء التوّاقين إلى تعرُّف جيل جديد من النساء السعوديات.

وكما أسلفتُ، فإن كل القصص التي ستقرأونها حقيقية. وقد أظهرت النساء اللواتي كتبنا عنهن شجاعة فائقة، وحقّقن إنجازات كبرى.

أود أن أتقدم بالشكر الشخصي إلى كل من يقرأ كتبي ويدعم النساء اللواتي أكتب عنهن.

مع أحر التمنيات،

جين ساسون

لائحة بالشخصيات

عائلة آل سعود

الملك عبد العزيز	*العاهل السعودي الأول وجدّ الأميرة سلطانة*
الملك فهد (متوفى)	*العاهل السعودي الخامس وعمّ الأميرة سلطانة*
الملك خالد (متوفى)	*العاهل السعودي الرابع وعمّ الأميرة سلطانة*
الأمير عبد العزيز بن فهد	*الابن الأصغر للملك فهد والأميرة جوهرة، وابن عم الأميرة سلطانة*
الأمير عبد الله	*الابن الأكبر، والصبي الوحيد، للأمير كريم والأميرة سلطانة*
الأميرة عائشة	*نسيبة الأميرة مها والأميرة أماني*
الأمير علي	*الأخ الشقيق للأميرة سلطانة*
الأمير أسد	*زوج الأميرة سارة وشقيق الأمير كريم*
الأمير هادي	*الزوج المتوفى للأميرة منيرة*
الأمير كريم	*زوج الأميرة سلطانة*
الأمير محمد	*ابن المرحومة الأميرة ريما شقيقة الأميرة سلطانة*
الأمير سلمان	*ابن عليّ شقيق الأميرة سلطانة*
الأميرة أماني	*الابنة الصغرى للأمير كريم والأميرة سلطانة*
الأميرة دنيا	*شقيقة الأميرة سلطانة*
الأميرة مها	*الابنة الكبرى للأمير كريم والأميرة سلطانة*
الأميرة مدينة	*ابنة عليّ شقيق الأميرة سلطانة*
الأميرة منيرة	*ابنة عليّ شقيق الأميرة سلطانة*
الأميرة نشوة	*ابنة الأمير أسد والأميرة سارة*
الأميرة نورا بنت عبد الرحمن (متوفاة)	*شقيقة الملك عبد العزيز، جدّ الأميرة سلطانة*
الأميرة نورا (متوفاة)	*الشقيقة الكبرى للأميرة سلطانة*
الأميرة رنا	*ابنة الأميرة نورا شقيقة الأميرة سلطانة*
الأميرة سارة	*شقيقة الأميرة سلطانة*
الأميرة سيتا	*زوجة أخي الأميرة سلطانة*
الأميرة تهاني	*شقيقة الأميرة سلطانة*
الأميرة زين	*كنّة الأميرة سلطانة، زوجة الأمير عبد الله*
سلطانة الصغيرة	*الحفيدة الأولى للأميرة سلطانة، ابنة الأمير عبد الله*
الأمير الصغير فيصل:	*الحفيد الثاني للأميرة سلطانة، ابن عبد الله*
الأمير الصغير خالد	*الحفيد الثالث (الحفيد الصبي الثاني) للأميرة سلطانة من ابنتها أماني*

شخصيات بارزة أخرى

الشيخ عبد العزيز بن باز (متوفى)	*رجل دين سعودي، سبق أن كان المفتي الأكبر للسعودية، ورجل الدين المفضل للأميرة أماني*
بتارا	*السائق الإندونيسي للأميرة سلطانة*

فاطمة — زوجة سعودية معنّفة وأم لابنتين توأمين

الدكتورة مينا — *امرأة سعودية وطبيبة تحظى بالاحترام الكبير، وهي تتحدّر من بيئة فقيرة*

نانيا — شابة سعودية وعاملة اجتماعية

نور — *امرأة بدوية متورطة في حالة من العنف المنزلي*

الخادمة الإندونيسية للأميرة سلطانة

سابين

فارعة — شابة سعودية ضحية ختان الإناث

شدا — شابة اتهمت بأنها ساحرة

دلال — صبية في الثالثة عشرة من العمر ماتت بسبب اعتداء والدها عليها

أمل — *طفلة في الثامنة من العمر اغتصبها والدها وقتلها*

الملحق (أ)
معلومات عن السعودية

معلومات عامة

رأس الدولة : جلالة الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود

اللقب الرسمي: خادم الحرمين الشريفين

المدن الرئيسية

الرياض: عاصمة البلاد

جدّة: المدينة المرفأ

مكّة المكرّمة: أقدس مدن الإسلام وقبلة المسلمين

المدينة المنوّرة: المكان الذي دُفن فيه النبي محمد

الطائف: العاصمة الصيفية ومنطقة الاصطياف

الدمّام: المدينة المرفأ والمركز التجاري

الظهران: مركز الصناعة النفطية

الخبر: المركز التجاري

ينبع: محطة شحن الغاز الطبيعي

حائل: مركز تجاري

الجبيل: منطقة صناعية

رأس تنورة: مركز لمصافي النفط

الهفوف: المدينة الرئيسية في محافظة واحة الإحساء

الديانة

الإسلام: تُعتبر ممارسة الديانات الأخرى في السعودية جريمة.

أيام العطل الرسمية

عيد الفطر: خمسة أيام

عيد الأضحى: ثمانية أيام

موجز تاريخي

السعودية أمّة من القبائل يمكن أن تعود بجذورها إلى أولى حضارات شبه الجزيرة العربية. عاش أجداد السعوديين الحاليين عند طرق التجارة القديمة والمهمة، وحصلوا على معظم مدخولهم من حملات الغزو. عاشت مختلف القبائل المتحاربة موزّعة على المناطق؛ وقد حكمها شيوخ قبائل مستقلون. غير أنها توحّدت في القرن السابع تحت ديانة واحدة، هي الإسلام، بقيادة النبي محمد ﷺ. وأضحى معظم سكان الجزيرة العربية مسلمين قبل وفاة النبي عن عمر يناهز الثلاثة وستين عاماً.

وساد أجداد حكام السعودية الحاليين، خلال القرن التاسع عشر، على معظم الجزيرة العربية إلى أن طُردوا من الرياض بعد أن خسروا معظم الأرض السعودية أمام الأتراك، وطلبوا اللجوء إلى الكويت. ثم عاد الملك عبد العزيز آل سعود، والد العاهل الحالي، إلى الرياض وحارب لاستعادة البلاد، ونجح؛ وأسس في العام 1932 المملكة العربية السعودية المعاصرة. اكتُشف النفط عام 1938 لتصبح السعودية سريعاً واحدة من أغنى الأمم، وأكثرها نفوذاً.

الجغرافيا

تبلغ السعودية، بمساحتها البالغة 866 864 ميلاً مربعاً (نحو مليونين ومئة وخمسين ألف كم^2)، حجم أوروبا الغربية، وثلث حجم الولايات المتحدة. تقع البلاد عند ملتقى طرق قارات ثلاث: إفريقيا وآسيا وأوروبا. وتمتد من البحر الأحمر في الغرب إلى الخليج العربي في الشرق. يحدّها شمالاً الأردن والعراق والكويت، وجنوباً اليمن وعُمان، فيما تقع الإمارات العربية المتحدة وقطر والبحرين إلى الشرق.

السعودية أرض صحراوية قاسية، ليس فيها أنهر، بل قلّة من الجداول الدائمة، وهي موطن الربع الخالي أكبر صحراء رملية في العالم. وترتفع سلسلة جبال منطقة عسير في الجنوب الغربي إلى أكثر من تسعة آلاف قدم (أكثر من 2700 م).

التقويم

تستخدم السعودية التقويم الهجري المستند إلى السنة القمرية بدلاً من التقويم الغريغوري المستند إلى السنة الشمسية. والشهر

القمري هو الفترة الزمنية الممتدة بين قمرين هلالين متعاقبين. وتحتوي السنة القمرية على اثني عشر شهراً، لكنها أقصر بأحد عشر يوماً من السنة الشمسية. وهذا هو السبب في أن الأعياد المقدسة تنتقل تدريجياً من فصل إلى آخر.

انطلقت تواريخ السنة القمرية من العام 622 م، وهي سنة هجرة الرسول من مكة إلى المدينة. والجمعة هو يوم العطلة الدينية. ويبدأ أسبوع العمل في السعودية يوم السبت وينتهي يوم الخميس.

الاقتصاد

يقبع أكثر من ربع الاحتياطي العالمي المعروف من النفط تحت رمال السعودية. وقد فازت شركة «ستاندرد أويل كومباني أوف كاليفورنيا» عام 1933 بحقوق التنقيب عن النفط في السعودية. اكتُشف النفط عام 1938 في الحقل رقم 7 في الدمّام، وهو لا يزال منتجاً حتى اليوم. وتأسست عام 1944 الشركة العربية الأميركية للنفط (أرامكو)، وحازت الحق في مواصلة البحث عن البترول في السعودية. وأصبحت أرامكو عام 1980 ملكاً للحكومة السعودية.

أمّنت ثروة المملكة النفطية لمواطني السعودية نوعاً من الحياة الرغيدة التي لا تتمتع بها سوى القلة. ويحقق معظم السعوديين البحبوحة بوجود التعليم المجاني والقروض الخالية من الفوائد. ويحظى جميع المواطنين السعوديين إضافة إلى الحجاج المسلمين بالعناية الصحية المجانية. وتوفّر البرامج الحكومية الدعم للسعوديين في حالة الإعاقة والموت أو التقاعد. والبلاد برمّتها نوع يثير الاعجاب من أنواع الدولة الاشتراكية. وقد تطوّرت السعودية اقتصادياً لتصبح دولة حديثة ومتقدمة تكنولوجياً.

العملة

الريال السعودي هو وحدة العملة الأساسية في البلاد. ويتكوّن الريال من 100 هللة، ويصدر في عملات ورقية ومعدنية من مختلف الفئات. ويعادل الدولار الأميركي 3,7450 ريالات.

القانون والحكومة

السعودية دولة إسلامية يستند قانونها إلى الشريعة، وهو القانون الإسلامي المأخوذ من صفحات القرآن الكريم، وإلى السنّة النبوية الشريفة، وهي الأحاديث المنسوبة إلى النبي محمّد ﷺ والقرآن الكريم دستور البلاد ومصدر الإرشاد للأحكام القانونية.

يمارس الملك ومجلس الوزراء السلطة التنفيذية والتشريعية.

وتستند قراراتهم إلى الشريعة. وجميع الوزراء والوكالات الحكومية مسؤولون أمام الملك.

الديانة

السعودية موطن الإسلام، إحدى الديانات التوحيدية الثلاث. ويؤمن المسلمون بأن لا إله إلا الله، وبأن محمّداً رسول اللّه. وتحتل السعودية مكانة خاصة في العالم الإسلامي بوصفها قلب الإسلام. ويسافر كل سنة ملايين المسلمين إلى مكة في السعودية لأداء مناسك الحج. ولهذا فإن السعودية واحد من أكثر البلدان الإسلامية تمسّكاً بالتقليد وبالتفسير الصارم للقرآن.

ولدى المسلم خمس فرائض، تسمى أركان الإسلام الخمسة. وهذه الفرائض هي:

1- الشهادتان: «لا إله إلا اللّه؛ محمّد رسول اللّه».

2- على المسلم الصلاة خمس مرات في اليوم، ووجهه صوب مدينة مكّة المكرّمة.

3- على المسلم أن يدفع نسبة محددة من مدخوله، تسمّى الزكاة، للفقراء.

4- على المسلم الصيام في الشهر التاسع من التقويم الإسلامي. وعليه خلال هذا الشهر، رمضان، الامتناع عن الطعام والشراب من الفجر وحتى غياب الشمس.

5- على المسلم أداء فريضة الحج، مرة واحدة على الأقل في حياته (إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً).

الملحق (ب)

مسرد المصطلحات

عباءة: رداء خارجي أسود ترتديه النساء السعوديات.

آل سعود: العائلة الحاكمة في السعودية.

ذو الحجّة: الشهر الثاني عشر من السنة الهجرية.

ذو القعدة: الشهر الحادي عشر من السنة الهجرية.

الإحرام: الوقت الخاص في زمن الحج الذي يمتنع فيه المسلمون عن الحياة العادية، ولا يهتمون إلا بأمور الدين.

الوأد: ممارسة قتل الرضيع. وهي ممارسة شاعت قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية، تتخلص العائلة بموجبها من الأطفال الإناث غير المرغوبات.

محرَم: الرجال الذين لا يجوز للمرأة الزواج بهم، مثل والدها وشقيقها وعمّها أو خالها، وهم الذين يُسمح لهم بمواكبة المرأة في سفرها. أي أنهم ذوو القرابة الوثيقة.

هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهي السلطة الدينية في السعودية التي تمتلك الحق في توقيف من تعتقد أنهم ارتكبوا أخطاء أخلاقية أو جرائم في حق الإسلام، أو أنهم يعملون بعكس تعاليم الإسلام.

المطاوعة: عناصر الشرطة الدينية أو شرطة السلوكيات. وهم رجال يبحثون عمّن لا يلتزمون قانون الشريعة في السعودية، ويعتقلونهم، ويقاصصونهم.

نجد: الاسم التقليدي لوسط شبه الجزيرة العربية. ويشتهر سكان هذه المنطقة بسلوكهم التقليدي. والعائلة الحاكمة في السعودية من النجديين.

البردة: ممارسة تقضي بحجز النساء في منازلهن. وتطبق عزلة النساء التامة هذه في بعض البلدان الإسلامية.

الثوب: رداء طويل أشبه بالقميص يرتديه الرجال السعوديون. ويُصنع في العادة من القطن الأبيض، وقد يحاك من أقمشة أكثر سمْكاً ذات ألوان داكنة لأشهر الشتاء.

أم القرى: أو المدينة المكرّمة، أي مكّة.

غرفة النساء: وهي غرفة في منزل الرجل تُحتجز فيها النساء السعوديات اللواتي لا ينصعن لرغبات أزواجهن أو آبائهن أو أشقائهن. وقد يستغرق القصاص فترة قصيرة، أو يستمر طوال الحياة.

الملحق (ج)

المملكة العربية السعودية: إطار زمني

570: *19 كانون الثاني/يناير:* ولادة مؤسس الإسلام النبي محمّد ﷺ في مكّة.

632: *8 حزيران/يونيو:* وفاة النبي محمّد ﷺ في المدينة المنورة. على أثر وفاته جمع الصحابة أقواله وأفعاله في مجموعة تسمّى السنّة وهي تحتوي على أحكام الإسلام. وتضم في أساسها أركان الإسلام الخمسة وهي 1) الشهادتان؛ 2) الصلوات اليومية الخمس؛ 3) الزكاة؛ 4) الصيام في رمضان؛ 5) الحج إلى مكة.

سنوات 1400: تأسيس سلالة آل سعود على مقربة من الرياض.

1703: ولادة محمّد عبد الوهّاب (الذي توفي عام 1792)، الفقيه الإسلامي ومؤسس الوهّابية.

1710: ولادة محمد ابن آل سعود.

1742 - 1965: انضمام محمد بن سعود آل سعود إلى الوهّابيين.

1744: أقام محمد ابن آل سعود تحالفاً سياسيّاً وعائلياً مع الفقيه الإسلامي والمصلح محمّد بن عبد الوهّاب. وتزوّج نجل ابن سعود من ابنة الإمام محمّد.

1804: استيلاء الوهّابيين على المدينة المنوّرة.

1811: والي مصر محمّد علي يطيح الوهّابيين، ويعيد السيادة العثمانية على شبه الجزيرة العربية.

1813: طرد الوهّابيين من مكّة.

1824: عائلة آل سعود تنشئ عاصمة جديدة في الرياض.

سنوات 1860 - 1890: عائلة آل سعود تنتقل إلى المنفى في الكويت، بعد استيلاء العثمانيين على مناطقهم في الجزيرة العربية.

1876: ولادة جد سلطانة عبد ا لعزيز بن سعود، مؤسس المملكة.

1883: *20 أيار/مايو:* ولادة فيصل بن الحسين في مكة. وقد أصبح لاحقاً ملكاً على سوريا (سنة 1920) والعراق (سنة 1921).

1890: محمّد بن رشيد يستولي على الرياض ويجبر عائلة آل سعود على ترك المنطقة.

1890 - 1902: غادرت أسرة آل سعود المنطقة للإقامة في المنفى (من قطر إلى البحرين وفي النهاية إلى الكويت) حتى 1902 بعدما استعادت السيطرة على الرياض.

1901:عبد العزيز يغادر الكويت عائداً إلى السعودية بصحبة العائلة والأصدقاء مخطّطاً لمهاجمة الرياض.

1902 *كانون الثاني/يناير:* عبد العزيز يهاجم حصن المصمك ويستعيد الرياض. ولادة سعود بن عبد العزيز، نجل ابن سعود. وهو، بعد وفاة والده، سيحكم السعودية من العام 1953 إلى العام 1964.

1904: ولادة فيصل بن عبد العزيز الذي سيصبح في يوم من الأيام ملكاً على السعودية.

1906: عبد العزيز آل سعود يستعيد السيطرة التامة على منطقة نجد.

1906 - 1926: عبد العزيز وقواته يستولون على مناطق واسعة ويوحّدون معظم الجزيرة العربية.

1916: مكة، التي كانت تحت سيطرة الأتراك، تسقط في أيدي العرب خلال الثورة العربية الكبرى. الضابط البريطاني ت. إ. لورنس يلتقي الأمير العربي فيصل بن الحسين، وتتوطد بينهما أواصر الصداقة. عُيّن ت. إ. لورنس في منصب ضابط الارتباط البريطاني مع فيصل بن الحسين.

1917 6 *تموز/يوليو:* القوات العربية بقيادة ت. إ. لورنس وأبي تايه تستولي على ميناء العقبة من الأتراك.

1918 1 *تشرين الأول/أكتوبر:* الأمير فيصل يسيطر على سورية بعد دخول القوة العربية الرئيسية إلى دمشق. لورنس العرب ينسف خط سكة الحجاز في السعودية.

1921: بريطانيا وفرنسا تقسمان شبه الجزيرة العربية في مؤتمر القاهرة، وتنشئان العراق والأردن وتنصّبان الأخوين فيصل وعبد الله ملكين عليهما. ومُنحت فرنسا نفوذاً على ما أصبحتا اليوم سورية ولبنان.

1923: ولادة عبد العزيز بن فهد في الرياض. وسيصبح لاحقاً ملكاً على السعودية.

1924: الأمير سعود، ملك نجد، يُخضع مملكة حسين في الحجاز ويحكم العربية السعودية، ويستولي لاحقاً على مكة والمدينة.

1926 *كانون الثاني/يناير:* إعلان عبد العزيز ملكاً على الحجاز وسلطاناً على نجد.

1927: السعودية توقّع معاهدة جدّة، وتصبح مستقلّة عن بريطانيا.

1927 - 1928: الملك عبد العزيز يسحق القبائل الإسلامية المتعصبة في وسط الجزيرة العربية.

1931: محمد بن لادن (الذي سيصبح يوماً والد أسامة بن لادن) يهاجر من اليمن إلى السعودية. عمل بجهد لإنشاء أعماله، وبنى لاحقاً علاقة وثيقة مع الملك عبد العزيز، ومع الملك فيصل.

1932: توحيد مملكتي نجد والحجاز وإنشاء المملكة العربية السعودية في ظل الملك عبد العزيز بن سعود. وسُمّيت السعودية على اسم الملك ابن سعود مؤسس السلالة السعودية، وهو الرجل الذي أنجب أربعة وأربعين ابناً لا يزالون يحكمون المملكة الغنية بالنفط.

1933: السعودية تمنح شركة «ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا» الحقوق الحصرية بالتنقيب عن النفط.

1938: «ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا» تكتشف النفط في حقل الدمّام رقم 7.

1945 *14 شباط/فبراير:* الملك السعودي عبد العزيز والرئيس الأميركي فرانكلين د. روزفلت يلتقيان على متن سفينة في قناة السويس، ويتوصّلان إلى تفاهم تحمي بموجبه الولايات المتحدة العائلة المالكة السعودية مقابل وصولها إلى النفط.

22 آذار/مارس: تأسيس الجامعة العربية في القاهرة. وقد أصبحت مصر والسعودية من الأعضاء المؤسسين للأمم المتحدة وللجامعة العربية.

1953: وفاة الملك عبد العزيز، جدّ سلطانة، عن عمر يناهز السابعة والسبعين. وقد خلَفه ابنه سعود.

1953 - 1964: فترة حكم الملك سعود.

1957: *الجمعة، 15 شباط/فبراير:* وُلد أسامة بن لادن في ساعات الصباح الأولى في الرياض بالسعودية. والداه اليمني المولد محمد

عوض بن لادن والسورية عليا غانم.

1962: السعودية تحظر العبودية.

1964 2 *تشرين الثاني/نوفمبر:* فيصل بن عبد العزيز بن سعود (1904 - 1975) يخلف شقيقه الأكبر، سعود بن عبد العزيز، على العرش السعودي.

1964 - 1975: فترة حكم الملك فيصل.

1965: الملك فيصل يتحدى المعارضة الإسلامية بإنشائه التلفزيون وإدخاله لاحقاً تعليم النساء. أعقبت ذلك أعمال شغب. لكن الحكومة أقنعت فيما بعد رجال الدين بأنهم يستطيعون استخدام التلفزيون وسيلة لنشر الإيمان.

1967 6 *حزيران/يونيو:* الشروع في تطبيق الحظر النفطي العربي على أثر نشوب حرب الأيام الستة العربية-الإسرائيلية.

3 أيلول/سبتمبر: وفاة محمد بن لادن، الأب الثري لأسامة بن لادن، في حادث تحطم طائرة، تاركاً حسن حال أولاده على عاتق الملك فيصل.

1973: الإعلان عن حظر نفطي على الدول الغربية استمرّ حتى العام 1974. فقفزت أسعار البنزين من 25 سنتاً للغالون إلى دولار واحد. وانخفضت نتيجة ذلك أسعار الأسهم في بورصة نيويورك.

1975 *25 آذار/مارس:* ملك السعودية فيصل يتعرّض للاغتيال على يد ابن شقيقه. ولي العهد الأمير خالد يصبح ملكاً.

18 حزيران/يونيو: قطع رأس الأمير السعودي فيصل بن مساعد في الرياض لقتله عمّه الملك فيصل. تتويج ولي العهد الأمير خالد ملكاً.

تشرين الثاني/نوفمبر: استيلاء رجال ونساء مسلحين على الجامع الكبير في مكة. وقد نددوا بالحكام من آل سعود، مطالبين بوضع حد لنهج اتباع الغرب. وكان هؤلاء الراديكاليون بقيادة الداعية السعودي جهيمان العتيبي. واستمر الحصار إلى أن جيء جوّاً بقوات فرنسية خاصة إلى مكة للمساعدة. وقُتل المتطرفون بالرصاص أو اعتقلوا ليجري لاحقاً إعدامهم بقطع الرأس.

1980: بدأ أسامة بن لادن كفاحه بقتال السوفيت في أفغانستان حيث سيعمل لاحقاً على تأسيس شبكة «القاعدة» التابعة له.

السعودية تعدم من تبقّى من راديكاليي حصار الجامع الكبير، حيث نفّذت عمليات قطع رؤوس الراديكاليين في مختلف مدن البلاد.

1982 *13 حزيران/يونيو:* وفاة الملك خالد. وقد خلفه أخوه غير الشقيق وولي العهد الأمير فهد.

1983 - 2005: يتولّى الأمير بندر بن سلطان آل سعود، وهو واحد من أبناء شقيق الملك فهد المفضلين، منصب سفير السعودية في واشنطن.

1985: بريطانيا توقّع عقداً مع السعودية بثمانين مليار دولار لتوفير 120 طائرة مقاتلة، وسوى ذلك من التجهيزات العسكرية على حقبة تمتد عشرين سنة.

1987 *31 تموز/يوليو:* اشتباك بين الحجّاج الإيرانيين وشرطة مكافحة الشغب في مدينة مكّة المكرّمة. وإلقاء اللوم على الإيرانيين في مقتل أربعمئة وشخصين.

1988: السعودي المولد أسامة بن لادن يؤسس «القاعدة»، وهي مجموعة أصولية سنّية تهدف إلى إقامة الخلافة الإسلامية في العالم.

1990 *تموز/يوليو:* وقوع أسوأ مأساة في السعودية المعاصرة خلال موسم الحج بمكة، قتل فيها 1402 من الحجاج المسلمين في عملية تدافع داخل أحد أنفاق المشاة.

6 تشرين الثاني/نوفمبر: مجموعة من النساء السعوديات يقدن السيارات في شوارع الرياض في تحدّ للحظر الحكومي. وقد أدى هذا الاحتجاج إلى مشكلات كبرى للسائقات: اعتُقلن، وطُردن من وظائفهن، ومُنعن من السفر، ووُصفن بالعاهرات. وأدى هذا الحدث إلى حظر رسمي على قيادة النساء.

السعودية والكويت تطردان مليون عامل يمني بسبب انحياز حكومة اليمن إلى صدام حسين في حرب الخليج الأولى.

1991 *كانون الثاني/يناير:* هجوم القوات التي تقودها الولايات المتحدة على الجيش العراقي في الكويت. بدء الحرب البرّية بين العراق وقوات الائتلاف. وقد دُحرت القوات العراقية من الكويت، ولم تعد تشكّل خطراً على السعودية.

1992: الملك يواصل وضع هيكلية دستورية للبلاد. تصديق قانون يتيح للملك تسمية أي من أشقائه أو أولاد أشقائه خليفة له، وباستبدال خليفته كلما رغب في ذلك.

1994 *23 أيار/مايو:* مقتل 270 حاجاً في تدافع بمكة مع تجمع المؤمنين للشروع في الشعائر الرمزية القاضية «برجم الشيطان».

عائلة بن لادن تتبرّأ منه، وسحب الجنسية السعودية منه. وقد قُدرت ثروته بمئتين وخمسين مليون دولار.

1995: قطع رؤوس 192 شخصاً في السعودية في سياق السنة. وقد شكّل ذلك رقماً قياسياً.

1996: طُلب إلى أسامة بن لادن مغادرة السودان بعد الضغوط التي مارستها إدارة كلينتون على الحكومة السودانية. أخذ أسامة ابنه عمر معه في رحلة العودة إلى أفغانستان. وسرعان ما لحق بهما باقي أفراد العائلة والمقرّبون.

اتهَم أحد أبناء أشقاء الملك فهد زوراً واحداً من موظفيه بممارسة السحر. وأُعدم الموظف عبد الكريم النقشبندي.

الملك فهد المريض يتخلّى عن العرش لأخيه غير الشقيق ولي العهد الأمير عبد الله.

1997: وفاة 343 مسلماً في حريق اندلع خارج مدينة مكة المكرمة. وجرح أكثر من ألف آخرين.

1998: وفاة 150 حاجاً في شعائر «رجم الشيطان» بعد حدوث تدافع في اليوم الأخير من الموسم السنوي للحج في مدينة مكة المكرمة.

1999: أعلنت الحكومة السعودية أنها ستصدر تأشيرات سفر إلى المملكة لتشجيع السفر إليها.

21 آب/أغسطس: فجع أفراد العائلة المالكة بموت الأمير فيصل ابن فهد، الابن البكر للملك فهد، بسبب نوبة قلبية، وهو في الرابعة والخمسين. وكان قد عاد لتوّه من دورة الألعاب العربية في الأردن التي حضرها بوصفه رئيس الاتحاد العربي للرياضة.

17 تشرين الثاني/نوفمبر: انفجار سيارة مفخّخة في الرياض يقتل التقني البريطاني كريستوفر رودواي، وقد اتُهم ثلاثة غربيين بالانفجار.

2001 *26 كانون الثاني/يناير:* أغضبت هيئة تابعة للأمم المتحدة الحكومة السعودية والمواطنين بعد اتّهامها السعودية بالتمييز ضد النساء، ومضايقة القاصرين، وبالعقوبات التي تتضمن الجلد والرجم.

5 آذار/مارس: اختنق 35 حاجاً مسلماً حتى الموت في خلال شعائر «رجم الشيطان» التي تجري في موسم الحج السنوي في مكة.

آذار/مارس: اللجنة الدائمة للبحوث والفتوى في السعودية تقول إن ألعاب وبطاقات «بوكيمون» قد «مسّت عقول» الأولاد السعوديين.

أيلول/سبتمبر: ست رحلات جوّية مستأجرة تحمل مواطنين سعوديين تغادر الولايات المتحدة في أعقاب 11/9. كذلك غادرت الولايات المتحدة بعد أيام رحلة مستأجرة أخرى، تحمل 26 من أفراد عائلة بن لادن.

2002 *17 شباط/فبراير:* ولي العهد الأمير عبد اللّه يطرح على كاتب المقال في نيويورك تايمز، توماس فريدمان، خطة السلام في الشرق الأوسط. وتتضمن الخطة اعتراف العرب بحق إسرائيل في الوجود في حال انسحابها من الأراضي التي كانت في السابق جزءاً من الأردن، بما في ذلك القدس الشرقية والضفة الغربية.

آذار/مارس: اندلع حريق في مدرسة للبنات في مكة، لكن الشرطة منعت الفتيات من الهروب من المبنى بسبب عدم ارتدائهن الحجاب. وانتشرت موجة من الغضب في جميع أنحاء السعودية، بعد أن احترقت 15 تلميذة حتى الموت.

13 نيسان/إبريل: الشاعر السعودي غازي القصيبي، سفير السعودية في بريطانيا، ينشر في صحيفة الحياة اليومية السعودية قصيدة «الشهداء» التي يشيد فيها بأحد المفجّرين الانتحاريين الفلسطينيين.

25 نيسان/إبريل: الرئيس جورج بوش يلتقي ولي العهد عبد اللّه الذي أبلغه بأن على الولايات المتحدة إعادة النظر في دعمها المطلق لإسرائيل. وسلّم عبد اللّه إلى بوش النقاط الثماني التي تضمنها اقتراحه للسلام في الشرق الأوسط.

نيسان/إبريل: أقفلت الحكومة السعودية عدّة مصانع تنتج الحجب والعباءات النسائية التي قيل إنها تنتهك القواعد الدينية. وعدّت بعض العباءات إسرافاً في الترف؛ وقد خيطت الجواهر على أكتافها.

أيار/مايو: خلاف بين الدبلوماسيين السعوديين ولجنة مناهضة التعذيب التابعة للأمم المتحدة، فحواه الجلد وبتر الأطراف، وما إذا كانا يشكّلان انتهاكاً لاتفاقية مناهضة التعذيب.

كانون الأول/ديسمبر: أعلن منشقون سعوديون إطلاق محطة

إذاعية جديدة، سُميت «صوت الإصلاح»، تبث من أوروبا. وقد أنشئت الإذاعة الجديدة بهدف معلن، هو الدفع من أجل الإصلاحات في السعودية.

2003 شباط/فبراير: سُحق 14 حاجّاً مسلماً حتى الموت في منى بعد تعثّر أحد المصلّين في خلال الموسم السنوي للحج.

29 نيسان/إبريل: الولايات المتحدة تعلن انسحاب كل القوات المقاتلة من السعودية.

12 أيار/مايو: تفجيرات متزامنة لعدّة سيارات مفخّخة استهدفت ثلاثة مجمّعات للأجانب في الرياض، أدّت إلى مقتل 26 شخصاً من بينهم تسعة مواطنين أميركيين.

14 أيلول/سبتمبر: قطع رأس المواطن السعودي وتاجر الحشيش ضاهر بن ثامر الشمري؛ وبحلول أيلول/سبتمبر، قُطعت رؤوس 41 شخصاً.

14 تشرين الأول/أكتوبر: نزل مئات السعوديين إلى الشوارع مطالبين بالإصلاح. وهذا أول احتجاج واسع تشهده البلاد التي تحظر التظاهر.

اتهم رب عمل الخادمة الإندونيسية آتي بت أبيه إينان بأنها كتبت تعويذة له ولعائلته، وحُكم عليها بالموت. وأعفي عنها بعد مقاضاتها بالسجن عشر سنوات، وأعيدت إلى غرب جاوا.

2004: اكتُشف أن ليبيا خططت لعملية سرّية لاغتيال ولي العهد الأمير عبدالله.

1 شباط/فبراير: مقتل 251 مصلّياً مسلماً في عملية تدافُع في خلال موسم الحج.

10 نيسان/إبريل: تعرّضت المذيعة التلفزيونية السعودية التي تحظى بالشعبية، رانيا الباز، للضرب المبرح من زوجها الذي اعتقد أنه قتلها. لكنها نجت، وعانت من عدّة كسور في الوجه، استدعت خضوعها لاثنتي عشرة عملية جراحية. وسمحت بنشر صورها وشاركت في نقاشات مفتوحة حول العنف المتواصل ضد النساء في السعودية. وسافرت إلى فرنسا حيث كتبت قصتها. وقيل إنها فقدت الوصاية على أولادها بعد نشر الكتاب.

أيار/مايو: فتح من يُشتبه بأنهم متطرّفون نيران رشاشاتهم في ينبع السعودية داخل مقر الشركة المقاولة النفطية «إي. بي. بي. ليميتد» ومقرها هيوستن. وقُتل ستة أشخاص، وجُرح الكثير غيرهم.

وقتلت الشرطة أربعة أشقاء في تبادل لإطلاق النار بعد مطاردة بالسيارة قيل إن المهاجمين قد جرّوا خلالها جثة أحد الضحايا وراء السيارة التي فرّوا بها.

6 حزيران/يونيو: قُتل المصوّر الإيرلندي العامل مع «البي. بي. سي» سيمون تشامبرز، 36 عاماً، في عملية إطلاق نار في الرياض، أصيب فيها أيضاً مراسل الشبكة.

8 حزيران/يونيو: أطلقت النار في الرياض على مواطن أميركي يعمل في شركة مقاولات دفاعية أميركية، فقُتل.

12 حزيران/يونيو: اختطاف أميركي في الرياض. وقد نشرت القاعدة صورة الرجل على أحد المواقع الإسلامية. عُرّف عنه أنه رجل الأعمال في شركة «لوكهيد مارتن» بول م. جونسون جونيور. وأطلق متطرفون مسلمون النار على الأميركي كنيث سكروغز، وقتلوه في مرأبه في الرياض.

13 حزيران/يونيو: شهدت المدينة المنوّرة ثلاثة أيام من «الحوار الوطني» حول كيفية تحسين حياة النساء، وسُلّمت التوصيات إلى ولي العهد الأمير عبد الله.

15 حزيران/يونيو: هدّدت القاعدة بإعدام بول م. جونسون جونيور في غضون 72 ساعة، ما لم يُفرج عن «الإخوة المجاهدين» في السجون السعودية.

18 حزيران/يونيو: أعلنت القاعدة أنها قتلت الرهينة الأميركي بول م. جونسون جونيور. ونشرت صوراً على الإنترنت تظهر جسمه ورأسه المقطوع.

حزيران/يونيو: وافق مجلس الشورى السعودي على تشريع يلغي القانون الذي يحظر على الفتيات والنساء المشاركة في التربية البدنية والألعاب الرياضية. وأعلنت وزارة التربية في آب/أغسطس أنها لن تعمل بموجب هذا التشريع.

20 تموز/يوليو: عُثر على رأس الرهينة الأميركي المذبوح بول م. جونسون جونيور خلال غارة قامت بها قوات الأمن السعودية.

30 تموز/يوليو: أقرّ عبد الرحمن العمودي، في محكمة بفرجينيا في الولايات المتحدة، بالذنب في نقل الأموال النقدية من ليبيا لدفع مصاريف محاولة اغتيال ولي العهد السعودي الأمير عبد الله.

28 أيلول/سبتمبر: حظرت السلطات الدينية العليا في السعودية استخدام الهواتف الجوالة التي تحتوي على كاميرا. ويزعم القرار أن

الهواتف «تنشر الرذيلة» في البلاد.

6 كانون الأول/ديسمبر: مقتل تسعة أشخاص في قنصلية الولايات المتحدة في جدة، بعد أن قذف متطرفون إسلاميون بالمتفجرات على باب المبنى الخاضع لحراسة شديدة، ثم اقتحموا المبنى، وأعقبت ذلك معركة بالرصاص.

2005 *13 كانون الثاني/يناير:* قال مسؤولون قضائيون سعوديون إن إحدى المحاكم الدينية قضت بجلد 15 سعودياً، بمن فيهم امرأة واحدة، 250 جلدة لكل منهم، وما يصل إلى السجن ستة أشهر بسبب مشاركتهم في الاحتجاج ضد النظام الملكي.

10 شباط/فبراير: فيما حظر على النساء الإدلاء بأصواتهن، تهافت المصوتون السعوديون الذكور على مراكز الاقتراع في منطقة الرياض للمشاركة في انتخابات المجلس البلدي للمدينة. وهذه هي المرة الأولى في تاريخ البلاد التي يشارك فيها السعوديون في انتخابات تتوافق مع المعايير الدولية.

3 آذار/مارس: خرج الرجال في شرق السعودية وجنوبها بالآلاف إلى صناديق الاقتراع للتصويت في الانتخابات البلدية. وهي أول فرصة لتكون لهم كلمتهم في صنع القرار في النظام الملكي المطلق بالسعودية.

1 نيسان/إبريل: السعودية تقطع رؤوس ثلاثة رجال علناً في مدينة الجوف الشمالية؛ وقد قتل الرجال الثلاثة عام 2003 نائب الحاكم وقاضياً في المحكمة الدينية وضابطاً برتبة ملازم في الشرطة.

8 أيار/مايو: قطع رأس باكستاني لمحاولته تهريب الهيروين إلى المملكة.

15 أيار/مايو: حُكم على ثلاثة من دعاة الإصلاح بفترات سجن تتراوح بين ست سنوات وتسع. ووصف ناشطو حقوق الإنسان المحاكمة «بالمهزلة».

15أيار/مايو: الحكم على الشاعر السعودي علي الدميني بالسجن تسع سنوات على زرعه بذور الانشقاق وعصيان حكّامه والتحريض. وتركّز روايته الصادرة عام 1998، «الغيمة الرصاصية»، في منشق سُجن لسنوات في أحد سجون الدولة الصحراوية، حيث قضى الكثيرون فترات حكمهم بسبب آرائهم السياسية.

27 أيار/مايو: إدخال الملك فهد، عاهل المملكة العربية السعودية على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، المستشفى لأسباب غير محدّدة.

1 آب/أغسطس: وفاة الملك فهد في مستشفى الملك فيصل التخصصي في الرياض. وسُمي أخوه غير الشقيق ولي العهد عبد الله لخلافته.

8 آب/أغسطس: ارتفعت الآمال في السعودية بعد أن أصدر الملك الجديد، عبد الله، عفواً عن أربعة ناشطين بارزين سجنوا بعد انتقادهم البيئة الدينية المتشددة في البلاد والخطوات البطيئة التي يجري فيها الإصلاح الديمقراطي.

15 أيلول/سبتمبر: الحكومة السعودية تصدر أمراً إلى غرفة التجارة في جدّة بالسماح للنساء بالتصويت والترشّح.

21 أيلول/سبتمبر: قطع رأس رجلين في الرياض بعد إدانتهما باختطاف امرأة واغتصابها.

17 تشرين الثاني/نوفمبر: حُكم على أستاذ ثانوي يعلّم مادة الكيمياء، بـ 750 جلدة وبسجنه أربعين شهراً بسبب التجديف، على أثر محاكمة جرت في 12 تشرين الثاني/نوفمبر، واتهمته بمناقشة أمور الدين مع تلاميذه.

27 تشرين الثاني/نوفمبر: انتُخبت امرأتان في غرفة التجارة بجدّة، الأمر الذي شكّل مدعاة لسرور النساء السعوديات. وهي المناسبة الأولى التي تفوز فيها النساء بمثل هذا المركز في البلاد، لأنهن يمنعن إلى حد بعيد من المشاركة في الحياة السياسية.

8 كانون الأول/ديسمبر: تعهّد زعماء من خمسين دولة مسلمة بمحاربة أيديولوجية التطرف. وقال الزعماء إنهم سيدخلون الإصلاحات إلى الكتب المدرسية، وتعهّدوا بالحد من الفتاوى الدينية، وبقمع تمويل الإرهاب.

السعودية تصدّق على قانون يمنع موظفي الدولة من الإدلاء بأي تصريحات علنية تتعارض مع السياسة الرسمية.

2006 *12 كانون الثاني/يناير:* تعثّر آلاف الحجاج المسلمين بالأمتعة خلال الحج الأمر الذي تسبّب بازدحام قُتل فيه 363 شخصاً.

26 كانون الثاني/يناير: السعودية تستدعي سفيرها في الدنمارك احتجاجاً على سلسلة من الرسوم الكاريكاتورية للنبي محمد ﷺ نُشرت في صحيفة جيلاندز-بوستن الدنماركية. عمّ الغضب لأسابيع العالم الإسلامي، وأدى إلى عشرات القتلى.

19 شباط/فبراير: نشرت جيلاندز-بوستن اعتذاراً احتل صفحة كاملة من صفحات إحدى الصحف التي تمتلكها السعودية، في أعقاب

نشرها 12 رسماً كاريكاتورياً للنبي ﷺ ، مبرزة ما وصفته بالرقابة الذاتية.

6 نيسان/إبريل: إعادة الجبن والزبدة اللذين تنتجهما شركة «أرلا» الدنماركية إلى رفوف السوبر ماركت في السعودية، في أعقاب المقاطعة التي سبّبها نشر البلاد الرسوم الكاريكاتورية المسيئة.

نيسان/إبريل: الحكومة السعودية تعلن عن خطط لبناء سياج مكهرب على طول حدودها التي تمتد مسافة 560 ميلاً مع العراق.

16 نيسان/إبريل: ذكرت الصحف السعودية أنها تلقّت أمراً من الملك عبد اللّه يطلب فيها إلى المحررين الكف عن نشر صور النساء. وادعى الملك أن مثل هذه الصور تتسبّب في ضلال الشبان السعوديين.

18 آب/أغسطس: وافقت بريطانيا العظمى، بحسب الفايننشال تايمز، على صفقة بعدة مليارات من الدولارات لتزويد السعودية باثنتين وسبعين طائرة مقاتلة أوروبية من طراز «تايفون».

20 تشرين الأول/أكتوبر: في محاولة لنزع فتيل الصراعات الداخلية على السلطة، الملك عبد اللّه يمنح سلطات جديدة لأشقائه وأولادهم. وسيجتمع في المستقبل مجلس من ثلاثين أميراً لاختيار ولي للعهد.

قطعت المملكة رؤوس ثلاثة وثمانين شخصاً في العام 2005 وخمسة وثلاثين في العام 2004.

2007 *4 شباط/فبراير:* حكم قاض سعودي على عشرين أجنبياً بالجلد وبفترات في السجن، بعد إدانتهم بحضور حفلة مختلطة قُدمت فيها الكحول، ورقص فيها الرجال والنساء.

17 شباط/فبراير: كشف تقرير لإحدى جماعات حقوق الإنسان عن أن الحكومة السعودية تعتقل آلاف السجناء من دون تهم، وتحكم على الأولاد بالموت، وتقمع النساء.

19 شباط/فبراير: أمرت محكمة سعودية بعرض جثث أربعة سريلانكيين في إحدى الساحات العامة، بعد أن قُطعت رؤوسهم لارتكابهم عملية سطو مسلح.

26 شباط/فبراير: مسلّحون يقتلون أربعة فرنسيين عند جانب إحدى الطرق الصحراوية المؤدية إلى المدينة المنوّرة في منطقة مقصورة على المسلمين فقط.

شباط/فبراير: اعتقال عشرة مثقفين سعوديين لتوقيعهم عريضة مهذّبة توحي بأن الوقت قد حان لتفكر المملكة بالانتقال إلى النظام الملكي الدستوري.

27 نيسان/إبريل: قالت وزارة الداخلية إنها قامت بأوسع عمليات الدهم لخلايا الإرهاب في السعودية، أوقفت خلالها 172 متطرفاً مسلماً. وقد تدرّب المتطرفون في الخارج على قيادة الطائرات ليتمكنوا من استنساخ 11/9، والتحليق بطائرات لشن هجمات على حقول النفط السعودية.

5 أيار/مايو: وفاة حاكم مكّة الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز عن خمسة وستين عاماً، بعد صراع طويل مع المرض.

9 أيار/مايو: قطع رأس امرأة إثيوبية أدينت بقتل رجل مصري لخلاف بينهما. وخديجة بنت إبراهيم موسى هي المرأة الثانية التي يُقطع رأسها هذه السنة. ويجري قطع الرأس بواسطة السيف في ساحة عامة.

حكم غيابي في فرنسا على الأمير السعودي نايف الشعلان بالسجن عشر سنوات بتهمة تورّطه مع عصابة لتهريب الكوكايين.

23 حزيران/يونيو: أرجأ قاض سعودي محاكمة ثلاثة عناصر من الشرطة الدينية لتورطهم في وفاة رجل اعتُقل، بعد مشاهدته مع امرأة لا تربطه بها صلة قربى.

9 تشرين الثاني/نوفمبر: السلطات السعودية تقطع رأس المواطن خلف العنزي في الرياض، لخطفه مُراهِقة واغتصابها.

السلطات السعودية تقطع رأس باكستاني يتاجر بالمخدرات. وبهذا الإعدام يصل عدد الذين قُطعت رؤوسهم في المملكة عام 2007 إلى 131.

14 تشرين الثاني/نوفمبر: محكمة سعودية تحكم على فتاة في التاسعة تعرّضت للاغتصاب الجماعي بالسجن ستة أشهر ومئتي جلدة. كما أن المحكمة منعت محاميها من الدفاع عنها، وصادرت رخصته، وحوّلته إلى المجلس التأديبي.

17 كانون الاول/ديسمبر: عفا الملك السعودي عن ضحية الاغتصاب الجماعي التي حُكم عليها بالسجن ستة أشهر وبمئتي جلدة لوجودها بمفردها مع رجل لا يمتّ إليها بصلة القربى، بعد أن أثارت القضية انتقاداً نادراً من الولايات المتحدة.

2008 *21 كانون الثاني/يناير:* ذكرت صحيفة الوطن أن وزارة

الداخلية قد أصدرت تعميماً على الفنادق، تطلب منها قبول النساء الوحيدات مادامت تُزوّد مخفر الشرطة المحلي بالمعلومات عنهن.

14 شباط/فبراير: ناشدت إحدى منظمات حقوق الإنسان الرئيسية الملك عبد الله وقف تنفيذ الإعدام بامرأة متهمة بممارسة الشعوذة والقيام بأفعال فوق طبيعية.

19 أيار/مايو: توقيف الأستاذ متروك الفالح في جامعة الملك سعود في الرياض، بعد أن انتقد علناً الظروف في السجن الذي يقضي فيه اثنان آخران من ناشطي حقوق الإنسان فترة حكمهما.

24 أيار/مايو: السلطات السعودية تقطع رأس مواطن محلي أدين بالسطو المسلح وباغتصاب امرأة. وبهذا الإعدام يصل عدد الذين قُطعت رؤوسهم في العام 2008 إلى خمسة وخمسين.

20 حزيران/يونيو: الشرطة الدينية توقف واحداً وعشرين رجلاً اتُهموا بأنهم من مثليي الجنس، وتصادر كميات كبيرة من الكحول في تجمُّع كبير للشبان في إحدى استراحات القطيف.

8 تموز/يوليو: قالت منظمة لحقوق الإنسان إن خادمات المنازل في السعودية يعانين في الغالب من سوء المعاملة التي تصل في بعض الأحيان إلى حد العبودية، إضافة إلى العنف الجنسي والجلد بسبب الادعاءات المزيفة بالسرقة والشعوذة.

30 تموز/يوليو: الشرطة الدينية تمنع بيع الكلاب والقطط كحيوانات أليفة. كما أنها منعت مالكي الحيوانات الأليفة من السير بها في الأماكن العامة، لأن الرجال يستخدمون القطط والكلاب للتحرّش بالنساء.

11 أيلول/سبتمبر: الشيخ صالح اللحيدان، رئيس مجلس القضاء الأعلى في السعودية، يصدر فتوى دينية تقضي بجواز قتل مالكي شبكات التلفزة الفضائية التي تبث محتوى غير أخلاقي. وعاد لاحقاً، وصحّح ما أدلى به قائلاً بوجوب سوق المالكين الذين يبثون المحتوى غير الأخلاقي إلى المحكمة، والحكم عليهم بالموت، إذا لم تردعهم الغرامات.

تشرين الثاني/نوفمبر: ذكرت برقية دبلوماسية أميركية أن المتبرعين في السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة يرسلون سنوياً ما يُقدّر بمئة مليون دولار إلى المدارس الراديكالية الإسلامية التي تدعم التطرف في باكستان.

10 كانون الأول/ديسمبر: المفوضية الأوروبية تمنح وللمرة الأولى جائزة شايو لجمعية النهضة النسائية الخيرية، وهي مؤسسة خيرية

سعودية تساعد النساء المطلقات والمحرومات.

2009 14 *كانون الثاني/يناير:* نُقل عن رجل الدين السعودي الأرفع شأناً في البلاد قوله إن من المسموح لابنة العشرة أعوام أن تتزوج. وأضاف أن كل من يعتقد أن بنات العشرة أعوام أصغر من أن يتزوجن إنما يظلم هؤلاء الفتيات.

14 *شباط/فبراير:* الملك عبدالله يستغني عن خدمات الشيخ صالح اللحيدان. كما عيّن نورا الفايز في منصب نائبة وزير لتعليم النساء، وهي أول أنثى في تاريخ السعودية تتولّى منصباً وزارياً.

3 *آذار/مارس:* الحكم على خميسة السوادي، وهي أرملة في الخامسة والسبعين، بأربعين جلدة وبالسجن أربعة أشهر لتحدثها مع شابين لا يمتّان إليها بقرابة وثيقة.

22 *آذار/مارس:* حثّت مجموعة من رجال الدين السعوديين وزير الإعلام السعودي الجديد على حظر ظهور النساء في التلفزيون والصحف والمجلات.

27 *آذار/مارس:* الملك عبد الله يعيّن أخاه غير الشقيق الأمير نايف نائباً ثانياً لرئيس الوزراء.

30 *نيسان/إبريل:* فتاة في الثامنة تطلّق زوجها، وهو في منتصف العمر، بعد أن أجبرها والدها على الزواج منه مقابل 13 ألف دولار. وتسمح السعودية بمثل زيجات الأطفال هذه.

29 *أيار/مايو:* قطع رأس رجل وصلبه، لذبحه فتى في الحادية عشرة ووالده.

6 *حزيران/يونيو:* عُرض الفلم السعودي «مناحي» في الرياض بعد ثلاثين عاماً من شروع الحكومة في إقفال دور العرض. ولم يُسمح لأي امرأة بحضور الفلم، وسُمح بذلك فقط للرجال والأولاد، بمن فيهم البنات حتى سن العاشرة.

15 *تموز/يوليو:* ظهر المواطن السعودي مازن عبد الجواد على شاشة الفضائية اللبنانية، «الإل. بي. سي» في برنامج «أحمر بالخط العريض» وصدم السعوديين بالاعتراف علناً بمآثره الجنسية. ورفع أكثر من مئتي سعودي شكاوى قضائية على عبد الجواد الذي وصفته وسائل الإعلام بـ «المجاهر بالإثم»؛ وطالب الكثير من السعوديين بأن يُنزل به أشد العقاب. ودانت محكمة سعودية عبد الجواد في تشرين الأول/أكتوبر 2009، وحكمت عليه بالسجن خمس سنوات وبألف جلدة.

9 آب/أغسطس: ذكرت وكالات الأنباء الإيطالية أن لصوصاً سرقوا جواهرَ وأموالاً نقدية بقيمة 11 مليون يورو من غرفة فندق أميرة سعودية في سردينيا، الأمر الذي تسبّب في أزمة دبلوماسية.

27 آب/أغسطس: مفجّر انتحاري يستهدف في جدّة مساعد وزير الداخلية الأمير محمد بن نايف، وينسف نفسه قُبيل دخوله إلى تجمع من المباركين بشهر رمضان. ولم يُصب الأمير نايف المستهدف سوى بجروح طفيفة.

23 أيلول/سبتمبر: افتتاح جامعة مختلطة جديدة، كلّفت ملايين عدة من الدولارات، خارج مدينة جدّة الساحلية. وتتفاخر جامعة الملك عبد اللّه للعلوم والتقنية بمختبراتها المتطوّرة جدّاً، وبحاسوبها العملاق الذي يحتل المرتبة العالمية الرابعة عشرة من حيث السرعة، وبواحدة من أكبر المنح في العالم. وبلغ عدد المسجلين يومها 817 طالباً يمثّلون 61 دولة مختلفة، إضافة إلى 314، بدأوا صفوفهم في أيلول/سبتمبر 2009.

24 تشرين الأول/أكتوبر: حوكمت روزانا اليامي، 22 عاماً، وأدينت لمشاركتها في برنامج «أحمر بالخط العريض» الذي شارك فيه مازن عبد الجواد. وحكم عليها بستين جلدة، ويُعتقد أنها أول صحافية أنثى سعودية تتلقّى مثل هذا العقاب. وألغى الملك عبد اللّه حكم الجلد في ثاني عفو مماثل في قضية بارزة يعلنه العاهل في السنوات الأخيرة. وأصدر أمراً بتحويل قضية اليامي إلى لجنة في الوزارة.

تشرين الأول/أكتوبر: تسليط الضوء على عائلة بن لادن في كتاب «إنه بن لادن: كل شيء عنه بلسان زوجته وابنه(2)» الذي وضعته المؤلفة الأميركية جين ساسون. ويستند الكتاب إلى مقابلات أجرتها ساسون مع عمر بن لادن ووالدته نجوى بن لادن.

9 تشرين الثاني/نوفمبر: حُكم بالموت على المنجّم اللبناني علي سباط، الذي يقوم بالتوقعات في محطة فضائية من منزله في بيروت، لممارسته الشعوذة. وأوقف لدى سفره إلى المدينة المنوّرة للحج وهُدد بقطع رأسه. ووجدت هيئة قضائية، بعد ثلاث سنوات، أن ما من دليل كافٍ على أن أفعال سباط تسبّبت في الضرر للآخرين. وأمرت بإعادة المحاكمة في محكمة المدينة المنوّرة، وأوصت بتخفيف الحكم لتستطيع من بعدها ترحيل سباط.

2010 *19 كانون الثاني/يناير:* حُكم على فتاة في الثالثة عشرة بتسع عشرة جلدة، وبالسجن شهرين لتهجّمها على معلّمة حاولت أخذ هاتفها الجوّال منها.

11 شباط/فبراير: الشرطة الدينية تقوم، في مختلف أنحاء البلاد، بحملة دهم للمتاجر التي تبيع سلعاً باللون الأحمر، قائلة إن هذا اللون يلمّح إلى الاحتفال بعيد العشاق المحظور.

6 آذار/مارس: قالت جمعية الحقوق المدنية والسياسية في السعودية إن ضباط الأمن السعوديين اقتحموا كشكاً للكتب في المعرض الدولي للكتاب في الرياض، وصادروا كل أعمال عبد الله الحميد، المصلح المشهور ومنتقد العائلة المالكة.

20 نيسان/إبريل: حين اقترح أحمد بن قاسم الغامدي (وهو يومها مدير عام هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في منطقة مكة المكرمة - المترجم) وجوب السماح للرجال والنساء بالاختلاط بحرّية، عمل رئيس الشرطة الدينية التي تتمتّع بالسلطة القوية على طرده من منصبه.

10 حزيران/يونيو: قتل رجل سعودي امرأة في أحد المراكز التجارية، فاعتُقل وحكم عليه بالسجن أربعة أشهر وبتسعين جلدة.

22 حزيران/يونيو: اعتقال أربع نساء وأحد عشر رجلاً ومحاكمتهم وإدانتهم بالاختلاط في ما بينهم في إحدى الحفلات. وحُكم عليهم بالجلد وبفترات في السجن.

15 آب/أغسطس: وفاة غازي القصيبي رجل الدولة والشاعر، بعد معاناة طويلة مع المرض. كان القصيبي مقرّباً من العائلة المالكة، على الرغم من الحظر الذي تعرّضت له كتاباته في معظم حياته. ورفعت وزارة الثقافة السعودية الحظر عن مؤلفاته قبل شهر من وفاته، منوّهة بمساهمته للوطن.

26 آب/أغسطس: نُقلت الخادمة السريلانكية العاملة في السعودية ت. أرياواثي، إلى المستشفى لإزالة 24 مسماراً دقّها رب عملها في جسمها قصاصاً لها.

17 تشرين الثاني/نوفمبر: تنازل الملك عبد اللّه عن رئاسة الحرس الوطني السعودي لمصلحة ابنه الذي تولّى المنصب.

20 تشرين الثاني/نوفمبر: تحدّت شابة في العشرينات من عمرها حظر قيادة السيارات الذي فرضته المملكة، ما أدى إلى حادث انقلبت فيه سيارتها. وتوفّيت إلى جانب ثلاثة من صديقاتها اللواتي كنّ معها.

22 تشرين الثاني/نوفمبر: الملك عبد اللّه يزور نيويورك لتلقّي العلاج الطبي، ويسلّم أخاه غير الشقيق ولي العهد الأمير سلطان مقاليد السلطة مؤقتاً.

23 تشرين الثاني/نوفمبر: أعلنت وسائل الإعلام السعودية أن امرأة سعودية، اتُهمت بتعذيب خادمتها الإندونيسية، قد أرسلت إلى السجن، فيما تتلقى الخادمة سومايتي بنتي سالان مصطفى العلاج في المستشفى، بسبب إصابتها بحروق وكسور.

قدّر تقرير أن هناك نحو أربعة ملايين امرأة سعودية فوق سن العشرين من دون زواج، في بلد يبلغ عدد سكانه 24,6 مليوناً. وذُكر أن بعض أولياء الأمر من الذكور يجبرون المرأة على البقاء عزباء في ممارسة تُدعى «العَضْل». وتصف مؤيدة حقوق المرأة السعودية وجيهة الحويدر ولاية الأمر الذكرية بأنها «شكل من أشكال العبودية».

2011 16 كانون الثاني/يناير: أطلقت مجموعة من الناشطين السعوديين حملة «بلدي» لحث المملكة على السماح للنساء بالترشح إلى الانتخابات البلدية المقررة في ربيع العام 2011.

24 كانون الثاني/يناير: قالت منظمة «هيومان رايتس ووتش»، ومركزها نيويورك، في تقريرها لسنة 2011 إن الحكومة السعودية تضايق الناشطين وتسجنهم، وفي الغالب من دون محاكمة، على تحدّثهم لمصلحة توسيع التسامح الديني، ولوصفهم القيود الجديدة المفروضة على التواصل الإلكتروني في المملكة بأنها قاسية.

9 شباط/فبراير: طلب عشرة علماء مسلمين سعوديين معتدلين من الملك الاعتراف بحزب الأمة الإسلامي التابع لهم، وهو الحزب السياسي الأول في المملكة.

15 شباط/فبراير: قالت وزارة التربية إن المملكة تخطط لجمع الكتب التي تشجّع على الإرهاب، أو تشوّه الدين من مكتبات المدارس.

24 شباط/فبراير: قال مثقفون نافذون في بيان لهم إن على الحكام العرب استخلاص الدروس من الانتفاضات في تونس ومصر وليبيا، والإصغاء إلى صوت الشباب المحبط.

5 آذار/مارس: قالت وزارة الداخلية السعودية إنها لن تتساهل مع التظاهرات، وإن قواها الأمنية ستتحرّك ضد كل من يشارك فيها.

11 آذار/مارس: نُشر المئات من رجال الشرطة في العاصمة لمنع الاحتجاجات المطالبة بالإصلاحات الديمقراطية، التي أوحت بها موجة الاضطرابات التي تجتاح العالم العربي.

18 آذار/مارس: وعد الملك عبد الله المواطنين السعوديين برزمة

من الإصلاحات كلّفت عدة مليارات من الدولارات، وبزيادة الأموال والقروض والشقق، في ما بدا أنها المحاولة العربية الأغلى ثمناً لاسترضاء المقيمين الذين استوحوا من الاضطرابات التي أطاحت زعيمين إقليميين من السلطة.

2 أيار/مايو: قتلت فرقة من مغاوير البحر الأميركيين أسامة بن لادن مؤسس ورئيس مجموعة المتطرفين الإسلاميين، «القاعدة»، في باكستان، بُعَيد الواحدة فجراً بتوقيت البلاد.

22 أيار/مايو: السلطات السعودية تعتقل الناشطة منال الشريف التي تحدّت الحظر على قيادة النساء للسيارات. وبقيت محتجزة لعدة ساعات في اليوم لدى الشرطة الدينية، ولم يُفرج عنها إلا بعد أن وقّعت على تعهد توافق فيه على عدم القيادة من جديد. والسعودية هي البلد الوحيد في العالم الذي يمنع النساء، السعوديات منهن والأجنبيات، من القيادة.

18 حزيران/يونيو: قطع رأس رؤيتي بنت ساتوبي، الجدّة الإندونيسية، لقتلها رب عملها السعودي المتهم بإيذائها.

28 حزيران/يونيو: الشرطة توقف امرأة تقود سيارة في مدينة جدّة الواقعة على البحر الأحمر. وجرى لاحقاً توقيف أربع نساء أخريات في المدينة بعد اتهامهن بالقيادة.

25 أيلول/سبتمبر: أعلن الملك عبد الله أن نساء البلاد سيحصلن على الحق في التصويت والترشّح في الانتخابات المحلية التي ستجرى في العام 2015، في تطوّر حقيقي لحقوق المرأة في مملكة مسلمة شديدة المحافظة.

27 أيلول/سبتمبر: حُكم على السعودية شيماء جستنيّة بعشر جلدات بالسوط لتحدّيها الحظر الذي تفرضه المملكة على قيادة النساء للسيارات. وسارع الملك عبد الله إلى إلغاء الحكم.

29 أيلول/سبتمبر: أدلى الرجال السعوديون بأصواتهم في انتخابات المجالس المحلّية، وهي الانتخابات الثانية التي تُجرى في المملكة الغنية بالنفط. ولم يُسمح للنساء بالتصويت في هذه الانتخابات. والمجالس البلدية واحدة من الهيئات القليلة التي تُنتخب في البلاد، لكنها لا تمتلك سلطة فعلية، وهي مفوّضة تقديم المشورة إلى سلطات المناطق.

توقيف منصور أربابسيار، المواطن الأميركي الذي يحمل جواز سفر إيرانياً، لدى وصوله إلى مطار كنيدي الدولي في نيويورك. وقد عملت المكسيك عن كثب مع السلطات الأميركية للمساعدة في إجهاض مؤامرة مزعومة خُصّص لها 1,5 مليون دولار لاغتيال السفير

السعودي في واشنطن. وفي 11 تشرين الأول/أكتوبر اتهمت محكمة المقاطعة في نيويورك أربابسيار بالتآمر لقتل الدبلوماسي السعودي عادل الجبير.

22 *تشرين الأول/أكتوبر:* وفاة ولي العهد السعودي، وريث العرش، الأمير سلطان بن عبد العزيز في الولايات المتحدة، حيث كان يتلقى العلاج من سرطان القولون الذي شُخّص لديه سنة 2009.

27 *تشرين الأول/أكتوبر:* سُمّي وزير الداخلية السعودي القوي الأمير نايف بن عبد العزيز الوريث الجديد للعرش في مرسوم ملكي تُلي على التلفزيون الرسمي السعودي.

30 *تشرين الثاني/نوفمبر:* منظمة العفو الدولية تنشر تقريراً جديداً تتهم فيه السعودية بشن حملة قمع ضد المحتجّين والإصلاحيين منذ اندلاع الربيع العربي.

6 *كانون الأول/ديسمبر:* الحكم في السعودية على رجل أسترالي بخمسمئة جلدة، وبالسجن سنة، بعد أن وُجد مذنباً بالتجديف. فقد اعتُقل منصور المريبي في المدينة المنوّرة في 14 تشرين الثاني/نوفمبر، وهو يقوم بالحج، واتُهم بشتم صحابة النبي محمّد ﷺ.

10 *كانون الأول/ديسمبر:* ذكرت صحيفة عكاظ السعودية أن رجلاً أدين باغتصاب ابنته قد حُكم عليه بتلقي 2080 جلدة في سياق 13 سنة من السجن. وقد وجدت محكمة في مكّة الرجل مذنباً باغتصاب ابنته المراهقة على مدى سبعة أعوام، وهو تحت تأثير المخدّرات.

12 *كانون الأول/ديسمبر:* السلطات السعودية تنفّذ حكم الإعدام بامرأة دينت بممارسة السحر والشعوذة. وجاء في سجلات المحكمة أنها خدعت أشخاصاً ليظنوا أنها تستطيع معالجة المرض في مقابل 800 دولار لكل جلسة.

15 *كانون الأول/ديسمبر:* الشرطة تغير على تجمّع خاص للصلاة، وتعتقل 35 مسيحياً إثيوبياً، 22 منهم من النساء. وقد واجهوا الترحيل لاحقاً بتهمة «الاختلاط غير المشروع».

أُعدم 76 سجيناً من المحكومين بالموت سنة 2011 في السعودية.

حُكم على الخادمة الإندونيسية ساتينه بنتي جماد أحمد بالموت على قتلها زوجة رب عملها سنة 2007 وسرقة المال. ووافقت الحكومة الإندونيسية سنة 2014 على دفع 1,8 مليون دولار لتحريرها.

2012 2 *كانون الثاني/يناير:* أعلنت الحكومة السعودية أنها ستشرع

في 5 كانون الأول/ديسمبر في تطبيق القانون الذي يجيز للإناث العمل في متاجر الألبسة والملابس الداخلية النسائية فقط.

12 شباط/فبراير: السلطات الماليزية ترحّل حمزة كاشغري، الصحافي السعودي الشاب المطلوب في وطنه بسبب نشره تغريدة عن النبي محمّد ﷺ، ضاربة عرض الحائط مناشدات جماعات حقوق الإنسان التي تقول إنه يواجه عقوبة الإعدام. وجاء في تغريدته: «سأقول إنني أحببت أشياء فيك، وكرهت أشياء.. ولم أفهم الكثير من الأشياء الأخرى!».

شباط/فبراير: صدور قرار ملكي ينصّ على عدم مقاضاة المحاكم للنسوة اللواتي يقدن سيارة.

22 آذار/مارس: ذكرت وسائل الإعلام السعودية أن الشبان العازبين بات في وسعهم زيارة مراكز التسوّق في ساعات الذروة، بعد تخفيف القيود التي فُرضت عليهم بهدف وقف مضايقة النساء.

4 نيسان/إبريل: كرّر مسؤول سعودي القول إن بلاده لن تُشرك إلا الرياضيين الذكور في الألعاب الأولمبية في لندن. إلا أن الأمير نوّاف بن فيصل أعلن أن للنساء السعوديات اللواتي يشاركن من تلقاء أنفسهن الحرّية في ذلك، لكن اللجنة الأولمبية في المملكة «لن تساعد إلا في ضمان ألا تنتهك مشاركتهن الشريعة الإسلامية».

قُطع رأس رجل وُجد مذنباً بإطلاق النار على زميل له سعودي وقتله. وبإعدامه في الرياض وصل عدد عمليات قطع الرأس سنة 2012 إلى 17.

23 أيار/مايو: تحدّت امرأة سعودية صريحة وشجاعة أوامر الشرطة الدينية السيئة الشهرة بمغادرة مركز تجاري، لأنها تضع طلاء للأظفار، وصوّرت السجال بكاميرتها. ولاقى الفيديو الذي صوّرته انتشاراً واسعاً، واجتذب في خمسة أيام أكثر من مليون مشاهد.

16 حزيران/يونيو: وفاة ولي العهد الأمير نايف بن عبد العزيز والأخ غير الشقيق للملك عبد الله. ونايف هو ولي العهد الثاني الذي يتوفّى في عهد الملك عبد الله.

18 حزيران/يونيو: تعيين ولي عهد جديد للسعودية هو وزير الدفاع الأمير سلمان بن عبد العزيز الأخ غير الشقيق للملك.

24 حزيران/يونيو: وفاة رجل في السعودية بسبب التهاب رئوي حاد زاد القصور الكلوي من تعقيداته. وقد وصل إلى مستشفى الجهاد في جدّة قبل ذلك بأحد عشر يوماً، ولديه عوارض شبيهة بحالة حادة من الأنفلونزا، أو «السارس». وقال اختصاصي مصري

بالفيروسات إن السبب يعود إلى نوع جديد من فيروس كورونا. وأطلق بعد أشهر على المرض اسم «ميرس» (متلازمة الشرق الأوسط التنفسية).

حزيران/يونيو: سجن صاحب المدونة الإلكترونية رائف بدوي بتهمة إهانة شخصيات دينية إسلامية.

20 حزيران/يونيو: السلطات السعودية تحذّر المهاجرين غير المسلمين من تناول الطعام أو السوائل أو التدخين في العلن خلال رمضان، وإلا فسيواجهون الطرد.

30 تموز/يوليو: السعودية تطبّق حظراً على التدخين في المكاتب الحكومية ومعظم الأماكن العامة، بما في ذلك المطاعم والمقاهي والسوبر ماركت ومراكز التسوق.

2013 9 كانون الثاني/يناير: السلطات السعودية تقطع رأس خادمة سريلانكية قتلت طفلاً سعودياً في عهدتها. وكانت ريزانا نفيق في السابعة عشرة فقط عند وفاة الطفل، وأعلنت براءتها نافية خنق الطفل ابن الأربعة أشهر. وتوسّلت وكالات وأفراد كثيرون في مختلف أنحاء العالم عائلة الصبي والحكومة السعودية العفو عن الفتاة.

11 كانون الثاني/يناير: أصدر الملك عبد الله أمرين ملكيين يمنح بموجبهما النساء 30 مقعداً في مجلس الشورى المؤلف من 150 عضواً. ويراجع المجلس القوانين ويسائل الوزراء إلا أنه لا يمتلك سلطات تشريعية.

15 كانون الثاني/يناير: احتجّ عشرات رجال الدين المحافظين لدى البلاط الملكي ودانوا التعيين الأخير لثلاثين امرأة في مجلس الشورى المؤلف من 150 عضواً.

1 نيسان/إبريل: ذكرت صحيفة سعودية أن الشرطة الدينية في المملكة أخذت تسمح للنساء بركوب الدراجات النارية والهوائية، ولكن فقط في مناطق ترفيهية محدّدة؛ شرط أن يرافقهن قريب ذكر وأن يرتدين العباءة الإسلامية الكاملة.

16 أيار/مايو: أحرق بائع الخُضَر السعودي محمّد الحريصي نفسه بعد أن صادرت الشرطة بضاعته لوقوفه في منطقة محظورة. وتوفي في اليوم التالي.

29 تموز/يوليو: حُكم على رائف بدوي، ناشر موقع «الليبراليون السعوديون»، بالسجن سبع سنوات وبسبعمئة جلدة لتأسيسه منتدى على الإنترنت ينتهك القيم الإسلامية وينشر الأفكار

الليبرالية. ولا يزال بدوي معتقلاً منذ حزيران/يونيو 2012 لاتهامه بارتكاب جريمة على الإنترنت وعصيان والده.

20 أيلول/سبتمبر: المدعون العامّون الأميركيون يسقطون التهم عن مشاعل العيبان، الأميرة السعودية المتهمة باستعباد امرأة كينية كخادمة منزل، وإجبارها على العمل في ظروف مسيئة، وحجز جواز سفرها. واتهم محامو الأميرة السعودية الكينية ابنة الثلاثين عاماً، التي لم يُذكر اسمها، بالكذب في محاولة للحصول على تأشيرة إقامة في الولايات المتحدة.

8 تشرين الأول/أكتوبر: حكمت محكمة سعودية على رجل دين معروف أدين بتعذيب ابنته ذات الخمسة أعوام حتى الموت، بالسجن ثماني سنوات وبثمانمئة جلدة. كذلك أمرت المحكمة رجل الدين بأن يدفع لزوجته السابقة، والدة الفتاة، ديّة بقيمة مليون ريال (270 ألف دولار). وحكم على زوجته الثانية، المتهمة بالمشاركة في الجريمة، بالسجن عشرة أشهر وبمئة وخمسين جلدة.

18 تشرين الأول/أكتوبر: أعلنت السعودية أنها لن تحتل مقعدها في مجلس الأمن بعد أن أغضبها إخفاق المجتمع الدولي في إنهاء الحرب في سورية، وفي التصرّف في مسائل شرق أوسطية أخرى.

22 تشرين الأول/أكتوبر: نقل مصدر عن رئيس الاستخبارات السعودية كشفه عن أن المملكة في صدد «تحوّل رئيسي» في علاقاتها مع الولايات المتحدة، احتجاجاً على ما تعتبره عدم الفاعلية في ما يتعلّق بسورية وعلى انفتاحها على إيران.

24 تشرين الأول/أكتوبر: حذّرت الحكومة السعودية النساء بأنها ستتخذ إجراءات في حق الناشطات اللواتي سيمضين في الحملة المخطط لها في نهاية الأسبوع لتحدّي الحظر على قيادة النساء السيارات في المملكة المسلمة المحافظة.

26 تشرين الأول/أكتوبر: قالت ناشطات سعوديات إن أكثر من ستين امرأة ادّعين أنهن استجبن لدعوتهن الجلوس وراء المقود في عرض نادر لتحدي الحظر على قيادة النساء. ونال ما لا يقل عن 16 امرأة سعودية محاضر ضبط لتحدّيهن الحظر.

27 تشرين الأول/أكتوبر: احتجزت الشرطة السعودية طارق المبارك، كاتب الافتتاحية الذي أيّد رفع الحظر السعودي على قيادة النساء السيارة.

3 تشرين الثاني/نوفمبر: ذكرت صحيفة كويتية أن امرأة كويتية اعتُقلت في السعودية، بسبب محاولة قيادة السيارة بوالدها إلى المستشفى.

12 كانون الأول/ديسمبر: دان مفتي الديار السعودية، وهو أعلى سلطة دينية في منشأ الإسلام، التفجيرات الانتحارية بوصفها جرائم خطيرة، معيداً التذكير، بلغة قوية على غير العادة، بموقفه في حديث مع صحيفة الحياة التي يملكها سعوديون.

20 كانون الأول/ديسمبر: السعودية تقطع رأس تاجر مخدرات. وبحسب إحصاء لوكالة الصحافة الفرنسية (أ. ف. ب) فقد بلغ عدد الأشخاص الذين أعدموا حتى هذا التاريخ من العام 2013، سبعة وسبعين.

22 كانون الأول/ديسمبر: ذكرت وكالة الأخبار السعودية الرسمية أن الملك عبد اللّه عيّن ابنه، الأمير مشعل، حاكماً جديداً على مكّة.

2014 *20 شباط/فبراير:* انتقدت مجموعات حقوق الإنسان الاتفاق بين إندونيسيا والسعودية الهادف إلى توفير المزيد من الحماية للخادمات الإندونيسيات في المملكة، وقالت إحداها إن «العدالة لا تزال بعيدة المنال».

16 آذار/مارس: ذكرت صحيفة عكاظ المحلّية أن منظمي المعرض الدولي للكتاب في الرياض صادروا «أكثر من ألف نسخة من 420 كتاباً» خلال المعرض الذي بدأ في الرابع من آذار/مارس. وسبق للمنظمين أن أعلنوا قبل الحدث عن مصادرة أي كتاب يُعدّ «مناهضاً للإسلام»، أو «مقوّضاً للأمن» في المملكة.

8 نيسان/إبريل: أوصى مجلس الشورى في السعودية بالإنهاء التام للحظر الطويل الأمد على الرياضة في المدارس الرسمية للبنات، والذي سبق أن جرى التخفيف منه في المدارس الخاصة.

كل شيء عن جين ساسون

جين ساسون قارئة نهمة. فمنذ أن كادت تتمكن من الألفباء حتى شرعت في قراءة كلّ ما أمكنها قراءته. كان ذهنها، حتى خلال وجبات الطعام العائلية، ينهمك في كتاب.

ترعرعت جين في بلدة صغيرة بألاباما. وكانت، مع بدء سنوات مراهقتها، قد طالعت كل الكتب المتوافرة في مكتبة المدرسة. وشرعت، وهي في الرابعة عشرة، في تكوين مجموعة كتبها، عندما اشترت كتابها الأول: صعود الرايخ الثالث وسقوطه The Rise and Fall of the Third Rich لوليام شيرر. وهذا خيار غير معهود لشابة من عمق الجنوب. أرادت مادة جيّدة للقراءة، وأرادت الحصول على ما هو قيّم في مقابل ما تصرفه من نقود، ففتشت في المكتبة، واشترت الكتاب الذي يحتوي على العدد الأكبر من الصفحات.

في المدرسة، سرعان ما لاحظت السيدة سام جاكسون، أستاذتها المحبوبة في مادة الأدب، اهتمامها، وأخذت على عاتقها القيام برحلات أسبوعية إلى مكتبة أحد المعاهد القريبة لتبادل مجموعة من الكتب، إرضاء لحاجات جين في المطالعة.

واليوم؟ عندما لا تكون منهمكة في الكتابة، أو في الأمور التي يتطلبها منها كونها مؤلفة مشهورة، فإنها تقرأ وتقرأ، ربمّا كتاباً في اليوم، إذ مكّنها نجاحها الأدبي من شراء الكثير من الكتب، التي لم تعد تختارها وفقاً لعدد صفحاتها.

ذوقها الأدبي كثير التنوّع، ولديها لائحة طويلة من المؤلفين المفضّلين، على رأسهم السير ونستون تشرشل، الكاتب الغزير الإنتاج وزعيم بريطانيا في السنوات الحالكة للحرب العالمية الثانية. وتلبّي شخصيات تاريخية أخرى، أمثال نابليون بونابرت وتي. إي. لورنس («لورنس العرب»)، حبّها للنوعين الأدبيين: التاريخ والأسفار.

فتحت مؤلفات جيرترود بل وفُريا ستارك والسير ريتشارد بورتن بصيرتها على سحر الشرق وألغازه ... وأدّت هذه التأمّلات الأولى إلى نجاحها في الكتابة.

لكنها لم تعد تكتفي بالقراءة عن ذلك الجزء السحري من العالم، فقد سعت، متسلحة بمهارتها في إدارة المستشفيات إضافة إلى عطشها الأدبي، إلى أن حظيت بالفرصة المثالية لكسب المعرفة من المصدر، معرفة تلك الأرض المغلقة والغامضة التي هي المملكة العربية السعودية.

اختيرت عام 1978 للعمل في المستشفى الملكي الأعرق في

الشرق الأوسط، مستشفى الملك فيصل التخصُّصي ومركز البحوث في العاصمة السعودية، الرياض. وهناك تفتّحت مواهبها. صارت المنسّقة الإدارية للشؤون الطبية، والمساعدة الشخصية للمدير الطبي والإداري للمستشفى، الدكتور نزار فتيح. وتعرّفت عبره إلى مختلف أفراد العائلة المالكة، بمن فيهم الملك خالد وولي عهده فهد الذي خلفه إثر وفاته عام 1982. وفي العام 1983، نمت صداقة عميقة بين جين، وشخصية أخرى من العائلة المالكة، هي الأميرة سلطانة. وبعد سنوات، أمكن جين، بالاستناد إلى تلك الصداقة، أن تكتب ثلاثية الأميرة التي لاقت ترحيباً واسعاً.

عملت جين على مدى أربعة أعوام في مستشفى الملك فيصل، والتقت في ذلك الوقت الرجل الذي ستتزوجه، بيتر ساسون، وهو رجل دولي يأتي من خلفية غير معهودة. بيتر ساسون مواطن إنكليزي وُلد في مصر من أب بريطاني/إيطالي وأم يوغوسلافية. وبالرغم من أن الزوجين تطلّقا لاحقاً، فقد بقيا صديقين مخلصين حتى وفاة بيتر عام 2014.

أقامت جين في السعودية على مدى اثني عشر عاماً. وكرّست نفسها في تلك السنوات لنشاطات ستشكّل قاعدة مهنتها ككاتبة، لدى عودتها إلى الولايات المتحدة. وكانت، قبل مغادرتها الرياض عام 1992، قد التقت نساء عربيات من الشرق الأوسط ارتبطت معهن بعلاقات صداقة.

عملت ككاتبة مستقلّة قبل حرب الخليج الأولى وبعدها. وشعرت، بعد إقامتها وسفرها على مدى سنين كثيرة في الشرق الأوسط، بمودّة خاصة حيال شعب المنطقة. وبعد قيام جيش صدّام حسين بغزو دولة الكويت، شعرت جين بالقلق على مصير الكويتيين الأبرياء الذي كانوا ضحية الغزاة. ودفعها قلقها إلى الاتصال بالسفير الكويتي في الولايات المتحدة، الشيخ سعود ناصر الصباح، طالبة منه النصح في شأن السفر إلى المناطق التي تؤوي لاجئين كويتيين.

عادت جين إلى الرياض، في السعودية، متسلّحة برسالة تعريف من السفير الكويتي، وأجرت مقابلات مع كويتيين. وفيما هي في الرياض، دعاها وزير الإعلام الكويتي للطيران إلى الطائف، حيث كان أفراد العائلة المالكة الكويتية، قد أقاموا حكومة في المنفى، في تلك القرية الجبلية السعودية. وأجرت هناك مقابلة مع أمير الكويت وولي عهدها، من بين مسؤولين كويتيين كبار.

سافرت جين، بعد مغادرتها الرياض، إلى القاهرة بمصر، ثم إلى لندن، لتجتمع بعشرات المواطنين الكويتيين الذين يعيشون في المنفى. واستخدمت جين ما جمعته من مادة لا تقدّر بثمن عن الكويتيين يوم الغزو العراقي، لتضع كتابها الأكثر مبيعاً: اغتصاب

الكويت The Rape of Kuwait.

باع الكتاب أكثر من مليون نسخة في شهر، مثبتة للعالم أن الأشخاص العاديين يهتمّون فعلاً بالدولة الصغيرة وبشعبها. وكانت جين ساسون، في الواقع، المؤلفة الأولى والوحيدة التي تكتب عن الكويتيين الأبرياء الذين علقوا في القبضة الوحشية للغزو العراقي.

أكسبها تكريس نفسها لقضية الكويت دعوة للعودة إلى الكويت على متن «رحلة الحرية» التي رعتها الحكومة الكويتية. مكثت في الدولة المنكوبة شهراً انضمت خلاله إلى الكويتيين السعداء المحتفلين بحرّيتهم التي اكتسبوها بشق النفس، وحزنت مع الكويتيين الذي كانوا قد فقدوا أحباءهم. ولم تنس قط ما قد شاهدته. وواصلت على مر السنين كتاباتها وقلقها في شأن المفقودين الكويتيين في منظومة السجون العراقية، بالرغم من الجهود الكثيرة التي بذلها أفراد العائلة المالكة الكويتية، إضافة إلى المواطنين الكويتيين العاديين، لتحريرهم.

استمر تعاطفها مع شعب الشرق الأوسط. وهو ما أوصلها إلى موضوعات غير مألوفة غابت عن المؤلفين والصحافيين الآخرين. وطلبت عام 1998 دعوة من صدام حسين لزيارة العراق. وحصلت على دعوة شخصية من الديكتاتور العراقي، بالرغم من أنها مؤلفة الكتاب الذي أثار الكثير من استياء صدام (اغتصاب الكويت). وسافرت بمفردها إلى العراق ومن دون حماية، لتشاهد بنفسها الحرمان الذي يعاني منه الأكثر ضعفاً، أي النساء والأولاد، الحرمان على يد صدام حسين. وكان كتابها، ميادة، ابنة العراق Mayada, Daughter of Iraq، الذي دخل قائمة الأكثر مبيعاً، نتاج تلك الرحلة.

بعد انطلاق مسيرتها الكتابية، تابعت جين مرّة أخرى بحماستها المعهودة. وأقفلت على نفسها باب منزلها بأتلانتا، في جورجيا، وليس معها سوى ملاحظاتها وحاسوبها وذكرياتها، ووضعت الكتاب تلو الآخر. وكانت ثلاثية الأميرة من الكتب الأكثر نجاحاً، وهي سلسلة من الكتب تناولت صديقتها، الأميرة سلطانة آل سعود. وقد اعتُبرت من الكتب الأكثر أهمية التي تؤلفها امرأة في السنوات الثماني الماضية.

عادت جين إلى موضوع غزو العراق واحتلاله الكويت في كتابها الأحدث: خيار ياسمينا: قصة حقيقية عن الحرب والاغتصاب والشجاعة والصراع من أجل البقاء، Yasmeena's Choice: A True Story of war, rape, courage and survival وهو يروي القصة المؤلمة لزائرة لبنانية إلى الكويت علقت في البلاد بعد الغزو. اختُطفت المرأة وأُمسك بها في سجن يؤوي نساء بريئات يجري اغتصابهن بوحشية.

غدت جين ساسون خبيرة في الشرق الأوسط بفضل خلفيتها القوية، وتجربتها المباشرة، وسنوات السفر والبحث والكتابة. ظهرت مرّات كثيرة في برامج التلفزة الوطنية والدولية، كما نُشرت مقالاتها في كثير من الصحف والمجلات الدولية. ولديها أعداد ضخمة من القراء الذي يتسقّطون أخبارها في بلدان من شتى أنحاء العالم. وهذا أمر يؤكّده عدد قرائها والعدد الضخم من الذين يتبعونها على وسائل التواصل الاجتماعي على الإنترنت.

وها هو عالم من القرّاء يتطلّع بشغف إلى آخر كتب جين عن الأميرة سلطانة. سمو الأميرة: حفنة أخرى من الدموع، هو الكتاب الأخير في سلسلة الكتب عن عالم الأميرة التي تحظى بالقدر الأكبر من المودّة في العالم، الأميرة سلطانة.

وتنصرف جين أيضاً إلى العمل على مشروعات أخرى مهمّة، بما فيها كتب أخرى تُضاف إلى سلسلة الأميرة سلطانة. وشرعت جين أخيراً في كتابة مذكّراتها التي طال انتظارها، والتي تكشف فيها الكثير من المغامرات الشخصية والفاتنة في السعودية ولبنان والكويت والعراق.

Notes

(1) سبق أن أشرنا، إلى أن هذا الكتاب وُضع قبل وفاة الملك عبد الله وتولّي الملك سلمان العرش، فاقتضى التنويه - المترجم.

(2) ادر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 2010.